

جامعة الجزائر - 02 - أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية / بوزريعة

قسم التاريخ

موقف القوى السياسية الإسلامية من الاحتلال البرتغالي
للمغرب الأقصى والخليج العربي في القرن 16م

الدولة العثمانية والدولة السعدية نموذجا.

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث

أعضاء لجنة المناقشة :

الأستاذ الدكتور مختار حساني رئيساً

الأستاذ الدكتور إبراهيم سعيود مشرفاً ومقرراً

الدكتور رقية شارف عضواً مناقشاً

الدكتور هيبه قطوش عضواً مناقشاً

- الأستاذ المشرف :

أ.د. إبراهيم سعيود

- للطلاب :

عبد الكريم سكال

(2018 - 2019)

جامعة الجزائر - 02- أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية / بوزريعة

قسم التاريخ

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث

- الموضوع /

موقف القوى السياسية الإسلامية من الاحتلال البرتغالي
للمغرب الأقصى والخليج العربي في القرن 16م
الدولة العثمانية والدولة السعدية نموذجا.

- الأستاذ المشرف :

أ.د. إبراهيم سعيود

- للطالب :

عبد الكريم سكال

(2018 - 2019)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ }

سورة الحج، الآية 78

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً }

سورة التوبة، الآية 123

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرُصُوصٌ }

سورة الصف، الآية 4

{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

سورة آل عمران، الآية 103

الهداء

- إلى الوالدين الكريمين والإخوة الأعزّاء.

- إلى ذكرى المؤرّخين الرّاحلين الكبار وأساتذتي الملهمين يرحمهم الله :

- الدّكتورة عائشة غطّاس (2011/1955)

- الدّكتور أبو القاسم سعد الله (2014/1930)

- الدكتورة زكية زهرة (...../.....)

آسف

وشكرا.

- إلى أساتذتي في قسم التاريخ بجامعة الجزائر من أيام الإجازة للأستاذية.

- إلى زملائي في زمن الإجازة (خاصة الفوج 25 / 2008 - 2012) .

- إلى إخواننا في فلسطين المحتلة : منصورين بإذن الله ولو بعد حين.

- إلى كل الأحرار الذين يؤمنون بوحدة الأمة : أقدم لهم جميعا هذا الجهد

عربون محبة ووفاء .

الطّالب / عبد الكريم سكال

شكر

- للأستاذ المؤطر الدكتور إبراهيم سعيود على قبوله الإشراف علي ، وعلى صبره معي وتوجيهاته المعرفية والمنهجية لي.

الطالب / عبد الكريم سكال

قائمة المختصرات

الرمز	الدلالة	الرمز	الدلالة
ص	صفحة	د م ن	دون مكان نشر
ص ص	صفحات	د ت	دون تاريخ نشر
ج	جزء	- -	جملة اعتراضية
مج	مجلد	" "	الاقتباس الحرفي
تر	ترجمة	ع	عدد
تح	تحقيق	P	page
تق	تقديم	T	Tome
الخ	الى آخره	V	Volume
هـ	هجري	Op. cit	Opéro-citat (مصدر أو مرجع سابق)
م	ميلادي	Ibid	مصدر أو مرجع نفسه
ط	طبعة	s.d.t	بدون تاريخ
د د ن	دون دار نشر		

بارزين خليج ومحيط، ومحاولة الإجهاز على المقومات الروحية الإسلامية قبل أن تجذبهم البهارات التي كانت بمثابة البترول في يومنا هذا، ودليلنا على ذلك أن تلك الاستكشافات كانت في غمرة الحروب مع مسلمي الأندلس، وقد استطاع البرتغاليون المكوث بالمنطقة ردحا من الزمن يستنزفون خيراتها ويسنون القوانين فيها.

ليكون القرن السادس عشر متميزا بالنسبة لتاريخ العالم الإسلامي فهو ذروة القوة السياسية الإسلامية، كونه شهد ميلاد الإمبراطوريات الثلاث الصفوية في بلاد فارس والمغولية في الهند والعثمانية في الأناضول والبلقان، علاوة على الأوزبك في حوض أموداريا جيحون ودولة المماليك بمصر و بلاد الشام والدولة الشريفة السعدية في المغرب الأقصى.

وهكذا كان سير الإمبراطورية البرتغالية في تحقيقها لأهدافها الاستعمارية متزامنا مع ظهور القوى الإسلامية السالفة الذكر، مما فتح صفحة من صفحات الجهاد الإسلامي لنصارى أوربا في المشرق والمغرب العربيين، فألقت أعظم المسؤوليات على عاتق تلك الكيانات الإسلامية، وكان المماليك أول من حاول التصدي للخطر البرتغالي إلا أنه سرعان ما بدا جليا ضعفهم وعدم قدرتهم على تجهيز الجيوش وتحقيق الانتصارات، ليأتي الدور على الدولة العثمانية هذه الأخيرة التي عدلت عن سياسة التوسع أوروبيا وقررت التوجه نحو الشرق الإسلامي لترعّمه، ثم التوجه لحماية المصالح الإسلامية من الخطر البرتغالي خاصة بعد أن وقفت الدولة الصفوية موقفا سلبيا من تلك المتغيرات الخطيرة .

أما مغربا فقد شهد ميلاد الدولة السعدية التي استطاعت بواسطة نسبها الشريف وأسلوبها الجهادي الصريح خاصة ضد البرتغاليين في الجنوب المغرب أن تفرض نفسها قوة لها ثقلها السياسي، وتتجح في إزاحة الدولة الوطاسية التي لم تكن بأحسن حال من دولة المماليك في مصر .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه سوف يتركز الحديث هنا على دور العثمانيين والسعديين في ذلك الجهاد كونهما أكثر من جابه البرتغال من جهة ولتجاورهما من جهة ثانية. مع الإشارة إلى دور المماليك والدولة الصفوية و حتى المغولية بالشرق و الدولة الوطاسية بالمغرب و ذلك بما يتناسب مع عنوان الموضوع.

- أهمية الموضوع: تظهر أهمية الموضوع أكثر في نظري عبر عديد التطورات الحالية والتي لها بشكل أو بآخر صلة بالماضي، وذلك من خلال القضايا التالية:

هناك في المشرق مدن مسقط وصحار وجلفار وصور وقریات تحت الاحتلال البرتغالي، وقعت هنا بالمغرب مدينة سبته والقصر الصغير وأصيلة وطنجة .

02- المبررات الموضوعية:

سكوت المصادر العربية عن المراحل الأولى للغزو البرتغالي، خاصة بمنطقة الخليج العربي، واتجهت بشكل خاص إلى التطرق فقط لبعض المسائل، في حين اهتمت بالمراحل الأخيرة للمقاومة خاصة دولة اليعاربة وانتصاراتهم، وقد يعزو ذلك كونه هروب من واقع مر يشكل خدجا في كرامة المسلمين على غرار ما كان في الكتابات الأخيرة لسقوط الأندلس.

إثراء المكتبة الجزائرية عن طريق كتابة موضوع يميظ اللثام عن الكثير من الجوانب الغامضة في إقليمي الخليج العربي والمغرب الأقصى في الفترة موضوع البحث. ومحاولة تسليط الضوء على جزء من جهاد القوتين السعدية والعثمانية ضد الاحتلال البرتغالي في الخليج والمغرب.

محاولة البحث في جانب من جوانب العلاقات المغربية مع حكام الجزائر العثمانيين وتأثيرها على الصراع السعدي البرتغالي في الفترة موضوع البحث.

كما كان اهتمامنا بهذا البحث بناء على ما ذكرناه وكذلك نزولا عند رغبة أساتذة تخصص "التاريخ الحديث"، الذين طالبونا بضرورة الخروج من دائرة البحث في تاريخ الجزائر إلى ما هو أوسع، حتى يتناسب البحث مع ما هو مقترح ومبرمج في التخصص السالف الذكر.

-الإشكالية:

باشر البرتغال بعد استكمال وحدته عملية فتوحات بحرية واسعة النطاق متخذين من أراضي المغرب الأقصى منطلقا لحملاتهم البحرية، وبعد تطويقهم للقارة الإفريقية واكتشاف رأس الرجاء الصالح لم يعد هناك عائق في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود ممثلا في تطويق المنطقة العربية الإسلامية التي شهدت بدورها ظهور قوى سياسية كبرى كدولة السعديين بالمغرب الأقصى ودولة الأتراك العثمانيين الممتدة على قارات ثلاث.

فإذا علمنا سلفا أن الدولة السعدية والعثمانية كانتا أكثر من جابه القوة البرتغالية في هذه الفترة وإذا علمنا أن دولة الأشراف جاورت الدولة العثمانية وجمعتها بها علاقات من خلال الحكام العثمانيين بالجزائر

المنضوية تحت الحكم العثماني في العقد الثاني من القرن السادس عشر، إضافة إلى ما سبق ذكره يمكن طرح الإشكال التالي:

إلى أي مدى تمكنت دولة البرتغال من تطويق المنطقة العربية في ظل وجود قوى سياسية كبرى شهد الغرب بقوتها وعنقوانها كالدولة العثمانية بالشرق والدولة السعدية بالمغرب الأقصى؟.

تندرج تحت هذا الإشكالية مجموعة من التساؤلات التي راودتنا نجملها فيما يلي:

- كيف أمكن لدولة بمساحة البرتغال أن تقدم على مشروع تطويق المسلمين من الخليج العربي والمحيط الاطلسي ؟

- ثم ما هي أسباب ودوافع الهجمة البرتغالية على المنطقة العربية في القرن السادس عشر؟

- كيف كانت مجابهة الدولة السعدية للاحتلال البرتغالي لبعض ثغور المغرب الأقصى، وهل نجحت في استئصاله؟

- كيف كان موقف الدولة العثمانية من التحرشات البرتغالية في منطقة الخليج العربي؟

- ما طبيعة الأنشطة البحرية العسكرية العثمانية في منطقة الخليج العربي ؟

- هل نجحت الدولة العثمانية في احتواء البرتغال في مياه الخليج العربي على غرار ما فعلت بالبحر الأحمر الذي اعتبر بحيرة إسلامية في العهد المملوكي فالعثماني ؟

- ما مدى تأثير العلاقات السعدية بالعثمانية (حكام الجزائر العثمانيين) في سبيل التصدي لعدو مشترك ممثلا في البرتغال ؟ أو بمعنى آخر هل ارتقت العلاقات العثمانية السعدية إلى مستوى التعاون الذي من شأنه ضرب البرتغال شرقا و غربا ؟

لكل مناطقها. وقد استعنت به في شرح بعض المفاهيم والمصطلحات والأماكن التي لها علاقة بالدراسة ناهيك عن الوقائع التي عاشها الكاتب أو تزامن معها هذا الرحالة فكان بحق احد ابرز المصادر المعتمدة.

- **كتاب البحرية** لبيري رئيس: حيث يعتبر الكتاب بحق موسوعة جغرافية بحرية فريدة، وبالرغم من أن مؤلفه من الشخصيات الفاعلة في موضوع البحث باعتباره من الربانة الذي قادوا الحملات العثمانية على البرتغاليين في منطقة الخليج العربي، إلا أن استفادتنا منه اقتصرت على التعريف ببعض الأماكن وأهميتها والحديث عن الكشوفات الجغرافية وأسبابها والتي تطرق إليها المؤلف بشكل مقتضب، ويعزى ذلك (قلة استفادتنا من هذا المصدر) إلى كون مؤلفه كان قد ألف كتابه قبل توليه منصب القيادة البحرية العثمانية والتي انتهت بإعدامه، وهو ما فوت علينا سماع ما حدث من معارك و صراعات بينه وبين البرتغاليين في الخليج العربي.

-المراجع العربية والمعرية:

- **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلوي الناصري** : يعتبر الكتاب احد ابرز المصادر المعتمدة في دراسة تاريخ المغرب الأقصى على العموم والعهد السعدي على الخصوص حيث خص الكاتب الحقبة السعدية بالمغرب الأقصى بجزء تطرق فيه لتاريخ الدولة السعدية ما بين منتصف القرن الرابع عشر حتى منتصف القرن السابع عشر ميلادي وقد استفدت من المصدر في سرد العديد من الوقائع والأحداث.

- **كتاب إفريقيا**: "لمارمول كرخال"،الذي طاف بشمال إفريقيا هو الآخر على غرار ما فعل الوزان، وإضافة إلى الوصف الجغرافي تطرق صاحب المؤلف إلى ابرز الأحداث السياسية التي وقعت في عهده، وبالرغم من أن صاحبه اقتبس الكثير من المعلومات عن الحسن الوزان، إلا أنه يعد من المصادر المهمة للقرن السادس عشر.

- **دليل الخليج بشقيه التاريخي و الجغرافي ل قوردون لوريمر**: كان لزاما علي الاعتماد على هذا المرجع المهم في هذا البحث خاصة في شق الخليج العربي من سرد لأحداث ووقائع أو تعريف ببعض المناطق الجغرافية التي تغير اسمها في وقتنا الحالي، هذا وينفرد الكتابان بصدارة قائمة مصادر التاريخ الخليجي المعنية بفترة امتداد النفوذ الأوربي إلى منطقة الهند وحوض الخليج العربي.

- **العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب الأقصى في القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي** للدكتور **عمار بن خروف** : لقد كان الكتاب بحق احد أكثر الكتب التي اعتمدنا عليها في بحثنا هذا لاعتبارات عدة، أولها أن أستاذنا عمار بن خروف لم يكتف فقط بسرد وتحليل العلاقات السياسية بين البلدين بل تجاوزها

إلى أبعد من ذلك من خلال التطرق إلى الأوضاع العامة في القطرين والتي كان لها تأثير على تلك العلاقات بل وإعطائنا جملة من المصادر و المراجع المهمة للمهتم والدارس لتلك الحقبة.

- بالإضافة إلى جملة من المراجع نذكر منها:

- محمد عدنان مراد: صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي جذوره التاريخية وأبعاده، ، دار دمشق، بيروت، 1984.

- مجموعة باحثين : العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي ج11، العصر العثماني من بداية القوة والهيمنة إلى المسألة الشرقية، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1 ، 1996م.

- مصطفى عقيل الخطيب: الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية والتطور السياسي، ط1، وزارة الثقافة و الفنون والتراث قطر، الدوحة، 2013.

- محمد محمود خليل: وثائق عثمانية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين (الخليج العربي الجزيرة العربية ولاية الحبشة المحيط الهندي المغرب العربي).

- محمد حسن العيدروس: دراسات في الخليج والجزيرة العربية ، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2009.

- التاريخ العسكري العثماني الثاني من 1512م إلى 1789 ، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2016.

- زكريا سليمان بيومي: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين التحالف الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي، ط1، دار عالم المعرفة، جدة.

- عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، مكتبة الانجلو مصرية القاهرة ، 2013.

- سرهنك اسماعيل : تاريخ الدولة العثمانية، تق حسن الزين، ط1، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988.

- ## مقدمة

- عبد الكريم كريم: تاريخ المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006.

- شوقي عطالله الجمل: المغرب العربي الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر ليبيا تونس الجزائر
المغرب الأقصى (مراكش)، ط1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 2009.

المراجع الأجنبية:

اعتمدنا كثيرا في بحثنا هذا على أطروحة الدكتوراه للطالب محمد حميد السلطان من جامعة هال البريطانية، والتي تطرق فيها بشكل مفصل عن النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وما صحبه من ردود فعل، وقد كانت الأطروحة تحت عنوان :

- Mohamed Hameed Salman, **aspect of portugûês rule in the arabien gulf (1521–1622)**, being a thesis submitted for degree of phylosophy in the université of hull, december 2004.

- صعوبات البحث:

لا يخلو بحث من البحوث الأكاديمية من الصعوبات والعراقيل التي تعيق تقدمه وإنجازه وعليه لم يكن بحثنا هذا في مأمّن منها هو الآخر، وقد تعددت بين ما هو عائلي شخصي وبين ما هو متعلق بالبحث، إذا حاولنا أن نعدد بعضا منها فإننا نذكرها كما يلي :

- نقص المادة الأرشيفية وإن وجدت فهي لا تعدو أن تكون مجرد عناوين لمصادر مفقودة في بلادنا، أو كتب لمصادر غربية بلغات أجنبية على الأكثر الإسبانية والبرتغالية والفرنسية، ومن ثم صعوبة ترجمتها، مما دفعنا للاستغناء عن بعضها، كما كان عنصر الوقت عاملاً مهماً في إتمام هذا العمل ودفعنا لتقليص حجم البحث من خمسة فصول إلى أربعة، والفصل الخامس صار عنواناً.

- صعوبة هيكل موضوع البحث وضبط أحداثه بتسلسل كرونولوجي، فاضطرت للتركيز على فترة الدراسة الممتدة على مدار القرن السادس عشر، وكان بودي إضافة مباحث وفصول أخرى كالظروف العامة للمنطقة العربي قبيل الهجمة الاستعمارية البرتغالية، إلا أنني ارتأيت توزيعها في سردى لأحداث الاحتلال البرتغالي.

-كانت رغبتنا لإنجاز هذا البحث، الوصول إلى مصادره الأصلية في المغرب وللأسف لم نوفق إلى ذلك، إذ لم يكن بوسعها فعل شيء أمام ظاهرة البيروقراطية.

- إضافة إلى كل ذلك واجهتني صعوبة التنقل المستمر والدائم من الجنوب الجزائري إلى الجزائر العاصمة سعياً وراء الحصول على المادة التاريخية لموضوعي، مع ما في ذلك من مشقة البعد عن أهلي وشغلي.

- طول البحث على طول فترته فقد كان من الصعوبة بمكان التنقل مشرقا ومغربا من سرد للأحداث ومحاولة التنسيق بينها، والحقيقة أن لكل مبحث من مباحث هذه أن يكون موضوعا للدراسة، فكان من اثر ذلك أن كان موضوعنا سياسيا عسكريا بامتياز دون التطرق إلى الجانب الاقتصادي الذي يوازي الجانب السياسي في الأهمية ما جعلنا نحس بنقص في ركائز بحثنا هذا الذي يمكن أن نتداركه في بحوث أخرى إن قدر الله ذلك.

وعلى كل يبقى هذا العمل محاولة متواضعة من طالب مبتدئ يسعى إلى تطوير إمكانياته الفكرية واللغوية ويساهم به كلبنة لبناء صرح الثقافة التاريخية، ويسعى إلى تنوير الباحثين والقراء، ومع هذا الجهد المبذول أقرّ أنه ما كان لعمل بشري أن يبلغ الكمال أو اليقين وإن طمع المرء بلوغه، فلازلت أطمح إلى الإضافة أو الحذف أو التعديل بنية بلوغ العمل مرتبة أفضل وفي هذا لا أقول إلا ما قال عماد الدين الأصفهاني إني رأيت انه لا يكتب احد كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن و لو قدم هذا لكان أفضل. ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر...

كما انوه بانى لست بصدد إعطاء حقائق يقينية لا تقبل الجدل أو التعديل على قول الشاعر أبي العلاء المعري.

وأما اليقين فلا يقين وإنما.....أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ إبراهيم سعيود على تفهمي لظروفي ووقوفه إلى جانبي في أصعب لحظات هذا البحث بدءاً بتغيير العنوان وصولاً إلى الخاتمة.

الفصل الأول: البرتغاليون في المغرب والخليج وردود فعل الأولية لدى القوى المعنية.

المبحث الأول: دوافع الهجمة البرتغالية على المنطقة العربية تحت غطاء الكشف الجغرافية.

1. الدوافع السياسية (الوحدة القومية)

2. الدوافع الاقتصادية

3. الدوافع الدينية

4. الدوافع العلمية

5. الدوافع الجغرافية

المبحث الثاني : البرتغاليون في المغرب والخليج وموقف القوى المعنية.

1. الاحتلال البرتغالي للمغرب الأقصى

2. الاستكشافات التدريجية وصولاً إلى الهند

3. البرتغاليون في الخليج العربي

4. موقف القوى الإسلامية في المغرب والمشرق من الاحتلال البرتغالي

الفصل الأول: البرتغاليون في المغرب و الخليج وردود الفعل الأولية لدى القوى المعنية:

ميز القرن الخامس عشر بداية ظهور حركة التوسع الاستعماري التي شاركت فيه الدول الأوروبية بأساطيلها الحربية والتجارية، ومن هذه الدول نجد البرتغال، هذه الأخيرة التي تفتنت إلى موارد المنطقة العربية وحاولت جاهدة السيطرة عليها من خلال احتلال النقاط الإستراتيجية في الوطن العربي. فاقصر الوجود البرتغالي على منطقتي المغرب الأقصى و الخليج العربي لما لهما من أهمية جغرافية و أخرى اقتصادية.

وحسبي في هذا الفصل أن أعطي للقارئ فكرة عن أهم الدوافع التي حملت البرتغال على القيام بحركة التوسع تلك تحت غطاء الاستكشاف الجغرافي، والذي كان بمثابة القناع الزائف من أجل تدمير العالم الإسلامي وإخضاعه واستعمار⁽¹⁾، وكيف وضعت أولى قلاعها بمنطقة المغرب الأقصى وصولاً إلى الخليج العربي، وما هي ردود فعل القوى السياسية المعنية ومن ورائها ردود فعل أهالي المنطقة.

المبحث الأول: دوافع الاحتلال البرتغالي للمنطقة العربية تحت غطاء الكشف الجغرافي:

كان لزاماً على الباحث في شأن الإمبراطورية البرتغالية الاستعمارية الوقوف على الأسباب والدوافع والحوافز التي دفعت بالبرتغال إلى أن تسير حثيثاً نحو تحقيق الأهداف والتي لا شك يقع تطويق المنطقة العربية في مقدمتها. من هنا نطرح التساؤل التالي: هل كان الاكتساح البرتغالي للأراضي الإسلامية امتداداً لموجة الحروب الصليبية في شبه جزيرة أيبيريا أم أن هناك عوامل أخرى كان لها اليد العليا في توجه البرتغاليين نحو المنطقة العربية؟.

في الحقيقة تعددت أسباب ودوافع السياسة الاستعمارية البرتغالية في المنطقة العربية بشكل يصعب الفصل بينها ، فتداخل العامل الاقتصادي مع التعصب الديني دون أن ننسى تلك الدوافع الثأرية الانتقامية من

(1) ارتبطت حركة الكشف الجغرافي بحركة الاستعمار بشكل يصعب الفصل بينها، وكثيراً ما كان الأول غطاءً للثاني خاصة وأن الطبقة التي قامت بالكشف هي نفسها التي قامت بالاستعمار، ممثلة في طبقة التجار المغامرين والملوك الذين كان لهم الحكم والمجد، وقد كانت تصرفات المستكشفين البرتغاليين والأسبان توحى عن التزام بتغيير سياسي اقتصادي، ظهر ذلك جلياً في تلك المدافع المحمولة على سفنهم، وقد فضل أولئك المستكشفون في عصر الكشف والاستعمار أن يطلقوا على أنفسهم لقب الأوربيين على المسيحيين حتى لا يثيروا المسلمين وحتى تظهر العملية وكأنها عملية مصالح لا عملية احتلال واسترقاق كما حدث في الهند وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. نقلاً بتصرف من كتاب مراد وزناجي، حديث صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، ط3، حبر للنشر، الجزائر، 2007، ص155. وانظر: بول كندي، القوى العظمى التغيرات الاقتصادية والصراع العسكري من 1500 إلى 2000، تر عبد الوهاب علوب، ط1، دار سعاد الصباح، القاهرة، الكويت القاهرة، 1993، ص47.

العرب المسلمين الذين اخرجوا من الجزء الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة الأيبيرية، ثم تحول هذا الشعور الديني و حب الانتقام إلى الكسب المادي و الاحتكار التجاري و التسلط الاستعماري، و فيما يلي عرض لأهم دوافع التوسع البرتغالي على حساب المنطقة العربية.

من خلال هذا المبحث سنحاول التعرف على أهم عوامل تكوين دولة البرتغال الحديثة من اجل اخذ فكرة عن طموح أولئك الملوك الذي حيروا العالم وتحذوا البحار والمحيطات بالرغم من تلك الإمكانيات، علاوة على إعطائنا فكرة عن تلك البيئة والأرضية التي نبتت ونمت فيها تلك الأحلام والآمال الكبيرة. دون أن ننسى تلك الدوافع المعلنة والخفية والتي كانت وراء تلك الهجمة الاستعمارية البرتغالية للعالم وللمنطقة العربية على الخصوص متخذة _ البرتغال _ من الكشوفات الجغرافية المزعومة غطاءاً للأهداف الحقيقية، وإلا كيف نفسر بداية الحركة الكشفية ولم تكن حروب الاسترداد قد انتهت بعد.

المطلب الأول: الدوافع السياسية (الوحدة القومية):

إن المتأمل لتاريخ القارة الأوربية خلال الحقبة الوسطى يجد أنها عاشت في عالم الإقطاع⁽¹⁾، عالم الفرسان والأمراء و عبيد الإقطاع أو ما كان يسمى بدول المدن⁽²⁾، و قد وقفت هذه السطوة الإقطاعية حائلاً دون الانتماء إلى الوطن الأم، فلم يكن أفراد تلك الحقبة يدينون بالولاء لشيء إلا للسيد الإقطاعي، وباندثار العصور الوسطى تصدع هذا النظام، مما أدى إلى اندثار بعض المفاهيم التقليدية السائدة في تلك الحقبة، ومنها النظرية

(1) النظام الإقطاعي: نظام اقتصادي و اجتماعي و سياسي، عرفته البشرية منذ العصور القديمة، عماده الأرض كون الزراعة كانت هي أساس الحياة و التعامل، وقد كان ظهوره نتيجة اختفاء أو ضعف السلطة المركزية، فلجا الملاك الكبار إلى تكوين قوات مسلحة لحماية أراضهم، ونظرا لضعف الملاك الصغار فقد لجأ هؤلاء إلى أصحاب القوة المسلحة لحمايتهم مقابل تنازلهم عن ممتلكاتهم، ونظرا لكثرة تنازل الفلاحين عن أملاكهم للسيد الإقطاعي تجمعت الملكية في يد طائفة من السادة فاضطر هؤلاء نتيجة اتساع أملاكهم إلى تقسيمها أقطاعات متفاوتة المساحة و توزيعها على إبتاعهم حسب القدرة مقابل تعهد هؤلاء الأتباع بإمداد الجيش الإقطاعي، وقد بلور هذا النظام الفكر الكنسي فعرفت الكنيسة على أنها اكبر مالك للأرض كما كان كبار رجال الدين من عائلات إقطاعية، و خلاصة تكوين هذا النظام كالآتي: يقوم على العلاقة بين السادة ونوابهم، وبموجبه يستطيع المالك أن يتحكم في الأرض ومن فيها من الناس، وكان الإقطاع في أوروبا يعد هبة من الملك لأتباعه حسب مشيئته، . أنظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ / 1992م، ص 37 ؛ رفيقة حروش، الاقتصاد السياسي، ط2، دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر، 2016، ص 46.

(2) السيد حسن جلال: فضل المسلمين في كشف الطريق البحري إلى الهند 1415 / 1498م، دار الوفاء، الإسكندرية، 2002، ص 38.

القائلة بأن الكنيسة لها الهيمنة على الحياة الروحية والدينية، في حين الإمبراطور يحكم في الأرض بتفويض رباني، وأنه ليس لأي شخص الحق أن يحاسبه كون سلطته مستمدة من الله⁽¹⁾.

كان من اثر سقوط تلك المفاهيم أن أدى إلى ظهور أسرات قوية حاكمة استطاعت أن تفرض سلطتها المركزية إلى حد كبير، وتجعل ولاء أفراد الشعب للملكية وللوطن دون سواهما، فبدأ الشعور القومي بالنمو من أجل بناء دولة قومية ذات نظام حكم واضح⁽²⁾، كما ساهم ذلك في ظهور ما يعرف " بالماركننتلية "⁽³⁾ في القارة الأوروبية، والتي أعطت للطامحين من البرتغاليين وغيرهم الفرصة في تحقيق الأهداف و الأحلام خارج حدود

(1) عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مدينة النصر، 1419هـ / 1999م، ص ص 10، 33.

(2) نفس المرجع، ص 33 ؛ في الحقيقة كانت هناك عدة أسباب لتوجه أوروبا نحو تشكيل الدول القومية كاضمحلال النظام الإقطاعي نتيجة التغيرات الاقتصادية بالإضافة إلى الإصلاح الديني الذي جعل الحكام يريدون تقسيم أوروبا المسيحية الرغبة الدينية، بالإضافة إلى تدهور اللغة اللاتينية وبداية استخدام اللغة العامية من طرف الشعراء والساسة والمحامين وهو ما كان بمثابة إعلان عن بداية ظهور القوميات، دون إن ننسى تطور وسائل الاتصال وزيادة تبادل السلع واستكشاف المحيط وظهور الطباعة التي ساهمت مجتمعة في زيادة وعي الإنسان الأوربي بغيره من البشر والاختلاف في الذوق الدين والعادات، هذه الأسباب وغيرها جعلت بعض المفكرين والفلاسفة يعتبرون الدولة القومية الشكل الأنسب للمجتمع المدني. انظر: بول كندي، المرجع السابق، ص 107.

(3) هو ما يدعى بالرأسمالية التجارية، وهو نظام اقتصادي تجاري جديد ظهر في أوروبا في القرن السادس عشر بالموازاة مع بداية اندثار النظام الإقطاعي في أوروبا وبداية ظهور القومية فبدأ الوسط الاجتماعي و الاقتصادي في التحول نحو مرحلة جديدة تسودها الروح الفردية، خاصة في بلدان فرنسا وإسبانيا وإنجلترا، وقد جاء هذا النظام مع ما يتناسب مع طبيعة الحياة الجديدة المعتمدة أساسا على المصالح المادية والسعي إلى الحصول على أكبر قدر من الثروة، ومن أسباب ظهوره نذكر: حركة الكشوفات الجغرافية الكبرى التي أدت إلى اتساع الرقعة الاقتصادية خاصة مع اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وقد أدى إلى ظهور الطبقة البرجوازية التي نمت رؤوس أموالها فراحتمول الرحلات للمجهول في سبيل الوصول إلى منابع الثروة والمعادن من ذهب و فضة تماشيا مع أهداف السياسة القومية التي ركزت أساسا على المعادن النفيسة، متحدين مع الملكية، بالإضافة إلى ميلاد الدول الحديثة هذه التي أصبحت تشكل أداة لحماية التجار و أرباب الحرف. ظهور ثورة فكرية غيرت الذهنيات الانهزامية والاستسلامية القائلة بأن النقشف سبيل للسعادة وأن الهناء في العالم الآخر وغيرها من الأفكار واستبدلت بأخرى جعلت من العمل والأرباح رضا الهي. ازدياد أهمية التجارة الخارجية نظرا لتحرر العبيد والفلاحين من سطوة النظام الإقطاعي وابتعادهم عن الفلاحة نحو التجارة بالإضافة إلى نمو عدد السكان في المدن وزيادة الإنتاج مما ساعد على انتشار النشاط التجاري. وتقييما لهذا النظام الاقتصاد فقد كان ذا سلبيات وإيجابيات نذكر من الأولى ن تراكم المعادن النفيسة أدى إلى السيولة النقدية التي أدت إلى ارتفاع الأسعار في الداخل و الخارج، كما شكل الاهتمام بالجانب التجاري على حساب غيره انخفاضاً في مداخل المزارعين، لا يمكن اعتبار المعادن النفيسة هي الثروة للدولة وإنما الثروة تكمن فيما يمكن إنتاجه من سلع. أما الإيجابيات ربط التجاريون علم الاقتصاد باسم الاقتصاد السياسي، كما خلص هذا النظام الاقتصاد من الاعتبارات الدينية وفر هذا النظام رأس المال النقدي مما أدى إلى إنشاء البنوك. للمزيد حول هذا النظام انظر: رفيقة حروش، المرجع السابق، ص 76، 88.

الممالك⁽¹⁾، فعملت الدول المركزية على توسيع السوق الداخلية عن طريق خلق الوحدات السياسية القومية، و السوق الخارجية عن طريق اكتساب المستعمرات و تحقيق السيطرة على أعالي البحار².

وهكذا ولان "البرتغال"⁽³⁾ قطعة من الخارطة الأوروبية فقد كانت من جملة هذه الدول التي توحدت بها السلطة، وقد كانت في الأصل جزءاً من مملكتي قشتالة⁽⁴⁾ وليون⁽⁵⁾، إحدى أهم واكبر الممالك المسيحية في شمال إسبانيا⁽⁶⁾، حيث كانت تؤدي الجزية لها⁽⁷⁾، ويبدو أن دولة البرتغال بدأت تظهر على الساحة السياسية الدولية إبان فترة الصراع المرير الذي كان يخوضه ملوك الطوائف ضد القوات المسيحية المتزايدة ببلاد الأندلس، وبالضبط عقب سقوط طليطلة سنة 1085م⁽⁸⁾.

(1) موسى الزغبى، البداية و النهاية نشأة القوى العظمى و انحطاطها، (د ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1991م، ص 17.

2 محمد دويدار، مبادئ الاقتصاد السياسي، ج1، (د ن) الإسكندرية، 1993، ص113.

(3) البرتغال أو البرتقال: مأخوذة من portus cale (أبورتو oporto الحالية) وهو الميناء البرتغالي الواقع عند مصب نهر دويره Douro بالاسبانية "Duero"، يحدها المحيط الأطلسي من الغرب و الجنوب و المملكة الاسبانية من الشمال و الشرق، و تبلغ مساحتها 91,530 كلم. مربع و يتكلم سكانها البرتغالية، و كانت البرتغال في العهدين القرطاجي و الروماني مجرد ولاية من ولايات شبه الجزيرة و كانت تعرف باسم "لوزيتانيا lusitania" و في عهد القيصر أغسطس كانت كل أيبيريا مقسمة إلى ثلاث أقاليم على رأس كل إقليم حاكم يسمى "praetor" و كان الإقليم الغربي من تلك الأقاليم يشمل البرتغال الحالية . اتبعت البرتغال نظام الحكم الملكي منذ نشأتها حتى 5 أكتوبر 1910م، حيث أصبحت ذات نظام جمهوري، أنظر: عبد الله العمراني، " السباسبانية موطنا ومذهبا "، مجلة دعوة الحق المغربية، ع 8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص ص41، 42. مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج5، (د ط)، دار رواد النهضة، لبنان، (د ت)، ص134.

(4) كانت قشتالة اكبر الممالك النصرانية مساحة و أقواها موردا تقع شرقي الجزيرة جنوب جبال البرتات، و قد كانت الممالك النصرانية تنفر منها لما يدعيه ملوكها من السيطرة السياسية عليها، أشهر ملوكها ألفونسو وقد تمكنت من الاتحاد مع اتحدت مع الأراغون سنة 1230م، ارتبطت نشأتها بالصراع مع المسلمين. انظر: دريس بن مصطفى: العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب مع دول جنوب غربي أوروبا في الفترة 13-16م، رسالة دكتوراه تلمسان، جامعة أبي بكر بلقايد، 2013-2014م. ص ص 46، 47.

(5) وهي ثالث الممالك لاسبانية، وبالرغم من مساحتها الصغيرة إلا أنها كانت، قوية و حصينة وراء جبالها الوعرة و حرصها الدءوب على الاستقلال، أشهر ملوكها هو الملك " فرناندو" الذي كان مترددا بين محالفة الموحدين ومخاصمتهم. انظر: نفس المرجع، ص 49.

(6) محمد محمود النشار: تأسيس مملكة البرتغال، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (د. د. م. ط)، 1995، ص10؛ دونالدو يرز: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، (د. د. م. ط)، (د. د. ت. ط)، ص52.

(7) محمد محمود النشار، المرجع السابق، ص10.

(8) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 42.

فعندما أحاطت الهزيمة بألفونسو السادس ملك قشتالة في موقعة الزلاقة على أيدي المرابطين سنة 1086م، ازداد قوة ضغط المرابطين في شبه الجزيرة الأيبيرية، وعندئذ عبر كثير من الفرسان من جنوب فرنسا لإغاثة إخوانهم في الدين ومن بينهم " هنري دي لورينا Enrique delorena " من أسرة "بروكونيا borgona"، الذي أسدى خدمات إلى الملك ألفونسو في حروبه ضد المسلمين مما كان له أكبر الأثر في موافقته على زواجه من ابنته الغير شرعية " تيريزا teresa "(1)، ومنحهما حكم كونتية البرتغال ليحكمها هو ومن خلفه وكان اسم هذه الولاية Condado (2).

وبعد وفاة الكونت هنري في عام 1112م تولت أرملته " تيريزا " الحكم بصفتها وصية على ابنها " ألفونسو هنريكز Alfonso henriques " لصغر سنه، ولكن عندما كبر انتقلت مقاليد الأمور إليه عام 1128م (3).

والواقع أن " ألفونسو هنريكز " (أنريكت) هو المؤسس الحقيقي لمملكة البرتغال، وقد ارتكزت سياسته الخارجية على ثلاث محاور أولها توسيع الرقعة الجغرافية على حساب المسلمين في إطار حركة الاسترداد ، وثانيها إنهاء حكم سيطرة مملكتي قشتالة وليون على مملكته، وثالثها الخروج من نمط الإمارة و التطلع إلى نمط المملكة (4).

ويظهر أن الفونسو بدا في تنفيذ ذلك من خلال رفضه في بداية حكمه رفضاً تاماً تبعيته لمملكة قشتالة، وقد أيده شعب البرتغال في ذلك. وتوج ملكاً على البرتغال بواسطة جنده بعد انتصاره على المسلمين في معركة أوريك في سهل أوريك " ourique " بمقاطعة النتيجو سنة 1139م، وقد ثبته في مركزه بعدها بابا روما " انوسنت الثاني"، (5) ويبدو أن سياسة الفونسو السالفة الذكر قد أتت أكلها من خلال استرداد الكثير من

(1) محمد محمود النشار، المرجع السابق، ص 10.

(2) كان يحكم هذه الولاية في العادة أمير، و تمتد من نهر مينهو في الشمال إلى نهر تاجة في الجنوب و الذي يصب عند لشبونة، و يعتبر البرتغاليون أن تاريخ استقلال بلادهم يرجع إلى هذا التاريخ. انظر: عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 42.

(3) محمد محمود النشار، المرجع السابق، ص 10.

(4) نفس المرجع السابق، ص 10.

(5) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 42.

الأراضي الخاضعة للمسلمين⁽¹⁾، فقد استغل الصراعات بين ملوك الطوائف وضعف إمكاناتهم العسكرية لتوسيع ملكه حتى لم يبق في يد المسلمين سوى بعض الموانئ الصغيرة بالجنوب⁽²⁾.

ولكن وإن كانت سياسته قد نجحت على صعيد الاسترداد فإن سياسة الاستقلال التي مارسها ألفونسو قد أدت إلى توتر العلاقة بين كونتية البرتغال والجارة قشتالة، وطفى الصراع بينها من جديد مما أدى إلى تدخل " البابا أنوسنت الثاني " (1130-1143م) لحل النزاع بين الطرفين، وقد كللت مساعيه بالنجاح وتم عقد معاهدة في سبتمبر عام 1143م، و التي كان من أهم بنودها موافقة الإمبراطور " ألفونسو السابع " ملك قشتالة على أن يتلقب " ألفونسو هنريكز " بلقب ملك بشرط التبعية والولاء له⁽³⁾.

وبعد وفاة " ألفونسو السابع " سنة 1157م، قسمت مملكته بين ولديه " سانشو الثالث " الذي تولى حكم مملكة قشتالة، و " فرديناند الثاني " الذي تولى حكم مملكة ليون بجانب سيادته على البرتغال. واستمرت جهود الملك " ألفونسو هنريكز " في مطالبة البابوية بالاعتراف باستقلاله عن المملكة⁽⁴⁾.

وقد أثمرت جهوده في نهاية الأمر بان صدر القرار البابوي في 23 مايو 1179م والذي نص على الاعتراف باستقلال مملكة البرتغال وإعلان " ألفونسو هنريكز " ملكاً عليها⁽⁵⁾. تابعت بعدها أسرة بوركونيا⁽⁶⁾ حكمها للبرتغال، وقدم ملوكها خدمات جليلة لبلادهم في مجال التجارة الخارجية والمجال البحري، ولعل " ألفونسو الثالث " أحد أهم ملوك البرتغال البارزين في تلك الحقبة فكان أعظم ما حققه احتلال مقاطعة الغرب في جنوب البرتغال ليتم بذلك حرب الاسترداد la reconquista بتلك المنطقة⁽⁷⁾، وقد اخذ بعدها البرتغاليون في التوسع إلى إلى أن حصلوا على حدود بلادهم الحالية سنة 1262م⁽⁸⁾.

(1) محمد محمود النشار، المرجع السابق، ص 10.

(2) محمد حميد السلطان: الغزو البرتغالي للجنوب العربي و الخليج 1507_1525م، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2000م، ص 28.

(3) محمد محمود النشار، المرجع السابق، ص 111.

(4) نفس المرجع ، ص 113.

(5) نفس المرجع، ص 113.

(6) تجدر الإشارة إلى أن البرتغال تعاقب عليها مجموعة من الأسر المالكة. انظر حكام البرتغال من أسرة بوركونيا في الملحق رقم 13 ص 297.

(7) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

(8) يسرى الجوهرى: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ط3، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1976، ص 151.

وفي سنة 1279 م وصل لحكم البرتغال الملك "دينيز" dinis⁽¹⁾ الذي شجع الآداب والفنون والصناعة وقام بما يسمى الإصلاح الزراعي عن طريق توزيع أراضي الكنيسة على الفقراء ومن الفلاحين، كما مست إصلاحاته الجانب التجاري حيث أبرم أول معاهدة تجارية مع إنجلترا سنة 1294 م⁽²⁾، و شجع التعليم وأفاد من العلماء العرب وأنشأ جامعة لشبونة 1290م⁽³⁾ التي نقلت في عام 1308 إلى حاضرة البلاد الجديدة " قلمرية colmbbra"⁽⁴⁾.

والحقيقة أن الملك البرتغالي دينيز (1279-1325م) هو أول من خطى نحو فكرة الاحتلال والكشف، وقد ظهرت هذه الحركة على أنها حركة صليبية، فكانت أولى الخطوات التي اتخذت في هذا الشأن هي تعيين تاجر غني من جنوه عام 1371م واسمه "مانويل باشانها Manuel Pacanha" أميراً للبحرية البرتغالية، حيث أرسل إلى البابا يوحنا الثاني عشر رفقة "غونشاليو بيريرا Concallo Pereira"، وكانت الرحلة تهدف إلى جمع الأموال من أجل بناء أسطول قوي و استعماله ضد المسلمين⁽⁵⁾.

وخلف الملك دينيز ابنه "ألفونسو الرابع" الملقب بالشجاع و كان قد فتح جبهتي قتال مع جيرانه القشتاليين من جهة و والعرب المسلمين من جهة ثانية. لتنتهي مرحلة حكم أسرة بوركونيا السابقة الذكر باعتلاء حفيد ألفونسو الرابع الملك "فيرناندو الأول" سنة 1383م⁽⁶⁾.

(1) كان الملك دينيز شاعرا ويعتبره البرتغاليون أقدم شعرائهم و كان له ديوان شعر مفقود عثر عليه مخطوطا في مكتبة الفاتكان ونشر في باريس ولشبونة عام 1874 م باسم كتاب الأغاني للملك ضوم دينيز el cancionero del rie dom diniz. انظر: عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

(2) نفس المرجع، ص 43.

(3) زين الدين احمد المعيري المليباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، ط1، دائرة المعارف الهندية، المركز الثقافي العربي الهندي، بومباي، 1985، ص 151.

(4) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

(5) رحب البابا يوحنا الثاني عشر بالفكرة وأوجد جماعة أطلق عليها اسم جماعة المسيح " Order of crist " والتي حول إليها كل الممتلكات البرتغالية التي كانت تابعة لفرسان المعبد الصليبية، والتي كانت ملاحقة في ذلك الوقت وأسس لها أول فرع في لشبونة من عام 1321م، وبالرغم من أن الجمعية كانت تحت رئاسة قائد إلا أن أموالها كانت تحت تصرف العائلة الحاكمة. انظر: عباس حمداني، "رد العثمانيين على اكتشاف أمريكا و الطريق الجديد إلى الهند"، مجلة الفسطاط، عدد7، 2006، ص 2.

(6) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

وبعد فترة اضطراب خلال القرن الرابع عشر ميلادي، وصل إلى حكم البرتغال "جون الأول Jhon1er"، وهو من سلالة أسرة الأفيز Aviz⁽¹⁾، والتي شكل وصولها إلى الحكم في البرتغال بداية الكشف و التوسع و السيطرة بالقوة، قد ارتبط اسم هذه الأسرة وحكامها بالمال، خاصة إذا علمنا أن الرأسمالية كانت ضعيفة آنذاك، وكنتيجة لذلك الوضع الذي كان سائد من فقر فقد اضطرت الدولة إلى التدخل فلم يجد حكام البرتغال من هذه الأسرة سوى التجارة حل، فالتجئوا إلى التخطيط من أجل السيطرة على موارد إفريقيا أولاً، ثم التوجه إلى الشرق الإسلامي ثانياً⁽²⁾.

مهما يكن من أمر فقد استطاع جون الأول وهو الأخ الغير شرعي للملك السابق الذكر فيرناندو أن يقاوم ملك قشتالة ويتغلب عليهم في سنة 1385 م في معركة "الخبورتا aljubarrota"، وبذلك يكون الملك قد قضى نهائياً على أحلام القشتاليين في احتلال البرتغال وضمها تحت تاجهم، ليعلنه بعدها الكورتيس (البرلمان البرتغالي) ملكاً على البلاد باسم "يوحنا الأول joam 1" ⁽³⁾.

وقد شهد عصر الملك جون الأول إضافة إلى الإصلاحات السياسية الداخلية الطمع في السيطرة والثراء وفرض النفوذ على مناطق جديدة من العالم⁽⁴⁾، بل وصل الأمر به أن فكر في إقامة أول حكومة استعمارية في القارتين الإفريقية والآسيوية⁽⁵⁾. ويبدو أنه أراد تنفيذ مخططه هذا تحت مسمى الكشف الجغرافية⁽⁶⁾، حيث ساهم الملك البرتغالي جون أو يوحنا بقسط كبير من الاستكشافات الجغرافية الأولى والمشاريع

(1) فيج. جي. دي: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر ط1، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص108.

Charles E. Nowell : **Histoire du Portugal**, Paris, 1953, pp33-38

- انظر حكام البرتغال من هذه الأسرة في الملحق رقم 13 ص 297.

(2) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 30.

(3) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

(4) نفس المرجع، ص 43؛ كولين ماكيفيدي: **أطلس التاريخ الإفريقي**، ترجمة مختار السويدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ت.ط)، 1987، ص 109.

(5) صالح رمضان محمد: "الاستكشافات الجغرافية لإفريقيا"، مجلة المؤرخ العربي، العدد 31، بغداد، 1407هـ/1987م، ص 16.

(6) ميلاد المقرحي: **تاريخ أوروبا الحديث 1453-1848م**، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1996، ص 66.

والمشاريع التجارية والاقتصادية الاستعمارية الكبرى، التي وضعت البرتغال في هذا العهد وما تلاه من العهود أعظم قوة بحرية بالعالم⁽¹⁾، كما سنرى في ثنايا بحثنا هذا.

أدت الأحداث السابقة إضافة إلى حروب البرتغال مع المسلمين إلى ظهور لغة البورتو، التي احتوت جميع اللهجات الأخرى وأصبحت هي اللغة السائدة في الشمال البرتغالي، لتنتقل إلى الجنوب منه عقب نزوح سكان البورتو إليها، مما أدى إلى قيام كيان خاصة بعد استيطان هؤلاء في المناطق التي أخلاها المسلمون فكان من اثر ذلك أن تطور النشاطين التجاري والزراعي بالمنطقة⁽²⁾.

وعليه يمكن القول أن نشأة البرتغال تعود إلى القرن 5هـ / 11م، وقد تناوب على حكمها عدة أسر نشبت بينهم عدة حروب وبحلول القرن 9هـ / 15م بدأت دولة البرتغال بالاستقرار وتمكنت من إنشاء قوة بحرية لها، مما جعلها تقوم بحركة توسعية.

ورثت البرتغال جراء حروب طرد المسلمين من الأندلس سلطة مركزية قوية استطاعت توحيد البلاد، كما ورثت عداواً للمسلمين⁽³⁾ فرفضوا أن يكون المسلمون احد مكونات مجتمعهم، وتبرز أكثر تلك الروح القومية البرتغالية في نظري في رفض هؤلاء الخضوع لحكم جيرانهم القشتاليين، فكانت الحروب هي لغتهم إلى غاية طرد المسلمين والاستقلال التام على حكم الغير، ما أدى إلى ميلاد كيان جديد ناشئ طمح إلى ما هو أكثر من تشكل دولة وإنما أراد تكوين إمبراطورية كبرى تحت غطاء الكشف الجغرافية.

المطلب الثاني: الدوافع الاقتصادية

تميز العامل الاقتصادي عن غيره من العوامل خاصة بعد وصول البرتغاليين إلى المراكز التجارية بغرب القارة الإفريقية، والذي مهد إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي مهد بدوره إلى وصول البرتغاليين إلى منابع التجارة المشرقية رأساً .

(1) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

(2) محمد حسن العيدروس: دراسات في الخليج العربي والجزيرة العربية، ج2، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2009 م، ص 41.

(3) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 30.

1- الأطماع الاقتصادية البرتغالية في المشرق:

1.1 الحاجة إلى المنتجات:

كان من نتائج النهضة الأوروبية أن ازدادت الحاجة إلى المعادن النفيسة والحديد والمنتجات التي لا تنتجها أوروبا والتي يمكن الحصول عليها من الشرق الأقصى⁽¹⁾، وتتمثل هذه المنتجات أساساً في التوابل⁽²⁾ والبخور، والعقاقير والبن، والأقمشة الحريرية، والسجاجيد، والعاج، والأحجار الكريمة⁽³⁾، وقد ارتبط ذلك الاحتياج بزيادة معدلات النمو السكاني في القارة الأوروبية ما أدى إلى زيادة الطلب⁽⁴⁾.

1.2 القضاء على الوساطة الإسلامية والإيطالية:

كانت السلع الآسيوية السالفة الذكر تصل إلى القارة الأوروبية منذ القديم بطرق طويلة غير مباشرة⁽⁵⁾. وقد كان الحجم الأكبر منها يسلك مجموعة من الطرق ليصل إلى أوروبا وهي:

(1) عيسى علي إبراهيم ومحمد الفتحي بكير محمد: **الفكر الجغرافي و الكشوف الجغرافية**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1994م، ص 80 .

(2) ومن أهم التوابل الشرقية نذكر الفلفل والذي ينتج من جزر الهند الشرقية، والقرنفل الذي يأتي من جزر الملبار بغرب الهند والدارسين من سيلان وجوز الطيب من جزر الهند الشرقية والقرنفل من من جزر ملوك ، وقد كان الأوروبيون في أمس الحاجة إلى هذه المنتجات لحفظ الطعام، كما استعملها الصيادلة كعلاج ومراهم ومضادات حيوية والأشربة التي تضاف إلى تركيبها القرفة والقرنفل وجوز الطيب والفلفل إما لتسكين الأعصاب أو لتنشيطها. إذ أنّ الزفير يحفظ سلامة أطراف الجسم ويلطف الحمى ويوقف نزيف الدم، والكافور إذا مزج بالنبذ حرك الشهوة، والقرفة مفيدة في السحر، والقرنفل علاوة على فائدته في تنبيل اللحوم وحفظ المشروبات فإنه يصلح المعدة والكبد والقلب وهو يريح المخ ويشفي من الصداع، وإذا مزج بالنبذ زاد من الإبصار وداوى التهاب العيون واحمرارها وهبوط القلب، كما يلطف من حدة السخط والحقن. وقد كان الاتجار بهذه التوابل يدر المال الكثير نستدل على ذلك أن بلغت قيمة الفلفل أن أصبح من العادات الشائعة بين رؤساء الكنائس الفرنسية أن يتقاضوا نصيب الكنيسة (العصور) فلفلاً، بل كان العبد يستطيع أن يشتري حريته برطل من الفلفل الذي يبلغ ثمن القنطار منه في كاليكوت 3 بندقيات بينما يباع في الإسكندرية ب 80 بندقية. أنظر: شارل ديل: **البندقية جمهورية استقرائية**، تر احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، القاهرة، 1948م، ص 146 ؛ زاهر رياض: **استعمار إفريقية**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1384هـ/1965، ص ص20، 21. (3) فاروق عثمان أباطة: **أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر**، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994، ص5.

(4) عيسى علي إبراهيم ومحمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص 80.

(5) ميلاد المقرحي، المرجع السابق، ص 65.

ـ طريق الخليج العربي وبلاد الشام: شكل الخليج العربي⁽¹⁾ عبر العصور التاريخية حوضاً استراتيجياً هاماً كونه أحد أهم معابر المواصلات العالمية والتجارية، لتزداد أهميته بشكل أكبر اثر ظهور الحركات الكشفية الأوربية بنهاية القرن الخامس عشر.⁽²⁾ حيث كانت تأتي السلع المشرقية عبر السفن عن طريق البحر إلى أن تصل الخليج العربي ثم البصرة على رأس الخليج، ثم يتم نقل تلك السلع بالقوافل براً إلى بغداد ومنها تعبر نهر دجلة والفرات، ثم تتجه القوافل غرباً نحو ثغور الشام غرباً⁽³⁾ والموانئ الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط⁽⁴⁾، أين تجد سفن وتجار البندقية⁽⁵⁾ بانتظارها⁽⁶⁾.

(1) و يعرف باسم الخليج الفارسي أيضا خاصة لدى الكتاب الغربيين، و لعل التصاق الصفة الفارسية بالخليج العربي مردها إلى ما توارثه هؤلاء من الإغريق الذين سبق لهم أن تعرفوا على فقط على الشاطئ الفارسي بعد عودة لاسكندر المقدوني من الهند في رحلته و عدائه الأزلي مع الفرس، و الواقع أن الخليج اكتسى بالصبغة العربية منذ سنة 634 م و بشهادة الغرب أنفسهم بعد دخول العرب الفاتحين إلى البصرة و توغلهم في بلاد فارس، و اكبر دليل على عروبة الخليج هو طول الساحل العربي مقارنة بالفارسي فضلا عن وجود أقلية عربية لا يستهان بها في الشق الفارسي إلى يومنا هذا، انظر: جان جاك بيربي: **الخليج العربي**، تر نجدة هاجر و سعيد الغز، ط1، المكتب التجاري للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، 1959م، ص 6.

(2) محمد عبد الغفار: **الإستراتيجية الإقليمية و الدولية لأمن الخليج العربي**، ط1، مركز البحرين للدراسات الإستراتيجية و الدولية و الطاقة، المنامة، 2012م، ص 3.

(3) عمر عبد العزيز عمر: **دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص82 ؛ جوزفين كام: **المستكشفون في إفريقيا**، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص ص41، 42؛ عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين، المرجع السابق، ص57؛ محمد السلطان، المرجع السابق، ص 15.

(4) فاروق عثمان أباطة، المرجع السابق، ص8.

(5) تشكلت مدينة البندقية على اثر هجرات تلك العناصر الايطالية الفارة مت بطش قبائل الهون في العصور الوسطى، و بالضبط في القرن الخامس ميلادي، حيث وجد الفارون في الجزر البعيدة عن الساحل ملاذا امن لهم، ثم رجعوا نحو البحر مكونين مراكز تجارية تتعامل مع المناطق المجاورة و التي درت عليهم أموالا طائلة.

(6) أطلق على هذا الطريق اسم الطريق الأوسط وقد اعتبر الطريق الأوفر حظا بين الطرق الأخرى في إيصال البضائع المشرقية إلى المستهلك الأوربي، لاعتبارات عدة يأتي في مقدمتها الموقع الجغرافي المتميز المقابل لبلاد الهند مباشرة، لعل هذا احد الأسباب التي تفسر لنا انعطاف البرتغال من الهند إلى الخليج العربي كما سنعرف في ثنايا هذا البحث. للمزيد انظر: محمد حميد السلطان: المرجع السابق، ص15.

- طريق البحر الأحمر ومصر: يبدأ هذا الطريق من مركز تجمع البضائع الشرقية وغيرها في ميناء عدن جنوباً ثم تنقل السفن السلع بحراً حتى السويس أو عيذاب والقصير على الساحل الغربي من البحر الأحمر ثم تنقل المنتجات على ظهور القوافل عبر الصحراء إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية وأحياناً إلى دمياط⁽¹⁾.

- الطريق الثالث البري : كان هناك طريق ثالث أقل استعمالاً من الطريقين السابقين و هو طريق بري تشوبه المخاطر ينطلق من الملبار⁽²⁾ عبر جبال الهند الداخلية ويصعد شمالاً إلى طرق وعرة وملتوية قاصداً نهر جيحون ليبلغ الطريق القادم من الصين، ثم يتفرع إلى فرعين الأول نحو بحر قزوين ثم نهر الفولقا الروسي وفرع نحو البحر الأسود ثم طرابزون فالقسطنطينية⁽³⁾.

وهكذا و في كل الطرق كانت المدن الإيطالية(البندقية و جنوا) وبعد وصول تلك السلع إلى الموانئ المصرية والشامية ، هي من تشرف على نقلها إلى أوربا، وكانت لسفن جمهورية البندقية بالذات نصيب الأسد في عمليات النقل تلك جراء نقل الجزء الأكبر من تجارة الشرق إلى ميناءها، حيث تعرض في أسواقها ومنها تباع السلع إلى بقية دول أوروبا مما مكنها أن تجني أموالاً طائلة⁽⁴⁾. وهكذا ظل تجار البندقية يعملون كوسطاء في نقل التجارة الآسيوية إلى القارة الأوروبية ويستفيدون مادياً منذ فترة الحروب الصليبية⁽⁵⁾.

والحقيقة هي أنه مما ساعد البنادقة على احتكار معظم السلع الواردة إليهم على طريق البحر، هو الموقع الجغرافي المتميز لهذه المدينة والذي جعلها مفتاح الطريق بين الشرق والغرب. كما برز عامل

(1) عبد الفتاح أبو عليّة وإسماعيل أحمد ياغي: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ط3، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993، ص53 ؛ محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص16.

(2) و يقال أيضاً الملبار عرفت هذه البلاد بتسميات كبيرة قبل أن تعرف بهذا الاسم و الذي شاع بفضل مؤرخي العرب، هي كلمة مركبة من كلمتين ملا و تعني الجبل في اللغة السنسكريتية و بار كلمة فارسية الأصل تعني الكثير فصار المعنى بلاد كثيرة الجبال، وأول من سماها بهذا الاسم هم الملاحون العرب والفرس القادمون إليها في حوالي القرن الخامس هجري، وتعرف أيضاً ببلاد الفلفل نظراً لشهرتها بإنتاجه، وقد وقعت حروب كبيرة منذ القدم في سبيل السيطرة على تجارة الفلفل المليباري، وتعرف اليوم بكيرالا إحدى ولايات الهند، تقع في الزاوية الغربية من شبه القارة الهندية. للمزيد انظر: زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص31، 33.

(3) حدثت العديد من العراقل في هذا الطريق عقب ظهور الدولة العثمانية بالمنطقة و شنها تلك الحروب التوسعية، انظر: محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص17.

(4) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص82.

(5) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص16؛ فيج. جي. دي، المرجع السابق، ص39، 40.

تحالفها مع دولة المماليك⁽¹⁾ في مصر والشام⁽²⁾. هذه الأخيرة التي حرص سلاطينها على أن تبقى تجارة التوابل المربحة وقفا عليهم و حدهم و تنفيذا لذلك اتخذت مجموعة من الإجراءات منها تحريم مياه البحر الأحمر على المراكب الغير الإسلامية بحجة أن البحر يؤدي إلى الأماكن المقدسة⁽³⁾، كما فرضت رسوم جمركية باهظة على أراضيها، كون الحجم الأكبر من هذه التجارة يمر بمصر وينقل منها إلى عالم البحر المتوسط⁽⁴⁾.

وهكذا عملت البرتغال على إيجاد حل للمشكلة حتى تحقق هدفين معا: أولهما التخلص من احتكارات تجار البندقية والوصول إلى أسواق الشرق رأسا⁽⁵⁾. أما الثاني فيتمثل في معرفة طرق تجارة جديدة غير القديمة توصل إلى الهند، وإلى بلاد الشرق الأقصى، وذلك من أجل انتزاع التجارة العالمية من أيدي العرب والمسلمين والتخلص من هيمنتهم عليها، ثم تحويل مسارها إلى طرق جديدة تكون بأيديها⁽⁶⁾، وبالتالي إنهاء عملية احتكار هذه التجارة من قبل دولة المماليك⁽⁷⁾.

(1) دولة المماليك (648_923هـ = 1250_1517م) و هي الدولة التي أسسها مجموعة من العبيد الأتراك و الجراكسة و المغول جند الأيوبيين في الخدمة العسكرية، و تمكنوا من إقامة دولة لهم في مصر و حكمت هذه الدولة سلالتين من المماليك، الأولى هي البحرية (648_784هـ = 1250_1382م) و سمو بالبحرية لإقامتهم في جزيرة الروضة على النيل، أولهم شجرة الدر وأشهرهم الظاهر بيبرس وقلاوون المنصور. الثانية البرجية (784_923هـ = 1382_1517م) وقد عرفوا بالبرجية لأنهم أقاموا في برج القلعة الظاهرة ، وأولهم الظاهر برقوق و آخرهم طومان باي ، والذي بقتله انتهت الدولة المملوكية في التاريخ المذكور بسط المماليك سيطرتهم على مصر و بلاد الشام و أجزاء من آسيا الوسطى و حاربوا الصليبيين والمغول. وبعد أن اسقط العثمانيون دولتهم ظلوا مصدر قوة و اضطراب إلى أن تخلص منهم محمد علي في مذبحة القلعة عام 1226هـ 1811م. أنظر: الغالي غربي، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والشرق العربي(1288-1916م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص 54؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص408.

(2) السيد رجب حراز: عصر النهضة دراسة في الحضارة الأوروبية الحديثة، دار النهضة العربية، (د.م. ط)، 1974، ص307.

(3) محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص 16.

(4) عبد العزيز محمد الشناوي: أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج1، دار المعارف، مصر، 1969، ص83.

(5) فيصل محمد موسي: موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، 1997، ص71.

(6) محمود شاكر، الكشوف الجغرافية دوافعها - حقيقتها، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 24 ؛ جلال يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999، ص71.

(7) أشرف صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص66.

وغير بعيد من ذلك جاء تصريح " الفونسو البوكيرك " احد القادة العسكريين البرتغاليين ليؤكد ما قلناه آنفا، فبعد أن ألهب جنوده حماسا وتعصبا وذكر لهم أن القضاء على المسلمين هو خدمة لله قال: " وذلك لأنني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا من أيديهم - يعني المسلمين -، لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين، ولامنتعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشراؤها من هناك"⁽¹⁾.

2- الأطماع الاقتصادية البرتغالية في المغرب:

أما في المغرب فإن جيو استراتيجية المغرب الأقصى الرائعة جعلته محل أطماع البرتغاليين المتحفزين للاحتلال، يظهر ذلك في مكانة المغرب في المواصلات البحرية العالمية من خلال إشرافه على بحرين مهمين المتوسط بحضارته وتاريخه، والأطلسي الطريق المؤدي إلى العالم الجديد و إفريقيا الغربية⁽²⁾. فلا عجب لأمة امتطت البحار أن تكون سباقة لاحتلال ثغوره.

ولأن المغرب الأقصى يقع على مقربة من الشواطئ الأوربية جعله ذلك منطقة ساخنة ومنفعلة بكثير من التيارات السياسية المقابلة له بالقارة الأوربية، خاصة بعد أن تهيأت الظروف العلمية والعسكرية للإنسان الأوربي والبرتغالي على الخصوص، من اجل البحث عن مناطق نفوذ لأوربا والمواد الخام لصالح مصانعها، ومحاولة إيجاد أسواق خارجية لترويج البضائع المتنوعة، فوقع الاختيار على المغرب الأقصى الذي من خلاله يمكن الامتداد إلى القارة الإفريقية التي من شأنها أن تكون مزرعة للقارة العجوز⁽³⁾. و من المنتجات التي رغب فيها البرتغاليون نذكر:

2. 1- الحاجة إلى القمح:

كانت البرتغال قليلة الموارد وتعاني ظروف طبيعية ساهمت في الحد من فرص الاستغلال الزراعي، فقد كانت التربة قليلة الخصوبة في أنحاء البلاد عدا الأودية، بالإضافة إلى عدم انتظام الأمطار على مدار السنة، مما أدى إلى الجفاف والمجاعة في بعض الأحيان، ما جعل البرتغال تعاني من نقص المواد الأساسية

(1) محمد نصر مهنا: الخليج العربي الحديث والمعاصر دراسة تاريخية تحليلية، (د ط)، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2008، ص 49.

(2) محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب، ط1، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، ص 142.

(3) عبد العلي الوزاني: "من خلفيات معركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد8، العدد 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص 107.

وبالأخص الحبوب، فنجدها تضطر إلى استيراد القمح والشعير مرة كل ثلاث سنوات من شمال أوروبا و إنجلترا فرنسا و اسبانيا و صقلية⁽¹⁾.

2. 2- الحاجة إلى الذهب والمعادن:

ونجد دافع اقتصادي آخر أدى بالبرتغاليين إلى القيام بالحركة الكشفية المزعومة، والذي يتمثل في رغبتهم في الحصول على الذهب الإفريقي، إذ كانوا يعتقدون أنه في مكان ما من القارة الإفريقية يجري نهر من الذهب يصب في بحر استوائي، وقد تمّ التأكد من هذه المعلومات أثناء الصراع المسيحي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية⁽²⁾، ويؤكد لنا بييري ريس اهتمام البرتغاليين بالمعادن في هذه الفترة فيقول على لسان احد البحار البرتغاليين الذي كان يحث بني جلدته إلى مواصلة الإبحار واصفا ما شاهده فقال (... إن البشر السود هناك سكان قليلون بينما يمتلكون معادن و ثروات كثيرة، ثم إعطائه سفنا ليبحروا بها إلى تلك المناطق ففعلوا، ثم عادوا إلى البرتغال)⁽³⁾.

وهكذا كانت أوروبا ترى في أفريقيا مصدر غنى و ثراء خاصة وأن بعض مناطقها اشتهرت بالذهب وتجارتها مع قوافل المسلمين وتبادل البضائع معهم، فمن المعلوم أن المغرب العربي كان يعتمد في توازنه الاقتصادي على تجارة القوافل بما فيها الذهب.⁽⁴⁾ يأتي ذلك في وقت كانت كل أوروبا تعاني من أزمة نقدية كبيرة⁽⁵⁾.

(1) احمد بوشرب: مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر، ط1 منشورات كلية الآداب، الرباط، 1996م، ص ص 74، 75؛ في سنة 1282م استوردت إحدى مناطق غرب البرتغال تسمى فاروا حبوب المغرب، ولهذا لم يتردد بعض المؤرخين في ربط الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية من اجل ضمان هذه المادة الأساسية للعيش. انظر: احمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481_ أكتوبر 1541م)، ط1، الدار البيضاء، 1984، ص ص 154، 155.

(2) عيسى علي إبراهيم ومحمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص112.

3 بييري رئيس: كتاب البحرية، تر وتو محمد حرب، ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 1433هـ/2012م، ص 25.

(4) محمد رزوق، المرجع السابق، ص 144.

(5) عرفت أوروبا بين عامي 1350م 1500م فقرا كبيرا توقف على أثره سك العملة الذهبية بالبرتغال بعد عام 1380م، لمدة 50 سنة لتختفي بذلك العملة الذهبية البرتغالية الأمر الذي نتج عنه تضخم مالي خطير إلى أن انطلقت حركة الكشف . انظر: الهام يوسف، ولاء علي صقر: "الاحتلال البرتغالي لسواحل المغرب 818 - 996هـ / 1415 - 1587م"، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، العدد 5، مج 39، الأردن، 2017، ص 411.

وبعد احتلال أولى الثغور المغربية " سبتة " ⁽¹⁾ سنة 1415م من قبل الجيوش البرتغالية ، وبالتحقيق مع بعض الأسرى المغاربة، عرفوا أسرار تجارة الذهب ⁽²⁾، والعلاقات التجارية بين دول شمال إفريقيا وبين سكان غربها من الزنوج ⁽³⁾. ومن هنا جاءت فكرة البرتغاليون في العمل على الوصول إلى المناطق الداخلية في غرب إفريقيا، ولا سيما مملكة غانا التي ذاعت شهرتها نتيجة ثروتها الكبيرة وغناها بالذهب ⁽⁴⁾، ومناجم الذهب الموجودة في غرب القارة الإفريقية ⁽⁵⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجنوب المغربي خصوصا منطقة دكالة، قد احتلت فيما بعد أهمية كبيرة لدى الإمبراطورية التجارية البرتغالية، إذ أصبحت المنطقة ضرورية للتعامل التجاري مع غرب القارة الإفريقية، ولوفرته على المواد الضرورية للحصول على التبر ⁽⁶⁾ و العبيد و النحاس و الحبوب، و لجعلها أسواقا لترويج تجارة الهند، ولذلك كانت دكالة وساحل غرب أفريقيا عبارة عن كتلة جغرافية واحدة لا يمكن أن تتجزأ في سياسة لشبونة ⁽⁷⁾.

(1) مدينة عظيمة دعاها الرومان سيفيطاس و سماها البرتغاليون سويتة أسسها الرومان عند أعمدة هرقل فكانت عاصمة بلاد موريطانيا احتلها القوط إلى أن جاء المسلمون ففتحوها و يذكر المقري أن سبب التسمية يعود إلى سبت بن يافث الذي نزل عدوة المغرب فسميت باسمه، و هي مدينة وميناء صغير من موانئ المغرب يقع في الطرف الشمالي عند مضيق طارق، وحالياً هذا الميناء يقع تحت الاحتلال الإسباني. أنظر: المقري أبو العباس احمد ابن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح، إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، 1988، ص 111. عائدة موسى: **العبودية في إفريقيا**، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص35. محمد بن القاسم السبتي: **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تح، عبد الوهاب بن منصور ط2، الرباط، 1983، ص 72-73.

(2) كولين ماكيفيدي، المرجع السابق، ص109.

(3) فيج. جي. دي، المرجع السابق، ص109.

(4) صالح رمضان محمد، المرجع السابق، ص16.

(5) س. هوارد: **أشهر الرحلات في غرب إفريقيا**، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م.ط)، 1996، ص14؛ كما ظهرت في الأدبيات الأوروبية فكرة منجم الذهب الذي يعتقد انه كان ملكا للنبي سليمان عليه السلام، و يبدو انه قد ذكر عندهم في التوراة. ويتوقع أن يكون المنجم في شرق القارة الإفريقية. انظر: ألفارو فلهو ودوز سانتوس: **يوميات رحلة فاسكو دا جاما وتقرير رحلة دوز سانتوس**، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م.ط)، ص18.

(6) هو ما كان من الذهب غير المضروب فإذا ضرب دنانير فهو عين وبل يقال تبر إلا للذهب وبعضهم يقوله للفضة أيضا، انظر: الرازي محمد ابن أبي بكر عبد القادر، **مختار الصحاح**، طبعة مدققة، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص 31.

(7) احمد بوشرب: **وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي و نتائجه**، ط1، دار الأمان ، الرباط، 1997م، ص152.

إضافة إلى القمح اشتهرت بعض المدن المغربية بانتهاجها لمادة التبر وقد أولاها البرتغاليون أهمية كبيرة وعناية خاصة نظرا لأهميتها العظمى.

2. 3- الحاجة إلى اليد العاملة (العبيد):

لا شك أن موجة الطاعون الأسود التي اجتاحت أوروبا في منتصف القرن 14م والذي استطاع أن يحصد خلال ثلاث سنوات (1347، 1349م) نصف سكان أوروبا قد كان دافعا أساسيا وراء الكشف والاستعمار على السواء إذ أصبح سكان القارة الأوروبية في أمس الحاجة إلى الأيدي العاملة⁽¹⁾.

والواقع أن ممالك شبه القارة الأيبيرية والبرتغال بالذات كانت أكثر حاجة إلى العبيد لسببين أساسيين هما: اتساع الرقعة وكثرة قتلاهم نتيجة الحروب الاسترداد ضد المسلمين، ومن هنا بدا غزو شمال وغرب القارة الإفريقية أمرا ضروريا⁽²⁾. وفي سبيل هذا اتخذت الحكومة البرتغالية لاحقا مجموعة إجراءات قانونية من أجل لتشجيع استيراد العبيد، إلى البلاد منها إعفاء التجار مما عليهم من الضرائب ومعارضة ما تصدير ما يجلب من عبيد البرتغال، وقد أدت هذه السياسة كثرة العبيد فوصل عددهم إلى عشر سكان العاصمة⁽³⁾.

المطلب الثالث: الدوافع الدينية الانتقامية

يعتبر العامل الديني احد أكثر العوامل أهمية في اندفاع البرتغاليين نحو المنطقة العربية وبالذات المغرب الأقصى. فطالما عد الفرد البرتغالي المسيحيين تعصبا ومن أوائل الذين استجابوا بحماس لنداء الجهاد ضد المسلمين الذين طردوا من الأندلس، وإلا كيف لنا أن نفسر تكوين البرتغال لوحدها مبكرا، عليه فقد كانت

(1) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 22.

(2) لم يصل سكان البرتغال إلى عدد مليون نسمة من بعد الطاعون الأسود إلا بعد عام 1450م، انظر نفس المرجع، ص 22.

(3) احمد بوشرب: في النهضة و التراكم دراسات في تاريخ المغرب و النهضة العربية، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب 1986م، ص 186.

- انتشرت تجارة العبيد والأسرى خاصة المغاربة في البرتغال وأوروبا بشكل كبير في العصر الحديث، وقد كان العبيد يعاملون عبارة سيئة كبضاعة للمقايضة والبيع، ولم تكن تؤخذ كرامتهم بالحسبان، فكانوا يمنحون كهدايا في المناسبات لبعض الملوك والعائلات النبيلة التي احتوت قصورهم الكثير منهم، كما اقتناهم المواطن العادي واستثمر فيهم، بالإضافة إلى الكنيسة التي أوكلت لهم مهمة الاعتناء بالخيل والدواب واستصلاح الأراضي. انظر: احمد بوشرب، مغاربة في البرتغال، المرجع السابق، ص 103، 104.

الروح الصليبية مرتفعة عند الفرد البرتغالي وشجعته على القيام بحركة الكشف الجغرافية. فكانت الناحية الدينية هي المنظر والمخطط للسياسة الخارجية⁽¹⁾.

ويمكن تحديد العامل الديني بتلك النزعة الاستعمارية الصليبية التي اختلجت الشعوب الأوربية كامتداد للحملات الصليبية الأولى في بلاد القدس الشريف، بالإضافة إلى التشجيع البابوي الكبير. والانتقام من الانتصارات العثمانية شرقاً.

1- الروح الصليبية الاستعمارية:

تسلطت لدى الأيبيريين الرغبة في القضاء على الإسلام و المسلمين بعد سقوط غرناطة أخر معقل للمسلمين عام 1492م، فقد أدى الصراع الديني بين المسيحيين الكاثوليك والمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا في نهاية العصور الوسطى إلى إعطاء البرتغاليين دفعة عدائية وصلت حد تتبع الفارين منهم،⁽²⁾ وشن حملات انتقامية تعقبية عليهم في شمال إفريقيا⁽³⁾، وعلى ساحل إفريقيا الغربي⁽⁴⁾، بقصد تأمين عدم تكرار تهديدهم لأوروبا⁽⁵⁾، ثم الوصول إلى الشرق قصد التطويق لقتالهم هناك⁽⁶⁾.

ويعتبر شمال إفريقيا على العموم والمغرب الأقصى على الخصوص محل حقد ليس دولة البرتغال فقط وإنما على كافة الدول الأوربية، كون المغرب الأقصى هو البلد الذي نقل الإسلام إلى أجزاء هامة في أوربا وقلق المسيحية ولأعوام مديدة في عقر دارها⁽⁷⁾.

وقد ارجع بعض الباحثين الهجمة البرتغالية على المغرب إلى تلك القرصنة المغربية التي كانت نشطة في أواخر القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر متخذة طابع الجهاد ضد أولئك الذين طردوا المسلمين من

(1) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 83.

(2) فاروق عثمان أباطة، المرجع السابق، ص 37.

(3) فيصل محمد موسي، المرجع السابق، ص 66.

(4) فاروق عثمان أباطة، المرجع السابق، ص 37.

(5) فيصل محمد موسي، المرجع السابق، ص 66.

(6) محمود شاكر، الكشف الجغرافية، المرجع السابق، ص 24.

(7) عبد العلي الوزاني، المرجع السابق، ص 107.

الأندلس⁽¹⁾، وهو أمر مقبول خاصة إذا علمنا أن المغرب الأقصى هو البلد الذي استمر لعدة قرون يدعم الوجود الإسلامي العربي في اسبانيا، ويتقدم لمنازلة المتربصين بهم كلما دعت الحاجة، فكان بمثابة الدرع الواقي لإخوانه المسلمين بالأندلس، بحيث أن تلك المساعدات وإن لم تمنع وقع الكارثة إلا أنها أخرتها قليلا.

وكتحفيز للجند للانطلاق في مشروعه خصص الملك يوحنا البرتغالي اكبر الأوسمة بمملكته وهو وسام السيد الأعظم لمن يحقق انتصارا على المسلمين في محاولة منه شحن الجنود ودفعه نحو الاستعمار وقال: " إن ميدان الجهاد ضد المسلمين بإفريقيا هو الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد الأسرة المالكة أوسمة الفخار"⁽²⁾.

إضافة إلى إصرار الأوروبيين عامة والبرتغاليين خاصة على نشر المسيحية بين سكان غرب إفريقيا، وغيرهم من الوثنيين في المناطق المكتشفة ومن ثم تحريضهم على قتال المسلمين أيضا⁽³⁾. وكان ذلك عن طريق طريق إرسال البعثات التبشيرية المصاحبة لهم⁽⁴⁾.

أما مشرقا فقد ظهرت رغبة البرتغاليين في العثور على مملكة " القديس يوحنا Prester John"⁽⁵⁾ في شرق إفريقيا، والتي قدرها بعضهم على أنها بلد إثيوبيا حاليا⁽⁶⁾، وهي المملكة المسيحية التي كان

(1) محمود علي عامر و محمد خير فارس: تاريخ المغرب العربي الحديث، " المغرب الأقصى - ليبيا"، (دط)، منشورات جامعة دمشق، (دت)، ص 17.

(2) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط2، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، 1422هـ/2002م، ص 67؛ عبد العلي الوزاني: المرجع السابق، ص 102.

(3) محمود شاكر، الكشف الجغرافية، المرجع السابق، ص 25.

(4) عيسى علي إبراهيم ومحمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص 80.

(5) مملكة "برستن جون Prester John": و هي أسطورة انتشرت في أوروبا منذ القرن الثاني عشر وزمن الحروب الصليبية، فقد وجد بعض الرهبان ورجال الدين أنه من المفيد لبث العزم في المقاتلين إخبارهم عن أمير شرقي سيتحالف معهم بمجرد وصولهم لبلاد الشرق، ولما انتصرت بعض القبائل البوذية التي كان يعمل بينها بعض النساطرة على السلطان سنجر السلجوقي انتصاراً مؤقتاً، قيل أن القديس يوحنا المنقذ سيكون منهم وينفذ المهمة الموعودة، وأشار الرحالة " ماركو بولو Marco Polo " إلى أن القديس يوحنا يقع وراء بلاد المغول، ولما حطم المغول بغداد وانساحوا في الشام قيل " أ قبل القديس يوحنا " بينما من المعروف تاريخياً أن المغول سرعان ما تأثروا بمن هزمهم واعتنق غالبهم الإسلام في سرعة مذهشة. أنظر: ألفارو فلهو ودوز سانتوس: المصدر السابق، ص 11.

(6) J.N.L. Baker: A history of geographical and exploration, London, 1931, p64.

الأوروبيون يتسامعون عنها ويتناقلون أخبارها⁽¹⁾، وكان القصد من البحث عنها هو لتحويلها إلى المذهب الكاثوليكي، وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر⁽²⁾، ثم العمل على التحالف معها وجعلها قاعدة في قلب إفريقيا، تتطرق منها جحافلهم إلى بقية أجزاء إفريقيا وآسيا للانقضاض وتطوير العالم الإسلامي⁽³⁾.

ويبدو أن الأحباش كانوا يريدون التعاون مع البرتغاليين في هذا المخطط، فقد بعثت هيلان ملكة الحبشة برسالة إلى ملك البرتغال إيمانويل تقول فيها: " إلى عمانويل سيد البحر و قاهر المسلمين من القساة الكفرة تحياتي لكم ودعواتي لكم، لقد بلغ إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشا ضخما ليضرب قواتكم و يثار من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المندب...."⁴.

كما كان في نية البرتغاليين تنفيذ مخطط صليبي عن طريق الزحف إلى البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة⁽⁵⁾، ثم الزحف إلى مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة، ثم مواصلة الزحف منها إلى المدينة المنورة لنش قبر الرسول ومواصلة الزحف بعد ذلك إلى تبوك وصولا إلى بيت المقدس حيث يوجد المسجد الأقصى وقبة الصخرة⁽⁶⁾.

(1) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت. ط)، ص46.

(2) فرغلي علي تسن هريدي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر الكشف - الاستعمار - الاستقلال، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2008، ص46.

(3) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص47.

(4) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج2، المرجع السابق ص52.

(5) ميناء عربي معروف قديم معروف قبل الإسلام استخدمه عرب الجاهلية في مبادلاتهم التجارية مع الساحل الإفريقي، واستمرت أهميته على امتداد العصور الإسلامية جميعا وثانية ترتيب بلاد الحجاز بعد مكة في ثراء أهلها، عرفت في القرن 16م وضعاً اقتصادياً وتجاري متميز. انظر: عصام سخيني، "شهادات على التقدم والازدهار"، ندوة كتابات الرحالة و المبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور عرض - نقد - تحليل، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث دبي، جامعة الإمارات العربية المتحدة العين، المجمع الثقافي أبو ظبي، دبي الإمارات العربية المتحدة، 7 - 10 أبريل 1996م، ص ص 110، 111.

(6) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، (د ط)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2013، ص 23 ؛ وقد نسب إلى " فاسكو دا جاما " أنه كان يريد تهديم المدينة المنورة في شبه الجزيرة العربية، ونش قبر الرسول ﷺ وأخذ كنوزه حيث كان يتصور أن ضريحه من اللؤلؤ والمجوهرات. وكان ينوي أخذ رفات الرسول ﷺ لجعلها رهينة حتى يتخلى المسلمون

كما عمل الملاحون الذين حملوا الصليب على صدورهم أنهم برحلتهم إلى بحار الهند سيقومون على تخليص الأراضي المقدسة والدخول إليها، وتنصير المسلمين في الشرق⁽¹⁾.

وقد أكد المؤرخ البرتغالي " كارفالو " في إحدى محاضراته التي ألقاها على طلبته في المدرسة الحربية الفرنسية سنة 1934، على مدى صليبية الهجمة البرتغالية فقال في معرض كلامه عن سبته: " كان شباب البرتغال يتحرقون على القتال و لكن ضد من ؟ أين يجدون العدو ؟ إذ أننا من جهة قد عقدنا الصلح مع قشتالة ومن جهة أخرى يواجهنا البحر، ولكن بمقتضى تقاليدنا وديننا ومصلحتنا، فإن العدو لا يزال هو المسلم فإذا كان قد التجأ إلى ما وراء البحر فيجب أن نذهب للبحث عنه هناك، يجب أن نطارد الوحش في مكمته..". ويختم قائلاً: " وهكذا و في الوقت الذي ضعفت فيه الروح الصليبية في كل أوربا فإنها أخذت تنتعش في البرتغال"⁽²⁾.

2- دور البابوية:

منحت القرارات البابوية للملوك البرتغاليين امتيازات مالية وجبائية قصد تحفيزهم للمضي في محاربة المسلمين وغزو أراضيهم فأصدر بعضهم عدة مراسيم تخول ملوك البرتغال الحق في ملكية كل إقليم جديد، وتورط بعضهم في هذه المراسيم فوصفوا " الإسلام بأنه طاعون"⁽³⁾ وطالبوا ببذل الجهود لتتصير سكان المناطق التي كشفت أو سوف تكتشف⁽⁴⁾.

وبذل الباباوات نفوذهم الديني و الأدبي لإغراء البحارة على الانخراط في سلك البعثات الكشفية و صاروا يعدون المشتركين في هذه البحوث الكشفية بالعفو عنهم في اليوم الآخرة، والدخول إلى الجنة،⁽⁵⁾ فأمرؤا

= عن الأماكن المقدسة. انظر: عيسى علي إبراهيم ومحمد الفتحي بكير محمد: المرجع السابق، ص 80 ؛ محمود شاكر، الكشف الجغرافية، المرجع السابق، ص 28.

(1) حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط2، مطبعة حجازي، القاهرة، 1938، ص 40.

(2) محمد الفاسي: "احتلال البرتغاليين للشعور المغربية الذي أدى إلى موقعة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978 م، ص 22.

(3) عبد الرحمان حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاث و خوافيها، التبشير الاستشراق الاستعمار، ط8، دار القلم، دمشق، 1460هـ / 1460م، ص 170.

(4) عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص 85.

(5) عبد الرحمان حبنكة الميداني، المرجع السابق، ص 170.

برسم الصלבان على أشرعة السفن⁽¹⁾، وكان المبشرون بالنصرانية من رجال الكنيسة يرافقون الرحلات الكشفية للقيام بمهمات التبشير⁽²⁾، بل تخبرنا المصادر على أن هناك من القساوسة من حاز على درجة كبيرة من علوم البحر والرياح وألف الكتب وصاحب الرحلات⁽³⁾.

وليس أدل على دينية الاستعمار البرتغالي لمناطق النفوذ الإسلامي من تلك المراسلات التي تبادلها الملوك وبعض المسؤولين السياسيين والدينيين، حيث طغت الروح الدينية على تلك المراسلات⁽⁴⁾.

ومن تلك المراسلات نجد رسالة البابا "نيقولا الخامس" (1447-1455م)، والذي كان يمني النفس بعودة بيت المقدس إلى المسيحية. وفي سبيل ذلك أرسل إلى ملك البرتغال مرسوماً بابوياً وتضمن ما يعرف " بخطة الهند " لإرسال حملة صليبية نهائية يتم من خلالها القضاء على الإسلام، وتطوير البلاد الإسلامية بالتعاون مع الملوك المسيحيين في إفريقيا وآسيا⁽⁵⁾.

كما أرسل مرسوماً آخرًا في عام 1454م إلى الأمير " هنري الملاح Henri Navigateur " ⁽⁶⁾. وجاء فيه ما يلي: « إن سروري العظيم أن نعلم ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار على خطى أبيه الملك جون الأول، بوصفه جندياً قادراً من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة »⁽⁷⁾.

أما فيما يخص المراسلات المرسلة من طرف الملوك نحو رجال الدين فنذكر على سبيل المثال لا الحصر الرسالة التي بعث بها الملك البرتغالي إيمانويل إلى أسقف براغا في 1508/8/16م، و التي بشره فيها

(1) أشرف صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص 68.

(2) عبد الرحمان حبنكة الميداني، المرجع السابق، ص 170.

3 بيري رئيس، المصدر السابق، ص 29.

(4) احمد بوشرب، وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي و نتائجه، المرجع السابق، ص 150.

(5) أشرف صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص 68.

(6) هنري الملاح: (1460/1334م) أمير برتغالي، من كبار المستكشفين الجغرافيين، منحه أبوه الملك جون الأول. (ولد سنة 1394م، وتوفي سنة 1460م) دوقية لأنه أبدى شجاعة فائقة في الحملة على سبتة كما سئرى في هذا البحث، تولدت لديه الرغبة في استكشاف القارة السمراء فأسس في سنة 1416م مركزاً لصناعة السفن، اخفق في احتلال المدينة طنجة عام 1438م و استعداد شهرته بعد حملة أخرى على بلاد المغرب. انظر: عبد الوهاب الكيالي، موسوعة سياسية، ج7، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1979، ص ص 155، 156.

(7) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 32 ؛ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 86.

بالانتصارات و المكتسبات التي حققها البرتغاليون بشرق إفريقيا و الشرق العربي و حرمان التجار العرب المسلمين من إرباح تجارة الهند و الشرق الأقصى⁽¹⁾.

وهكذا يعتبر الاحتلال البرتغالي صليبيًا إذا ما قورن بالاستعمار الهولندي أو الانجليزي للشعوب الإسلامية، بحيث لا نجدهم يحملون ذلك التعصب الكبير كالبرتغال. قد يعزو ذلك الحقد كون معظم ضباط البحرية البرتغالية عاصروا حملات الاضطهاد والإبادة ضد المسلمين في حروب الاسترداد، فملئت قلوبهم غلا ورغبة في الانتقام ومن هؤلاء الضباط نذكر على سبيل المثال لا الحصر "البوكيرك" الذي أفنى عمره في محاربة المسلمين في المغرب والمشرق⁽²⁾.

3- سقوط القسطنطينية:

لا نفتأ عند دراستنا لأي تحرك برتغالي في المنطقة العربية أن نجد حدثًا آخر مواز له سابق عليه تسبب به المسلمون في المشرق أو المغرب، فكان الاحتلال البرتغالي في المغرب والمشرق العربيين عبارة عن صدى لحدث مماثل كانتصار للعثمانيين في إحدى معاركهم على الجانب المسيحي مثلاً، و كأنني بها عمليات انتقامية تقودها البرتغال برعاية بابوية. فكثيراً ما أعلنت البرتغال الحرب على المسلمين بناءً على انتصار إسلامي في منطقة ما.

وقد لعبت الغزوات العثمانية لأوروبا الشرقية عاملاً سيكولوجياً لدى الأوروبيين من أجل التحرك نحو الشرق، إذ بعد أن كاد الإسلام ينتهي في جهات أوروبا الجنوبية والغربية في الأندلس عاد ليهدها من جديد من الجهة الشرقية⁽³⁾.

وهكذا لم يكن حب الانتقام من المسلمين أبيرياً فقط بل تعداها إلى جل شعوب القارة الأوروبية، فقد شكل استيلاء السلطان محمد الفاتح عام 1453م على القسطنطينية العاصمة الثانية للعالم المسيحي ومقر الكنيسة

(1) تكررت المراسلات الملكية البابوية بشكل لافت، ومن الرسائل ذات الشأن والمرسلة من الملوك إلى رجال الدين نجد تلك الرسائل التي كان الملك البرتغالي قد بعثها إلى كبار المسؤولين الدينيين يستشيرهم حول عملية إخلاء آسفي وآزمور كما احتوت الرسائل على أجوبة بعضهم. انظر: احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المرجع السابق، ص 139، 151.

(2) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي ، ج2، المرجع السابق ص

(3) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 19.

الأرثوذكسية، و اتخاذها عاصمة و تغير اسمها إلى دار الإسلام ضربة قوية اهتزت لها كل شعوب القارة الأوربية، فارتفعت الأصوات بجميع أنحاء القارة تدعو لحرب صليبية لمقاومة التيار الإسلامي الجارف⁽¹⁾.

وقد استغلت الكنيسة هذا الذعر لفرض زعامتها الروحية على العالم الأوربي ووجدت في دولة البرتغال الدعم لها بعد تدهورها نتيجة لنجاحات الدولة العثمانية بالشرق الأوربي ومن هنا أسلمت المهمة لأسرة الافيز النصرانية المتشددة للانتقام⁽²⁾.

تلقت بعدها أوربا ضربة ثانية لا تختلف عن الأولى كثيرا فقد قام السلطان العثماني سليمان القانوني بفرض حصار كبير على فينا عاصمة النمسا، وبالرغم من فشل الحصار إلا انه زاد من خوف دول القارة الذين سع والى حل للخروج من هذا الحصار الذي تفرضه الدولة العثمانية ، ولان الدولة العثمانية دخلت كقوة بحرية عظمى في البحر الأبيض المتوسط كان لزاما على القوى الأوربية إيجاد طريق بديل فكان الأطلسي سبيلهم في ذلك⁽³⁾.

المطلب الرابع: الدوافع العلمية

إن المتأمل لتاريخ النهضة الأوربية ينتبه إلى إحيائها للعلوم والمعارف في، والذي ساهم و اثر بشكل كبير في نفوس العالم للبحث وراء المجهولات، وقد كان لعلم الجغرافيا الحظ الأوفر من العناية إذا ما قورن بسواه من العلوم وإنماء أصوله وامتداد فروعه، إذ وجد له أنصاراً كثيرين منهم الأمير " هنري الملاح " وغيرهم من كبار العلماء⁽⁴⁾.

وقد قام الأمير هنري بتأسيس المدارس الخاصة وصنع الآلات اللازمة وقام بتكوين أكاديمية نظامية بحرية ومرصداً على الطرف الجنوبي لشاطئ البرتغال⁽⁵⁾، وبالتحديد في بلدة "سجرس" ودعا إليها كبار صانعي الخرائط والفلكيين والملاحين، ومن هؤلاء الجنوبيين الذين قاموا بمحاولة للدوران حول إفريقيا، ففي عام 1291م

(1) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج2، المرجع السابق ص 48.

(2) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 32.

(3) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي ، ج2، المرجع السابق، ص 49.

(4) محمد حمدي علي: الاكتشافات الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، ط1، المطبعة الجمالية، القاهرة، 133هـ/1913م، ص8.

(5) محمد حمدي علي، المرجع السابق، ص ص 8، 11.

أبحر " أوجولينو دي فيفالدو " من أهل جنوة في سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحري للهند، ولكن تحطمتا في مواجهة الساحل الإفريقي⁽¹⁾. وأيضاً التعلّم منهم رسم الخرائط للسواحل الإفريقية التي اكتشفوها والاستفادة منها في رحلاتهم، ولا أدل على ذلك من أنه في كثير من الأحيان كان الملاحون والتجار الإيطاليون هم ربان السفن البرتغالية⁽²⁾.

بالإضافة إلى ذلك تمّ تزويد هذه المدرسة بأدوات ملاحية متطورة من شأنها المساعدة في عملية الإبحار بعيداً، ولعل البوصلة⁽³⁾ تأتي في مقدمتها⁽⁴⁾، إضافة إلى جهاز الإسطرلاب⁽⁵⁾، والذي جعل من الميسور على السفن أن تبحر ليلاً ونهاراً⁽⁶⁾، وجهاز البورتيلان أو الرهنامج الذي أشرك مع البوصلة وساعد على معرفة خطوط السواحل وأهم المراسي والصخور المتواجدة بالبحار⁽⁷⁾.

ومن الأجهزة ذات الشأن والتي تم الاستعانة بها نجد جهاز التنوير، وهو آلة فلكية قديمة، تتكون من حلقات تمثل القبة السماوية، مقسمة إلى دوائر ثابتة مثبتة على حوامل ثابتة، أما الدوائر المتحركة فبإمكانها

(1) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 85، 86.

(2) فيج. جي. دي، المرجع السابق، ص 109.

(3) أصلها من الصين ونقلها عنهم العرب ثم نقلت من العرب إلى أوروبا عن طريق بحار يدعى قلاقيو، كانت إبرتها توضع في عود من القش في وعاء من الماء ثم طورها الملاح السالف الذكر لتصبح على شكلها الحالي، و هي ورقة عليها قطعة من الحديد، و أطرافها مغناطيسية حيث يجذب المغناطيس الحديد، مستديرة و مغطاة بالزجاج مقسمة إلى 32 درجة بالتمام، وتشير إلى الجهة ثم تعود إلى مركزها، و تستقر على الجهة الأصلية في الشمال . انظر: محمد حمدي علي، المرجع السابق، ص 9. و انظر: بيبي رئيس، المصدر السابق، ص 21.

(4) جورجيو قينياني: تاريخ السفن، تر أحمد الأورفلي، الناشر إديتردي، جينيف، 1976، ص 33.

(5) مصطلح يوناني يعني مرآة النجوم أو ميزان الشمس و هو جهاز يستعمل في تقدير المسافات وتعيين الاتجاهات في عرض البحر، ويعتبر "بظلموس القلوذي" أول من اخترع الإسطرلاب وصفاً دقيقاً بنوعيه السطحي والكروي وهو لا يستطيع أن يحدد خطوط العرض إلا بدرجة تقريبية، وهو عبارة عن قرص مستدير ومؤشر يتحرك في منتصف هذا القرص ويتجه نحو نجم الشمال، ويمثل الأجرام السماوية المسطحة. انظر: صالح رمضان محمد: المرجع السابق، ص 15؛ لطف الله القادري، الانجازات العالمية للعرب والمسلمين في القرون المتأخرة، دار الفیصل الثقافية، السعودية، 2006، ص 1؛ جورجيو قينياني، المرجع السابق، ص 22.

(6) السيد حسين جلال، المرجع السابق، ص 71، 73.

(7) دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص 181.

الحركة على الدوائر الأخرى تبعاً لحركة دوران الشمس أثناء النهار، ولعل من أولى أفلاك التدوير تلك التي صنعها الفلكي الرياضي "كلوديوس تولوميو"⁽¹⁾. ولتحديد نوبات الحراسة والعمل استعملت الساعة الرملية⁽²⁾.

ولعل أهم طفرة حققتها البرتغال في هذه المرحلة هي تشيد طراز من السفن الشراعية يسمى "الكرافل Caravel"، وهي سفن خفيفة سريعة الحركة، صغيرة الحجم، لا تزيد حمولتها عن 200 طن. ولكنها أكثر صلاحية من الناحية الملاحية، وأقل تكلفة من ناحية التشغيل إذا ما قورنت بغيرها من السفن كسفن الحنك الصينية⁽³⁾، وهذا كله بفضل سياستهم المتمثلة في استقدام عدد من المتخصصين في السفن من خليج بسكاي⁽⁴⁾، بسكاي⁽⁴⁾، والاعتماد على التقنية الإسلامية والمتمثلة أساساً في تزويد السفن بالأشرعة المثلثية، فضلاً عن الاتصال بالبندقيين و الجنوبيين الذين كانوا خبراء في المجال البحري، والذين قدموا للبرتغال العمالة اللازمة لصناعة السفن البحرية⁽⁵⁾.

كما ساهمت تلك الرحلات والمغامرات قام بها بعض التجار والجغرافيين إلى بعض مناطق العالم في تشجيع البرتغاليين على المضي قدماً في مشروع الكشوف الجغرافية والاستعمار، تلك الرحلات والمغامرات التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية والبرتغالية⁽⁶⁾.

ونذكر من هؤلاء الرحالة عل سبيل المثل لا الحصر "ماركو بولو Marco Polo"⁽⁷⁾ الذي رافق أفراد أفراد أسرته سنة 1271م، في رحلة إلى الصين بعد آسيا الوسطى (بلاد فارس و خراسان...) وإثر وصوله إلى

(1) جورجيو قينياني، المرجع السابق، ص31.

(2) نيقولا ناهض: الموسوعة العربية عالمية مصورة بالألوان، مج12، مؤسسة خليفة للطباعة، قبرص، 1998، ص2169.

(3) كولين ماكيفيدي، المرجع السابق، ص109.

(4) زاهر رياض، المرجع السابق، ص21.

(5) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص31.

(6) ميلاد المقرحي، المرجع السابق، ص67.

(7) ماركو بولو: رحلة ايطالي ولد بمدينة البندقية (فينيسيا) في عام 1254م في بيئة ثرية. وكان ابناً لنيقولو بولو، وهو من أبناء العائلات النبيلة بتلك المدينة. رافق أفراد أسرته سنة 1271م، في رحلة إلى الصين بعد آسيا الوسطى، وقد توفي ماركو بولو سنة 1324م روى قصته في كتابه سنة 1299م، يعتبر مرجعاً لعلماء الغرب في عصر النهضة قضى 16 عاماً في بلاط قبلاي خان بمنغوليا. أنظر: أحمد بوشرب، وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي، المرجع السابق، ص163؛ ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م. ط)، 1995، ص13، 15؛ أحمد صالح عبوش: ماركو بولو رحلته الشهيرة، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2017، ص7، 35.

الصين دخل في خدمة الشاه، مما سمح له بمعرفة شمال وجنوب تلك البلاد، وفي سنة 1291 م بدأت رحلة العودة بحرا عن طريق هرمز فالبنديقية التي وصلها سنة 1295م، وبعد أسره على يد الجنويين 1298م ألف في السجن كتاباً أطلق عليه اسم " كتاب العجائب " ⁽¹⁾، ونشر فيه الكثير من القصص المثيرة عما شاهده من كنوز الثروة في البلاد التي زارها ومنتجاتها الزراعية والصناعية وتقدم التجارة ⁽²⁾. وترجم الكتاب إلى اللغات الأوروبية، وأصبح أهم المراجع عن الشرق الأقصى، لكونه سمح بالتخلي عن المصادر الإغريقية وأصبح مرجعا لواضعي الخرائط ⁽³⁾.

وانكب المتقنون على دراسة المؤلف وقد كان أثره واضحا على واضع خريطة الكطلنية عام 1375م، وكان من بين كتب ملك البرتغال "دون ديوارت" وتمت ترجمته ونشره بالبرتغالية ⁽⁴⁾، ويبدو أن الأمير " هنري الملاح " قد حصل على نسخة من هذا الكتاب قدمها له أخوه " الدوم بيدرو"، هذا الأخير منحها له دوق البنديقية ⁽⁵⁾.

ومن الرحالة أيضا نجد "جاندو ماندفيل " والذي دامت رحلته من 1332م إلى 1366م، وقد ألف الرحالة كتابه "عجائب الدنيا" الذي عرف هو الآخر انتشارا كبيرا بين الأوساط وتجاوزت طبعاته الأربعين طبعة، حيث استمر في نشره حتى القرن السابع عشر، وقد ساهم الكتاب في إعطاء نظرة خيالية لأوروبا عن منطقة الشرق خاصة الأقصى ومما جاء فيه كلام عن سقوف من ذهب ونمل على مناجم الذهب ⁽⁶⁾.

كما سطع اسم "فرانشيسكو دي بولوتي" الفلورنسي والذي ألف هو الآخر كتابا سنة 1335م كان بمثابة المرشد للتجار الأوروبيين القاصدين الصين، وقد احتوى الكتاب على ذكر لأهم الطرق البرية و مراحلها و أنشط الأسواق و العملات المتداولة ⁽⁷⁾.

(1) احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، المرجع السابق، ص 163 .

(2) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 85.

(3) احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، المرجع السابق، ص 163.

(4) نفس المرجع، ص 163

(5) جلال يحيى، المرجع السابق، ص 74.

(6) احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، المرجع السابق، ص 164

(7) نفس المرجع، ص 164.

و قد وصف لنا البحار العثماني "بيري رئيس" في مصنفه كتاب البحرية المدى العالي من علوم البحر الذي وصل إليه بعض القساوسة البرتغاليين فقال: " وكان يوجد بالبرتغال بعض القساوسة الذين حازوا قدرا كبيرا من العلم بالرياح ومعظم العلوم الأخرى، بل إن منهم من وصل إلى درجة الفيلسوف، بل أكثر من ذلك ألف كتابا ضخما جمع فيه الكثير من أمور البحر واليابسة.....حتى انه أتم فيه أربعاً وعشرين ألف مسألة... كما شرح فيه الجزر التي في البحار ... ومن قرأ هذا الكتاب وطبق ما فيه فسيأمن على نفسه المخاطر ويصل بأمان⁽¹⁾.

و بالعودة إلى الرحلات تجدر الإشارة هنا إلى أن الاستعانة بالرحلات لم يقتصر على الرحالة الغربيين فقط فقد كان للرحالة المسلمين نصيب من ذلك، إذ استغلت أبحاث وأعمال الرحالة والبحارة العرب والمسلمين في سبيل الاستعمار تحت مسمى الكشوف الجغرافية، فأفادت دولة البرتغال كثيرا من أعمال الجغرافيين العرب، الذين كانت استفادتها - البرتغال - منهم، من خلال ترجمة مؤلفاتهم والبحث فيها، خاصة أولئك الذين تحدثوا عن رحلاتهم إلى إفريقيا والكنوز التي تترخر بها⁽²⁾.

والحقيقة أن تلك المعلومات العلمية العربية قد أسهمت في تصحيح الخرافات السائدة في أوروبا خلال العصور الوسطى، ومن تلك المفاهيم أن المياه الاستوائية في درجة الغليان، وأن الشياطين والعفاريت يسكنون البحار والمحيطات⁽³⁾، كما ساهمت تلك المعارف في الكشف عن غموض أجزاء عديدة من قارة إفريقيا خاصة خاصة في الشمال والشرق، ومن أبرز هؤلاء نذكر الرحالة الشهير المسعودي⁽⁴⁾ وابن بطوطة⁽⁵⁾.

(1) بيري رئيس، المصدر السابق، ص 29.

(2) جلال يحي، المرجع السابق، ص 74.

(3) محمود شاكر: موسوعة تاريخ الخليج العربي، ج 1، (د ط)، دار أسامة للنشر و التوزيع، الأردن، 2003، ص ص 164، 165.

(4) المسعودي: هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله وشهرته المسعودي. وقد ولد في بغداد في القرن التاسع الميلادي. وهو يعد من أعظم الجغرافيين المسلمين كما أنه كان ذا مؤرخا كبيرا، ولعل أشهر كتبه هو كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر ». أنظر: عبد العزيز طريح شرف: الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص 74.

(5) أحمد نجم الدين خليجة: إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د. ت. ط)، ص 83؛ هو أعظم أعظم الرحالة المسلمين قاطبة و أكثرهم طوافا في الأفاق، هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة، رحالة ومؤرخ. ولد بطنجة سنة 703هـ/1304م، ظل ابن بطوط حوالي 28 سنة، في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة وكان

وقد زار ابن بطوطة الهند والصين و إفريقيا و وصف ثراء التجار الواسع حتى أن ثراء الواحد منهم ربما امتلك المركب العظيم بجميع ما فيه⁽¹⁾. كما ثبت استفادة البحار والمستكشف البرتغالي " دي غاما" من كتاب الشريف الإدريسي⁽²⁾.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن الوجود العربي في بلاد الأندلس قد أسهم بشكل كبير في الاطلاع على المعارف العلمية العربية⁽³⁾، و من هنا جاءت صداقة الأمير هنري الملاح لأحد الجغرافيين المغاربة الذي كان يعرف الكثير عن مجاهل افريقية فاستعان به وبخبراته، وانفع كثيرا بمعلوماته واعتمدها في رحلة كشفه الطويلة⁽⁴⁾.

ويعد ابن بطوطة واحداً من أعظم الرحالة العرب، فقد أبحر سنة 1330م من عدن على امتداد ساحل شرق إفريقيا وزار " بربة " و "مقديشو " و "مبابسا " و " كيلوى "، إلا أن أهم رحلاته كانت في غرب إفريقيا حيث بدأ رحلته من مدينة فاس في سنة 1351م وعبر جبال الأطلس واخترق الصحراء الكبرى ونجح في الوصول إلى مملكة مالي الإفريقية ثم سافر بعد ذلك إلى " تمبكتو Tombocto " و " جاو Gao " سنة 1353م وقد اعتقد أن نهر النيجر يتصل بأعالي نهر النيل، ومن " جاو " عاد عبر الصحراء إلى مدينة فاس في مراكش⁽⁵⁾.

=يحسن عدة لغات منها: اللغة التركية، والفارسية. وتوفي في مراكش سنة 779هـ الموافق 1377م. أنظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، ط1، شركة =الأرقم بن أبي الأرقم، (د. م. ط)، 1430هـ/2009م، ص4. و انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في القرون الوسطى، ط1، دار آفاق للنشر و التوزيع، القاهرة، 2017، ص ص 149، 150.

(1) محمود شاكر، موسوعة الخليج العربي، المرجع السابق، ص 164.

(2) عبد الهادي التازي، " الصلات التاريخية بين المغرب و عمان"، حصاد ندوة الدراسات العمانية نوفمبر 1980م، مج3، ط2، وزارة التراث القومي و الثقافة، عمان، 1986م، 224. و هو محمد بن محمد الشريف الإدريسي من الأعلام الجغرافيين المسلمين الذين كانت لهم بصمة في الرحلة، ولد في سبتة من عام 1100م، درس في جامعة قرطبة، طاف في الأندلس و شمال إفريقيا و آسيا الصغرى و يقال انه زار فرنسا و إنجلترا، نزل بصقلية تحت رغبة ملكها و أمره بتأليف كتاب شامل، فكتب الإدريسي كتابه المشهور "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". انظر: زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص ص 75، 76.

(3) محمود شاكر، موسوعة الخليج العربي، المرجع السابق، ص 164

(4) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

(5) زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص 194، 196 ؛ فتحي أبو عيانة و محمد الخميس الزوكة، المرجع السابق، ص79.

وأخيرا لعل في تصريح المؤرخ " بيلي ديفي Bailey Diffie " ما يؤكد الاستفادة البرتغالية من الإرث الإسلامي حين يقول " إن المرافئ البرتغالية كانت جزءا من إمبراطورية تجارة المسلمين تماما كما كان تعلم البرتغاليين جزءا من جغرافيا و ملاحاة المسلمين"⁽¹⁾.

المطلب الخامس: الدوافع الجغرافية

لعب الموقع الجغرافي للبرتغال وجيوسراتيجيته دورا مهما في توسع هذه الأخيرة في قارتي آسيا وإفريقيا، فصغر مساحة البرتغال ومتاخمتها لدولة اسبانيا القوية في الجهة الشرقية والشمالية الشرقية، ودولتي فرنسا وبريطانيا في حدودها الشمالية حال دون توسعها في كلا الاتجاهين، كونها غير قادرة على مجابهة تلك القوى البحرية الأوروبية أو حتى العربية العثمانية فيما بعد في البحر الأبيض المتوسط⁽²⁾، ولذلك أصبح مجال التوسع المتاح هو حدودها الغربية والجنوبية ممثلة في المحيط الأطلسي والمغرب الأقصى⁽³⁾، كونها تواجه إفريقيا مباشرة كما استفادت البرتغال من طول ساحلها على الأطلنطي⁽⁴⁾.

وقد استعان البرتغاليون كذلك بالرياح الهادئة التي كانت تدفع السفن صوب الجنوب الغربي في الربيع وأوائل الصيف، ثم ما تلبث أن تنقلب عكسياً في فصل الصيف⁽⁵⁾، كما أنّ لهذه الدولة ميناء بحري هام، ساعدا كثيرا في عملية الكشف والاستعمار، وهو لشبونة⁽⁶⁾، الذي يقع في منتصف الطريق بين موانئ البحر

(1) عباس حمداني، المرجع السابق، ص2.

(2) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج2، المرجع السابق، ص 41.

(3) محمد هقاري: دور المستكشفين الأوروبيين في اكتشاف داخل القارة الإفريقية (خلال 1795-1850م) منقو بارك- زونيه كابيه- هنري بارت نموذجاً، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008/2009، ص12.

(4) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 29.

(5) عيسى علي إبراهيم ومحمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص82.

(6) لشبونة عند العرب وعند البرتغال lisboa وعند الانجليز Lisbion وعند الفرنسيين Lisbionné، يقال أن الفينيقيين هم من أسسها، دخلها العرب عام 712م، واستعادها ألفونسو 1147م، بها مرسى يقع على شاطئ المحيط ومنه انطلق دي غاما في رحلته إلى الهند. أنظر: عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص42.

المتوسط الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي⁽¹⁾. والذي صار منذ القرن 14 مخزناً للتجارة الإفريقية المنقولة إلى أوروبا مما وفر للمدينة خبرة أكثر من غيرها بإفريقيا والمحيط⁽²⁾.

ومن الموانئ البرتغالية البارزة نجد مرسى مدينة القصر وهو نهاية لنهر شطوبر وهو يتصل بالبحر ليتحول إلى مرفأً تصعد فيه السفن والمراكب، وتجدر الإشارة هنا إلى إن معظم موانئ البرتغال هي عبارة عن نهاية لانهار عظمى تصب في المحيط، كوادي " سندريره " العريض ونهر " بوغوو " نهر " اناشت "⁽³⁾.

(1) أشرف صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص 71.

(2) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 29.

(3) دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص 176.

المبحث الثاني: الحملات العسكرية البرتغالية على المغرب الأقصى والخليج العربي و موقف القوى المعنية.

المطلب الأول: الحملات العسكرية البرتغالية على الثغور المغربية

تمهيد:

بانتهاء معركة حصن العقاب⁽¹⁾ (1212م) كان من نتائجها اندفاع البرتغال نحو استثمار الفوز بالاستقلال التام عن الحكم العربي، في حين تهاوت مملكة الموحيدين بالمغرب إلى أن سقطت بيد بني مرين عام (1269م) فقامت دولة المرينيين⁽²⁾ في المغرب الأقصى وحكمت حوالي مائتي سنة متزامنة بذلك مع تعاظم دولة البرتغال وسط ضعف المرينيين والذي يمكن القول عن دولتهم أنها كانت ضعيفة إذا ما قورنت بدولة الموحيدين⁽³⁾، بسبب الأعداء الداخليين، ضف إلى ذلك تعدد مراكز القوى، مما شجع دولة البرتغال على إرسال أساطيلها لتحتل مدينة سبتة المغربية عام (1514م) فالمضي قدما نحو احتلال باقي الثغور والأقطار فكان بذلك-سقوط سبتة- بداية لسقوط دولة بني مرين وقيام دولة الوطاسيين⁽⁴⁾ التي لم تسلم هي الأخرى من التحرشات البرتغالية.

(1) تعرف عند الاسبانيين بمعركة لاس نافا سدي تولوسا و قد وقعت المعركة بالقرب من حصن أموي يسمى العقاب لذلك تسمى في التاريخ العربي الإسلامي بمعركة حصن العقاب. انظر: محمد ابن احمد الأندلسي(ابن جبير)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، لبنان، مصر، ص 172.

(2) بنو مرين، سلالة بربرية من قبيلة زناتة حكمت المغرب بين 1185و1468م، وهم ينتهون في نسبهم إلى جدهم الأعلى مرين بن ورتاجن وقد اجمع المؤرخون على عروبتهم، قاموا بغزو الأندلس سنة 1269م وتلمسان سنة 1337م. من أشهر ملوكهم: أبو الحسن المريني وابنه أبو عنان، اشتهر في عهدهم عدة أعلام مثل ابن خلدون ابن بطوطة ابن الخطيب. أنظر: محمد بن محي الدين المشرفي، الجديد في تاريخ المغرب، دار الكتاب العلمي سلما، طنجة، المغرب، 1958، ص: 79، 86 ؛ ابن أبي زرع علي الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط1، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط المغرب، 1392هـ/ 1972م، ص 14.

(3) عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب الأقصى من أقدم العصور إلى اليوم عهد بني مرين والوطاسيين مج 7، 1988، ص 7 .

(4) الوطاسيون فرع من بني مرين ينتمون إلى قبيلة زناتة البربرية تنسب إلى مؤسسها محمد الشيخ الوطاسي الذي وضع أسس هذه الدولة سنة 1471، بعد أن كان قد قضى على الدولة المرينية سنة 1465 حيث تمكن من بسط نفوذه على كل شمال المغرب تقريبا، انظر: السلاوي الناصري، الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، ج4، الدار البيضاء، 1955، ص ص 96 97 .

وقد انطلق الغزو البرتغالي إلى بلاد المغرب بدءا باحتلال مدينة سبتة سنة 1415 م ليتوقف في عام 1515 م أثناء هزيمتهم بالمعمورة، ليدخل بعدها البرتغال في مرحلة الضعف والركود إلى أن اضطروا وتحت وطأة الجهاد المغربي إلى الانسحاب عن جل الثغور التي كانوا يستولون عليها. وقد رأيت أن اقسام مرحلة الاحتلال البرتغالي للمغرب إلى مرحلتين متميزتين جغرافيا و زمنيا و حتى سياسيا.

1- المرحلة الأولى: (818 - 891هـ / 1415 - 1486م)

ركز فيها البرتغاليون جهودهم على المنطقة الشمالية من المغرب، و تمت عمليات الاحتلال كلها خلال القرن الخامس عشر و من سماتها أنها تمت بمجهود برتغالي كبير كان في بعض الأحيان اكبر من طاقة البرتغال التي لجأت إلى طلب العون من القوى الأوروبية في كثير من المرات.

1.1 - احتلال سبتة:

أدى انشغال الدولة المرينية بصراعاتها مع عرب الأندلس وتحديدا مع إمارة بني الأحمر إلى إضعاف الطرفين لدرجة كبيرة، فكثرت الطامعون بهم، وكان البرتغاليون سباقون في هذا المجال لظروف تكلمنا عنها سابقا، فبدؤوا يهاجمون ثغور المغرب، وكانت البداية بمدينة سبتة 1415م⁽¹⁾.

في 25 اوت 1415م غادرت ميناء لشبونة قوة برتغالية على ظهر أسطول مكون من 240 سفينة على ظهرها حوالي (50000) مقاتل من البرتغال. أبحرت بصرية تامة واحتلت ميناء سبتة المغربي في بعد حصار طويل دام 6 سنوات⁽²⁾، كان هذا على عهد السلطان " أبو سعيد عثمان المريني" الذي عرفت الدولة

(1) فاهم نعمة الياسري، حسنين عبد الكاظم عجه : " الإسهامات السياسية لمتصوفة المغرب الأقصى في العصر الحديث"، مجلة كلية التربية واسط، ع12، جامعة واسط، محافظة واسط، العراق،(د ت)، ص ص 163، 164.

(2) السلاوي، ج4، المصدر السابق، ص 110.

المرينية في عهده ضعفا كبيرا، جراء تلك التجزئة الداخلية بسبب انشغاله بالحرب ضد أخيه مولاي "يعقوب"⁽¹⁾، ناهيك عن تعرض البلاد لنكبات كالطاعون والمجاعة، كل هذا صب في صالح البرتغال⁽²⁾.

وعبثا حاولت الدولة المرينية بالمغرب مواجهة هذا الخطر بالرغم من تلك المحاولة التي قام بها الحاكم أبو سعيد عثمان (1397 1420م) بالاشتراك مع القوى الإسلامية في غرناطة لتوجيه حملة بحرية وأخرى برية قصد محاصرة البرتغاليين في سبته واسترجاع المدينة، واضطرت القوات الإسلامية للعودة ولم يحاول المغاربة استرداد المدينة بعد ذلك إلا بعد زمن طويل⁽³⁾.

وما إن استتب الوضع للبرتغاليين بالمدينة حتى طردوا جميع سكانها من المسلمين وشرعوا في بناء الحصون من حولها،⁽⁴⁾ و أحاطوا تلك الحصون والسوار بخنادق والتي كان لها دور كبير وفعال في إحباط محاولات الاسترجاع التي كان يشنها المغاربة⁽⁵⁾.

كان لاحتلال مدينة سبته صدى كبير على المستوى العالمي في تلك الفترة فيقول الضابط البرتغالي "فاسكو كارفالو: " أن هذا الحدث الخطير العظيم أجدر أن يعتبر بداية للعصور الحديثة من أن يتخذ سقوط القسطنطينية في يد المسلمين (1453م) بداية لها⁽⁶⁾.

(1) فالح حنظل: العرب و البرتغال في التاريخ 711م إلى 1720 م، ط1، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1997، ص84.

(2) محمد بن تاويت، تاريخ مدينة سبته، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982، ص175؛ عبد الكريم كريم: تاريخ المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006، ص6.

(3) شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر ليبيا تونس الجزائر المغرب الأقصى (مراكش)، ط1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 2009، ص48. يذكر السبتي أن ابا سعيد عثمان قد تقاعس عن إرجاع المدينة حتى، انه يوم وصل خبر احتلالها كان في وليمة راقصة فلم يقطع الاحتفال. انظر: السبتي، المصدر السابق، ص ص 75، 76.

(4) محمد بن تاويت، المرجع السابق، ص 179.

(5) عبد اللطيف الخطيب: "سبته في تاريخ المغرب القديم و الحديث"، مجلة دعوة الحق، ع5، السنة الثالثة، وزارة الأوقاف و لشؤون الإسلامية، الرباط، رجب 1379هـ / 1960م، ص44.

(6) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 48.

كما أدى احتلال مدينة سبته إلى ظهور فجر جديد في تاريخ البرتغال وهو سياسة التوسع نحو السواحل المغربية و العربية عموماً، إضافة إلى ذلك الدور الكبير الذي لعبته المدينة في سبيل الوصول نحو السواحل الغربية للقارة الإفريقية، فقد كانت بمثابة القاعدة التي ينطلق منها البرتغاليون في سبيل تحقيق أهدافهم، فكانت هذه الحملة الصليبية الهائلة على البلاد المغربية أول محاولة استعمارية قامت بها المسيحية في غرب العالم الإسلامي وأول هجوم توسعي حققته المملكة البرتغالية الناشئة⁽¹⁾.

بعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم في مدينة سبته بدأت أطماعهم تتطلع إلى باق الثغور فكانت المحاولة على طنجه⁽²⁾، فتشكلت حملة مكونة من 800 جندي ووصل الأسطول إلى سبته في عام 1437م، وانقسمت إلى قسمين قسم يقوده الأمير " دي هنريك D.Henrique "، وقسم يقوده " دي فرناندو D.fernendo " وكانت الخطة أن يقوم الجيش الأول بالسير برا نحو المدينة في حين يتخذ الجيش البري الطريق البحري قصد تطويقها⁽³⁾.

جاء ذلك في وقت كان المغرب يعاني اضطراباً سياسياً في السلطة، فبعد أن توفي السلطان المريني "أبو سعيد عثمان" 1420م خلفه ابنه الصغير في السن "عبد الحق" وكثرت الأطماع في الحكم من طرف الحجاب لتؤول الأمور إلى الوزير "أبو زكريا يحيى الوطاسي"، والذي أسرع في تحريض القبائل على الجهاد ضد العدو، وكان هو على رأس الجيش المجاهد وانتهت المعركة بهزيمة كبيرة للبرتغاليين⁽⁴⁾، وكان من جملة ما قتل قائد الحملة "الدون فيرناندو" الذي نقلت جثته إلى فاس ليراها الجميع⁽⁵⁾.

(1) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 21.

(2) طنجة سماها البرتغاليون طنجة، مدينة عظيمة أسسها الرومان على شاطئ المحيط الأطلسي، تبعد ثلاثين ميلاً عن سبته و مائة و خمسين ميلاً عن فاس، ضمت إلى ممتلكات سبته لما كان القوط يحكمون إسبانيا. انظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، تر محمد حجي محمد الأخضر، ج1، ط2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص ص313، 314.

(3) عبد القادر العافية: " الاحتلال البرتغالي ومعركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، 1978، ص 102.

(4) شوقي عطالله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 48.

(5) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 315.

1. 2- احتلال القصر الصغير⁽¹⁾:

كان على عرش البرتغال في هذه الفترة الملك " الفونس الخامس" وكان أكثر إصرار على استكمال احتلال باق الثغور، ويعزى حرص هذا الملك نتيجة تحريض بابوي لأوربا بصفة عامة والبرتغال على الخصوص، للقضاء على العالم الإسلامي كردة فعل بعد استيلاء العثمانيين على القسطنطينية⁽²⁾.

ويعود اختيار الملك الفونس الخامس لمنطقة القصر الكبير لما لها من أهمية إستراتيجية كونها تقع بين مدينتي سبته وطنجه، فكان احتلاله عبارة عن تمهيد لاحتلال المدينة المستعصية طنجه⁽³⁾، وقاد الملك الأسطول بنفسه في 21 أكتوبر 1458م، و تمكن من السيطرة عليه⁽⁴⁾، وكانت ردة الفعل بان قام "عبد الحق بن سعيد المريني" ملك فاس بتشكيل جيش و حاصر المدينة لمدة شهرين، إلا أن سوء الأحوال الجوية أجبرته على رفع الحصار في 02 جانفي 1459م⁽⁵⁾.

أدى سقوط مدينة القصر الصغير إلى تقوية القاعدة العسكرية في سبته، حيث شكلت كل من مدينتي سبته و القصر الصغير قاعدتين متقدمتين باتجاه مدينة طنجه الإستراتيجية وتأخر الهجوم على طنجه إلى غاية 1464⁽⁶⁾، وقاد الحملة الملك الفونس الخامس بنفسه، إلا أنه فشل مرة أخرى نتيجة استماتة أهلها في الدفاع عنها ولقي خسائر كبيرة⁽⁷⁾.

(1) أسست هذه المدينة على يد المنصور ملك مراكش تقع على شاطئ البحر تبعد عن مدينة طنجه حوالي اثني عشر ميلا، وتبعد عن مدينة سبته حوالي ثماني عشر ميلا، كان سكان القصر الصغير متحضرين جدا فكان اغلبهم بحارة كما اشتغلوا بالنسيج وفيه تجار أغنياء ومقاتلون أقوياء، انظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المصدر السابق، ص 316 .

(2) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 98.

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 8 ؛ عبد القادر العافية، المرجع السابق، ص 103.

(4) شوقي عطا لله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 50.

(5) الوزان، المصدر السابق، ص 316.

(6) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 98.

(7) الوزان، المصدر السابق، ص 315.

وهكذا أصبح احتلال مدينة طنجة بمثابة الحلم بالنسبة للتاج البرتغالي من خلال تلك المحاولات الثلاث المبذولة من أجل إخضاعها، والتي كانت آخرها عام 1464، حيث خسر فيها البرتغال ما يقارب مائتي قتيل وأكثر من ألف أسير⁽¹⁾، ما جعل المدينة بمثابة مقبرة للنبلاء البرتغاليين⁽²⁾.

1. 3- احتلال أنفا: و في 869هـ / 1465م توجهت حملة برتغالية مكونة من خمسين سفينة تحمل عشرة آلاف من الجند قادها " دون فرناندو " نحو مدينة أنفا⁽³⁾ التاريخية والتي دكها وكاد يزيلها من الوجود قبل أن يعود إليها ليجعلها معقلا من معاقله⁽⁴⁾.

1. 4- احتلال أصيلا:

حشد الملك "الفونس الخامس" قوة عسكرية مكونة من 474 سفينة محملة بثلاثين ألف مقاتل، وكانت الوجهة نحو مدينة أصيلا في 24 09 1471م، ونجحت الحملة في احتلال المدينة⁽⁵⁾ وأسرت الحامية البرتغالية البرتغالية عددا كبيرا من المدافعين عليها من بينهم أولاد وزوجات "محمد الشيخ بن أبي زكريا" ، حيث كان في هذا الوقت مشغولا بحصار مدينة فاس⁽⁶⁾ فأسرع بإنجاد مدينة أصيلا لكن الوقت كان قد تأخر فدخل معهم في مفاوضات انتهت بعقد صلح بين الطرفين، وكان الاتفاق أن لا يهاجم المغاربة البرتغاليون في مناطق نفوذهم على أن يطلق هؤلاء الأسرى بما فيهم أولاد و زوجات محمد الشيخ باستثناء احد أولاده وهو ابنه محمد والذي سيعرف فيما بعد بالبرتغالي⁽⁷⁾.

(1) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 50 .

(2) فالخ حنظل ، المرجع السابق، ص99.

(3) مدينة في المغرب الأقصى ستعرف لاحقا باسم الدار البيضاء ظلت بيد البرتغاليين مدة تقدر بأربعين سنة. انظر: محمد الأمين محمد، محمد على الرحمانى: المفيد في تاريخ المغرب، (د ط)، دار الكتاب الحديث، الدار البيضاء، (د ت)، ص 181.

(4) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج 7، المرجع السابق، ص 161.

(5) فالخ حنظل ، المرجع السابق، ص 99.

(6) الوزان، المصدر السابق، ص ص 312، 313.

(7) هو أبو عبد الله محمد وقد قضى عند البرتغاليين حوالي السبع سنوات و سمي بالبرتغالي لأنه حين رجع إلى المغرب كان يتقن اللغة البرتغالية حكم ما بين 1504 1524 م. انظر: محمد الأمين محمد، المرجع السابق، ص ص 181، 182.

1. 5- احتلال طنجة:

سقوط مدينة أصيلا في يد البرتغاليين جعل سكان طنجة في موقف محرج للغاية، فقد أصبحت المدينة محاطة بالخطر البرتغالي من جهة الشمال في سبته والقصر الصغير، وأصيلا في الجنوب، ما حمل هؤلاء على إجلاء المدينة حاملين معهم أغلي ما يملكون⁽¹⁾، فسقطت بذلك طنجة بأيدي البرتغاليين وقبلها العرائش سنة 1471 وبذلك أصبح ملك البرتغال يلقب باسم (ملك البرتغال و ملك الأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار) .

كان مما شجع البرتغاليين على عملية الغزو هذه أن المرينيين كانوا في رمق حياتهم الأخير وبداية ظهور طلائع دولة الوطاسيين التي ستتزعزع عملية الجهاد⁽²⁾، فبعد سقوط مدينتي طنجة وأصيلا في يد البرتغال بحوالي السنتين، استطاع "محمد الشيخ الوطاسي" وبعد صراع مرير مع "مولاي محمد علي الإدريسي"، الدخول إلى مدينة فاس⁽³⁾، وبذلك ينتهي زمن الدولة المرينية لتولد الدولة الوطاسية والتي تزامنت مع تكثيف البرتغال لحملاته لحملاته نحو الثغور المغربية خاصة الأطلسية منها⁽⁴⁾.

والحقيقة أن هذا الحكم الجديد لمراكش لم يكن في صالح المغرب، إذ لم يكن بالقوة المرجوة منه على ما سنرى بل على العكس أصبح المغرب على درجة كبيرة من الضعف إذا ما قورن بالدولتين الأوربيتين اسبانيا والبرتغال.

2- المرحلة الثانية: (891 - 921هـ / 1486 - 1515م):

وفيهما ركز البرتغاليون على الجهة الجنوبية من المغرب أي المناطق المتواجدة جنوب نهر أم الربيع بالمغرب وقد تمت عملية الاحتلال في العقدين الأول والثاني من القرن السادس عشر. فرغم وقوف الوطاسيين ومحاولتهم مقارعة الاحتلال الأيبيري للمناطق البرتغالية إلا أن مقاومتهم إياه اقتصررت على الثغور الشمالية التي

(1) الوزان، المصدر السابق، ص 314.

(2) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج 7، المرجع السابق، ص 161.

(3) تعد مدينة فاس من أكبر المدن الإسلامية في المغرب، يحيط بها أسوار متينة وعالية، يرجع تاريخ بناءها إلى عصر المولى إدريس الثاني من أقرباء هارون الرشيد، تعرضت للغزو الفاطمي على يد جوهر الصقلي الذي فتحها سنة 349هـ، دخلها الأمويون في عهد المنصور بن أبي عامر سنة 365هـ، وفي عهد المرابطين والموحدين انتقلت عاصمة المغرب منها إلى مراكش. أنظر: الصديق بن العربي، كتاب المغرب، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص 207، 211. وانظر عنها: الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 218، 221.

(4) فالج حنظل، المرجع السابق، ص 100.

احتلها الأيبيريون، بينما تركت الثغور الجنوبية دون دفاع منظم و تحصين قوي، ما فتح الباب للعدو لاحتلال الثغور المراكشية و السوسية⁽¹⁾ الجنوبية.

2. 1- احتلال آسفي:

باعتلاء الملك "جيان الثاني" حكم البرتغال جعل نصب عينه السيطرة على مينائي آسفي⁽²⁾ و ازموور فعقد مع شيوخ القبائل بالمناطق المحيطة بالميناءين معاهدات وعديد الاتفاقيات التي خولت له امتيازات تجارية وتنازلات فيهما⁽³⁾.

أما في فترة حكم الملك "عمانويل الأول" الذي توصل للعرش البرتغال سنة 1491م، فقد أولى اهتماما كبيرا على أسفي الثغر المغربي الواقع على شاطئ المحيط الهندي بأقصى المغرب، نظرا لما تتمتع به هذه المنطقة من امتيازات تجارية وغناها بالمحصولات الزراعية والمعدنية⁽⁴⁾، فقد كانت تلعب دورا هاما في التجارة بين غرب إفريقيا وجنوبها الغربي.

وقد كانت منطقة أسفي في ذلك الوقت مقسمة بين ثلاث سلطات متنازعة سلطة الوطاسيين ورؤساء القبائل وسلطة البرتغاليين، الذين عرفوا كيف يتسللون إلى داخل المدينة من خلال الاتفاقيات مع مشايخ القبائل⁽⁵⁾. وكان البرتغاليون يقومون بإشعال الفتن من حين لآخر من اجل إيجاد ذريعة للاستيلاء على المدينة، وكانت لهم صلات جيدة "بيحيى بن تعففت"⁽⁶⁾ الذي كان صاحب الأمر في أسفي من خلال تلك الهدايا التي كان التجار البرتغاليون يقدمونها له⁽¹⁾.

(1) محمد الأمين محمد، المرجع السابق، ص 182.

(2) أسفي بفتحيتين وكسر الفاء وهي بلدة على شواطئ البحر المحيط بأقصى المغرب، يرجع تاريخ تأسيسها إلى العصر القديم كانت المدينة حتى نهاية القرن الخامس عشر تلعب دورا مهما في تجارة غرب إفريقيا و شمالها الغربي وكان بها حوالي المائة دار لليهود كما دخلتها جالية أندلسية كبيرة بعد سقوط الأندلس . انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج1، دار صادر، بيروت، 1977، ص 180 ؛ الحسن الوزان، المصدر السابق، ص147؛ ابن العربي، المرجع السابق ص: 60، 61.

(3) عطاء الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 53 .

(4) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 9.

(5) عطاء الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 54 .

(6) هو يحيى بن تاعفوفت عين من قبل السلطات البرتغالية لترأس مشيخة أسفي وتسيير زمام أمور المسلمين بها، ويعتبر من الشخصيات الرئيسية التي استند عليها الحكم البرتغالي للمغرب الأقصى نظرا للخدمات الجليلة التي قدمها للمحتل، كما انه سن القوانين ووضع التنظيمات والتي تنظم علاقات السكان بعضهم ببعض، وكان له نائب ينوب عنه في الفصل بين المتخاصمين من

استغل البرتغاليون فوضى عارمة بأسفي نتيجة اشتباك الأهالي بأحد معارف البرتغاليين الذين دافعوا عنه، و في أثناء الاشتباك ظهرت حملة برتغالية قادمة من البرتغال مكونة من خمسة آلاف جندي من المشاة و مائتين من الفرسان محملين باعتي العتاد⁽²⁾، واستطاع قائد القوة البرتغالية "منديز" أن يحصل من سلطات على حق بناء دار تجارية تحفظ لهم بضائعهم كانت هذه الدور بمثابة قلاع حربية موجهة و كانت تستعمل لدس الأسلحة المخبئة في الصناديق على أنها براميل للتجارة⁽³⁾ .

عامل البرتغاليون أهالي المنطقة معاملة سيئة وصلت إلى درجة المساس بالمقومات الدينية فحولوا المسجد الكبير إلى محل للقاذورات ودمروا المعاهد الدينية، بل وصل الأمر بالجنود البرتغاليين أن أقدموا على سرقة أولاد المدينة وبيعهم في أسواق النخاسة على أنهم عبيد⁽⁴⁾.

وقد استغلت السلطات البرتغالية تلك النزاعات القبلية استغلالا جيدا من أجل تحقيق المصالح خاصة في خلاف "علي بن عثمان"، و "يحيى بن تعففت" اللذان كانا يتسابقان من أجل التقرب إلى المستعمر قصد نيل مشيخة البلد، وكان "بن تعففت" من الشخصيات الهامة التي اعتمد عليها البرتغاليون في تسيير المنطقة فسن القوانين ونظم المنطقة وفق ما يتوافق مع دولة البرتغال التي اعتبرت وفاته سنة 1517 م خسارة لا تعوض⁽⁵⁾.

بعد السيطرة على أسفي جاء الدور على ميناء "الصويرة" الذي يقع في الجنوب من أسفي لتتجه الأنظار إلى ميناء أغادير نظرا لما يتميز به الميناء من مزايا، كونه منفذ لمنطقة سوس الزاخرة بالمنتجات ناهيك عن كونه ميناء جيد لرسو السفن⁽⁶⁾.

=سكان المغرب، وفرض الإتاوات التي كان يجمعها بالسلم أو بالقوة . انظر عنه: مارمول كريخال، إفريقيا، تر محمد حجي و آخرون، ج2، دار المعرفة للنشر، الرباط، 1988 - 1989م، ص 54؛ عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 56 .

(1) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 149.

(2) نفس المصدر، ص 150 .

(3) محمد ابن احمد الكانوني العبيدي: علائق أسفي و منطقتها بملوك المغرب، تحقيق علال ركوك، الرحالي الرضواني، محمد الظريف، ط1، الرباط، (د ت ط)، ص 60 .

(4) نفس المصدر، ص 62 .

(5) عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص56.

(6) نفس المرجع، ص56 .

2. 2- احتلال أغادير:

في بداية القرن السادس عشر تفتن احد المغامرين يدعى " لويس " إلى أهمية الميناء و حاول أن يعقد اتفاقات بالمناطق المحيطة به، و أيده في ذلك الملك عمانويل الأول لكن بصفة غير رسمية تخوفا من اسبانيا التي كانت لها هي الأخرى أطماع بالمنطقة و استطاع المغامر الاسباني بناء قلعة صغيرة أطلق عليها اسم سنتا كروز.

وفي عام 1513 عينت الحكومة البرتغالية " دي فرانثيسكو " (1513 1521) محل المغامر الاسباني وقد استطاع "فرانثيسكو" تثبيت أقدام البرتغال بأغادير واستكمل بناء القلعة وجعل لها بابين احدهما على البحر والأخر على البر و قدر عدد الجنود بالحامية حوالي 700 جندي نظامي⁽¹⁾.

2. 3- احتلال ماسة:

تعتبر مدينة " ماسة " الساحلية الفلاحية من أهم المدن المغربية التي جعلها البرتغال ضمن اهتماماته نظرا لموقعها على الأطلسي وطابعها الفلاحي ولخصبة أراضيها والنهر الذي يتخللها، و قد أعلن ثلاثة من شيوخ القبائل بالمدينة ولاءهم للحاكم البرتغالي وتعهدوا ببناء قلعة في المكان الذي يراه البرتغاليون مناسباً.

2. 4- احتلال أزموور:

ومن المناطق المهمة والتي بسط فيها البرتغاليون سيطرتهم نجد مدينة " أزموور"⁽²⁾ التي تعتبر المفتاح إلى مراكش، وقد كان للبرتغال قدم في أزموور يعود إلى سنة 1486 حين سمح شيوخ المدينة ببناء حصن برتغالي بموجب إحدى المعاهدات إلا أن المخطط لم ينفذ نظرا للثورة العارمة التي اجتاحت البلاد بعد أن حاول البرتغاليون بناء القلعة و لم يسمح لهم الأهالي بذلك⁽³⁾.

(1) عطاء الله الجمل، المغرب العربي الكبير ، المرجع السابق، ص، 57 .

(2) هي مدينة صغيرة تابعة لاقليم لدكالة تقع على ضفة وادي أم الربيع، بين الدار البيضاء والجديدة، يرجع تاريخها إلى العهد الفينيقي، قدم إليها التجار البرتغاليون بكثرة خاصة لشراء أسماكها، كان سكانها من الحضرة. أنظر: الوزان، المصدر السابق، ص 157، 158. و انظر: ابن العربي، المرجع السابق، ص 51.

(3) عطاء الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق ص 59.

استغل الملك البرتغالي "عمانيون الأول" فرصة الصراع القائم بالمنطقة في البيت الوطاسي بين "محمد الشيخ البرتغالي" و "مولاي زيان"، وأرسل حملة بقيادة "مينيز" وصلت إلى المدينة عام 1507، كانت الحملة مكونة من ثلاث مراكب مع قارب مجداف للتحري في أزموور و العرائش، و اخذ معه رساما لرسم منابع الأنهار، و بعد أن عاد بالتقرير إلى البرتغال و على ضوء تلك المعلومات أرسل الملك حملة ثانية عام 1508 تحت إمرة الحاجب مينيز، ووصلت الحملة في سرية تامة و في صباح نفس اليوم قصف الأسطول المدينة و استمات الأهالي في الدفاع عنها و سرعان ما عادت الحملة أدراجها لعدم إيجادها للتيسيرات التي كانت منتظرة من "مولاي زيان" الذي كان على علاقة ودية مع ملك البرتغال⁽¹⁾.

غير أن الملك البرتغالي كان مصمما على احتلال المدينة فأرسل حملة ثانية في سبتمبر من سنة 1513 م مجهزة بأنواع الأسلحة النارية وشرعت تقصف المدينة من كل جانب ما حمل الأهالي على الاستسلام وفتح الأبواب بل والجلاء عنها نتيجة ما تعرضت له من قصف⁽²⁾، واتجه الفارون إلى مدينتي سلا وفاس⁽³⁾.

كان لاحتلال مدينة أزميز صدى على العالم الأوربي ما يعطينا انطبعاا اكبر عن صليبية الحروب البرتغالية في المغرب و المشرق العربيين، فبعد أن أذاع الملك البرتغالي خبر الانتصار في أزميز استقبل الخبر في البلاط البابوي على أنه انتصار للمسيحية، وبموجب ذلك تم إرسال خطاب بابوي يحمل في طياته الكثير من الثناء للملك البرتغالي من الكنيسة البابوية والتي كان على رأسها البابا "ليو العاشر"⁽⁴⁾.

(1) Damiao de gois :Les portugais au Maroc de 1495 a 1521 extrai de la chronique de roi d. manuel de Portugal, traduction francais par robert ricard, rabat, p 37.

(2) عطاالله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع سابق، ص 60 .

(3) الوزان، المصدر السابق، ص 158.

(4) عطاالله الجمل، المغرب العربي، المرجع السابق، ص 61 ؛ وهو البابا ليون العاشر أو يوحنا لورنزو المديتشي سابقا كان هذا البابا شغوبا بفتح إفريقيا، وتباحث مع فرانسوا الأول ملك فرنسا في مشروع غزو إفريقيا من ناحية تونس و طعن العثمانيين من الخلف، لكن وملك فرنسا تخوف من إقحام نفسه في مغامرة خاسرة أمام القوتين الصاعدتين العثمانية العدو والاسبانية المنافسة واعتذر للبابا بذريعة نقص المعلومات الكافية للدخول إلى إفريقيا من ناحية تونس، لهذا اعتنى البابا بالشباب الإفريقي الحسن الوزان أملا في الحصول على المعلومات الكافية على غرار ما فعل المغول في الشام بابن خلدون. انظر: محمد عبد الفتاح الإبراهيمي: " الحسن الوزان و كتابه وصف إفريقيا"، مجلة دعوة الحق، ع 2، السنة 23، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط (المغرب الأقصى)، جمادى الأولى 1402هـ/ ابريل 1982م، ص 89 ، 93.

يبدو أن احتلال مدينة أزموور وبالرغم لما له من أهمية إلا أنه كان كخطوة نحو المدينة العريقة مراكش⁽¹⁾، والتي سرعان ما اظهر البرتغال نيته في احتلالها حيث وفي الأشهر الأولى من سنة 1514 أعدت قوة لاحتلال مراكش إلا أن الطاعون الذي أصاب الجنود حال دون نجاح المخطط⁽²⁾.

وفي سنة 1515 و بعد دخول بعض القبائل تحت كنف البرتغال كنتيجة على احتلالهم أزموور قررت السلطات البرتغالية محاولة السيطرة على مراكش من جديد، وانطلقت القوات البرتغالية صوب مراكش من مدينتي أسفي و أزموور وبالاشتراك مع القبائل الموالية للحكم البرتغالي، إلا أن سوء التخطيط واستماتة أهل المدينة في الدفاع عنها بالإضافة إلى الطبيعة الصعبة على الجيش النظامي البرتغالي والمساعدة لأهل المنطقة جعلت البرتغال ينسحب من على أشرف المدينة دون تحقيق النتائج المرجوة⁽³⁾.

كان من نتائج انهزام البرتغاليين في مراكش أن غير هؤلاء من سياستهم الرامية لاحتلال المغرب، حيث أخذت لشبونة تنتهج سياسة التقرب من بعض القبائل من أجل خلق عملاء لها بالمنطقة أمثال: "علي مؤمن"، "يحيى بن تعفوفت"، "عبد الرحمان بن جدو"، "الشيخ السعيد"، "أولاد عمران" و غيرهم كثير، و قد عمل هؤلاء على إرسال التقارير والرسائل التي من شأنها أن تعلم ملوك البرتغال بأوضاع المغرب⁽⁴⁾.

كان من نتائج تلك المعركة أن عززت من نفوذ السعديين لدورهم البطولي في تشجيع حركة الجهاد ضد القوات الغازية كما عززت عمليات الجهاد بأصقاع المغرب الأقصى. كما أن فشل الحملة على مراكش جعل البرتغاليين يدركون جيدا بأن احتلال المغرب يتوقف إلى حد كبير على احتلال مدينة فاس⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: الاستكشافات البرتغالية التدريجية للقارة السمراء وصولا إلى الهند

البرتغال هي أولى الممالك الأوروبية التي بدأت تهتم بالوصول إلى الشرق وقد بدأت حركة الكشف لديها مبكرا على يد ملكها هنري الملاح (1394-1460م)،⁽⁶⁾ الذي شرع منذ 1418 يرسل البعثات الاستكشافية

(1) عاصمة المغرب، تقع في سفح الأطلس الكبير، أسسها يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس هجري، بلغت أوج قوتها وازدهارها في عهد الموحدين، فصارت عاصمة للمغرب الإسلامي. أنظر: ابن العربي، المرجع السابق، ص 178، 179.

(2) عطاء الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 61.

(3) نفس المرجع، ص ص 61، 62.

(4) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 44.

(5) نفس المرجع، ص 43.

(6) محمد نصر مهنا، المرجع السابق، ص 56.

حول الساحل الإفريقي، وفي عام 1482 انشأ البرتغاليون لهم مستعمرة في ساحل الذهب كانت أول مستعمرة أوروبية تقام في إفريقيا⁽¹⁾. وقد كان الاحتلال البرتغالي للشعور المغربية تمهيدا للوصول إلى سواحل افريقية واستعمارها واستغلال ما بها من خيرات⁽²⁾.

وهكذا بدأت الحملات الكشفية تسير على قدم وساق وكانت كل مرة تتقدم الواحدة مستفيدة من تجارب سابقتها في زيادة المؤن وتقوية تحمل السفن للعواصف وزيادة اتساعها إلى أن تحقق الحلم على يد خلفائه. وفي هذا المطلب حاولت استعراض أهم المراحل التي مرّ بها الكشف البرتغالي لإفريقيا، ومميزاتها، وصولا إلى الهند وموقف القوى الفاعلة (دولة المماليك، ودولة المغول في الهند) من ذلك.

1- الاكتشافات البرتغالية للساحل الغربي في إفريقيا (1415 – 1462م):

باحتيال سببة على الساحل المغربي سنة 1415م كان البرتغاليون قد خطو أول خطوة نحو استعمار القارة الإفريقية فتشا عبت رحلاتهم وتنوعت على جزر ساحلية في غرب القارة كالآتي:

تمكن البرتغاليون بين سنتي 1418 و 1419م من اكتشاف جزر " ماديرا madeiras " المصاوبة للساحل المغربي و احتلالها⁽³⁾، بعد أن أبحروا حوالي 700 ميل، و قد جعلوا من الجزيرة مركزا للتزود بالاحتياجات⁽⁴⁾، و كان ذلك على يد " غونزالفيس زاركو" الذي اكتشف " جزر الكناري Iles Canres " سنة 1424م،⁽⁵⁾ و تمكن البرتغاليون بعدها من الوصول إلى " جزر الأزور Azores " في سنة 1427م، و هي جزر مازالت خاضعة للبرتغال إلى الآن⁽⁶⁾، ثم جاء الدور على " جيل إنييس Gil-Enaes " الذي تمكن في سنة

(1) سليم طه التكريتي: الصراع على الخليج العربي، السلسلة السياسية 12، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد، بغداد 1966م، ص 24.

(2) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

(3) نفس المرجع، ص 43.

4 بيري رئيس، المصدر السابق، ص 32.

(5) Robert Cornevin: **Histoire de l' Afrique des origines aux XVI siècle**, T1, Payot, Paris, 1967,p462.

(6) عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 43.

سنة 1433م، من الوصول إلى رأس بوجادور⁽¹⁾. وقد تمكن " إنيس من الدوران حوله واكتشاف ما بعده فتجاوزه جنوبا و اكتشف " ريو دي أورو Rio- de-Oro " سنة 1436م⁽²⁾.

استمرت بعدها عملية الكشف المصحوب بعمليات الاحتلال، وتمكن البرتغاليون سنة 1441م من الوصول إلى الرأس الأبيض، وشهدت سنوات 1442 و 1461م وصولهم إلى مصب نهر السنغال وسواحل الرأس الأخضر وسواحل فيما سيعرف فيما بعد باسم سيراليون⁽³⁾، التي اكتشفت على يد المكتشف "بيدرو دي سانترا"⁽⁴⁾

و من الجدير بالذكر هنا التنويه لتلك الفوائد الاقتصادية التي حققتها هذه الكشوف قبل وفاة الملك هنري سنة 1460م، وذلك بعد أن تمكن البرتغاليون من تأسيس نقطة للانطلاق في جزيرة ارجوين القريبة من الشاطئ الإفريقي مكنتهم من الدخول إلى القارة الإفريقية واكتشاف طرق تجارة الذهب الصحراوية وبالتالي الاستفادة منها⁽⁵⁾.

2- اكتشاف جنوب القارة (ساحل الذهب ورأس الرجاء الصالح) (1469- 1488م):

تميزت هذه المرحلة الكشفية بأنها كانت في جنوب القارة الإفريقية، وقد شهدت أعظم الاكتشافات التي شهدتها القرن السادس عشر ممثلا في رأس الرجاء الصالح.

و بالرغم من أن الكشوفات الجغرافية في ساحل إفريقيا الغربية قد ضعف نتيجة موت الملك هنري عام 1460م واقتصر وجود ضباط البرتغال بمنطقة سراليون⁽⁶⁾، إلا أن عملية الكشف ولدت من جديد في عهدي

(1) Robert Cornevin: op.cit ,p 462.

(2) س. هوارد، المرجع السابق، ص14.

(3) نفس المرجع، ص 14.

(4) محمد حميد العمري، المرجع السابق، ص 12.

(5) جولين ماكيفيدي، المرجع السابق، ص 110.

(6) في جي دي، المرجع السابق113.

الملكين ألفونسو الخامس (1443 - 1481م) و دون جوا الثاني (1481 - 1495م) و تحقق الاندفاع البرتغالي نحو الشرق و الغرب من خلال العديد من الرحلات الذات نتائج⁽¹⁾.

شهدت السنوات بين 1471 و 1475م وصول البرتغاليين إلى سواحل الأكان و المناطق المنتجة للذهب، و كان ذلك نتيجة اتفاق ملكي مع احد تجار لشبونة المدعو "فناو جومير"، وقد نص الاتفاق على تمنح الحكومة البرتغالية للتاجر حق احتكار التجارة مع إفريقيا جنوب "ارجوين" نظير أن يقوم هذا التاجر بدفع مبلغ مالي للخرينة الملكية و أن يتعهد باستكشاف ما معدله 100 فرسخ⁽²⁾ سنويا في السواحل الجنوبية من القارة⁽³⁾.

وعلى اثر هذا الاتفاق شهدت الفترة مجموعة من الاستكشافات كاستكشاف " فرندو بو fernando po " سنة 1471 جزيرة أطلق عليها اسمه (جزيرة فرندو بو)⁽⁴⁾، واستطاع بدوردا اسكوبار أن يعبر خط الاستواء و بذلك اصب حاول أوروبي يقوم بذلك، كما استطاع أن يصل إلى القطر الذي يوجد به الذهب بكثرة والذي سيطلق عليه البرتغاليون اسم "المينا" في حين سيسميه الأوربيون فيما بعد اسم ساحل الذهب⁽⁵⁾، وتمكن " دياجو كام Daigo cam " من أن يكتشف مصب نهر الكونغو سنة 1474م⁽⁶⁾. ثم إلى " رأس سانت ماري Cap st Mary "، كما اكتشف في رحلة أخرى " رأس مونت نجر Cap-Monte-Negro"⁽⁷⁾.

وجدير بالذكر هنا أن اكتشاف البرتغاليين لساحل الذهب قد جعل الملك البرتغالي جون الثاني يرفض تجديد العقد الموقع بينه وبين "فناو جومير"، ليشرف بنفسه على تجارة غينيا كما اجتهد الملك في إرسال رحلات أخرى بعيدة المدى⁽⁸⁾. وفي عام 1486م كلف الملك جون الثاني البحار "بارثلومدياز Barthélemy-Diaz "

(1) محمد نصر مهنى، المرجع السابق، ص 56.

(2) يعادل الفرسخ البحري ثلاثة أميال بحرية وهو ما يعادل بدوره ما يقارب 5 كيلومترات ونصف. انظر: جولين ماكيفيدي، المرجع السابق، تهميش 2، ص 113.

(3) نفس المرجع، ص 113 .

(4) محمد حميد العمري، المرجع السابق، ص 12.

(5) في. جي. دي، المرجع السابق، ص 113.

(6) محمد حميد العمري، المرجع السابق، ص 12.

(7) يسرى الجوهري، المرجع السابق، ص 154.

(8) في. جي. دي، المرجع السابق، ص 114.

(1) بارتياذ بقية الساحل الإفريقي، والدوران حول القارة الإفريقية قصد الوصول إلى الهند عن طريق الهند مباشرة بدلا من الطريق القديم عبر المتوسط والمشرق العربي⁽²⁾.

استطاع البحار بارثلومي دياز أن يتجه نحو الجنوب متجاوزاً ساحل الذهب، والمناطق التي اكتشفها سلفه "ديجو كام" عند مصب نهر الكونغو، وأخيراً عند "رأس كروس"، إلا أنه ولشدة العواصف عندما اقترب من الطرف الجنوبي اضطر للتوغل في قلب المحيط لمسافة كبيرة إلى الجنوب، عند ذلك أيقن أنه تجاوز الطرف الجنوبي لإفريقيا، وقد صادف هناك رياحاً غربية ساعدته في الإبحار نحو الشرق قبل أن يعود مرة أخرى للاتجاه شمالاً، حيث قابل الساحل عند "خليج موصل"، وسار معه حتى وصل إلى "نهر السمك العظيم"، الذي وضع عنده آخر عمود حجري⁽³⁾، وكان ذلك سنة 1488⁽⁴⁾. وقد اضطر "دياز" إلى أن يعود دون أن يكمل رحلته إلى الهند، بسبب العواصف الشديدة، وتمرد بحارته ورفضهم مواصلة السير⁽⁵⁾.

وهكذا و بعد إبحار طويل في طريق العودة إلى لشبونة رأى منطقة الرأس التي لم يشاهدها أثناء العاصفة والتي دار حولها. وأطلق عليها لقب "رأس العواصف"⁽⁶⁾، وبعد وصول تقارير أخرى عن منطقة الشرق واحتمالية الوصول إليه عبر الالتفاف استبشر "يوحنا الثاني" خيراً وأطلق عليه اسم رأس الرجاء الصالح⁽⁷⁾، ووضعوا عليه علامة كالصليب وقد فرحوا كثيراً لهذا الاستكشاف الذي يمثل بداية الوصول إلى

(1) بارتلومدياز: ولد في أقصى جنوب البرتغال سنة 1450 م و كان ضابطاً في البحرية البرتغالية، توفي أثناء رحلته الأخيرة إلى الهند حيث تعرض لعاصفة تسببت في فقدان أربع سفن، و كان دياز يقود إحدى هذه السفن و بذلك توفي دياز مفقوداً في البحر عام 1500 م على رأس العواصف الذي كان هو مكتشفه و مطلق ذلك الاسم عليه. انظر إسماعيل العربي: تاريخ الرحلة والاكتشاف في البر و البحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 132.

(2) عبد الحميد البطريق و عبد العزيز نوار، المرجع، السابق، صص 50، 51.

(3) كانت السفن الكشفية تشحن بتلك السفن بأعمدة صخرية لتثبيتها كعلامات في كل الأماكن التي تنزل فيها البعثة إلى البر حتى يسهل للبحارة العودة إليها بسهولة و قد كانوا يسيرون بمحاذاة الساحل و يقيسون المسافات. انظر: بيري رئيس، المصدر السابق، ص 26. و انظر: عبد العزيز طريح شرف، المرجع السابق، ص 136.

(4) عيسى علي إبراهيم و محمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص 119.

(5) السيد يوسف نصير: الكشوف الجغرافية البرتغالية والإسبانية حول العالم بين الاستعمار والاستقلال، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2007، ص ص 22، 23.

(6) عيسى علي إبراهيم و محمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص 19.

(7) السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص 316.

الهند⁽¹⁾ ليتوقف الكشف الجغرافي البرتغالي بعد رحلة بارثولومدياز مدة عشر سنوات، لتتطلق من جديد بعد أن شجعهم ما وصل إليهم جيرانهم الأسبان من كشوفات في الغرب⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن عن عمليات الكشف الإفريقية كانت تتم على أساس مخطط ومنهج، فكانت تسجل نتائج تلك الكشوفات والرحلات بكل دقة، وتجري مقارنة بين كل رحلة والرحلة التي سبقتها، من أجل التأكد من صحة المعلومات المتوفرة لدى البرتغاليين سواء من عد العرب أو غيرهم، كما كانت كل رحلة جديدة تزود بالمعلومات والتجهيزات الكافية كي تؤدي مهمتها أفضل من التي سبقتها عن طريق تجاوز الأخطاء⁽³⁾، دون أن ننسى اعتماد البحارة على الرياح وبالذات الشرقية، فقد كان يستلزم للذهاب من الهند إلى البرتغال عدم المخاطرة بالرياح الغربية وانتظار هبوب الشرقية⁽⁴⁾.

3- الكشوفات والبعثات البرتغالية السرية التجسسية:

سأيرت عمليات الكشف البرتغالية لغرب القارة الإفريقية حركة كشف أخرى لا تقل عنها أهمية اتسمت بالسرية، وتمثلت أساسا في إرسال حملات بحرية تجسسية إلى المشرق العربي بهدف جمع المعلومات عن التوابل ومصادرها، وقد حدثت هذه الرحلات في عهد الملك جوان الثاني (1471 - 1495م)، الذي رسم في عهده خريطة احتوت على مملكة القديس يوحنا ومن هنا ظهرت فكرة التحالف معه من أجل ضرب المسلمين⁽⁵⁾، المسلمين⁽⁵⁾، ويبدو أنه كان لليهود دور كبير في هذا لدرايتهم بالطرق التقليدية وارتباطهم بالتجارة.

استمر الملك جوان بنشاطاته الاستكشافية ولكن هذه المرة بشكل آخر، فبعث اثنين من أتباعه وهما (انطونيو دي لوزيو) و(بيدرو دي مونتاريو) بمهمة سفر إلى القدس من أجل جمع معلومات عن طرق التجارة والملاحة العربية، وبالرغم من وصول الجاسوسان إلى القدس إلا أنهما اضطررا إلى العودة دون تحقيق أي إنجاز و اعتذرا للملك بكونهما لا يفقهان العربية⁽⁶⁾.

(1) بييري رئيس، المصدر السابق، ص 26.

(2) عبد الفتاح أبو علي و إسماعيل أحمد ياغي، التاريخ الأوربي الحديث و المعاصر، المرجع السابق، ص 59 .

(3) فيج. جي. دي، المرجع السابق، ص 109.

4 بييري رئيس، المصدر السابق، ص 34.

(5) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 34، 35.

(6) فالج حنظل، المرجع السابق، ص 106.

ومن الرحلات التجسسية البارزة نذكر رحلة اليهوديان جون" بيدرو داكوفيلهام " و يقال " كوفيليا " ومساعدته " الفونسو دا بافيا" الذين أرسلهما الملك جوان الثاني للقيام برحلة تجسس نحو الشرق، وقد تمكنا الجاسوسان من الدخول والانخراط في إحدى القوافل الحجازية المتجهة للحج من المغرب مروراً بمصر ثم إلى مدينة جدة متكرين بزي إسلامي حتى لا يلفتا النظر وكان ذلك سنة 1487م⁽¹⁾.

أبحر الجاسوسان في ماي 1487م من البرتغال إلى فلسطين ثم إلى رودس و قد كان مما ساعدهما في ذلك تخفيهم في زي إسلامي و تكلمهما للعربية بطلاقة، و قد وصل الجاسوسان إلى القاهرة و اندسا مع جموع المغاربة، و أبحرا إلى سواكن و عدن، و كانت الخطة أن ينفصلا الجاسوسان في عدن فيقوم كوفيلهام بالبحث عن التوابل ومصدرها في الهند على أن يقوم الثاني بالبحث عن الملكة المسيحية في شرق إفريقيا⁽²⁾.

استطاعا الجاسوسان الوصول إلى الهند و الاطلاع على المعلومات الجغرافية والأنشطة التجارية في بلاد المسلمين، ودون بيدرو كل ذلك في تقرير أرسل إلى الملك البرتغالي⁽³⁾، وحمله إليه احد التجار اليهود بالقاهرة، ليكمل بعدها كوفيلهام الشق الثاني من رحلته بالتوجه إلى مناطق إفريقيا الشرقية في محاولة لإيجاد المملكة النصرانية، واستقبله الملك النجاشي و زوجه من إحدى بناته⁽⁴⁾.

وتعتبر رحلة "بيدرو داكوفيلهام" احد انجح الرحلات التجسسية التي مهدت لظهور البرتغاليين في المياه الشرقية، نظرا لما احتواه التقرير من معلومات جغرافية و إحصائية، و قد استمرت الرحلات السرية فترة من الزمن في بلاد المسلمين⁽⁵⁾، و تكمن أهميتها كونها شجعت عن طريق تقرير كوفيليا في عام 1492م، الملك دوم جوا بإمكانية الوصول إلى الهند و الشرق الأقصى عن طريق بحري يمر برأس الرجاء الصالح⁽⁶⁾.

(1) فاروق عثمان اباضة، المرجع السابق، ص 128.

(2) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 35.

(3) مصطفى محمد رمضان، العالم الإسلامي في التاريخ الحديث و المعاصر، ج 1، ط1، القاهرة، 1985م، ص ص 35، 36.

(4) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص ص 36، 37.

(5) في عام 1510 و قبل الوصول العثماني إلى البحار الشرقية ارتاب شريف مكة بركات من ثلاث أشخاص تسلل والى مكة المكرمة و كانوا يحومون حول المسجد الحرام متظاهرين بالإسلام مرتدين الزي العثماني و يتكلمون اللغة العربية، فأمر بالقبض عليهم و بالكشف عن أجسامهم اتضح أنهم غير مسلمين لانهمك انو بغير ختان، و بعد الاستجواب اتضح أنهم جواسيس أرسلت بهم السلطات في لشبونة أدلاء للجيش البرتغالي الذي كان بنيته دخول مكة و قد تم أسرهم و إرسالهم إلى السلطان الغوري. انظر: عبد العزيز محمد الشناوي، ج2، المرجع السابق، ص 23.

(6) عباس حمداني، المرجع السابق، ص ص 2، 3؛ محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 37.

و تأتي أهمية أخرى لرحلات التجسس المصاحبة للكشف الجغرافي في أنها قد استطاعت معرفة أحوال جيش المماليك بمصر التي كانت اقوي دول العالم الإسلامي في ذلك الوقت، فضلا عن معرفة الأوضاع الداخلية في البلاد الإسلامية و سرقة الخرائط التي ساعدت على التخلص من لغز الهدوء الاستوائي الذي حير الأوربيين⁽¹⁾.

و من الرحلات التجسسية نجد بعثة " دي كوافيلو " للبحث عن التوابل و انفصل كوافيلو عن أفراد حملته في عدن متخذا طريقه إلى كلكتا و جوا و هرمز على الخليج، ثم عاد فاتجه غربا و بلغ القاهرة وقد رافقه احد القساوسة الذي خرج برعاية من الملك البرتغالي، إلى بغداد و فارس، و قد كتب تقرير عن جزيرة هرمز فكانت اهتمامات الاثنين حول هذه الجزيرة⁽²⁾، التي ستصبح مركزا للبرتغاليين كما سنرى.

4- اكتشاف الساحل الشرقي لإفريقيا و الوصول إلى الهند (1497-1515).

باكتشاف رأس الرجاء الصالح أصبح الأمل كبيرا في الوصول إلى الهند عن طريق البحر و بدون المرور على الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون. ففي أولى سنوات حكم الملك عمانويل الأول (1495-1499م)⁽³⁾ استكمل الملاح البرتغالي " فاسكو ديغاما"⁽⁴⁾ جهود سلفه بارثلمدياز، فغادر ديغاما ميناء لشبونة عام في 8 جويلية 1497⁽⁵⁾ بأسطول مكون من أربع سفن مزودة بعشرين مدفعا ضخمة⁽⁶⁾ على ظهرها مائة وخمسين وخمسين فردا⁽⁷⁾، وتابع البحار رحلته من أوروبا إلى إفريقيا متجنباً الأخطار السابقة لسابقه، و بعد أن قطعت

(1) محمود شاكر، الكشوف الجغرافية، المرجع السابق، ص 25. كانت الرياح تهدا في المنطقة الاستوائية و لا تتحرك السفن إلى على الشراع و هي الوحيدة المعروفة في ذلك الوقت، فلا يمكن التنقل إلا في فصل الربيع شمالا و في الخريف جنوبا مع حركة الشمس الظاهرية. انظر: نفس المرجع، ص ص 25، 26.

(2) محمد نصر مهناء، المرجع السابق، ص ص 56، 57.

(3) جولين ماكيفيدي، المرجع السابق، ص 121.

(4) فاسكو دا غاما: بحار ومكتشف برتغالي. ولد في عائلة نبيلة عام 1460م ودرس الحساب والملاحة البحرية، واستلم مناصب متعددة في البحرية البرتغالية. إذ عين سنة 1524م نائبا للملك جون الثالث في الهند. وقد توفي في شهر ديسمبر من العام نفسه، ونقلت رفاته إلى البرتغال عام 1583م. أنظر: عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ج4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د. ت. ط)، ص 448.

(5) المليباري، المصدر السابق، ص ص 156، 157.

(6) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 38.

(7) السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص 317.

السفن أربعة آلاف ميل بلغت خليج " سانت هيلانة st. Helena " ⁽¹⁾، في الجهة الشمالية من رأس الرجاء الصالح، و قد كان ديغاما يقتدي في رحلته هذه بكريستوف كولومبس بإتباع سياسة الابتعاد عن الشاطئ ⁽²⁾.

مهما يكن من أمر فقد واصل البحارة السير إلى رأس اجولهاوس فخليج موصل و أطلق ديغاما على الساحل الجنوبي الشرقي لإفريقيا اسم ساحل التتال لمروره عنده في عيد الميلاد ⁽³⁾، و أكمل " فاسكو دا غاما " رحلته على طول الساحل الشرقي لإفريقيا، واستطاع أن يتصل بالمراكز الأولى للحضارة الإسلامية في المنطقة ⁽⁴⁾. و كانت أول تلك المراكز هي مدينة سفالة Sofala ⁽⁵⁾.

واصل ديغاما المضي قدما حتى وصل إلى الساحل الغربي لشبه الجزيرة الهندية في مكان يدعى قاليقوت سنة 1498م، ثم سار شمالا حتى وصل إلى جوا. وهنا وجب أن ننوه إلى تلك المساعدة التي تلقاها ديغاما من الملاح العربي "ابن ماجد" ⁽⁶⁾ في سبيل إيجاد أسرع طريق يوصله إلى الساحل الهندي ⁽⁷⁾.

(1) منطقة تقع إلى الشمال من مدينة كيب تاون الحالية.

(2) المليباري، المصدر السابق، ص 157.

(3) جريون س. وير: تاريخ جنوب إفريقيا، ترجمة بدر الرحمن عبد الله الشيخ، دار الشيخ، (د. م. ط)، (د. ت. ط)، ص 35.

(4) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 78؛ كان وصول العرب إلى سواحل إفريقيا قديما عن طريق تنقل جماعات من العرب في شبه الجزيرة العربية إلى السواحل الشرقية لإفريقيا عن طريق البحر الأحمر وقد لجأ تاليها فيما بعد جماعات أخرى من أزد عمان من الخوارج فاحتلت سوقطرة وحاولت السيطرة على مراكز القوة البحرية في بلاد الزنج و كانت مراكب الخليج العربي في تنقل مستمر بين الموانئ العربية و المدن الساحلية الإفريقية لا سيما مقديشو وزنجبار و جزر القمر و مدغشقر و براوة و مباسا و كلوة و موزنبيق و سقالة تجلب منها العاج و الذهب و جوز الهند و الرقيق. انظر: قدرى قلعجي: الخليج العربي بحر الأساطير، ط 3، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، بيروت، 1995م، ص 348.

(5) محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص 39.

(6) هو احمد بن ماجد عالم البحار وهو أول من قسم البوصلة البحرية إلى 23 درجة و يعتبر المؤرخ العربي قطب الدين النهراولي أول من تكلم عن البحار ابن ماجد وأول من اتهمه بمساعدة البرتغاليين وذلك في مؤلفه البرق اليماني في الفتح العثماني، و هناك جمع من الباحثين الذين فندوا هذا الرأي و يرون في ذلك خيانة يجب دفعها عن البحارة العرب، ترك ابن ماجد 19 مؤلف منها كتاب الفوائد في أصول علم البحار والقواعد و الأروحة البحرية، انظر: رثي صالح، أسد البحار ابن ماجد، ط 1، دار القدس، بيروت، 1994، ص 6، 7؛ عبد الهادي التازي: ابن ماجد والبرتغال، ط 3، 2005، ص 12. حسن صالح شهاب، احمد بن ماجد و الملاحة في المحيط الهندي، ط 2، منشورات مركز الدراسات والوثائق، الإمارات العربية، 2002م، ص 43، 51.

(7) أحمد حمود المعمري، المرجع السابق، ص 49.

بالإضافة إلى دور ابن ماجد في أسطول ديغاما لعبت المشاحنات القائمة بين شيوخ العرب القاطنين في سواحل إفريقيا الشرقية دورا كبيرا في إيصال البرتغاليين إلى الهند، ذلك أن ديغاما انشأ له علاقات ودية مع أولئك الشيوخ الذين استقبلوه استقبالا وديا حتى أن أمير الموزبيق الذي كان عربيا مسلما استضافه⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بدايات وصول البرتغاليين إلى الهند(حوالي 904هـ، 1498م) بواسطة ثلاث مراكب على غرار ما يذكر المليباري⁽²⁾، وقد كانت الرحلة سلمية حاذر فيها هؤلاء من الاصطدام العسكري مع المسلمين أو وغيرهم من أهالي المنطقة، يظهر ذلك في أوامر دي غاما لرجاله بتجنب مهاجمة السفن الإسلامية المحملة بأنواع السلع⁽³⁾. غير أن هذه السياسة ستعرف تغيرا جذريا فيما بعد نتيجة وصول الإمدادات العسكرية المستحقة و الكافية.

بعد ذلك قرر "دي غاما" العودة إلى البرتغال حاملا البشري إلى الملك عمانويل حاملا البضائع الثمينة فكان من اثر ذلك أن كافئه الملك برحلة ثانية ما جعل فاسكو يطلق على نفسه سيد الفتوح والبحار وتجارة الحبشة وفارس و الهند⁽⁴⁾.

والواقع أن هذه الرحلة قد احتلت أهمية كبرى كونها حققت حلما راود البرتغاليين مائة سنة، وتطلب تحقيق هذا الانجاز مجهودا استمر 75 سنة، كما تبرز قوة هذه الرحلة في تلك الثورة التي في تجارة أوروبا والتي كان لها نتائج ايجابية على القارة العجوز عكس العالم الإسلامي الذي انتكس وكانت خسارته و خيمة⁽⁵⁾.

وفي مارس 1500م خرج " بيدرو ألفاريس كابرال Pedro Albares Cabral " من قادس، على رأس حملة متكونة من ثلاثة عشر سفينة تحمل 1500 جندي وهذا للسيطرة على الموانئ الإسلامية في الشرق

(1) سليم التكريتي، المرجع السابق، ص 26.

(2) المليباري، المصدر السابق، ص ص 245، 246.

(3) قام ديغاما نفسه بشراء توابل رديئة بأسعار باهظة من حاكم قاليقوت كي يبعد عنه صفة العدو، انظر: ياسر عبد الجواد المشهداني: " النفوذ البرتغالي و أثره على الهند الإسلامية، (904 - 920هـ / 1498 - 1514م)"، مجلة التربية و العلم، مج14، ع 2، الموصل، 2007م، ص29.

(4) أصبح ملوك البرتغال يلقبون أنفسهم و بمباركة البابا في روما أسياد الملاحة و الفتح و التجارة ببلاد العرب وبلاد الحبشة وفارس والهند. انظر: حلمي محروس إسماعيل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام الوحدة الإفريقية، ج1، مؤسسة الشباب الجامعية، الإسكندرية، 2004، ص 07. و انظر: زين الدين احمد المليباري، المصدر السابق، ص163.

(5) المليباري، المصدر السابق، ص 163.

الإفريقي، ولكنه لقي مقاومة عنيفة من طرف سكانها⁽¹⁾. وفي شهر ماي من سنة 1500م، استطاع " ديجو دياز Diego Diaz " أن يكتشف جزيرة مدغشقر⁽²⁾ وجزر القمر⁽³⁾.

وفي سنة 1502 قام فاسكو دي غاما برحلة ثانية واتجه مباشرة إلى فالقوت التي ضربها بالقنابل كانتقام لزيارته الأولى وكان هدفه في ذلك ضرب مراكز التجارة العربي الإسلامية نستدل على ذلك من خلال سفينة الحجاج التي أغرقها في خليج عمان أين اضطهد ركبها وقطع أيدي وأنوف بحارتها⁽⁴⁾، كما عقد معاهدات تجارية في صالح البرتغال مع أمراء المنطقة في كنانور وكوشين، ليعود بعدها إلى البرتغال تاركا وراءه أسطولا برتغاليا بسواحل الهند.

كما أرسل الملك " إيمانويل الأول " حملة أخرى سنة 1505م، متكونة من ثلاث وعشرين سفينة بقيادة " فرانسيسكو ألميدا " إلى شرق إفريقيا والهند، وكان عليه أن ينشئ مركزاً تجارياً برتغالياً في المحيط الهندي، فنهب ممباسا⁽⁵⁾ وكلوا⁽⁶⁾ وسوفالا، وأنشأ الحصون والقلاع فيها⁽⁷⁾، واستمر في السير إلى أن وصل الهند واستقر

(1) تجدر الإشارة هنا إلى أن البرتغاليين قاموا بأعمال عنف في سواحل إفريقيا الشرقية ما دفع بالعرب و سكان السواحل إلى الفرار من مدنها و مراكزهم التجارية إلى دواخل القارة. انظر: عبد الفتاح أبو عليّة وإسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص 63، 64. وانظر: عبد الرحمان حسن محمود: الإسلام و المسيحية في شرق إفريقيا من القرن 18 إلى القرن 20م، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011م، ص 10.

(2) اكبر و أخصب جزر العالم يبلغ طول محيطها ألف ميل، عاش سكانها على التجارة الصناعة نتيجة ثرائها بالمنتجات الطبيعية، كان يفد إليها الكثير من السفن، من مختلف البلدان جالبين معهم السلع كالديباج و الحرير و تباع هذه السلع أو تقايض بما تنتجه الجزيرة. انظر: شوقي عبد القوي عثمان: **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، (41 - 904هـ / 661 - 1498م)** سلسلة عالم المعرفة، 1990م، ص 120.

(3) Robert Conervin: op. cit, p426.

(4) محمود شاكر، الكشف الجغرافية، المرجع السابق، ص 27.

(5) وتسمى منبسة وهي تقع في تنزانيا حالياً و هي مدينة ضخمة ذات أبنية عالية من الحجر بها ميناء ضخم ترسو به السفن القادمة من الهند و جزيرة العرب و الساحل الإفريقي، و قد تميزت الحركة التجارية بها بالكثرة والتنوع، و اشتهرت بوجود طبقة من صناع المعادن المهرة الذين تمكنوا من سك عملة نحاسية و أخرى فضية، و قد احتوت المدينة على الحديد الذي كان يصدر للهند. انظر: شوقي عبد القوي عثمان، **تجارة المحيط الهندي**، المرجع السابق، ص 118، 119.

(6) تأسست هذه المدينة في القرن 10 أو 11 م، على يد المهاجرين الفرس، و بالرغم من حداثة عهدها إلا أنها نالت شهرة كبيرة، فقد تحولت المدينة في بداية القرن 12م من سلسلة مستوطنات تجارية بسيطة إلى المركز التجاري الرئيسي على الساحل الإفريقي، و قد استطاعت كلوة التحكم في تجارة الذهب إلي تحصلت عليه نتيجة المبادلة بالأقمشة و أصبحت هي المركز الرسمي له التجارة بالقارة. انظر: شوقي عبد القوي عثمان، نفس المرجع، ص 118، 119.

(7) عيسى علي إبراهيم، محمد فتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص 87.

واستقر به المقام في كوشين التي اتخذها عاصمة له وأعلن عن ظهور منصب نائب الملك في الهند والذي كان هو أول من تولاه⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى ذلك الازدهار التجاري الكبير الذي وصل إليه الساحل الشرقي لإفريقيا عند وصول البرتغاليين إليه و قد عبر عن ذلك الازدهار احدهم فقال " هل البحارة حين رأوا على سال إفريقيا الشرقي حضارة لا تقل عن حضارة البرتغال، بل تفوقها في معرفة العالم المحيط، وشاهدوا عابرات المحيط التي تفوق سفنهم ضخامة"⁽²⁾.

كان من اثر ذلك الاكتشاف الجغرافي أن بدأت البرتغال أولى الموجات الاستعمارية بالمناطق الشرقية، كما فتح هذا الاكتشاف العلاقة الحربية بين العرب المسلمين في الشرق وبين البرتغاليين الذين أخذوا ينافسون العرب في مراكزهم التجارية وأخذوا يعملون على طردهم منها⁽³⁾.

المطلب الثالث: الحملات العسكرية البرتغالية للخليج العربي

1-التوجه البرتغالي إلى المياه العربية :

إذا علمنا سلفاً أن حلم العالم الأوربي على العموم والبرتغالي على الخصوص هو الوصول إلى الهند ومنتجاتها رأساً دون الحاجة إلى الوساطة العربية الإسلامية، وهذا ما حدث في سنة 1505 عندما رست سفن البرتغال بسواحل الهند، وتم استحداث منصب نائب الملك بالهند والذي كان أول من شغله القائد "دي الميدا"، يتبادر إلى الذهن تساؤل مهم وهو ما الذي حول اهتمام البرتغال إلى شواطئ الخليج العربي وهم في بداية تأسيس حكومة لهم بالهند ؟ قد نجد الجواب في إحدى هذين الرأيين: ⁽⁴⁾

إما أن البحارة البرتغاليون قد عجزوا في احتواء التجار العرب والملاحة العربية في المحيط الشاسع، ولهذا السبب واصل البحارة البرتغال عملية احتلال مالقا وجزر الهند الشرقية منع التجار العرب من الوصول إلى منابع التوابل.

(1) فالج حنظل ، المرجع السابق، ص 148.

(2) شوقي عبد القوي عثمان، المرجع السابق، ص 121.

(3) عبد الفتاح أبو عليّة و إسماعيل ياغي: المرجع السابق، ص 59.

(4) صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، ط1، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، 1974، ص14 .

أو أن الروح الصليبية قد فعلت فعلها بالضباط البرتغاليين القادمين بحقد دفين من البرتغال و الذي افرغوا جزء منه بالمغرب الأقصى وصولا إلى المشرق الإسلامي، ولعل في شخصية القائد العسكري " البوكيرك⁽¹⁾ " ما يلخص ما قلناه، هذا الذي استهل حياته بالجيوب البرتغالية على السواحل الأطلسية المغربية، ثم دخل إلى ميدان الصراع الصليبي في الشرق وكانت أولى معاركه الحربية سنة 1506 في الحملة التي قادها " ترستان " على أن يتخلف البوكيرك لإغلاق المنافذ العربية الإسلامية والتي توقع البرتغاليون أن يجدوا فيها تكتلا بين القوات الإسلامية، و نقصد هنا الدولة المملوكية و الدولة العثمانية والدولة الصفوية⁽²⁾، و حتى القوى المحلية في شرق إفريقيا.

نؤكد على روح الاستعمار لا الاستكشاف والتجارة من خلال مقارنة البرتغاليين مع الأساطيل الصينية إبان حكم أسرة مينغ القوية التي مرت بالمنطقة في زمن غير بعيد من قدوم البرتغاليين⁽³⁾، إلا أنها و بالرغم من قوة أساطيلها مقارنة بنظيرتها البرتغالية لم تحاول استعمار المنطقة كما فعل البرتغاليون، وهنا نجد الإجابة، في أن العقلية الكونفوشيوسية غير العقلية الغربية فان عرفت الأولى على أنها التكيف العقلاني مع العالم فان الثانية عرفت بالسيطرة العقلانية على العالم⁽⁴⁾، وهو ما يفسر استغلال البرتغال لتلك الخلافات الحدودية والمذهبية للانقضاض على المنطقة العربية.

(1) كان البوكيرك من طبقة النبلاء و يبدو انه حصل على تجرب حربية لا باس بها خلال خدمته في إفريقيا لمقاتلة العرب عقب خروجهم من البرتغال، و خدم في البر تحت قيادة ألفاريس كابرال ووصل سنة 1503م إلى كوشين مع عمه فرانسيسكو لبناء أول قلعة برتغالية في ساحل المليبار ، و عندما عاد عين من ضمن مستشاري الخارجية للملك عمانويل الأول، و من هنا ورث الروح الصليبية فكان يضمم حقدا لا مثيل له للمسلمين العرب فنشر الذعر في كل السواحل التي وطئها و قد شغل منصب نائب الهند لفترة من الزمن. انظر: المليباري، المصدر السابق، ص170.؛ محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 146.

(2) تعتبر الدولة الصفوية إحدى الدول السلطانية التي قامت بالمشرق العربي في العصر الحديث على يد مؤسسها إسماعيل الصفوي، حيث قامت الدولة على أساس مذهبي فهي شيعية وفق مذهب الإثنى عشري، تأسست في إيران وانطلقت منها للتوسع في الشرق و الغرب فشملت خراسان وأفغانستان و أذربيجان و العراق وديار بكر و بلاد الكرج في الشمال. انظر: محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1148/907 هـ 1736/1501 م، ط1، دار النفائس، بيروت، 2009 م، ص 7.

(3) أبحرت الأساطيل الصينية بقيادة جينغ هي إلى مسافات بعيدة تثير الدهشة و ذلك في سلسلة من ستة رحلات ملحمية قام بها ما بين عامين 1405 و 1424م، فأبحر إلى تايلاند و سومطرة و جاوا و كاليكوت و عدن و هرمز وصولا إلى جدة. انظر: نبال فرغسون، الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق و الغرب، تر سعيد محمد الحسينية، ط2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2014، ص ص 74، 75.

(4) نفس المرجع، 71.

مهما يكن من أمر فقد كان وصول البرتغال إلى الهند وإنشاؤهم عددا من المراكز والمستعمرات فيها نذير شؤم على السيادة العربية ليس فقط في المحيط الهندي وحده، بل وفي المياه العربية أيضا ذلك أن البرتغاليين لم يكتفوا بالوصول إلى الهند وانتزاع ما كان يصدره العرب المسلمون آنذاك من ثروات بل حاولوا لاستيلاء على كل النقاط التي تمر بها التجارة في المياه العربية من خلال السيطرة على هرمز والتي تخول له السيرة على الخليج العربي، وسوقطرى⁽¹⁾ و عدن⁽²⁾ للسيطرة على منافذ البحر الأحمر، ثم ملقا للسيطرة على مضيق ملقا (مضيق سانغافورة)⁽³⁾ ثم سيلان لتكمل هذه القواعد ما كان بيد البرتغال من مراكز في شرق إفريقيا⁽⁴⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البرتغاليين قد اعتمدوا سياسة بناء القلاع التي هي بمثابة مستوطنات من شأنها لتحقيق المراقبة الفعلية و الضرورية من جهة و لتمكين نشر النفوذ البري من جهة أخرى⁽⁵⁾.

مهما يكن من أمر فقد تبين أن منطقة البحر الأحمر كانت أول ما أغوى البرتغاليين، كونه اقرب الطرق إلى البقاع المقدسة من أي طريق آخر ونقصد هنا طريق الخليج العربي، بالإضافة إلى محاولة قطع سبل الاتصال بين المسلمين في الهند والدولة المملوكية في مصر هذه الأخيرة التي لم تخفي نيتها في محاربة البرتغال نتيجة ما أصابها من عجز اقتصادي على اثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح⁽⁶⁾، و لعل معركة ديو

(1) جزيرة كبيرة تقع عند مدخل خليج عدن، اشتهرت بالعنبر و كانت مرسى لجميع السفن المتجهة إلى عدن، كما كانت ملجأ إلى بعض القراصنة. انظر: شوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي، المرجع السابق، ص 120.

(2) تقع عدن عند مدخل الخليج الذي سيحمل اسمها فيما بعد، و قد خول لها موقعا الرائع شهرة كبيرة فهي الحد الفاصل بين تلك السفن الضخمة العابرة للمحيط و المحملة بالتوابل و الأعشاب الطبية و اللبان و الجاوي و الحراير و غيرها و بين سفن البحر الأحمر الأصغر حجما التي كانت تحمل البضائع المصرية و الأوروبية كالنحاس و الصبغة الحمراء و المنتجات الصوفية، و تلنقي هذه و تلك بعدن لتبادل السلع، و قد اهتم حكام اليمن قبل منتصف القرن 15م بالتجارة. انظر: نفس المرجع، ص 122، 123.

(3) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص 194.

(4) المليباري، المصدر السابق، ص 171.

(5) نفس المصدر، ص 171.

(6) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، المرجع السابق، ص 15.

الشهيرة عام 1509 ابرز معركة بين القوتين والتي وضعت نهاية التفوق البحري الإسلامي وأعلنت حقبة استعمارية كانت دولة البرتغال على رأسها⁽¹⁾.

وقع الاختيار على جزيرة سومطرة الواقعة بين الخليج العربي و البحر الأحمر حيث أقام بها البوكيرك قاعدة عسكرية دائمة لجنوده⁽²⁾، وبعد أن قام البوكيرك بإحراق مدينة بريم الواقعة على في مدخل البحر الأحمر أوجه إلى عدن بعد أن سمع من تجار يهود محاولة المماليك تجهيز حملة عسكرية ضده فقرّر القضاء عليها في مهدها غير أن عدن استعصت علي جنوده⁽³⁾ فتوجهت الأنظار إلى الخليج العربي وسواحله.

2 - احتلال ساحل عمان⁽⁴⁾:

وبعد أن استعصى البحر الأحمر أمام القائد البرتغالي البوكيرك انتبه هذا الأخير إلى إستراتيجية منطقة الخليج العربي، وفي يوم 1507/08/14م رست سفن البرتغال أمام جزر (كوريا موريا) التابعة لعمان، في 4 اغسطس 1508م، فهاجم حوالي الأربعين سفينة تعود لمملكة هرمز فاحرقها واسر من فيها⁽⁵⁾.

2. 1- قلعات⁽⁶⁾ :

لطالما كانت قلعات ميناء مهما للسفن التجارية العربية الهندية على السواء، فهي تقع بين رأس الحد وعمان، وكانت تابعة إلى حكم مملكة هرمز⁽¹⁾، ولأن أهلها لم يكن بمقدورهم مواجهة القوات البرتغالية المدججة باعثة الأسلحة فان دخول البوكيرك إليها كان سلميا شريطة التعاون والخضوع للحكم البرتغالي⁽²⁾.

(1) جمال قاسم زكريا: الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول، (د ط) دار الفكر العربي، القاهرة (د ت)، ص 51 .

(2) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 148، 149.

(3) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 228. محمد حميد السلطان، نفس المرجع، ص 195.

(4) لعب الساحل العماني بموانئه الرائعة دورا كبيرا في تجارة المحيط الهندي لان موقع المثالي على مدخل الخليج العربي الإسلامي جعله يتوسط التجارة القادمة من الشرق، و القادمة من الغرب و يعتبر الساحل العماني أول مرفأ يقابل الداخل إلى الخليج أو الخارج منه، انظر، شوقي عبد القوي عثمان، المرجع السابق، ص 124.

(5) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 153.

(6) ميناء يقع على مدخل الخليج العربي، و هو وموقع صين ا كان ملك هرمز يتمي فيه في حال تعرض لهجوم، كانت السفن التي ترسو به قليلة مقارنة بالموانئ الأخرى و تأتي تلك السفن في الغالب من الهند مملة بالتوابل و الأقمشة و تعود بالخيول المحلية، انظر: شوقي عبد القوي عثمان، المرجع السابق، ص 125.

2. 2 - قريات⁽³⁾:

كان احتلال مدينة قريات مخالفا لسابقتها، فبعد أن وقع على مسامع القائد البرتغالي استعداد أهل المدينة لمحاربته، قرر البدء بمفاوضات مع أهالي المدينة، فأرسل وفدا للتفاوض غير انه قوبل بالرفض⁽⁴⁾، عندها أعطى البوكيرك إشارة الهجوم لجنوده و بعد قصف متبادل طوال الليل استسلم أهالي المدينة التي دخلها الجنود البرتغاليين و استباحوا كل ما فيها و ارتكبوا أبشع الجرائم في حق أهلها من تقتيل و نهب، و بعد كل هذا أمر البوكيرك بإحراق المدينة بما فيها مسجدها الجميل،⁽⁵⁾ و اسر سكانها و أطلق سراحهم بعد أن جذع أنوفهم و صلم أذانهم⁽⁶⁾.

2. 3 - مسقط⁽⁷⁾:

بعد أربعة أيام من احتلال مدينة قريات كانت الوجهة نحو مسقط، وبينما هو في الطريق إليها التقى البوكيرك بموفدين من حاكم المدينة فأمرهم القائد البرتغالي بضرورة الاستسلام دون قيد أو شرط وفي صباح اليوم الثاني جاء الموفدين بخبر الموافقة، إلا أن البوكيرك أحس بضعف المدينة فقرر إضافة شروط أخرى كأن

(1) كانت إمارات الساحل العماني مثل قلعات و مسقط و خور فكان و صحار تابعة سياسيا إلى هرمز، و تدفع كل منها إتاوة سنوية لها تختلف من مدينة لأخرى فمثلا قلعات تدفع ألف و مائة دينار اشرفي، و تدفع مسقط أربعة آلاف، ويعود ها التباين في حجم الإتاوات إلى اختلاف نسب الإيرادات لكل ميناء. للمزيد انظر: زهير قاسم محمد: " الثورات الخليجية ضد الاحتلال البرتغالي في النصف الأول من القرن السادس عشر"، مجلة سر من رأى، مج 4، ع 9، السنة الرابعة، فيفري 2008، ص123.

(2) حنظل فالح، المرجع السابق، ص 174.

(3) القريات على مقربة من قلعات كان يسكنها رجال ذو مكانة عالية يقومون بتجارة مزدهرة بمختلف السلع، كما كانت تحتوي المدينة في ذلك الوقت على الكثير من الأطعمة و عدد كبير من الخيول التي كان يشتريها مسلمو هرمز أو يبيعوها في بلاد الهند، إضافة إلى تمر المنطقة، انظر: عصام سخيني، المرجع السابق، ص118.

(4) حنظل فالح، المرجع السابق، ص174.

(5) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 158.

(6) محمد عدنان مراد: صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي جذوره التاريخية وأبعاده، دار دمشق، بيروت، 1984، ص 129.

(7) تقع مسقط على الساحل العماني، يحيط بمرفئها الصخور و الجبال الشاهقة فتأمن السفن فيها من خر العواصف مما جعلها ميناءا طبيعيا رائعا، و تعتبر مسقط أكثر ما حمل و جذب العمانيين لركوب البحر فلعب هؤلاء دورا في نمو التجارة العربية في المحيط الهندي. انظر: شوقي عبد القوي عثمان، المرجع السابق، ص 125.

تقوم مسقط بدفع الجزية التي كانت تدفعها إلى مملكة هرمز إلى البرتغال، بالإضافة إلى تجهيز الحامية المزمع إنشاؤها بالمنطقة⁽¹⁾.

عندما تأخر الجواب قرر البرتغاليون معرفة السبب عن طريق اسر طاقم لسفينة كانت تخرج ليلا فعلم البوكيرك من أسراه أن المدينة تستعد للتصدي إليه خاصة بعد أن وصل إليها احد حكام المنطقة من بني جابر،⁽²⁾ فاعتبره البوكيرك إذانا بالحرب⁽³⁾، وشرع مع ضباطه في التحضير، فكانت ثلاث جبهات حربية وبدأ في قصف المدينة التي لم تصمد أمام المدفعية البرتغالية⁽⁴⁾.

2. 4- صحار⁽⁵⁾: يبدو أن فاجعة مسقط قد أثرت كثيرا على أهالي مدينة صحار القريبة من مدينة مسقط، حيث قرر حاكم المدينة الاستسلام للقوات البرتغالية دون قيد أو شرط⁽⁶⁾. بل وسمح لهم بتشكيل حامية عسكرية بالمدينة يتكفل الحاكم بكل مصاريفها⁽⁷⁾.

(1) حنظل فالح، المرجع السابق ص 176.

(2) بنو جابر احد أهم القبائل العربية بساحل عمان بالخليج العربي يتميزون بأعدادهم الغفيرة وهندامهم الجميل وتعليمهم مقارنة بغيرهم من القبائل اباضيو المذهب ينتسبون إلى جدهم الأكبر (جبر العامري) ويفخرون بانتسابهم لقبيلة ذبيان العربية الشهيرة الضاربة في الشعر سيطروا على مجموعة من الاقطاعات في شرق شبه الجزيرة و البحرين وفي عهد المؤسس الحقيقي زامل بن حسين بن ناصر بن جبر العامري بين عامي (1439-1440م) انظر، محمد حميد السلمان، المرجع، ص 118؛ ج.ج لورمير: دليل الخليج الجغرافي، ج 3، طبعة منقحة على نفقة أمير قطر، قطر، (دت)، ص ص 1092، 1095.

(3) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص، ص 161 162.

(4) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 178.

(5) من أهم المدن على ساحل شبه جزيرة العرب الجنوبي كانت منطلق السفن إلى الصين، وبلغت أقصى ازدهارها في القرن الرابع الهجري، قال عنها أبو الحسن المسعودي أنها قصبة بلاد عمان، كما وصفها ياقوت الحموي بأنها مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه مبنية بالأجر والسياج، ووصفها بأنها دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغيثة اليمن انظر: شوقي عبد القوي عثمان، المرجع السابق، ص 124 ؛ عصام سخيني، المرجع السابق، ص 119 ؛ علي بن حسي المسعودي: مروج الذهب و معادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط 5، ج 1، دار الفكر، بيروت، 1973، ص 108.

(6) ج.ج لومير: دليل الخليج العربي القسم التاريخي، طبعة منقحة على نفقة أمير قطر، قطر، (دت)، ص 13.

(7) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 180.

2. 5- خورفكان⁽¹⁾:

حذت مدينة خورفكان حذو جارتها مسقط وقررت الدفاع عن حماها ضد الهجمة البرتغالية⁽²⁾ وعندما سمع البوكيرك بالاستعدادات العربية اجتمع بضباطه وقرر الهجوم على المدينة بجهتين الأولى يقودها هو والثانية يقودها الضباط، وبعد قصف كبير ومكثف استطاع البرتغاليون الدخول إلى قلب المدينة، وبعد استباحها ونهبها قرر البوكيرك اخذ احد الأسرى ليرشده إلى هرمز الوجه التالية⁽³⁾ .

بعد أن تمكن البرتغال من السيطرة على اغلب الساحل العماني بدءا بقلعات فقریات فمسقط فخور فكان قرر البوكيرك فرض جزية تدفع له سنويا قدرت بعشرة آلاف أشرفي⁽⁴⁾، مع العلم بان كل هذه المدن التي مر بها بها البوكيرك كانت تدين بالولاء و دفع الجزية لملك هرمز.

3- احتلال هرمز :

كانت هرمز والموانئ التابعة لها أول ما لفت انتباه البرتغاليين عندما وصلوا إلى الخليج العربي لخليج العربي في 1508م، هذه المدينة التجارية العظيمة الثراء القليلة خبرة في المجال العسكري الحربي.

وكانت هرمز مشيخة عربية كبيرة استطاعت أن تبسط سلطانها السياسي على أجزاء من الخليج العربي وجزره، فشملت عمان حتى القطيف شمالا، كما دخلت جزر البحرين، وضمت قسما كبيرا من الساحل الشرقي، فضلا عن عمقها الكبير داخل الجزيرة العربية وحتى مشارف عدن⁽⁵⁾.

وقد اكتسبت هرمز شهرة واسعة نظرا لما تتوفر عليه من ثروات وهذا بالضبط ما جذب البرتغاليين إليها، فقد علا شان هرمز منذ قرنين قبل مجيء البرتغاليين إليها يرجع ذلك إلى الدور التجاري الذي انتزعتة

(1) ميناء يقع وسط شمال ساحل عمان و هو عبارة عن خور أو لسان مائي ممتد داخل البر محاط بجبال على شكل فكين وهو تابع لمنطقة الشارقة بالإمارات العربية المتحدة .انظر: ج.ج لوريمر، دليل الخليج الجغرافي، ج 2، ص 665 ؛ فالح حنظل، المرجع السابق، ص180.

(2) ج.ج لومير، دليل الخليج التاريخي، المرجع السابق، ص13 .

(3) فالح حنظل ، المرجع السابق، ص184.

(4) مهنا محمد نصر، المرجع السابق، ص 53.

(5) محمود شاكر، موسوعة تاريخ الخليج العربي، المرجع السابق، ص 170.

المدينة من ميناء سيراف جنوب إيران، والذي فزع تجاره وأثريائه إلى جزيرة هرمز الصغيرة خوفا من ضربات المغول في العراق و إيران⁽¹⁾.

تحولت جزيرة هرمز على اثر تلك الهجرات إلى حلقة وسط تخدم طريق التجارة الرئيسية ليس فقط في بين مواني الخليج العربي، بل أيضا إلى الطريق التجاري العالمي الذي كان يستخدمه البنادقة للاتصال بالشرق، ومن هنا جاءت الرغبة البرتغالية للقضاء على الوساطة الأوربية و الاستحواذ على لكي ينفردوا بتجارة الشرق و الغرب عبر طريق رأس الرجاء الصالح⁽²⁾.

استطاعت جزيرة هرمز بتلك الخصائص والامتيازات أن تحقق ثروات طائلة، وبفضل تلك الثروات استطاعت المدينة أن تمد نفوذها ليشمل البحرين وبعض المواقع على ساحل عمان مثل منطقة القطيف .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هرمز لم تكن تستطيع الحفاظ على استقلالها ومواجهة القوى السياسية بالمنطقة خاصة الفارسية فإنها كانت مضطرة إلى دفع الإتاوات والضرائب والهدايا باهظة الثمن إلى البلاط الفارسي تقاديا لوقوعها في دائرة عدااء الدولة الصفوية، و قد كانت تدفع لها 2000 ألفي اشرفي في مطلع القرن السادس عشر⁽³⁾.

مهما يكن من أمر فبعد أن قام البوكيرك بتدمير الساحل العماني شرع هذا القائد في ضرب حصار على هرمز، وبالرغم من حركة التمرد في أوساط الجيش البرتغالي الذي رأى ضرورة التوجه لبلاد الهند الثرية بدل المناورات العسكرية بمنطقة الخليج الفقيرة، واستطاع البوكيرك مفاوضة الملك الهرمزي على قبول الحماية البرتغالية⁽⁴⁾.

غير أن نائب الملك بالهند " دي ألميدا" أمر برفع الحصار، ذلك لأنه وإن كان يؤمن بضرورة حصول البرتغال على السيادة البحرية، إلا انه كان محبا للأساليب السلمية مع الشعوب⁽⁵⁾، غير أن ملك البرتغال

(1) صلاح العقاد: " دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي دراسة مقارنة "، حصاد ندوة الدراسات العمانية، مج4، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ذو الحجة 1400 هـ/ نوفمبر 1980م، ص 61 .

(2) نفس المرجع، ص61 .

(3) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص 110.

(4) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، المرجع السابق، ص16.

(5) محمد نصر مهنا، المرجع السابق، ص 58.

"عمانويل" كان ميالا إلى أفكار ونزعة القائد البرتغالي "البوكيرك" هذا الأخير الذي وقع عليه الاختيار لتولي منصب نائب الملك بالهند في سنة 1509 بالرغم مما حققه "الميدا" من انتصارات أخرها على المماليك في دييو، ذلك لأن السلطات البرتغالية كانت لا تحبذ بقاء هذا المنصب البعيد عنها حكرا على شخص واحد⁽¹⁾. وبذلك أصبح البوكيرك ثاني نائب للملك بالهند⁽²⁾.

تأخر بعدها الهجوم البرتغالي على هرمز بسبب انشغال البوكيرك ودخوله في موجة حروب مع المالك التيمورية الهندية سنة 1510م⁽³⁾، وتنظيم القرصنة البرتغالية ضد السفن الإسلامية كما تحالف البوكيرك مع الهندوس ضد المسلمين⁽⁴⁾.

ومما يستدعي الذكر هنا هو عدم استغلال عرب المنطقة للفرصة ومحاولة التكتل بل على العكس من ذلك انصرف ملوك "هرمز" إلى محاربة نفوذ "بنو جبير" المتصاعد في البحرين وافتكها منهم سنة 1511 م غير أنهم سرعان ما تمكنوا من استعادتها، كل تلك الصراعات خدمت البرتغال كثيرا ويسرت له عملية الاحتلال في السنوات القادمة⁽⁵⁾.

مهما يكن من أمر فباغتلاء البوكيرك سدة الحكم في الهند استهل مشواره بالاستيلاء على جوا وجعلها مركز البرتغاليين، وفي سنة 1515م أبحر البوكيرك على رأس أسطول مكون من سبع سفن تحمل أكثر ألف و خمسمائة برتغالي وبعض الهنود من الملبار، متجهة نحو هرمز وبعد حصار وتدمير اضطرت الجزيرة إلى الاستسلام والخضوع للحكم البرتغالي⁽⁶⁾.

شكل خضوع هرمز إلى الحكم البرتغالي امتيازاً كبيراً للسلطات البرتغالية فقد كان للحدث فوائد كبرى تحصلت عليها البرتغال نتيجة تحكمها بالمنطقة، إذ أصبح يفد إليها التجار الايطاليون والأرمينيون و اليهود..

(1) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، المرجع السابق ص16.

(2) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي، المرجع السابق، ص193.

(3) نفس المرجع، ص195.

(4) عبد العزيز عوض: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، ج1، ط1، دار الجبل، مكتبة الرائد العلمية، بيروت، عمان، 1991م، ص 21.

(5) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص62 .

(6) ج.ج. لومير، دليل الخليج التاريخي، المرجع السابق، ص 14 .

فضلا عن المسلمين من فرس وعرب، كما كان للمدينة بعد استراتيجي وأصبحت بمثابة جزيرة رودس بالبحر الأبيض المتوسط على غرار ما شبهها احد التقارير المرسلة إلى لشبونة⁽¹⁾.

والواقع أن الاستفادة الحقيقية للبرتغال من مدينة هرمز تكمن في تلك العمليات الجمركية التي كانوا يمارسونها على التجار، خاصة في الشهور التي تعرف راجا (أفريل، ماي، و جوان) و المقدرة بسبعين ألف أشرفي و من الضرائب المقدمة كضريبة الولاء من هرمز ومداخل فضلا عن غنائم البحر المحصل عليها بعد مطاردة السفن العربية⁽²⁾.

4- احتلال البحرين⁽³⁾:

تزامن احتلال البحرين مع وصول الدولة العثمانية إلى البحر الأحمر بعد القضاء على مصر ثم التوجه نحو جنوب العراق، فخشي البرتغاليون أن يمتد نفوذهم إلى الخليج العربي، خاصة وأن قبائل هذه المنطقة صارت تبغضهم، فسارعوا إلى غزو البحرين و انتزاعه من يد "مقرن بن زامل" الذي يبدو انه كان على اتصال بالعثمانيين واستعان بهم في بناء سفن حربية في البحرين⁽⁴⁾.

فبعد وفات القائد المتحمس البوكيرك، قررت السلطات البرتغالية تقليد "سواريز" مركز نائب الملك بالهند، وقد كانت سياسة هذا القائد تختلف كثيرا عن سلفه، ذلك لأن سواريز استهدف إنعاش التجارة البرتغالية

(1) جاء ذلك في تقرير بعث به قبطان هرمز إلى الملك البرتغالي جوا الثالث في 13 سبتمبر 1529م، يخبره فيه بالإضافة إلى ما سبق ذكره، الأوضاع العامة في الخليج العربي و البحر الأحمر فأشار للأولى بفشل هجوم برتغالي على البحرين، أما المنطقة الثانية فقد أشار إلى محاولة الأتراك الاستيلاء على عدن. انظر: احمد بوشرب، وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي و نتائجه، المرجع السابق، ص 139.

(2) احمد بوشرب، وثائق و دراسات، المرجع السابق، ص 136.

(3) هي مجموعة جزر صغيرة في الخليج العربي أكبرها وأهمها جزيرة البحرين، اشتهرت في تلك الحقبة بتوفر مياهها على كميات كبيرة من اللؤلؤ الذي كان يصطاده الصيادون ثم يأتي تجار هرمز لشراؤه وتصديره إلى الهند و يجنون منه مكاسب عظيمة كما اشتهرت الجزيرة بربيتها للخيول وإنتاج الشعير وأنواع الفواكه. انظر: عصام سخيني، المرجع السابق، ص 165؛ مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج5، المرجع السابق، ص 83.

(4) حسن صالح شهاب، حسن صالح شهاب: "البحرية العثمانية و مهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر و الخليج العربي"، ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية، 10_12 ربيع الثاني 1409هـ 19_21 نوفمبر 1988م، سلسلة الندوات التاريخية، ط1، الإمارات العربية، 2001، ص، 95.

بعيدا عن التقتيل والحرق، فعين الضباط لجباية الضرائب بالمنطقة وشيئا فشيئا تحول الضابط البرتغالي من المجال العسكري إلى التجاري ما ساهم في انتعاش التجارة بمنطقة الخليج العربي تحت الرقابة البرتغالية⁽¹⁾.

بتوحد مصالح كل من الشاه الصفوي والبرتغاليين كما سنرى انطلق هؤلاء نحو استثمار الفوز من خلال استعادة ممتلكات هرمز، وكانت البداية بالبحرين التي تعرضت لهجوم برتغالي هرمزي مشترك عام 1520 مستغلين سفر السلطان البحريني " مقرن بن زامل" إلى مكة لأداء مناسك الحج إلا أن " حميد " ابن أخت السلطان تولى عملية الدفاع و تمكن من إحباط عملية الإنزال⁽²⁾.

وعندما عاد السلطان جمع الجيش و نظم الصفوف لمواجهة الحملة المشتركة الثانية بقيادة الضابط البرتغالي " انطونيو دي كوربا" بقوة قوامها أربعمئة مقاتل تحملهم سفن كبيرة الحجم، أما القوات الهرمزية فقد كانت تحت قيادة ملك هرمز شرف الدين والتي قدرت بثلاثمئة من المرتزقة العرب والفرس، واستطاعت الحملة الدخول إلى البحرين والوصول إلى مشارف المنامة واسر السلطان " مقرن بن زامل " الذي اعدم، وبذلك يعتبر أول ملك يعدم أمام الاحتلال البرتغالي⁽³⁾.

بعد أن تم استرجاع البحرين و ضمها إلى هرمز من جديد، عين على رأسها ملك هرمزي يأتي ذلك بعد أن قام البرتغاليون ببناء قلعة كبيرة بالمنطقة.

وهكذا و باحتلال الموانئ الساحلية في الخليج العربي وتشديد الحصون القوية فيها تمت السيطرة البرتغالية لأكثر من قرن على منطقة الخليج، و احتكروا التجارة ومنعوا السفن العربية من التجارة دون تصريح منهم⁽⁴⁾.

(1) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 73.

(2) محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص 225 .

(3) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص ص 75، 76 .

(4) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص ص 20، 21.

المطلب الرابع: موقف القوى المعنية من الاحتلال البرتغالي للمغرب والخليج العربي

1- موقف الدولة الوطاسية من الاحتلال البرتغالي :

جاءت ردود الفعل العربية الإسلامية فورية وعنيفة، واكتسبت الطابع الشعبي،⁽¹⁾ فبعد احتلال كل الثغور على المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط كان له أثره ووقعه في نفوس المغاربة، وبدأت تظهر بوادر الانتعاش والرفض، فتجدد على سبيل المثال لا الحصر عندما أقدم البرتغاليون على احتلال أزموور وجد هذا الحدث استياء عميقا من لدن الأهالي، اضطر على أثره ملك المغرب الوطاسي إلى أن يقوم بحملة قصد استرجاع المدينة فطوقها بحصار قوي جعل الحياة فيها صعبة⁽²⁾.

كما تمكن الوطاسيون من إلحاق هزيمة كبيرة بالبرتغاليين الذين حاولوا الاستيلاء على طنجة سنة 1437م، واجبروا القوات المهاجمة على الاستسلام و الموافقة على إخلاء سبلة على أن يبقى قائد الحملة الأمير "قرناندو" كرهينة إلى أن يتم تسليم المدينة، غير أن البرتغاليون نكثوا بوعودهم وتمسكوا بالمدينة وظل الأمير أسيرا إلى أن توفي في أسره⁽³⁾.

وبتولي محمد البرتغالي الحكم في المغرب عام 1501م هاجم بعض مراكز الاحتلال البرتغالي، بعد أن تذمر من تقاعس البيت الوطاسي في عمليات الجهاد، كما سعى محمد إلى لعقد حلف إسلامي بالاشتراك مع ملوك مالي المسلمين والدولة العثمانية في الشرق، من أجل القضاء على النفوذ البرتغالي إلا أن محاولاته لم تتجح، ولم يحاول بعدها البرتغالي إعادة المحاولة لانشغاله بأحداث داخلية ونقص ظهور السعديين⁽⁴⁾.

كما شهدت المعمورة مقاومة عنيفة من المغاربة سنة 1515م، يأتي ذلك عندما توجهت أطماع البرتغاليين نحو مدينة فاس، ومن أجل ذلك وقع الاختيار على منطقة المعمورة والمسماة اليوم المهدية، فحشدوا بها قوة كبيرة قدرت ب 8000 مقاتل وتزامن ذلك مع الضعف الوطاسي، إلا أن اندفاع الشباب المغربي المتحمس من أجل الجهاد ضد الاحتلال الغاشم، استطاع صد العدوان بل وبادروا بهجوم على القوات البرتغالية المتواجدة بالمعمورة واستطاعوا قتل أكثر من أربعة آلاف من البرتغاليين وإغراق ثمان سفن بحرية، ومنذ هذا

(1) احمد بوشرب، وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي نتائجه، المرجع السابق، ص 155.

(2) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

(3) محمود علي عامر و محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 24.

(4) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 30، 31.

التاريخ والمغاربة يجدون في استرجاع المراكز المحتلة على الشواطئ⁽¹⁾. وكان ذلك على عهد أبو عبد الله البرتغالي.

كما حاول أبو عبد الله استرداد أصيلا عام 914هـ، وكاد يفتحها لولا وصول الإمدادات، وفي سنة 1514م خرب رباط تيط الذي لجأ إليه البرتغاليون، وأعاد الكرة على أصيلا سنة 1415 لكنه فشل واستطاع استرجاع المهديّة⁽²⁾.

ومن المعارك الوطاسية ذات الشأن نذكر تلك المعركة الطاحنة التي شهدتها منطقة بولعوان 920هـ/1514م⁽³⁾ والتي قادها مولاي الناصر اخو سلطان فاس " أبو عبد الله محمد الوطاسي " لحماية منطقة دكالة من المد البرتغالي، وفي طريقه وصل إلى منطقة بولعوان التي كان حاكم أزموير يعتزم أسر سكانها، فعجل المولى بإرسال قائدتين مرفوقين بألفي رجل متبوعين بثمانمائة من الرماة⁽⁴⁾.

التقى الجيش المغربي مع البرتغاليين الذين كان معهم 2000 من الأعراب، فخسر الجيش المغربي في بداية المعركة، وحوصر الرماة وضربت أعناقهم ما اضطرهم إلى الهروب للجبال، إلا أن الجيش الوطاسي نظم صفوفه وأعاد الكرة ونجح في تحقيق النصر وقتلوا خمسين من الجيش البرتغالي⁽⁵⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحرب لم تكن الطابع الدائم في العلاقات الوطاسية البرتغالية، فقد هادن الوطاسيون البرتغاليين غير مرة، كما فعل أبو العباس احمد بن محمد الوطاسيين سنة 1526م من أجل التفرغ للقضاء على الحركة السعدية الناشئة⁽⁶⁾، وقد كانت الهدنة لمدة إحدى عشر عاما⁽⁷⁾، كما عمل الوطاسيون على

(1) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

(2) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 200.

(3) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج7، المرجع السابق، ص 247.

(4) الوزان، المصدر السابق، ص 155.

(5) الوزان، المصدر، ص، 156.

(6) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج7، المرجع السابق، ص 250.

(7) فالج حنظل، المرجع السابق، 347.

على محالفة البرتغال وحتى الإسبان كما فعل أبو حسون الوطاسي الذي لم ينجده هؤلاء فذهب إلى أتراك الجزائر⁽¹⁾.

والواقع أن السبب الرئيسي الذي حال دون إحراز المغاربة الانتصار في العهد الوطاسي وقبله المريني، هو افتقارهم لأسطول قوي قادر على منع تزود البرتغاليين بالعتاد والأقوات من لشبونة، ما حال دون تحقيق نتائج مهمة من إعلان المغاربة حرباً برية على الثغور المحتلة⁽²⁾. إذ لم تحاول الدولة الوطاسية أن تدخل أي تدور يذكر على خططهم وتقنياتهم العسكرية، لأن مصانعهم الحربية لم تكن تفي بحاجة البلاد كما أن الوطاسيين افتقدوا إلى الجيش المنظم الكافي من حيث العدد⁽³⁾.

بالرغم من الدور الذي لعبه بنو وطاس وقبلهم بنو مرين، إلا أن الحقيقة هي أن الطرق الصوفية كانوا هم من تحمل عبء مسؤولية الجهاد ضد الاحتلال في هذه المرحلة، فضلاً عن إثارة المشاعر الدينية للمغاربة، الذين يبدو أن الكثير منهم كان قد تتلمذ في المدارس الدينية⁽⁴⁾.

و كانت أكثر هذه الطوائف الصوفية حماساً الطريقة القادرية⁽⁵⁾ والطريقة الجزولية⁽⁶⁾ والشاذلية السملالية والدلائية والتاغية والعايشية⁽⁷⁾، وقد تقطن الوطاسيون إلى أن الحكمة تقتضي بتوجيه هذه الطوائف إلى إلى مجابهة العدو الخارجي، ومن هنا جاءت فكرة السماح لهم بإحياء ذكرى قادتهم بعد أن كانوا قد أجبروا على التوقيع داخل الزوايا⁽⁸⁾. وبالرغم من المحاولات الجادة للطرق الصوفية من أجل اقتلاع المحتل خاصة في المنطقة الجنوبية، إلا أن صفة العفوية كانت صبغة تلك المقومات، كما كان التنسيق مفقوداً بين مراكز المقاومة

(1) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، مج 2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء (المغرب)، 1978، ص ص 201، 203.

(2) أحمد بوشرب، وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي نتائجه، المرجع السابق، ص 156؛ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 7، المرجع السابق، ص 159.

(3) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 204.

(4) فاهم نعمة الياسري و حسنين عبد الكاظم عجه، المرجع السابق، ص 166.

(5) تنسب إلى عبد القادر الجيلاني الذي أسس هذه الطريقة في فاس منذ القرن الحادي عشر الميلادي و الذي توفي في بغداد سنة 1066م. انظر شوقي عطالله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 49.

(6) تنسب إلى محمد بن سليمان الجزولي الذي أنشأ هذه الطريقة في القرن الخامس عشر. انظر: نفس المرجع، ص 50.

(7) فاهم نعمة الياسري و حسنين عبد الكاظم عجه، المرجع السابق، ص 166، ص 166.

(8) شوقي عطالله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 50.

فضلا عن الإمكانيات بينهم وبين الأوربيين، ما جعل زعماء الرق المجاهدة تبحث عن زعامة سياسية تمنهج عملية الجهاد⁽¹⁾.

جاء ذلك في أثناء تقلبات سياسية مهمة عرفها المغرب العربي كوصول الأتراك إلى شمال إفريقيا وتتحية الوطاسيين العاجزين عن المواجهة ومبايعة الأشراف السعديين⁽²⁾ مؤسسي الدولة السعدية⁽³⁾ التي ستحمل ستحمل راية الجهاد⁽⁴⁾.

والحقيقة انه رغم عدم تمكن المقاومة المغربية من إخراج قوة الاحتلال البرتغالي بالمغرب، إلا أن هدف البرتغاليين الأسمى ممثلا في حرمان المغاربة من لعب دور الواسطة بين أوروبا و السودان الغربي لم يكتمل، إذ وبالرغم من تضرر التجارة نتيجة الحصار إلا أن المغاربة استمروا في عرض التبر بالموانئ الحرة إلى درجة قال فيها المؤرخ البرتغالي "فودينيو" إن انتقام القافلة من الكرفيلا البرتغالية مثل أهم أسباب انتصار المغاربة السياسي و العسكري على البرتغاليين⁽⁵⁾.

كما أرى نجاح نسبي آخر للمقاومة المغربية من خلال اكتفاء البرتغاليين بالمناطق الساحلية الأطلسية وعدم المجازفة والتسرب إلى المناطق الداخلية، الذي كان سببه في نظري شراسة المقاومة المغربية.

2- موقف القوى الهندية من التحرشات البرتغالية بأراضيها:

2. 1 موقف دولة المغول:

(1) فاهم نعمة الياسري وحسنين عبد الكاظم عجه: المرجع السابق، ص 166، ص 166.

(2) فاهم نعمة الياسري وحسنين عبد الكاظم عجه: المرجع السابق، ص 155.

(3) سميت بعدد الأسماء فإضافة إلى اسم دولة الأشراف السعديين سميت بالدولة الزيدانية والدولة الزيدانية التاكدارية، ودولة الأشراف الحسينيين وذلك لان مؤسس هذه الدولة من شريف قريشي هاشمي ينسب إلى النبي ﷺ من جهة الحسن بن علي وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم، و قد تسمو بلقب أمير المؤمنين. انظر الفصل الثالث من البحث.

(4) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

(5) احمد بوشرب، وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي نتائجه، المرجع السابق، ص 155، ص 156.

لا شك انه من الأشياء المحيرة لأي دارس في شان الإمبراطورية المغولية⁽¹⁾ في الهند هو تزامن حكم هذه الأخيرة من طرف أباطرة المغول الأقوياء والذين يأتي اسم الإمبراطور " اكبر " (963هـ/1556، 1014هـ/1605م) على رأسهم، وبداية ظهور البرتغاليين في المياه والأراضي الهندية الإسلامية.

فبالرغم من أن الإمبراطور الشهير اكبر كان يتربع على عرش احد اكبر الإمبراطوريات في ذلك الوقت ويدين له بالطاعة بقية حكام الهند، ومع ذلك فقد تم مجيء " دي غاما " إلى الهند، واستولى " البوكيرك " فيما بعد على مالقا في 1511م، وتم تشكيل مملكة برتغالية بحرية وأصبحت في عهده - البوكيرك (1507 - 1528م) - مدينة كوا مستعمرة برتغالية، بل وصلت البرتغاليين غطرسة البرتغاليين أن اعترضوا طرق الحجاج المسلمين والذين كان بعضهم قريبين بل وينسبون إلى الأسرة الإمبراطورية المغولية⁽²⁾، ومع ذلك لم ينشب أي صراع بين اكبر والبرتغاليين⁽³⁾.

وبالبحث عن السبب يمكن تعليل ذلك نجد أن سياسة اكبر اوجد هوة سحيقة بينه وبين العالم الإسلامي، الذي كان في أمس الحاجة إلى التحالف لضرب البرتغاليين، جاء ذلك من خلال رؤيته الدينية الغربية اتجاه القوميات والديانات المتعددة أو ما تسميه المصادر بالدين الجديد⁽⁴⁾ يقوم (المزج بين الإسلام و الهندوكية)، فكان المغول اقل حماسة في فتح العالم من اجل الإسلام أو الدفاع عنه ونشره على غرار ما فعلت الدولة العثمانية، ولذلك يعتبر الدارسون أن الفتوحات المغولية في الإمارات الغير الإسلامية إنما كانت إقليمية أكثر منها توسع إسلامي⁽⁵⁾.

(1) هي الإمبراطورية المغولية الإسلامية في الهند، كان أول من أرسى أساسها عام 1526م في كابول هو محمد بابر حفيد تيمرلنك، حيث كانت توسعات هذا الأخير في شبه القارة الهندية بإماراتها الإسلامية وغير الإسلامية هي النواة الأولى لهذه الإمبراطورية، والتي دعمها من خلفه في التوسع الذي وصل أقصى مدى له في عهد اكبر حفيد بابر (1556-1605م).

(2) كان البرتغاليون يعترضون قوافل وسفن الحجيج القادمين من الهند إلى مكة عبر البحر ويتم احتجازهم ولا يطلق صراحهم إلا بفدية.

(3) زين الدين الملباري، المصدر السابق، ص 163.

(4) حاول اكبر أن يوجد ديناً على زعمه يوحد فيه المسلمين مع البراهميين والجينيين والبوذيين والزرادشتيين ليسهل حكم الهند ورأى أن يكون الدين كاللغة، وقد اتهم بالكفر والمروق والإلحاد منذ إعلان هذا الدين سنة 1572، كما حاول البرتغاليون استغلال الوضع وتنصيره ولكنهم فشلوا. انظر: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج8، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، 2000، ص 419.

(5) عبد الونيس شتا و آخرون: العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، العصر العثماني من بداية القوة والهيمنة إلى المسألة الشرقية، ج11، ط1، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م، ص ص 61، 63.

وهكذا اقترنت أهداف هذا الدين الجديد بمهادنة البرتغاليين وعدم عدائهم، وفي هذا تدخل دعوة اكبر للبرتغاليين و طلب قدوم مجموعة من العلماء إلى البلاط المغولي وهو ما هلّل له البرتغاليون طمعا في تنصير السلطان المغولي فأرسلوا ثلاث بعثات، باءت كلها بالفشل، وقد فسر الباحثون نعومة العلاقة تلك بين الطرفين إلى كون اكبر كان يطمح في الاستفادة من المدفعية البرتغالية لاستكمال فتحاته بمنطقة الدكن⁽¹⁾.

وبالحديث عن فتوحات اكبر في الهند تجدر الإشارة هنا إلى أن اكبر استطاع أن يلحق ضربة موجعة بالبرتغاليين، من خلال توسعه جنوبا وسيطرته على اكبر ولاية هندوكية (قجاييا) و التي كانت قاعدة هامة للتجارة الأوربية، وعلى العكس من ذلك ساهم توسع اكبر في ولاية كجرات في إضعاف روح المقاومة في هذا الإقليم الذي اضطر إلى مهادنة البرتغال⁽²⁾. وقد أصبحت القوات المغولية وجها لوجه مع البرتغاليين بعد فتح هذا الإقليم نهائيا، وبالرغم من قلة عددهم إلا أن المغول لم يعترضوهم بسوء واختاروا مهادنتهم بأن لا يعترضوا طريق الحجاج المسلمين عند وصولهم لموانئ الهند التي كانوا يسيطرون عليها⁽³⁾.

وبانتهاء موسم الحج قام اكبر بمهاجمة القوات البرتغالية في عديد النقاط كديو وسورت، ودامان الساحلي إلا انه فشل في مقارعتهم، واحتج نائب الملك البرتغالي و أجاب اكبر بأن لا علم له بما حدث و انه فعل من احد رجال الدولة⁽⁴⁾، قد يعود ذلك ضعف البحرية المغولية على عهد اكبر الذي يبدو انه اهتم بالجيش البرية أكثر من البحر، بالإضافة إلى أن اكبر جعل من أولوياته فتح القارة الهندية الكبيرة وبالتالي لم يجد متسع من الوقت للاحتكاك مع البرتغاليين الذين كانوا يلدغنه بين الفينة والأخرى⁽⁵⁾.

وهكذا كان الموقف السلبي للمغول تجاه التشرش البرتغالي، قد أتاح للبرتغاليين وضع قدم لهم بالمنطقة وإرسال حملات أخرى تستهدف بسط النفوذ بالمنطقة.

(1) جمال الدين الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001، ص91، 94.

(2) عبد الونيس شتا وآخرون، المرجع السابق، ص ص 60، 64.

(3) احمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية و حضارتهم، ج2، ملنزم الطبع و النشر مكتبة الآداب ومطبعتها، إشراف وزارة التربية و التعليم، مصر، (د ت)، ص 118.

- هادن اكبر البرتغاليين عندما أرادت إحدى الأميرات وهي عمته الذهاب إلى الحج، فطلب منهم عدم التعرض لها مقابل إعطائهم موقع على الساحل يسمى دامان. انظر: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 420.

(4) عبد الونيس شتا وآخرون، المرجع السابق، ص64. محمود شاكر، ج8، المرجع السابق، ص 420.

(5) المليباري، المصدر السابق، ص ص 163، 164.

2.2. موقف الإمارات الهندية المستقلة :

إن موقف المغول المحتشم هذا لا يعني عدم ظهور ثورات ومحاولات لتحرير المناطق المحتلة، فقد بادر مجموعة من سلاطين المدن الهندية الإسلامية إلى التصدي للبرتغاليين، فقام سلطان ساحل ملبار "السامري" وأمير كجرات، " محمود شاه بيغرا الأول" بإفشال عدد من المحاولات التوسعية البرتغالية على الساحل الغربي، غير أن الأمور كانت تسير لصالح البرتغاليين كما رأينا، وهو ما اضطر ملوك الهند إلى مراسلة سلاطين الممالك للتدخل لرد البرتغاليين وإنقاذ التجارة من أيديهم⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من اضطر من حكام الإمارات الإسلامية إلى مهادنة البرتغاليين بل والتحالف معهم ضد توسعات الأسرة المغولية، كما فعل أمير الكجرات بهادر شاه حين استنجد بالبرتغاليين ضد " همايون" بن " بابر" وعقد مع نائب ملك البرتغال معاهدة سمح له ببناء قلعة في ديو⁽²⁾.

أما عن بقية الدول الهندية فقد كانت علاقتهم بالبرتغاليين ودية خاصة مع الهندوس، فتبادلوا مع حكامهم الهدايا والبعثات الرسمية، قد يعزى ذلك السلم إلى كون البرتغال قد تخلت عن سياستها في امتلاك الأراضي عقب هزيمتهم في قاليقوت، هذه الأخيرة التي ظلت تحاربهم إلى غاية 1599م، كون ازدهارها كان مرتبطا بالأساس بالتجارة العربية التي انتزعتها البرتغاليون⁽³⁾.

3- موقف الممالك من ظهور البرتغال في المياه الشرقية:

كانت الدولة المملوكية في مصر مطلع القرن السادس عشر دولة منهكة يسودها الضعف والتفكك بسبب جهود الممالك المعاصرين ومن سبقهم في سبيل لإنقاذ العالم من الخطرين الصليبي والمغولي⁽⁴⁾.

ولما كانت الدولة المملوكية من أكثر الدول تضررا اقتصاديا نتيجة اكتشاف البرتغاليين الطريق الجديد، وما أصاب موانئ السويس والإسكندرية والبصرة وطرابلس من أزمات مالية، هذا الضعف الذي انعكس لا محالة

(1) ياسر عبد الجواد المشهداني، المرجع السابق، ص 31.

(2) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 418.

(3) عبد العزيز، عوض، المرجع السابق، ص 31.

(4) محمد نصر مهنا، المرجع السابق، ص 70.

سلبا على المدن الايطالية التي تربطها علاقة قوية بالممالك، هذه التطورات جعلت الثانية تحت الأولى على ضرورة القيام بمجهود مشترك من شأنه القضاء على الاحتكار البرتغالي، كما طالبوا الممالك بتخفيض أثمان السلع⁽¹⁾، فأخذت العلاقة بين الممالك و البرتغاليين المحتكرين تأخذ شكل العداء والاصطدام العسكري المسلح والمعلن².

لم يكن بمقدور السلطان " قانصوه الغوري "³ تجاهل الخطر البرتغال خاصة بعد استتجاد أمراء الهند له، وتقصده هنا حاكم كجرات " مظفر شاه "⁽⁴⁾، فبدأ بتجهيز أسطول قوي لمقارعة البرتغاليين، وذهب بنفسه إلى ميناء السويس للوقوف على سير الأعمال، كما راسل ملوك الهند قائلا: " أن يكونوا مع السلطان عوناً في قتال الفرنج (يقصد البرتغاليين) الذين صاروا يتعشون بسواحل الهند و قد كثر منهم الفساد هناك..."⁽⁵⁾.

وقد لجأ قانصوه الغوري إلى الوسائل السلمية تارة وإلى التهديد تارة أخرى، فكان أول ما قام به في سبيل التخفيف من وطأة و غطرسة البرتغاليين في الأراضي والمياه الإسلامية أن قام بتوجيه نداءات إلى الكنيسة البابوية بروما ندد فيها بالوجود البرتغالي بالمشرق و حمل الكنيسة المسؤولية في ذلك، كما طالبها - الكنيسة - بان تتوقف عن إرسال المزيد من البرتغاليين، مهددا إياها بحرمان حجيجهم من أداء مناسكهم ببيت المقدس،

(1) احمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1986م، ص 83.

2 هنادي زعل مسعود الهنداوي، السلطان قانصوه الغوري و نهاية دولة المماليك 906 - 923هـ / 1500 - 1517م، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك كلية الآداب قسم التاريخ، 2002م، ص 107.

3 وهو قانصوه بن عبد الله الجركسي، السلطان الملك الأشرفي سيف الدين و كنيته أبو النصر، و اشتهر بالغوري، وأشارت بعض المصادر إلى أن مولده كان في حدود سنة (850هـ / 1446م)، وهو السلطان الواحد و العشرين من المماليك الجركسة تولى الحكم سنة (906 هـ 1500م) تميز بالفطنة و الذكاء، و توفي في الخامس و العشرين من رجب 922هـ / 1516م، اثر هزيمته في معركة مرج دابق التي دارت بينه و بين السلطان العثماني سليم، حكم حوالي 15 سنة وثلاث أشهر. انظر: عبد الله الشراقوي، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك و السلاطين، تح رحاب عبد الحميد القاري، ط1، مكتبة المدبولي، القاهرة، 1996م، ص ص 111، 112؛ هنادي زعل مسعود الهنداوي، المرجع السابق، ص ص 5، 6.

(4) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص 28. و من الذين راسلوه أيضا السلطان السامري صاحب ملبار والذي حذره من خطورة احتلال البرتغال للساحل الهندي. انظر: ياسر عبد الجواد المشداني، المرجع السابق، ص 31.

(5) ابن إياس محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح محمد مصطفى، ج4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص 185؛ عبد الجواد المشداني، النفوذ البرتغالي، المرجع السابق، ص 32.

غير أن هذا الأسلوب من التهديد لم يؤت ثماره كون البابا كان مقتنعا بالضعف الذي وصل له المماليك في مصر⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى تلك المساعدة العثمانية التي تلقاها الغوري في مشروعه هذا من أخشاب وحبال وغيرها من المواد اللازمة للبناء، كما بعث السلطان العثماني ما مقداره 300 مدفع، و50 سارية 3000 آلاف مجداف وعدد من الخبراء، وتم نقل المساعدات عبر المتوسط بالسفن ثم على ظهور الحمال إلى السويس⁽²⁾.

وبعد اتفاق الطرفان الإسلاميان على استجماع القوى وتنظيم الصفوف، كانت الأساطيل الهندية مجتمعة تنتظر وصول الأسطول العربي الذي تكون الأسطول من خمسين سفينة،⁽³⁾ وأبحر من السويس إلى جدة في 911هـ / أكتوبر سنة 1505م بقيادة الأمير البحري "حسن الكردي"⁽⁴⁾. لحماية الأماكن المقدسة في الحجاز من البرتغاليين الذين يتواطئون مع الأحباش للإطاحة بالقوى الإسلامية، وقد نجحت الدولة المملوكية في البداية في بعث الذعر لدى البرتغاليين الذين حاولوا الزحف على مكة وعندما سمعوا بقوة الأسطول لاذوا بالفرار نحو الهند أين تعقبهم السفن المملوكية إلى ميناء " شول " وحدثت معركة قوية بين الطرفين في صيف 1508م، انتهت بانتصار المماليك، وقتل القائد البرتغالي " لورينزو دا الميدا Lorenzo da almeda "⁽⁵⁾، بعد أن تعذر على البرتغاليون الصعود إلى ظهر السفن المصرية⁽⁶⁾.

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ط3، دار النهضة العربية، القاهرة، 1994م، ص 191.
(2) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص28 ؛ استمر التعاون المملوكي العثماني ضد الخطر البرتغالي في سنوات 1507 و 1512 و 1514 و 1515م، ففي سنة 1511م قام العثمانيون بارسال مكاحل سبقيات العدة ثلاث مائة ونشاب ثلاثين ألف سهم، و بارود مطيب أربعون قنطارا و مقاذيف و غير ذلك من نحاس و حديد و مراسي . انظر: هنادي زعل مسعود الهنداوي، المرجع السابق، ص ص 81، 82.

(3) تذكر بعض المصادر مشاركة مراكب وسفن من البندقية في هذه الحرب، وكان الغرض منها إعادة التجارة الشرقية إلى طريقها الرئيسي. انظر: عبد الجواد المشهداني، النفوذ البرتغالي و أثره، المرجع السابق، ص33 ؛ إسماعيل سهرنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج2، ط1، المطبعة الأميرية بولاق، مصر، 1314هـ، ص 189.

(4) عبد الجواد المشهداني، المرجع السابق، ص 33.

(5) نفس المرجع ، ص 33.

(6) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص 127.

و يصف لنا " ابن إياس " ذلك الانتصار على القوى البرتغالية فيقول: " وفيه جاءت الأخبار بان
العسكر الذي توجه إلى نحو بلاد الهند صحبتته الأمير حسن قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يتعشون في
البحر وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة..."¹.

لكن الأسطول البرتغالي استجمع قواه واشتبك للمرة الثانية مع الأسطول المملوكي⁽²⁾، بقيادة حسين
والذي تالف من ثمانية عشر سفينة وألف ومائتا مقاتل⁽³⁾، وكانت خسارته وخيمة في معركة ديو الشهيرة سنة
1509م⁽⁴⁾.

اضطر الغوري بعدها إلى عدم تكرار لمحاولة بسبب مواجهته للعثمانيين في معركة مرج دابق ببلاد
الشام سنة 1516م، حيث قتل وتساقت مدن الشام في أيدي العثمانيين الذين واصلوا زحفهم نحو مصر
واستولوا عليها في 1517م، وأصبح بذلك لزاما على العثمانيين مواجهة الخطر البرتغالي في إطار العقيدة
الإسلامية.

وهكذا فصلت معركة ديو الشهيرة في موازين القوى بالبحار الجنوبية وأعلنت عن انتقال الكفة من يد
المسلمين إلى البرتغاليين هؤلاء الذين ثبتوا وجودهم في ميناء ديو الاستراتيجي، فبالرغم من أن قوة الزاموريين قد
ظلت تقاوم البرتغاليين إلى حدود سنة 1599م، إلا أن انسحاب الأسطول المصري بمدفعيته جعل البرتغاليين
سادة المنطقة⁽⁵⁾.

4- موقف الدولة الصفوية من الاحتلال البرتغالي للخليج العربي: (الاتفاق الصفوي البرتغالي):

1 ابن إياس، المصدر السابق، ص 142.

(2) محمد نصر مهنى، المرجع السابق، ص ص 70، 71.

(3) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، 127.

(4) احمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 83 ؛ و قد ذكر عدد من المؤرخين أسبابا لهزيمة القوى الإسلامية في ديو
كقوة الأسطول البرتغالي الذي بدا قويا من حيث التجهيز العسكري بمعداته، بالإضافة إلى عامل الخيانة التي مارسها حاكم المدينة
مالك اياز الذي ادعى الإسلام ومن ثم انضم إلى البرتغاليين فضلا عن منع وصول الإمدادات المرسلّة من مصر واليمن. انظر:
عبد الجواد المشهداني، النفوذ البرتغالي و أثره، المرجع السابق، 34.

(5) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص 127.

نجحت الدولة الصفوية في تبنيها المذهب الشيعي في توحيد الأجزاء الفارسية في إطار كيان سياسي واحد سنة 1501م، ثم نجاحها في ضم العراق سياسيا ومذهبيا إلى حيرتها سنة 1508م، وقد جاءت هذه الانجازات الفارسية في تأسيس الدولة مواكبا ومتزامنا مع نجاح السيطرة البرتغالية على هرمز⁽¹⁾.

بالبحث عن الموقف الصفوي من تلك التطورات نجد انه في الوقت الذي تحمل فيه العرب عبء مقاومة البرتغاليين رحب الفرس ومنذ البداية بالغزاة البرتغاليين، وجمعتهم معاهدات وتحالفات عسكرية⁽²⁾. فكان الفرس حذرين مواجهة البرتغاليين سواء تعلق ذلك بإحباط مخططاتهم، أو المواجهة العسكرية معهم⁽³⁾.

والحقيقة أن الشاه الصفوي "إسماعيل"⁽⁴⁾ وبعد احتلال بغداد عام 1508م قد حاول إنقاذ هرمز من البرتغاليين، فأرسل أسطولا ولكن القوات البرتغالية باغتته قرب "نابند" على الساحل الفارسي أين احرق الأسطول وقتل عدد من البحارة الصفويون وأحرقت حتى المدينة، ولما كان التفوق البرتغالي ظاهرا قرر الشاه تغيير العلاقة مع البرتغاليين لتأخذ طابع الصداقة والحوار وحتى التحالف⁽⁵⁾.

والواقع أن أولى الاتصالات بين الجانب الصفوي و البرتغالي كانت قد بدأت منذ زيارة البوكيرك إلى هرمز سنة 1508م، حيث و عد مندوب الشاه الذي التقى البوكيرك في هرمز على مواصلة الاتصال عقب تولي هذا الأخير منصب نائب الملك في الهند⁽⁶⁾.

وقد بدأت بالفعل أولى تلك الاتصالات من خلال تبادل البعثات من كلا الجانبين فنجد على سبيل المثال لا الحصر زيارة سفير الشاه إسماعيل إلى جوا في 1510م عقب تولي البوكيرك منصبه نائبا للملك في

(1) محمد نصر مهنا، الخليج العربي الحديث و المعاصر، المرجع السابق، ص 69.

(2) محمود شاكر، موسوعة تاريخ الخليج، المرجع السابق، ص 173.

(3) محمد نصر مهنا، الخليج العربي الحديث و المعاصر، المرجع السابق، ص 69.

(4) هو الشاه إسماعيل بن حيدر (1494-1524م) ينتهي نسبه إلى صفي الدين بن جبرائيل العلوي الحسيني، المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية التي بلغت أوج قوتها في عصره و قد اتخذ المذهب الشيعي مذهبا رسميا لدولته، انظر: بديع جمعة و احمد الخولي، تاريخ الصفويون و حضارتهم، ط 1، دار الرائد العربي، القاهرة ، 1976، ص 50.

(5) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 191.

(6) نفس المرجع، ص 196.

الهند، وعبر السفير الصفوي للبوكيرك عن صداقة الشاه إسماعيل لدولة البرتغال وأنه - الشاه - يطلب منه إرسال سفير برتغالي إلى البلاط الفارسي، وقد استقبل السفير استقبالاً حاراً على غير عادة البرتغاليين⁽¹⁾.

وهكذا استمر مسلسل العلاقات الودية بين الجانبين الصفوي والبرتغالي إلى أن توجت بحلف سياسي وعسكري وقع عام 1515م أثناء تواجد البوكيرك في هرمز للمرة الأخيرة⁽²⁾، والذي نص على⁽³⁾:

– أن تساعد البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف

– أن يتعهد البرتغاليون بمساندة الشاه الصفوي في القضاء على الحركات الانفصالية في القضاء على الحركات الانفصالية التي قامت في إقليم مكران.

– قيام تحالف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية.

– إعادة توران شاه إلى هرمز نائباً عن الملك البرتغالي عمانوئيل.

– يعترف الشاه الصفوي بالسلطة البرتغالية على جزيرة هرمز والتنازل على ساحل بلوشتان.

– وعد البرتغاليون الشاه بفتح جاوه للتجارة الفارسية ولكن البوكيرك أخبر سفير الشاه في عام 1515م بأن أي تاجر يضبط في منطقة أخرى في الهند باستثناء جاوه تصدر بضاعته⁽⁴⁾.

ونحن كمثأملين في سير الأحداث نتساءل ما هي الأسباب التي حملت الدولة الصفوية على التنازل عن هرمز للبرتغاليين وهي التي كانت تدعي تبعية الجزيرة لها ؟ وهل تم احترام بنود الاتفاقية يا ترى؟.

وبالعودة إلى أسباب الموقف الصفوي السلبي هذا نجد أنه راجع لجملة من العوامل، كعدم تضرر الدولة الصفوية من تدخل البرتغاليين في التجارة بالخليج كونها لم تكن بأيديهم⁽¹⁾، وهو ما يدفعنا إلى الجزم بفكرة استقلال الجزيرة - هرمز - في حكمها قبل مجيء البرتغاليين وتحالفهم مع الدولة الصفوية الناشئة.

(1) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص 196.

(2) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص 199.

(3) صلاح العقاد، دور العرب و الفرس، المرجع السابق، ص 63 ؛ محمد نصر مهنا، المرجع السابق، ص 59.

(4) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص 23.

كما كان للسياسات العالمية في ذلك الوقت دور مهم في تحديد العلاقة بين البرتغال والدولة الصفوية التي قبلت التنازل عن هرمز نتيجة الهزائم التي تعرضت لها على يد الدولة العثمانية الفتية، عقب موقعة جالدران عام 1514م، لإيجاد نوع من التعاون مع البرتغال لمواجهة الخطر العثماني والذي وصل في تلك الفترة إلى العاصمة تبريز⁽²⁾.

أما فيما يخص الالتزام ببنود هذا الاتفاق، فإن إلقاء نظرة على سير الأحداث التي قام بها البرتغاليون بعد فترة قصيرة من هذا الاتفاق يوحي بأن البرتغال هي من استفادت حقيقة من هذا الاتفاق ونقصد هنا أنه وبالرغم من الاتفاق بين الطرفين إلا أن البرتغاليين هم من سيطروا على البحرين مطمع الصفويين⁽³⁾.

واستمرت العلاقة الودية بين الجانبين بعدها فقام الشاه إسماعيل في سبتمبر من عام 1523م يستقبل في بلاطه سفيرا برتغاليا يسمى " بلسار بسوا " بحفاوة كبيرة⁽⁴⁾ ويظهر التقارب الفارسي البرتغالي أكثر في الرسالة التي كان قد بعث بها القائد البرتغالي البوكيرك قبل وفاته إلى الشاه الصفوي و التي جاء فيها: " و إذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدي بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو البحرين⁽⁵⁾ ".

5- المقاومة المحلية في الخليج العربي ومعاهدة ميناب :

عاش البرتغاليين في الخليج العربي على فوهة بركان، خاصة وأن دخولهم إلى المنطقة صاحبه عمليات وحرق وقتل و تدمير، فشهدت - المنطقة - مجموعة ثورات متفرقة في محاولة لإخراج المحتل الذي يبدو أن الأهالي قد تنبهوا لمخططه.

والحقيقة أن أولى بوادر تلك الثورات كانت من قلعات في 1519م، حين انتفض حاكمها " شهاب الدين" ضد تعسف السلطات البرتغالية في عمليات التجارة وجمع الأموال، ما اضطر السلطات في لشبونة إلى

(1) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص ص 94، 95.

(2) فتيحة النبراوي، محمد نصر مهنا: الخليج العربي دراسات في تاريخ العلاقات الدولية و الإقليمية، (د ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د ت)، ص 115.

(3) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص 23.

(4) علي إبراهيم درويش: السياسة و الدين في مرحلة تأسيس الدولة 1501 - 1676م، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013، ص 166.

(5) زهير قاسم محمد، المرجع السابق، ص 135.

إرسال قوات برتغالية من الموزمبيق قصد القضاء على الثورة إلا أنها فشلت في ذلك، حيث شهد الصدام وقوع أسرى برتغاليين في قبضة شهاب الدين، الأمر إلي تطلب تدخل نائب الهند " ديجور لوبيز " إلي تمكن من تسوية الأمر بين الطرفين⁽¹⁾.

على اثر مقتل السلطان "مقرن بن أجود بن زامل" (1515 - 1521م)، واستنادا للحلف الصفوي البرتغالي أطلق البرتغاليون العنان للسيطرة العسكرية و التجارية بمنطقة الخليج من خلال تعزيز الاستحكامات العسكرية و التجارية بتعيين موظفين في المراكز الجمركية بالبحرين وهرمز⁽²⁾، وكاستغلال لظروف طارئة بالهند ونقص الجنود في الحصون البرتغالية أعلن القائد الهرمزي في ذلك الوقت "طور شاه" حركة تمرد وثورة عارمة بالتنسيق مع أهالي المنطقة⁽³⁾.

والواقع انه من سقوط هرمز تحت السيرة البرتغالية (1507 - 1521م) وعملية التخطيط للثورة قائمة من اجل الإطاحة بالنفوذ البرتغالي في الخليج العربي، وكان التخطيط سريا داخل بلاط هرمز بين الملك " توران شاه " ووزرائه بزعامة "شرف الدين". وقد كانت الخطة بان يكون الهجوم موحدا في كل مناطق الخليج العربي، ومن اجل تحقيق ذلك تقرر حرق المراكب البرتغالية ليلا ليتسنى لأهل هرمز وبقية المواني رؤيتها والإقبال علي تنفي الخطة⁽⁴⁾.

أما القسم الثاني من الخطة فيتولاها " توران شاه" من خلال إيهام القائد البرتغالي بالخليج " جاركيا ديكوتينهو" بوجود قراصنة يترددون على الساحل قرب عمان، فما كان منه إلا أن صدق الخدعة وأرسل بعض القطع البحرية للتحري، وبذلك تمكن الملك الهرمزي من القضاء على نصف الأسطول في الوقت ألي تعلن فيه الثورة⁽⁵⁾.

(1) زهير قاسم محمد، المرجع السابق، ص 123.

(2) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج التاريخي، المرجع السابق، ص 15 .

(3) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 78.

(4) زهير قاسم محمد، المرجع السابق، ص 129.

(5) نفس المرجع، ص 129 .

وهكذا و في فجر 30 نوفمبر عام 1521م وبشكل غير متوقع من الجانب البرتغالي اندلعت الثورة في الخليج العربي، واستطاعت - الثورة - القضاء على العديد من البحارة والجنود خاصة بمنطقة البحرين التي انتقامت للمقتل قائدهم مقرن بالقضاء على قائد المحمية هناك⁽¹⁾.

إلا أن السلطات البرتغالية تمكنت من السيطرة على الوضع بالمنطقة مستغلة ذلك الصراع الذي كان قائما بين الملك الهرمزي وشيوخ الجبور حيث قام احد هؤلاء الشيوخ يدعى " سعيد" والذي كان يسيطر على جزء كبير من عمان بالتحالف مع البرتغاليين من اجل تطويق مدينة صحار الخاضعة للحكم الهرمزي برا وبحرا⁽²⁾.

على اثر فشل الثورة المحلية ضد الحكم البرتغالي كان من الطبيعي سقوط الحكم الهرمزي فتولى "محمد شاه" القيادة خلفا ل " طور شاه " سنة 1523 م، فكان من ابرز ما قام به هذا الملك التعاقد مع البرتغاليين تحت ما يسمى معاهدة "ميناب" 1523م التي اعتمدها البرتغاليون في تسيير هرمز إلى غاية سنة 1622م، وقد اعترف من خلالها البرتغاليون لمحمد بالحكم إلا أن ذلك لا يكون إلا تحت إشراف برتغالي⁽³⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الثورات على البرتغاليين بمنطقة الخليج العربي قد استمرت بالاندلاع في فترات كثيرة، كثورة عام 1521م بالقطيف، وأحداث عام 1521 م بالخليج التي تعد امتداد لثورة الأهالي السابقة الذكر، وانتفاضة 1522 م، وأحداث عام 1526م، وعام 1529 بالبحرين⁽⁴⁾.

ورغم فشل تلك الثورات التي كانت تقع من الحين والآخر في إخراج الاحتلال البرتغالي من البرتغالي من المنطقة، إلا أن هدف البرتغاليين الأسمى في قطع و احتواء التجارة العربية لم يتحقق، إذ استمرت هذه الأخيرة رغم المضايقات البرتغالية الدائمة، ونستدل على ذلك من خلال ذلك التقرير المرسل إلى الملك البرتغالي جوان الثالث والمؤرخ في 1528/7/10م، والذي تضمن مداخل جمارك هرمز، كما احتوى التقرير على مداخل الضرائب التي يحصلها البرتغاليون من مطاردتهم للسفن العربية والتي عدّها بحوالي 25 ألف اشرفي أي ما يعادل 25 بالمئة من مداخل هرمز وهي نسبة ليست بالقليلة وتوحي باستمرار التجارة العربية⁽⁵⁾.

(1) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 78.

(2) نفس المرجع، ص 79.

(3) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج التاريخي، المرجع السابق، ص 15.

(4) زهير قاسم محمد، المرجع السابق، ص 132، 135.

(5) احمد بوشرب، دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المرجع السابق، ص136.

مما سبق يمكننا القول أن:

امتزجت العديد من العوامل السياسية و الدينية و الاقتصادية و العلمية في توجه دولة البرتغال نحو احتلال المنطقة العربية تحت غطاء الكشف الجغرافية، بحيث يمكن اعتبار الكشف البرتغالي استعماراً كونه استعمل السلاح و الحصون و اعتمد التحصن فكان اقرب إلى الاحتلال منه إلى الكشف، و دليلنا في ذلك الكشف الصيني للمنطقة الذي اكتفى بزيارة المنطقة دون الاستقرار.

استغل البرتغاليون ظروف المنطقة العربية للانقضاض على جناحيها، فالتكك وضعف السلطة بالمغرب وغياب الكيان السياسي الموحد بالخليج سهل عملية احتلالها.

جوبه الاحتلال البرتغالي بثورات محلية شعبية و أخرى منظمة من القوى السياسية الفاعلة آنذاك (الوطاسية، المغولية، المملوكية، الصفوية) إلا أنها جميعاً لم تكن كفيلة بإخراجه، والغريب هنا انه في الوقت الذي حملت في تلك القوى السلاح على ضعفها لمواجهة الاحتلال وقفت الدولة الصفوية موقفاً سلبياً من تلك التطورات ورأت أن تحالف القوة الدخيلة وفقاً وتماشياً مع مصالحها.

الفصل الثاني: الدولة السعدية وجهودها ضد الاحتلال البرتغالي في المغرب الأقصى خلال القرن 16م.

المبحث الأول: ظهور الدولة السعدية على المسرح السياسي.

1. الظروف العامة للمغرب الأقصى قبيل ظهور السعديين
2. أصل السعديين
3. بداية الدعوة السعدية
4. الصدام السعدي الوطاسي
5. صراع الإخوة
6. توحيد المغرب (القضاء الثاني والنهائي على الوطاسيين

المبحث: الصراع السعدي البرتغالي في المغرب الأقصى في القرن 16م

1. جهود القائم بأمر الله ضد الاحتلال البرتغالي
2. جهود أبو العباس أحمد الأعرج
3. جهود محمد الشيخ السعدي المهدي
4. عملية الإخلاء البرتغالية من المدن المغربية
5. جهود محمد عبد الله الغالب ضد البرتغاليين
6. جهود محمد المتوكل
7. جهود عبد الملك ضد الاحتلال البرتغالي (موقعة واد المخازن)
8. جهود أحمد المنصور.

الفصل الثاني: الدولة السعدية وجهودها ضد الاحتلال البرتغالي

تمهيد:

تميزت أوضاع المغرب في بداية القرن 16 ، بوجود سلطة مركزية ضعيفة غير قادرة على توحيد البلاد، وعاجزة عن الوقوف في وجه الغزو البرتغالي المتزايد، وفي المقابل تقوى نفوذ الزوايا التي أصبحت تتولى مهمة تأطير حركة الجهاد ضد المحتلين، إلى أن تهيأت بجنوب المغرب البيئة الخصبة والظروف الملائمة لظهور السعديين كقيادة جديدة على المسرح السياسي في البلاد.

وقد تمكن هؤلاء من تنظيم مقاومة ناجحة ضد البرتغاليين وعملائهم مستعينين في ذلك بأهل الجنوب المغربي، بعدما استطاعت الأسرة السعدية لم شملهم واستعادة وحدة البلاد، والوقوف في وجه الأطماع الأجنبية. قبل الدخول في صراع ضد سلطة الوطاسيين الهرمة و التغلب عليها و القضاء على دولتهم نهائيا في آخر العقد الخامس من القرن 16 م.

وحسبي في هذا الفصل أن أعطي للقارئ لمحة عن الأوضاع التي أل إليها المغرب الأقصى عشية بروز السعديين على المسرح السياسي، متتبعين لمجهوداتهم العسكرية في سبيل تحرير الثغور المغربية المحتلة من طرف البرتغال و عملائهم بالمنطقة، دون أن ننسى صراعاتهم ضد البيت الوطاسي و نجاحهم عليهم ما جعل المغرب الأقصى يتوحد تحت كنفهم.

المبحث الأول: ظهور الدولة السعدية على المسرح السياسي:

المطلب الأول: الظروف العامة للمغرب الأقصى قبيل ظهور السعديين

1- الوضع السياسي:

1.1- ضعف السلطة ونفكك البلاد:

كان من اثر نقص الإمكانيات ومحدوديتها خاصة العسكرية منها لدى الوطاسيين الذين آل إليهم حكم بلاد المغرب الأقصى بعد انقراض المرينيين في الربع الأخير من القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي، أن عجز هؤلاء عن بسط نفوذهم على كامل تراب المغرب⁽¹⁾، فعرفت البلاد فترة تجزؤ إلى وحدات سياسية صغيرة تحت زعامة قبلية أو دينية أو مجالس محلية، اختلفت في درجة ولائها وانتمائها إلى السلطة المركزية في فاس، فمنهم من يخضع بالاسم فقط لسلطة فاس ومنها من أثر الاستقلال بحكمه ورفض الاعتراف بالحكم للبيت الوطاسي⁽²⁾، و هكذا تردد الوطاسيون بين محاربة المسيحيين وبين الخضوع لتوجيهات الصلحاء ومقاومة بعض الحركات الانفصالية التي كانت تقوم بين الحين والآخر⁽³⁾.

وقد كان انفصال تلك القبائل عن العاصمة فاس نتيجة ظروف وأسباب، فهي إما أخذت بناصية الجهاد ومقاتلة العدو المحتل لسواحل المغرب و إما بعيدة عن مقر الحكم في فاس كما حدث في شرق البلاد وجنوبها، وإما دخلت تحت حماية البرتغاليين خاصة تلك القبائل الواقعة على الأطلسي⁽⁴⁾، ومن هذه الكيانات سواء المستقلة أو المنتمية للبيت الوطاسي نذكر:⁽⁵⁾

(1) بن العربي الصديق، المرجع السابق، ص 19.

(2) فاهم نعمة الياسري وحسنين عبد الكاظم عجه، المرجع السابق، ص ص 164، 165.

(3) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 195.

(4) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 16.

(5) عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى في القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، ج 1،

دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ص ص 46، 47.

بشمال المغرب وجنوبه الشرقي ظهرت إمارة بني راشد في شفشاون⁽¹⁾ وآل المنظري⁽²⁾ في تطوان وآل عبد الحميد في القصر الكبير وآل رحو في دبدو، وكانت هذه الإمارات تخضع اسمياً للوطاسيين .

أما في الوسط من المغرب وغربي الوسط فنجد إمارة ابن دحو وأخيه أبي فارس في الجبل الأخضر، وإمارة ابن عامر في تنسيتة، وإمارة آل فرحون في أسفي، وجمهريات مدن تافزة والجمعة وأزمور ونفوذ رؤساء القبائل في دوكالة وتادله، وكل هذه الإمارات الصغيرة لم تكن تخضع للحكم الوطاسي .

وفي الجنوب والغرب نجد إمارة آل شنتوف بمراكش، وجمهريات مدن تارودانت ونفوذ شيخ العرب أولاد زرقان في تافيلالت، وإمارة مولاي إدريس الهنتاني في الأطلس الكبير.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تلك الوحدات المستقلة إن لم تكن في حالة تمرد مع السلطة المركزية فقط إذ نجدها في صراع فيما بينها في كثير من الأوقات خاصة المتجاورة منها⁽³⁾، فكانت تقوم بينها نزاعات مختلفة وأهمها التوسع على الحدود، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، صراع أمير جبل هنتانة مع أمير مراكش وصراع أمير الجبل الأخضر مع هذا الأخير، وقد يصل الأمر حد أن يصل النزاع بين أفراد الإمارة الواحدة من خلال تلك الشجارات التي كانت تحدث بين الأحياء⁽⁴⁾.

لذا أصبحت مسألة استمرار الدولة الوطاسية على رأس السلطة السياسية المغربية، مسألة وقت لا أكثر، فكان لابد من إنقاذ المغرب بظهور قوة تستطيع أن تحل محل الوطاسيين الذين يبدو أنهم عاشوا كهولتهم منذ نشأتهم، من خلال الانقسام الذي عاشته وتكالب الأوربيين عليها وتشردم مدنها⁽⁵⁾.

(1) تقع بين وزان وتطوان وقد تم تأسيسها سنة 876هـ، على يد موسى بن راشد الذي بنى قصبتها، وقد شكلت المدينة معسكراً ينطلق منه أفول المتطوعين إلى مقارعة البرتغاليين على السواحل. انظر: إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص249.

(2) ترجع التسمية إلى أبو الحسن علي المنظري، الذي كان المشرف والمؤسس لمدينة تطوان. انظر: محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، ط2، مطبعة المهدية، تطوان، المغرب، 1955م، ص 15.

(3) عبد الفتاح مقلد الغنيمي: موسوعة تاريخ المغرب العربي بين بني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين، مج 3، ج6، القاهرة، 1994م، ص82.

(4) عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 47.

(5) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص ص107، 108.

1. 2- الغزو الأيبيري (الاسباني و البرتغالي):

كان اثر ذلك التجزؤ وتلك الفرقة ببلاد المغرب والتنافس على السلطة وخيما على البلاد والعباد، فقد كثرت أطماع القوى الخارجية للتدخل في شؤون المغرب⁽¹⁾ ورؤوا في ضعف الوطاسيين الفرصة لاستكمال مشاريعهم الاستعمارية.

منذ أن بدا الإسلام بالنقلص في الجزيرة الأيبيرية والصليبية بقيادة اسبانيا والبرتغال تواصل زحفها على الأقطار العربية وشمال إفريقيا بالذات لقربه الجغرافي، ومن اجل تحقيق ذلك وقع تحالف صليبي باركه البابا الاسكندر السادس بين الجارتين اسبانيا والبرتغال من اجل احتلال العالم الإسلامي بما فيه بلاد المغرب، وكان الأسبان أول من شرع في تطبيق الخطة عندما سيطروا على تطوان⁽²⁾ وتيجيساس عام 1401 م⁽³⁾.

أما دولة البرتغال فقد رأينا كيف أن الملك جيان احتل مدينة سبتة سنة 1415 م ثم محاولة فاشلة لاحتلال طنجة سنة 1437 م تلتها محاولة ناجحة لاحتلال بلدة القصر الصغير في سنة 1458 م، وفي سنة 1469 م قاموا بتخريب مدينة انفي ثم قاموا باحتلال مدينتي أصيلا و طنجة سنة 1471 م⁽⁴⁾.

وبالعودة إلى الجارة اسبانيا التي وبالرغم من أنها استطاعت استكمال وحدتها متأخرة بعض الشيء مقارنة بالبرتغال، إلا أنها سرعان ما دخلت في منافسة شرسة من اجل وضع قدم لها بالمغرب، وكانت البداية باحتلالهم لمنطقة عند واد نون بالأطلسي أين بنو حصن سانتا كروز سنة 1478 م⁽⁵⁾.

(1) محمود علي عامر و محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 14.

(2) تأسست قصبته في عهد يوسف المريني، سنة 685هـ، اتسعت رقعتها وعمارتها طيلة هذه الفترة إلى صدر القرن التاسع، استعمرها الأسبان سنة 1286هـ، وتولتها عائلة بن حسن المنظري طيلة فترة حكم الوطاسيين. أنظر: ابن العربي، المرجع السابق، ص ص 101، 100؛ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 229.

(3) سعيد أعراب: " موقعة واد المخازن و اندحار الصليبية بالمغرب "، مجلة دعوة الحق، العدد8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1978م، ص 90.

(4) للمزيد انظر المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا البحث.

(5) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 104.

اشتد الغزو الإيبيري على بلاد المغرب الأقصى في مطلع القرن السادس عشر حيث قام الإسبان باحتلال غساسة سنة 1504م بعد احتلال مليلة سنة 1497م، كما احتلوا عديد المناطق على شواطئ شمال إفريقيا ما بين 1505 و 1535م.

أما البرتغاليون فقد رأينا في ثنايا هذا البحث كيف أقدموا على احتلال مدينة ماسا سنة 1497م ثم مازكان في سنة 1502م فأغادير سنة 1505 م و أسفي في سنة 1508 م و أزموور سنة 1513م و كيف حاولوا احتلال مدينة مراكش التي باءت بالفشل سنة و حاولتهم لاحتلال المعمورة المنفذ لمدينة فاس التاريخية .

تخللت عملية التنافس بين الجارتين عديد الاتفاقيات من اجل تسوية بعض النزاعات و تقسيم الأراضي ورسم الحدود كاتفاقية طليطلة سنة 1480 م⁽¹⁾، واتفاقية تورديسياس عام 1494 م⁽²⁾، وأخيرا اتفاقية سنترام عام 1509 م⁽³⁾، التي وضعت حدود نفوذ كل دولة، فكان مجال الأسبان يبدأ من حجر بادس نحو ما يليه من ناحية الشرق، أما البرتغال فقد كان نصيبهم منطقة الغرب من حجر بادس، لذلك نجد الغزو البرتغالي على السواحل الأطلسية التي لم يبقى فيها للأسبان سوى حصن سنناكروز⁽⁴⁾.

(1) جاءت هذه المعاهدة كتسوية بين اسبانيا والبرتغال، بعد ذلك الصراع الكبير الذي كان قائما بينهما، جراء التنافس على ممتلكات المغرب من جهة ومطالبة الملك " أفونسو الخامس " بعرش قشتالة عام 1475م، واحتدم الصراع بين الطرفين الاسباني والبرتغالي واستمر إلى غاية 1479م عندما أعلن الملك البرتغالي تخليه عن ادعائه وتم عقد المعاهدة في 6/3/1480م، كما تنازل أفونسو عن حقه في جزر الكناري مقابل تنازل الإسبان له عن غينيا والأراضي التي ستكتشف فيما بعد كما أطلقت المعاهدة يد البرتغاليين على بلاد المغرب. انظر: فالح حنظل، المرجع السابق، ص ص 104، 105.

(2) معاهدة تورديسياس وقعت بين اسبانيا و البرتغال في السابع من يونيو 1494م، لتجنب الصدام بين الدولتين حول ملكية جزر الكناري، فقد شبت منافسة حادة بين اسبانيا و البرتغال بسبب حركة الكشوف الجغرافية خاصة بعد وصول المستكشف البرتغالي دياز عام 1487م إلى رأس الرجاء الصالح لأول مرة ووصول المستكشف كولمبس إلى القارة الأمريكية عام 1492م، وكادت تلك المنافسة أن تؤدي إلى صدام مسلح بين البلدين لولا تدخل البابا وعقده للاتفاقية، وتعتبر هذه الاتفاقية الأغرب في التاريخ فقد أعطت الحق في الاستعمار للبلدين بالقوة وقد تم بموجبها عقد نقطة تقع إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر بحوالي 1500 ميل وعند هذه النقطة تم رسم من الشمال إلى الجنوب ويصبح كل ما هو غرب الخط لاسبانيا وكل ما هو شرقه للبرتغال. انظر: عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 10 ؛ محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص 34.

(3) وقعت في 18 سبتمبر 1509م، بين اسبانيا والبرتغال لوضع حد حول خلاف بينهما، حيث أطلقت اسبانيا يدها على السواحل المغربية الواقعة بين بادس غمارة حتى غصاصة ومليلة ، مقابل اعترافهم بالنفوذ البرتغالي من حدود بادس غمارة إلى رأس بوجادور باستثناء حصن سانناكروز. انظر: عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 12. ؛ عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 47.

(4) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 34.

وهكذا أدى ذلك التنافس الاستعماري الذي كان قائما بين اسبانيا و البرتغال إلى خضوع معم سواحل المغرب الأقصى إلى الحكم الأجنبي، وهو ما أدى إلى ضعف البلاد وكثرة الفتن، وأصبح الوضع ينذر بأفدح الأخطار⁽¹⁾.

1. 3- الخطر العثماني:

شهد القرن السادس عشر وصول الأتراك العثمانيين إلى القارة الإفريقية وبسطوا نفوذهم على أجزاء كبيرة من شمال القارة وحاولوا جاهدين وبكل السبل ضم بلاد المغرب إلى مناطق نفوذهم⁽²⁾. فبانضمام الجزائر للحكم العثماني 925هـ / 1519م وإحراز العثمانيين العديد من الانتصارات على الاسبان في كل من طرابلس وتونس، تطلع هؤلاء إلى ضم بلاد المغرب الأقصى إلى حظيرتهم، باعتباره البلد الوحيد الذي افلتت من التبعية العثمانية⁽³⁾.

وبالرغم من محاولة الوطاسيين التقرب إلى العثمانيين من خلال ذكر اسم الخليفة العثماني ونقش اسمه في السكة، وإبداء الولاء له، إلا أن ذلك لم يجدي نفعا له أمام الأتراك الذين حرصوا على الإطاحة بهم بعد أن كانوا قد ساندوهم، وقد يرجع ذلك إلى كونهم لم يستطيعوا إخفاء أطماعهم في ثروات المغرب وضرورة الوصول إليها رأسا⁽⁴⁾.

ولو أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا مشغولين بالحرب مع القوى الأيبيرية الاسبانية لتوغلوا ببلاد المغرب الأقصى، إلا أن اعترافا من الحكم الوطاسي بسيادة السلطان العثماني والدعاء له بالمنابر، كان من الأسباب التي تضمن لهم المحافظة على السلطة واستقلالهم النسبي بالرغم من تواجد الخطر الأيبيري

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق ص 12.

(2) الغنيمي، المرجع السابق، ص 72 ؛ عبد القادر العافية، المرجع السابق، ص 104.

(3) خالد فؤاد طحطح: العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث (القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر)، دورية كان التاريخية، العدد 14، ديسمبر 2011، ص ص 106، 112.

(4) المجهول: تاريخ الدولة السعدية التاكدمارتية، تح عبد الرحيم بنحادة، ط1، دار تينمل للنشر والتوزيع، مراكش، 1994، ص 24.

بالمغرب⁽¹⁾، فتشتت السلطة بين العديد من السلطات كما رأينا. وعليه يمكن اعتبار الخطر العثماني أقل ضراوة من الخطر الإيبيري لأن الأول كان يطفو على السطح كلما وجد نزاعا حدوديا.

2- الوضع الاقتصادي:

لا عجب أن تتأثر الأوضاع الاقتصادية في المغرب بحالة التجزئة والفتن السائدة داخل البلاد وبالأخطار الخارجية المترتبة عن الاحتلال الأجنبي للشعور المغربية ناهيك عن التوسع العثماني في الجزائر في الوقت الذي ضعفت الروابط بين المغرب الأقصى وغرب إفريقيا، والواقع انه ليس هناك من مجال يعكس لنا الحالة التي أصبح عليها المغرب كالناحية الاقتصادية.

2. 1- التجارة:

كان من اثر ميل المغرب الأقصى للتجزؤ وتعرضه للغزو الخارجي أن نجم عنه اضطراب شديد للأمن في الطرق والأسواق بحيث كان من الصعب بمكان أن تسلم قوافل التجار من الاعتداءات المتتالية من البرتغاليين والأسبان أو حتى الأعراب (قطاع الطرق)⁽²⁾.

ولأن التجارة كانت من أهم أبواب الرزق التي اعتمدها المغاربة سواء مع أوروبا أو بلاد السودان الغربي فقد تأثرت هي الأخرى بالغزو والاحتلال الذي تعرضت له المنافذ البحرية والموانئ وحتى الطرق البرية التي

(1) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 207.

(2) عمار بن خروف: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، ج2، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، د م، 2008، ص 14 ؛ عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 48 ؛ ويصف لنا الحسن الوزان خطورة احد الطرق في صحراء أنكاد الرابط بين فاس وتلمسان بالقول انه قلما ينجو التجار من شر وبطش أولئك اللصوص من الأعراب المستعدين للفتك بأي كان لا سيما في فصل الشتاء لان حراس الطرق يكونون قد رحلوا في ذلك الوقت. انظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر محمد حجي، محمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، (د م)، 1983، ص 11.

اعتمدها المغاربة في تجارتهم مع أوروبا، ناهيك عن ذلك الحظر التجاري الذي فرضته كل من اسبانيا والبرتغال على نظرائهم الأوروبيين خوفا من وصول الأسلحة النارية للأراضي المغربية⁽¹⁾.

كما لم تسلم التجارة المغربية بالسودان الغربي نتيجة المنافسة البرتغالية والتي جعلت محاور التجارة السودانية تتجه أكثر نحو الموانئ الأوربية والبرتغالية على الخصوص⁽²⁾، كل ذلك جعل المغرب يعاني من حصار واختناق شديدين، وضعفا تجاريا كبيرا، وفقدت موانئ سبتة وطنجة وأزمور وأنفي أهميتها التجارية⁽³⁾.

2. 2- الفلاحة:

أما الفلاحة فقد اعتمد الفلاح المغربي على الوسائل القديمة في الإنتاج لينتقل نفوذها فيما بعد كون الفلاحين هاجروا أراضيهم بحثا عن الاستقرار والأمان ولو على قمم الجبال، هروبا من تلك الغارات التي كان يشنها البرتغاليون على المنطقة من حين لآخر⁽⁴⁾، إذ أصبح ضرر هؤلاء يعادل أو يفوق ضرر القبائل البدوية وغاراتهم المستمرة على الأراضي الزراعية من أجل نهب المحاصيل⁽⁵⁾.

2. 3- الصناعة:

وفي الصناعة لم يختلف الحال بها عن الفلاحة والتجارة، فقد طالها الضرر هي الأخرى خاصة أصحاب المدن وورشاتهم نتيجة الغزو الأيبيري، حيث لم يبق من المراكز الحرفية في بداية القرن السادس عشر

(1) وتطبيقا لتلك القوانين المانعة للتجارة ألقى البرتغاليون القبض على كثير من المغامرين ممن رفضوا القرار وقامت السلطات البرتغالية بإدخالهم السجون سنين طويلة وهو ما اضعف بدوره العمليات التجارية. انظر: عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 24.

(2) نجحت البرتغال بعد حركة الكشوف الجغرافية كما رأينا في أن تحول قسما كبيرا من تجارة إليها فوصلت أولى قوافل العبيد إلى البرتغال عام 1444م، وتدفق الذهب عبر الأطلسي إليها بشكل كبير بين سنوات 1440 و 1550، وبالرغم من أن التحويل البرتغالي للتجارة السودانية لم يكن تاما إلا أن الكمية لا شك قد نقصت. انظر: نفس المرجع، ص ص 22، 23.

(3) نفس المرجع، ص 24.

(4) مارمول كريخال، المرجع السابق، ص 240.

(5) عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 25.

سوى مدينة فاس عاصمة الوطاسيين وقبلهم المرينيين⁽¹⁾، كون اغلب المدن المحتلة كانت مراكز صناعية بامتياز⁽²⁾.

المطلب الثاني: أصل السعديين

أجمعت المصادر التاريخية على شرفى البيت السعدي والذي كان من أهم أسباب نجاح دولتهم بدءا بالتأسيس، وعلى ذلك فهم أسرة عربية من أهل البيت ينتهي نسبهم إلى الحسن السبط بن علي كلام الله وجهه⁽³⁾، وقد ذكر الوفرائي في مؤلفه نزهة الحادي... عمود نسبهم فقال: " أما نسبهم فقد ذكره غير واحد من المؤرخين، ورفعه من لا يحصى من الشيوخ المعترين، و هذا نصه: محمد المهدي بن محمد القائم بأمر الله بن عبد الرحمان.... بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه و فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ"⁽⁴⁾.

غير أن هناك من الروايات من نفى ذلك عنهم وطعن في ذلك النسب على غرار ما فعل المؤرخ المجهول صاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية التكدمارتية الذي قال بأنهم ادعوا الشرف وأنهم و ليسو بشرفاء⁽⁵⁾، وهي رواية استغلها وروجها خصوم السعديين من بني وطاس كوسيلة لمقاومتهم وتنفير العامة عنهم، واستمر ذلك حتى أيام السعديين الأخيرة أي بداية عهد العلويين، وقد استغل هؤلاء اسم السعديين للطعن في شرف الحكام الذين بدأت تقوى دولتهم من خلال ربط نسبهم ببني سعد بن بكر بن هوازن، والذين تتحدر منهم مرضعة الرسول صلى الله عليه و سلم حليلة السعدية⁽⁶⁾.

(1) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 204.

(2) عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 25.

(3) أبو العباس احمد بن محمد المكناسي الشهير ابن القاضي: **درة الحجال في أسماء الرجال**، تح محمد الأحمدى أبو النور، ج1، القاهرة و تونس ، 1975، ص 106.

(4) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفرائي النجار المراكشي الوجداد: **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تق هوداس السيد، مطبعة بيردين، انجي، 1888م، ص 3 ؛ أبو العباس احمد بن خالد الناصري، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح جعفر الناصري، محمد الناصري، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ص 3.

(5) المجهول، المصدر السابق، ص 13.

(6) الوفرائي، المصدر السابق، ص 9. ؛ عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 50.

عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص41 ؛ ومن العلويين الذين طعنوا في نسب السعديين المولى " محمد فتحا " بن الشريف السجلماسي أول ملوك السادة العلويين، وقد صرح بذلك في بعض الرسائل بينه وبين الشيخ ابن زيدان و لتي قال فيها " وقد اعتمدنا

كما نقل على المقري أن نسب السعديين يعود إلى بني سعد بن بكر بن هوازن قوم حليلة السعدية، غير أن المقري تراجع عن كلامه فيما بعد مؤكداً على شرف البيت السعدي كون ذكر شرفهم في غير موضع⁽¹⁾، والحقيقة أن السواد الأعظم من المؤرخين خاصة القدامى ممن عاصر الدولة السعدية يقول بصحة ونسب السعديين وانتمائهم لأل بيت رسول الله ﷺ⁽²⁾. انتقلت الأسرة من بلاد الحجاز إلى المغرب الأقصى⁽³⁾، واستقر السعديون بادئ الأمر بجنوب المغرب⁽⁴⁾، وبالضبط منطقة تاكدمارت بدرعة⁽⁵⁾ بين زاكورة وتامكروت، حيث تذكر المصادر التاريخية لتلك الحقبة بأن قدومهم إلى المغرب كان في أوائل القرن الثامن الهجري، في عهد بني مرين بطلب من بعض سكان درعة الذين التقوا بهم أثناء تأدية مناسك الحج فالحوا عليه بالقدوم إلى المغرب قصد التبرك بهم في استصلاح الزرع والثمار⁽⁶⁾.

أما فيما يخص تسميتهم بالسعديين فإنها تسمية جديدة لم تكن لهم في القديم ولا حتى في سجلاتهم ورسائلهم، بل كانوا لا يقبلون هذا اللقب من أحد كما لا يجرا أحد على ذكرهم بذلك نظراً لما في التسمية من الطعن في الشرف، ويعتقد الكثير ممن العامة وطلبتهم أنهم سمو بالسعديين لأن الناس قد سعدوا بهم، وهكذا أصبحت هذه التسمية متداولة لدى العامة⁽⁷⁾.

في ذلك يعني في عدم شرفهم على ما نقله الثقات المؤرخون من لأخبار الناس من علماء مراکش وتلمسان وفاس ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدوكم إلا من بني سعد بن بكر بن هوازن". انظر: السلاوي الناصري، الاستقصاء، ج5، المرجع السابق، ص 4.

(1) نفس المرجع السابق، ص4 ؛ عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 50.

(2) من أمثال الإمام المنجور وأبي يوسف يعقوب البدي والإمام أبو العباس أحمد بن قاسم الصومعي، والشيخ أبي العباس سيدي أحمد بابا السوداني، انظر: الوفرائي، المصدر السابق، ص 6 .

(3) الغنيمي، المرجع السابق، ص 116.

(4) إن معظم الأسر الحاكمة التي تولت مقاليد الحكم في المغرب كالمراطين والمرينيين والسعديين وبعدهم العلويين انطلقت مسيرة حكمها من الجنوب المغربي بمكوناته الأربعة (سوس - درعة تافيلالت - الصحراء)، حيث تتمركز القبائل العربية الكبيرة وتنتشر الزوايا والطرق الصوفية ذات النفوذ الكبير، ولقد اعتمدت هذه الأسر على القبائل والطرق الصوفية في الوصول إلى الحكم. انظر: (5) يطلق هذا الاسم على نهر الدرعة أطول أنهار المغرب الأقصى يمتد من السفح الأطلس الكبير إلى الأطلس الصغير، تأسست بها الزاوية الناصرية في القرن العاشر هجري. انظر: ابن العربي، المرجع السابق، ص 134.

(6) الناصري، المرجع السابق، ص 3 ؛ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 273.

(7) الوفرائي، المصدر السابق، ص 6 ؛ الناصري، الاستقصاء، ج5، المرجع السابق، ص 5، 6.

مهما يكن من أمر فقد هاجر السعديون إلى قرية تيديسي⁽¹⁾ واستقروا هناك فترة من الزمن قرب إحدى الزوايا، والمسمات زاوية أبي عبد الله محمد بن مبارك الأقاوي⁽²⁾ الذي كان ينشر الجازولية بإقليم سوس⁽³⁾، وفي السنوات الأولى من القرن قام محمد بن عبد الرحمان بن علي بن مخلوف بن زيدان⁽⁴⁾ بأداء مناسك الحج وفي المدينة المنورة بشره احد صلاحها بأنه سيكون لنجليه احمد ومحمد شان كبير في الملك بالمغرب⁽⁵⁾.

المطلب الثالث: بداية الدعوة السعدية

كان من اثر تلك الأوضاع التي أل إليها المغرب خاصة الاحتلال الأجنبي لسواحله واستيلاء الايبيريين على معظم الثغور المغربية، أن ظهرت حركة تدعو إلى الجهاد من اجل تحرير الأراضي المحتلة، بحيث أصبح مصير السلطة بين بني وطاس يتوقف إلى حد كبير إلى مدى استجابتها لهذا النداء وذلك لفشلها في صد العدوان الخارجي وتوفير الأمن بالداخل⁽⁶⁾، وفي ظل هذه الظروف قامت ببلاد السوس حركة دينية تدعي بالدعوة بالدعوة السعدية أعطت لنفسها الحق في السلطة بعد أن فشلت مساعي الوطاسيين في حماسة المغرب وضمه في وحدة متماسكة⁽⁷⁾.

(1) وهي مدينة يزيد سكانها عن 5 آلاف نسمة، أسسها الأفارقة القدامى في سهل يحيط بها أسوار قديمة ذات أبراج تبعد عن تارودانت بحوالي اثني عشر فرسخا للمزيد انظر: مارمول، المرجع السابق، ص 37.

(2) نسبة إلى أقا وهي جهة معروفة في سوس الأقصى، وهو أبو عبد الله محمد بن مبارك من أحواز رباط ماسة من قبائل المصامدة، كان رجلا صالحا أميناً وصف بأعجوبة زمانه ، كما كان مصلحا و مهذئا لتلك الفتن التي كانت تشتعل بين القبائل وتذكر الروايات انه وضعت له أيام في الشهر تحمل اسمه يمنع فيها الاقتتال، للمزيد انظر: محمد ابن عسكر الحسني الشفشاوني: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب في القرن العاشر، تح محمد حجي، ط2، مطبوعات دار المغرب للتأليف، سلسلة التراجم 1، الرباط، 1970، ص 114.

(3) يبتدئ في غرب نوميدي على شاطئ المحيط الأطلسي من رأس أغير إلى رأس نون، يحده المحيط غربا ورمال ليبيا جنوبا ودرعة ونهر سوس شرقا وسوس البربر وجبال الأطلس شمالا، ويحتوي اقليم سوس على اكبر جزء من مملكة مراكش. انظر: مارمول، المرجع السابق، ص 27.

(4) هو السلطان السعدي محمد بن عبد الرحمان الملقب بالقائم بأمر الله مؤسس الدولة السعدية، بويغ أميرا سنة 923 هـ _ 1510م، وتوفي سنة 923 هـ ، دفن بمراكش. انظر حركات إبراهيم، المرجع السابق، ص 275.

(5) الوفرائي،المصدر السابق، ص 10.

(6) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 33.

(7) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 274.

ولأن منطقة سوس بالجنوب المغربي أحد أهم الأجزاء الجغرافية المغربية، فقد شهدت هي الأخرى في بداية القرن السادس عشر فترة اضطراب رهيب، فكانت الشواطئ المغربية فيه عرضة للإطماع البرتغالية والاسبانية في وقت وصلت فيه الدولة الوطاسية إلى درجة من الضعف أصبحت عاجزة عن رد ومواجهة الأعداء الذين أخذوا يستولون على الثغور المغربية الواحد تلو الآخر، و استطاعوا الإحاطة بمنطقة سوس من كل جانب، ويصف لنا الوفراني ذلك في مؤلفه " نزهة الحادي " بالقول: " وأحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة لان بني وطاس فشلت ريح ملكهم في بلاد السوس"⁽¹⁾.

كما شهدت المنطقة بروز ونبوغ مجموعة من المتصوفين من أمثال "محمد بن مبارك الأقاوي" و"بركات بن محمد التدمسي" و"عبد الله بن عمر المدغري"⁽²⁾، وقد استطاع هؤلاء إضافة إلى التوعية الدينية لعب ادوار أساسية في الحياة كإقرار الأمن وتيسير الأمور، ويكفي في هذا المقام ذكر اسم "محمد بن المبارك" الذي كان أعجوبة من أعاجيب عصره كما قال عنه ابن عسك⁽³⁾.

أما "عبد الله المدغري" فقد كان يسير زاوية مدغرة بتافيلالت⁽⁴⁾ وزاوية تاكمارت بدرعة ويقوم بدور الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، ليقوم "بركات التدمسي" بقيادة وتنسيق عمليات الجهاد بالمنطقة . بل وشمل دوره التوسط لاقتداء الأسرى من برتغالي فونتي، وتروى عنه إحدى قصص افتداء الأسرى عندما توسط لقبيلة جسيمة بالقرب من فونتي عندما جرت المفاوضات بين السوسيين والبرتغاليين من اجل تبادل الأسرى والاتفاق على هدنة فكان جواب البرتغاليين " حتى يكون أمير، فان ملككم ذهب واضمحل"⁽⁵⁾ .

عندها توجه سكان المنطقة إلى "محمد بن المبارك الأقاوي" من اجل أن يتزعم حركة الجهاد، ولم الشمل لكنه امتنع هو الآخر بحجة كبره في السن. غير أن ابن المبارك لم يكن ليترك الوفد يمضي دون أن

(1) الوفراني، المصدر السابق، ص 10.

(2) وهو شيخ الإسلام أبو محمد عبد الله بن عمر المضغري من سجلماصة، كان غزير العلم شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر كان السلطانان احمد الأعرج و حمد الشيخ احد تلامذته، وكان هو احد أسباب دعوتهما. انظر: ابن عسك⁽³⁾، المصدر السابق، ص 87.

(3) نفس المصدر، ص 114.

(4) يطلق هذا الاسم على مجموعة من الواحات، الواقعة على ضفتي وادي زيز ووادي غريس والنيف، تبلغ مساحتها حوالي 12 ألف هكتار. أنظر: بن العربي، المرجع السابق، ص 98.

(5) الوفراني، المصدر السابق، ص 11.

يقضي في حاجته، فقرر بوضوح لزوم ربط عملية الجهاد بأسرة شريفة مستقرة بقرية تاكدمارت بقيادة المولى "محمد بن عبد الرحمان"⁽¹⁾، و قد تبلورت في هذه القصة روايتين:

رواية الوفراني: و التي جاء فيها على لسان صاحبها أن محمد بن المبارك أمر مجموعة من قبائل سوس للانقياد إلى محمد القائم بأمر الله زعيم الأسرة السعدية آنذاك لشجاعته و قوته وحبته للجهاد واستعداده للقيادة ناهيك عن نسبه الشريف الهاشمي قائلا: "لو بعثتم إليه وبايعتموه كان انسب لكم و أليق بمقصودكم"⁽²⁾.

رواية ابن عسكرو: والتي جاء فيها انه أوعز إلى قبائل جازولية بمبايعة السلطانين الشريفين احمد الأعرج و محمد الشيخ لحمل لواء الجهاد ضد الاحتلال.

مهما يكن من أمر فإن الروايتين السابقتين تتفق على أن محمد بن المبارك قد رأى في الأسرة السعدية مقومات الجهاد والقيادة لعدد الاعتبارات والأسباب، منها استعدادها للنشاط الجهادي ونسبها الهاشمي القرشي⁽³⁾ وعدم استفادتها وتعلقها بالأسرة المرينية فضلا عن الورع والتقوى الذي اشتهر به السعديون، فساهمت تلك العوامل في تتويجهم⁽⁴⁾.

وهكذا تمت عملية استدعاء زعيم الأسرة السعدية "محمد بن عبد الرحمان" سنة 1509م إلى زاوية باقا، ونظر مع محمد بن المبارك وبعد مشاور بينه وبين قومه وكبار فقهاء سوس تمت مبايعة في مدينة تيدسي من عام 1510م⁽⁵⁾، ونظرا معا إلى ابرز الأوضاع والتطورات بإقليم سوس، وافترقا على مبادئ ووسائل الجهاد على تحمل المسؤولية والقياد كاملة إلى عبد الرحمان.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص37.

(2) الوفراني: المصدر السابق، ص 10.

(3) اشتهر المغرب الأقصى بحبه للنسب الهاشمي القرشي الشريف، ومن ثم رأى المغاربة أن هؤلاء الأشراف اقدر وانسب وأصلح الناس قيادة للبلاد للمحافظة على تعاليم الدين و تطبيقها، وقد تأكد هذا الحب والارتباط بالنسب الهاشمي غداة وصول إدريس بن عبد الله العلوي مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب، والذي فر من جور بني العباس، وقد شهدت بلاد المغرب الأقصى نماذج عدة في تكوين الدول على أساس النسب قبل السعديين مرتين وبعدها مرة ممثلا في الأسرة العلوية. انظر: الغنيمي، المرجع السابق، ص 111.

(4) فاهم نعمة الياسري ، المرجع السابق، ص 166.

(5) الغنيمي، المرجع السابق، ص 115 ؛ عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 50.

ولعل لجوء صلاحاء المنطقة إلى الشرفاء السعديين لتسليمهم قيادة الحركة وتكليفهم ببناء سلطة جديدة دون غيرهم من رموز المنطقة، كان يمثل وعيا بأهمية مشروعية الشرف الواسع التي من شأنها أن تساهم في إنجاح مشروع بهذا الحجم، في وقت تفككت فيه البلاد وتناحرت المجموعات، في ظل ذلك الغزو الإيبيري الذي كان قائما⁽¹⁾.

مهما يكن من أمر فقد تمت بيعة محمد بن عبد الرحمان أميرا للمؤمنين في السنة الموالية 1510م باعتراف من شيخ الزوايا وعامة قبائل السوسيين وتلقب بالقائم بأمر الله، واستطاع السلطان السعدي أن يكون جيشه انطلاقا من وفود القبائل المبايعة له، وعددها خمسين قبيلة، كل قبيلة تدفع عشرة من مقاتليها، وأوكل مهمة قيادته إلى ابنه احمد الأعرج⁽²⁾.

والحقيقة أن بيعة القائم بأمر الله كانت تهدف إلى قيادته للمجاهدين، وهو ما أحسن السعديون القيام به حين تمكنوا من تحرير العديد من الثغور من أيدي البرتغاليين كما سنرى في بحثنا هذا، ولم تظهر مطامعهم السياسية في الحكم إلا في وقت لاحق، بعد أن تمكنوا من استقطاب المغربة الذين رؤوا فيهم رجال المرحلة، كما أدرك المتصوفة أن رايتهم التي تبحث عن من يقوم بالجهاد ضد الأوربيين تحتاج إلى أيادي أسرة جديدة⁽³⁾.

أقدم بعدها المولى محمد بن عبد الرحمان على إعلان البيعة مباشرة إلى ابنه الأكبر " احمد الأعرج "⁽⁴⁾ بالرغم من انه لم يمض وقت ويل على بيعته في سوس، كانت تلك رؤية استشرافية تحسب للمولى محمد، كونه تيقن أن نجاح مشروع الدولة و الكيان في سوس مرتب تماما على الجهاد هذا الذي يستلزم بدوره النشاط والفتوة التي افتقدهما هو ووجدهما عند ابنه⁽⁵⁾. ليتشكل بذلك انطلاق نسق تصاعدي سينتهي بإيصال أبناء " محمد القائم " إلى هرم السلطة السياسية تحت اسم الدولة السعدية.

(1) دلندة الأرقش، جمال بن طاهر، عبد الحميد الأرقش: المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، (د ط)، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، 2003، ص 18 .

(2) عبد الكريم كريم، المرجع السابق ص 39.

(3) فاهم نعمة الياسري ، المرجع السابق، ص 166 .

(4) وهو الأمير السعدي الأول، ولد سنة 891هـ/ 1486م، تولى إمارة السوس سنة 1512م، ثم إمارة مراكش سنة 1564م، تولى حكم بلاد المغرب بين سنوات 1518 و 1544م. انظر: إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 276 ؛ الغنيمي، المرجع السابق، ص 122.

(5) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 39.

والواقع أن اختيار أبي عبد الله ابنه كمساعد له فيه الكثير من الدهاء و الحكمة إضافة إلى ما سبق ذكره، جاءت بيعة المولى الأب لولده لتحول دون أية تنافس بين أعيان القبائل الذي ربما يتطور إلى تنافر أو نزاع من شأنه أن يتسبب في فشل المشروع، و من هنا جاءت فكرة اختيار ابنه الكبير الذي سيعرف بالأعرج والذي لم يكن يتجاوز 27 من عمره، وكانت عملية البيعة بالانتخاب، كما جعل إلى جانبه ولده الثاني كمساعد وأرسلهما إلى قبائل درعة وسوس مستنفرين الناس للجهاد⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى ذلك الدعم الذي تلقته الأسرة السعدية من طرف القبائل السوسية المتضررة من الاحتلال البرتغالي، والتي راحت تتضوي تحت كنف القادة السعديين أفواجا من اجل نيل الحرية و طرد المحتل، و من تلك القبائل نذكر قبائل " بنو شبانة " و " ضوى " و " منصور " والذين كانوا بحق أقوى حليف للدولة السعدية الناشئة⁽²⁾.

وعليه يمكننا القول أن القائم بأمر الله لم يفرض نفسه على أهل المغرب خاصة أهل سوس وإنما اختاره هؤلاء واسندوا إليه مقاليد أمورهم، وقد وقع هذا الاختيار بعيدا عن العصبية القبلية وإنما وقع الاختيار مراعاة للشرف والصمعة الجيدة وتركيز المرابطين له وعلى رأسهم ابن المبارك وأبي البركات التديسي⁽³⁾.

استهل محمد بن عبد الرحمان مشواره الجهادي بهجوم على البرتغاليين المقيمين بأغادير سنة 1511م، و كانت له انتصارات أولية هناك، ووصلت أخبار تلك الهجمات إلى مسامع قبائل حاحا والشياطمة المجاورة والتي لم تسلم هي الأخرى من الاحتلال والتي راح زعمائها وسكانها يستقدمون المولى ليقود جيوش المقاومة ضد البرتغاليين في تلك المنطقة، واغتنم القائم بأمر الله الفرصة واتجه إلى الجنوب ينظم الأمور هناك رفقة ولي العهد احمد الأعرج، تاركا ابنه الأصغر محمد الشيخ⁽⁴⁾ كنائب عنه في تديسي⁽⁵⁾.

(1) عبد الكريم الفيلاي: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج3، ط1، شركة ناس للطباعة، القاهرة، 2006، ص 301.

(2) الغنيمي، المرجع السابق، ص 115.

(3) الوفراني، المصدر السابق، ص 11.

(4) ولد محمد الشيخ أبي عبد الله بن محمد القائم بأمر الله سنة 896هـ / 1490م، و قد لقب بالمهدي و أطلق عليه البربر لقب (امغار) أي الشيخ، تلقى العلم فيصغره على يد مجموع من العلماء ذهب للحج مع أخيه الأكبر احمد الأعرج ثم أقام بمدينة فاس، حكم الدولة السعدية بين سنوات 1544 و 1557م، توفي بعد أن اغتيل على يد بعض من جنده . انظر: الوفراني، المصدر السابق، ص ص 23، 24 ؛ الغنيمي، المرجع السابق، ص 169.

(5) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 275.

وقد قاد محمد القائم بأمر الله المغاربة نشاط المجاهدين ضد البرتغاليين وحلفائهم على السواء، وبلغ نشاطه محاولة الوصول والدخول مدينة أسفي عام 1515م، بعد أن كان البرتغاليون قد سيطروا على موانئ وسواحل إقليم السوس، كونه المدخل إلى الأراضي الخصبة القريبة من الساحل، ومن هنا كان لزاما على المغاربة بقيادة السعديين المقاومة عن طريق تشكيل رباط قريب من أماكن تواجد البرتغاليين، وقد ضم هذا الرباط أفول المتطوعين إلى الجهاد، وتطور بعدها إلى أن أصبح زاوية كبيرة على ساحل المحي الأطلسي ومدينة تارودانت ومن هذه الزاوية بدأت فكرة تطهير البلاد ترى النور⁽¹⁾، ليتوفى المولى الأب بعدها بمنطقة أفوغال التي كان بها يحضر للإغارة على صفوف البرتغاليين في أسفي فيخلفه ابنه احمد الأعرج⁽²⁾.

ويبدو أن السياسة السعدية في هذه المرحلة كانت ترى إضافة إلى تحرير الثغور من البرتغاليين ضرورة القضاء لحلفائهم من بني البلد الذين يمدونهم بالعون من أجل البقاء في البلاد كمحتلين، وكانت الخطة تستلزم تحصين تارودانت لصد أي هجوم عليها وجعلها نقطة انطلاق لفتح مراكش لتكون العاصمة للدولة، ثم السيطرة على كل إقليم سوس ثم القضاء على الوطاسيين في فاس واحتواء كل الوحدات التابعة لهم⁽³⁾.

وكتطبيق ل للإستراتيجية السابقة الذكر ووقع الاختيار على أكبر حليف للبرتغاليين وهو " يحي أوتغوفت " الذي سبق ذكره، نظرا للدور الذي لعبه في إعطاء الخطط التوسعية بالمغرب ومناقشتها مع الحكام البرتغاليين، ووقعت معركتان بين الجيش المغربي والبرتغالي تمكن الأعرج في الثانية من القضاء على أوتاعفوفت و سحق الجيش البرتغالي الذي قرر الانسحاب إلى أسفي سنة 1521م وهي السنة التي تغيرت بعدها السياسة البرتغالية من التوسع إلى الجلاء عن بعض الثغور المغربية⁽⁴⁾، كما سنرى بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا الفصل.

المطلب الرابع: الصدام السعدي الوطاسي وتقسيم المغرب

سبق وذكرنا تصادف نشوء الحركة السعدية بسوس مع استفحال الخطر البرتغالي على سواحل المغرب الأقصى، بل وتعداها إلى دواخل المغرب يظهر ذلك جليا في الحملة على مراكش سنة 1515م، والتي

(1)الغنيمي، المرجع السابق، ص 118.

(2) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 275.

(3)الغنيمي، المرجع السابق، ص 118.

(4) سنتطرق للجهاد السعدي بنوع من التفصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل .

اظهر فيها الوطاسيون قوة وصلابة ضد البرتغاليين، ونجحوا في حماية المدينة وقد شجعهم ذلك على الاستمرار في الجهاد وإنزال الضربات بالمتعاونين معهم.

ولأن الحملات البرتغالية كانت في هذا الوقت تستهدف مناطق الجنوب المغربي قام الوطاسيون بتوجيه كل تركيزهم هناك، و قد وجدوا في ذلك الفرصة لإخضاع تلك القبائل المتمردة و المنفصلة عن المركز بفاس، وهو ما كان بعد أن وجهوا حملة بالاشتراك مع مولاي عبد الناصر حاكم مراكش إلى قبائل عبدة سنة 1517م، وهو ما جعل المولى احمد يدرك أن مثل هذه العمليات من شأنها أن تعيد نفوذ بني وطاس للمنطقة وهو ما يتعارض مع مشروعه⁽¹⁾.

عندها بدأت العلاقات الوطاسية السعدية تأخذ في التوتر بشكل متزايد وهو ما فرح له البرتغاليون وأرادوا استغلاله لصالحهم، يظهر ذلك من خلال تلك الرسالة التي بعث بها الملك البرتغالي إلى حاكم أسفي سنة جوان 1523م يطلب فيها كل أخبارا مفصلة عن ذلك النزاع الذي كان قائما وهو ما كان، واستطاعت البرتغال عقد هدنة مع هؤلاء وأولئك، إلا أن السعديين هم من استطاع استغلال تلك الهدنة من خلال سيطرتهم على مراكش سنة 1524⁽²⁾.

وبالرغم من اختلاف الروايات عن دخول الأخوين إلى هذه مراكش⁽³⁾، إلا أن هذا الحدث كان بداية العزم على التخلص من التبعية للحكم الوطاسي، وانتزع ما تبقى بيدهم من مناطق، فترتب عن ذلك سلسلة من المواجهات بين الجانبين. تزوج الأعرج بعدها من ابنة احد الأمراء ونصب ملكا على أراضي مراكش ودرعة وسوس وأحوازها واضعا أخاه محمد الشيخ خليفة له في منطقة تارودانت وسوس.

اتخذ الأخوين السعديين من مراكش حاضرة لإمارتهم الشريفة ، وسعيا جاهدين إلى إعلان الولاء لسلطين فاس من خلال بعث مجموعة من الرسل إليه والدعاء له بالمنابر والخطب. وفي هذه الأثناء توفي

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 49.

(2) نفس المرجع، ص ص 50.

(3) اختلف في كيفية دخول الأشراف السعديين للمدينة، فيقول طويرس إن ذلك كان بعد أن تظاهر الأخوان احمد الأعرج ومحمد الشيخ بالتشاور والتنسيق مع أميرها من اجل القضاء على البرتغاليين في أسفي، وأن الأخوان اقتنصا فرصة الاختلاء به فغدرا به وقتلاه، في حين يرى الوفرائي أن ملوك مراكش هم من دعوا احمد الأعرج عقب انتصاراته ودخلوا تحت طاعته. انظر: ديكودي طويرس، تاريخ الشرفاء، تر محمد حجي، محمد الأخضر ، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د ت ط)، ص 75، 79. وانظر: الوفرائي، المصدر السابق، ص19.

الملك الوطاسي محمد البرتغالي وخلفه ابنه " أبي العباس احمد " الذي بادر إلى محاصرة مراكش سنة 1527 م، بعد أن قام بمهادنة البرتغاليين الذين يظهر تعاونهم مع الوطاسيين من خلال تزامن نقض الهدنة مع السعدين وحصار احمد لمراكش ونتيجة بروز ثورة في فاس فشل الحصار ما اضطر الملك الوطاسي الصغير إلى العودة من حيث أتى⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تحالف أو مهادنة الحاكم الوطاسي للبرتغال قد أثارت استياء الفئة الدينية وحدث نفورا حتى لدى أنصاره ومقربيه في فاس⁽²⁾.

لتنجدد الحروب السعدية الوطاسية سنة 1528م، بصدام الجيشان بمنطقة أنماي⁽³⁾ خارج مراكش، فبعد أن تمكن احمد الوطاسي من إخماد التمردات، وبعد سماعه باستيلاء احمد الأعرج على منطقة تادلا⁽⁴⁾ الواقعة تحت حكمه، جهز حملة أخرى ضد السعديين، لكن المعركة لم تكن حاسمة للطرفين تاركة اضطرابا سياسيا، وانتهت بصلح 1528م⁽⁵⁾.

ويروي لنا الوفرائي في هذا فيقول : " ولما رأى الناس ما وقع بين السلطانين المريني وأبي العباس احمد الأعرج من التهاك على الملك والتقاتل عليه وفناء الخلق بينهم، دخلوا عليه بينهما بالصلح والتراضي على قسم البلاد"⁽⁶⁾.

تولت مهمة الصلح بين المتخاصمين مجموعة من الرجال الصلاح من أمثال " عمر الخطاب الزرهوني" و " القاضي أبو الحسن علي بن هارون المطغري " و المفتي " عبد الواحد الونشريسي"⁽¹⁾ و تم

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 53، 54.

(2) وممن نفروا من تلك المهادنة ذكر الشيخ محمد بن يحيى البهلول، الذي كان من مقربي محمد البرتغالي وابنه احمد، وقد كان من الدعاة إلى الجهاد ولم يعجبه ذلك الاتفاق مع المسيحيين، وتذكر المصادر انه قد اقسم أن لا يلاقاه وتعهده بان لا يستلم نصيبه الذي يناله من الملك، ومات وهو على عهده. انظر: بن عسكر، دوحة الناشر، المصدر السابق، ص ص 59، 60.

(3) مدينة صغيرة سكانها بربر من قبيلة مصمودة بناها الأفارقة القدامى على منحدر جبال الأطلس الكبير المسمى أنماي، في اتجاه الشمال، على بعد 13 فرسخ من مراكش شرقا. انظر : مارمول، المرجع السابق، ص ص 61، 62.

(4) وهي إقليم غير شاسع يبتا من نهر العبيد وينتهي عند نهر أم الربيع عند منبعه، وينحصر بين جبال الأطلس جنوبا والمكان الذي يلتقي به النهرين السالفي الذكر شمالا، فهو على ذلك شكل مثلث، ومن حواضره تقزه وأفزا وأيت عتاب. انظر: الوزان، وصف افريقيا، ج1، المصدر السابق، ص 176.

(5) الناصري، الاستقصاء، ج5، المرجع السابق، ص 150.

(6) الوفرائي، المصدر السابق، ص 20.

الاتفاق على أن تكون ما بين تادلا والمغرب الأوسط للوطاسيين وما بين تادلا وسوس للسعديين وحدث ذلك في حدود سنة 1534م .

والحقيقة أن هذه المعاهدة كانت بمثابة بداية الاعتراف بالإمارة السعدية من خلال التوسع من إمارة تابعة لفاس إلى مجال جغرافي تتسع حدوده تبعا للأحداث كما سنرى في بحثنا هذا . وهكذا ظل السلطان الوطاسي يرى في الأشراف السعديين مغتصبين لملكه، في حين كانوا هم يرون في أنفسهم أحق بالملك منه، فاستمر الصراع بين الطرفين خلال السنوات القادمة بشكل دموي.

لتستأنف الحروب بين فاس ومراكش في عام 1536 م، حيث وقع صدام عنيف بين الطرفين في بوعقبة في واد العبيد، وانتهى بهزيمة كبيرة لجيش السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي بالرغم من التفوق في العددي في المعركة ونجا السلطان بصعوبة⁽²⁾، ويقول الوفرائي في هذه المعركة: "...فالتقيا بابي عقبة احد مشارع وادي العبيد ف وقعت الهزيمة على المريني"⁽³⁾.

ويبدو أن بعد هذه الهزيمة جاء تدخل العلماء والأعيان مرة أخرى، من أجل التوسط للصلح والذي انتهى بتقسيم البلاد شمالا للبيت الوطاسي والجنوب للبيت السعدي، على أن يكون واد أم الربيع هو الحد الفاصل بينهما⁽⁴⁾. وبذلك أصبح المغرب يتكون من مملكتين لا تخضع أي منهما للأخرى⁽⁵⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تلك الهدنة التي عقدها السلطان الوطاسي مع البرتغاليين 1538/7/24م، بعد هزيمته مع السعديين وكان الهدف من الهدنة التي بلغت 3 سنوات هو التفرغ إلى حرب السعديين في جولة ثانية⁽¹⁾.

(1) أحمد بت يحيى الونشريسي المعروف بأبو العباس الونشريسي (834 - 914هـ / 1430 - 1509م) من علماء الجزائر و فقهاء البارزين في القرن التاسع الهجري اسمه الكامل أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي و سمي بالونشريسي نسبة إلى وطنه الأم جبال الونشريس ولد حوالي سنة 1430م بمنطقة الحبالوة بجبال الونشريس أين حفظ القرآن و تعلم مبادئ العربية في كتاب قريته كان فقيها عالما متبحرا في أمور العلم وصفه بن عسكر بأعجوبة عصره. انظر ترجمته في بن عسكر، دوحة الناشر، المصدر السابق، ص 52 ، 54.

(2) دي طويريس، المصدر السابق، ص 102- 104 ؛ الناصري، الاستقصاء، ج5، المرجع السابق، ص 153 - 154.

(3) الوفرائي، المرجع السابق، ص 20.

(4) عبد الكريم كريم، المرجع، السابق، ص 60.

(5) المجهول، المصدر السابق، ص 7.

أما احمد الأعرج و بالاشتراك مع أخوه محمد الشيخ فقد كان استغلاله لهدنته مع الوطاسيين في بسط النفوذ جنوبا، خاصة في المناطق المستعصية التي لم تخضع بعد لحكمهما، كأعالي درعة التي كانت تحكم من طرف حاكم موالى للبرتغاليين⁽²⁾.

المطلب الخامس: صراع الإخوة

كان الأخوان السعديان و لوقت طويل إلى حدود سنة 1537م يتقاسمان السلطة بجنوب المغرب، و قد كانت المنطقة الممتدة من مراكش إلى حدود منطقة تادلة بتصرف الأخ الأكبر الأعرج، أما الأخ الأصغر محمد الشيخ فقد استقر كما في منطقة سوس و ما والاها إلى تافيلالت.

وفي سنة 1541 م استطاع محمد الشيخ أمير منطقة سوس تحرير ميناء سانتا كروز من أيدي البرتغاليين الذين ما لبثوا ينجلون من الثغور المغربية كاسفي وأزمور بعد تخريبهما فيما احتفظوا بمارغان كنقطة ارتكاز (كما سنتطرق إليه بنوع من التفصيل في هذا الفصل)، وقد أعقب هذا الانتصار دخول الأخوين السعديين في صراع مكشوف لمجموعة أسباب هي⁽³⁾:

- الشعبية التي اكتسبها محمد الشيخ خاصة بعد تحريره للثغور المغربية التي سنتطرق إليها مرحليا في ثنايا هذا البحث، تلك الانتصارات جعلت العامة يرون فيه المحرر لهم من طغيان الاحتلال البرتغالي، أكثر من أخيه المتواجد بمراكش.

- النزاع حول غنائم سانتا كروز.

- مسألة ولاية العهد فقد أراد احمد الأعرج تولية ابنه بدلا من أخيه محمد الشيخ مخالفا بذلك القرار طريقة تعيين ولي العهد التي سار عليها الأب محمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله والتي تنص على أن يتولى كبير العائلة أمور السلطة.

(1) الناصري، الاستقصاء، ج5 المرجع السابق، ص 154 ؛ أوضحت تلك الهدنة مبعثا للمشاكل للسلطان الوطاسي مع بعض الإمارات التي كانت تحمل لواء الجهاد ضد البرتغاليين، كما ساهمت الهدنة مع البرتغاليين في التقليل من شعبية البيت الوطاسي لدى المجاهدين.

(2) طويريس، المرجع السابق، ص 105 - 107 ؛ مارمول، ج2، المرجع السابق، ص 34، 35.

(3) طويريس، المرجع السابق، ص 77، 78.

انتهى ذلك الصراع بأن أسر محمد الشيخ أخيه احمد الأعرج، ليطلق سراحه بعدها بعد توقيع الأسير على معاهدة قبل بموجبها الأكبر باقتسام المملكة بينهما وأن يكون " محمد الحران " ابن محمد الشيخ هو ولي العهد بينهم، و بعده زيدان ابن الأخ الأكبر ولياً⁽¹⁾.

ولكن سرعان ما تجدد الصراع بين الأخوة، و كأني بالأقدار تريد محمد الشيخ حاكماً على كل المغرب و ليس جزءاً منه فقط ، فقد قام الأخ بنقض العهد و الاتفاقية التي كانت قائمة بحجة أهانتة بالأسر، و بعد اقتتال بين الطرفين، تمكن محمد الشيخ من تحقيق النصر، وبذلك انفرد محمد بالإمارة السعدية في مراكش التي دانت له سنة 1544م⁽²⁾.

ويبدو أن البرتغاليين قد حاولوا انتهاز فرصة الصراع التي كانت قائمة بين الأخوين لتوجيه ضربة لهما بالتعاون مع السلطان الوطاسي، إلا أن هذا الأخير لم يقبل بذلك لعدة أسباب كانشغاله بالتمردات التي كانت تواجهه في الشمال المغربي، وحرصه على أن لا يفقد ما تبقى له من شعبية، كما انه رأى أن التعاون ضد السعديين سيؤدي لا محالة إلى أن يتحدا الأخوين ويوجهها له ضربة قاصمة⁽³⁾.

المطلب الخامس: القضاء الثاني و النهائي على الوطاسيين

بعد أن استتب الوضع لمحمد الشيخ في مراكش و إعلان بيعته من طرف أهالي المدينة، قرر السلطان التوجه نحو مدينة فاس لمقارعة السلطان الوطاسي الذي يبدو انه ابدي نية في مساعدة الشريف الأكبر بعد هزيمته على يد أخيه.

وقد تزامن المغرب بعد أن استتب الوضع لمحمد الشيخ في مراكش التي جعلها المولى عاصمة لدولته التي شملت كل البلاد الجنوبية من المغرب، مع تلك الفتن والانقسام والضعف الوطاسي في الشمالي الذي انحصر نفوذهم في مدينة فاس وما جاورها، وقد أخاف هذا الاختلاف في الاستقرار والقوى السلطات في لشبونة خوفاً على مصالحها خاصة دعوات الجهاد التي كان ينادي بها محمد الشيخ⁽⁴⁾.

(1) طويريس، المرجع السابق، ص 88.

(2) نفس المرجع، ص 91، 91.

(3) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 55.

(4) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 66.

نستدل على ذلك التخوف من خلال تلك المراسلة التي وقعت بين حاكم أصيلا (باستياو دي فارغاس Bastiao de Vargas) إلى ملكه جيان الثالث يخبره فيها أن المولى وبعد أن استقر له الحكم في مراكش عازم على التوجه نحو فاس نظرا لتفوقه العسكري وقوة فرقه المدفعية، كما أعرب له عن استعداد السلطان الوطاسي احمد للتعاون مع البرتغاليين في سبيل إنقاذ ملكه أكثر من أي وقت آخر، وبدأت تلوح في الأفق ملامح اتفاق العواصم الثلاث ضد محمد الشيخ⁽¹⁾.

إلا أن محمد الشيخ كان الأسرع في اتخاذ القرار واستغلال الفرص فكان أول ما قام به المولى أن قام بنقض الصلح الذي كان قائما بينه وبين الوطاسيين السالف الذكر معلنا بذلك الحرب⁽²⁾، فالتقى الجيشان السعدي والوطاسي بواد درنه عام 1545م وبعد اقتتال عنيف تمكن محمد الشيخ من حسم المعركة لصالحه حيث تمكن من هزيمة احمد الوطاسي في معركة درنة الشهيرة ويأسره، و بذلك أصبح الطريق إلى فاس مفتوحا⁽³⁾، وقد كان من جملة ما انتهت إليه هذه الحرب سيطرة السعديين على مكناسه⁽⁴⁾.

وبشكل يدفع للتساؤل لم ينتهز المولى فرصة النصر ويتوجه إلى عاصمة الوطاسيين فاس بعد صار الطريق إليها مفتوحا. قد يعزى ذلك إلى عاملين منفصلين، فمن جهة وبعد أن سمع أهالي فاس من الوطاسيين نبأ الهزيمة حتى تداركوا الموقف و أعلنوا البيعة إلى " محمد القصري" ابن احمد الوطاسي، وجعلوا " أبو حسون" وزيرا له، وهو ما يوحى بتكتل الوطاسيين ضد السعديين، كما أن المولى لم يكن مطمئن من جانب أخيه الأكبر الذي فر إلى الجنوب ينضم هناك للمقاومة⁽⁵⁾.

وفي سنة 1549 قرر محمد الشيخ محاصرة فاس وأن لا يرفع الحصار عنها حتى يبايعه احمد الوطاسي ويعيده إلى سجلماسة ويجعلها وراثية في نسله، ويخبرنا المجهول عن تلك المراسلة بين الملكين فيقول " كيف لا نصنع معك خيرا وأنت عاملتنا بخيرك وأعطينا ذخائر ونحن مقرون بإحسانك إلينا فلا تضن فينا إلا خيرا و

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 67.

(2) الوفرائي ، المصدر السابق، ص 28

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 68 ؛ عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 56.

(4) الوفرائي، المصدر السابق، ص 28. وسميت مكناسة نسبة إلى القبيلة التي أسستها تبعد عن فاس بستة وثلاثين ميلا وعن

سلا بثمانين ميلا وعن الأطلسي بخمس عشرة ميلا، وهي تقع على سهل يمر به نهر، اشتهرت بالبرقوق الأبيض والدمشقي، وهي

مدينة حسنة بها المدارس والمساجد والحمامات. انظر: الوزان، وصف افريقيا، ج1، المصدر السابق، ص 214، 215.

(5) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 68.

مع هذا حتى متى هذا القتال بيننا⁽¹⁾، يظهر جليا من الخطاب مدى حرص المولى محمد الشيخ السلم وعدم إراقة الدماء .

كما كاتب المولى محمد الشيخ أهالي المدينة للدخول والانضواء تحت لوائه، وبعد رفض هؤلاء نتيجة تحريض من علماءها⁽²⁾، صمم السلطان السعدي على محاصرة فاس ليفر عنها احمد الوطاسي وأبو حسون إلى فاس الجديدة ، ليستسلم بعدها الثاني لمحمد الشيخ، في حين فضل أبو حسون الفرار إلى الشمال وبالضبط إلى مراكش، ليتوفى بعدها مقتولا بالسهم هو ونفر كبير من عائلته⁽³⁾.

هذا ولعبت بعض المتصوفة دورا كبيرا في دعم الأسرة السعدية في عملية الاستيلاء على العاصمة الوطاسية فاس، مستغلين تأثيرهم الروحي على أبناء البلاد فضلا عن الانجازات العسكرية التي حققوها،⁽⁴⁾ يظهر ذلك في شخصية المحبوب أبو الرواين 1556 م، و هو من أصحاب العيساوية على طريق الملامتية .فعندما قام محمد الشيخ بحصاره لمدينة فاس من عام 1548 م، و وجد من أهلها ما وجد من امتناع وولاء للوطاسيين وفي أثناء هذا الحصار قام " أبو الرواين" بالاتصال بالسلطان السعدي محمد الشيخ طالبا منه مبلغ خمسمائة دينار مقابل تسهيل دخوله المدينة⁽⁵⁾.

وقد تردد في مصادر تلك الفترة عن تلك العلاقة القوية بين أبو الرواين بالبيت السعدي والتسهيلات المقدمة من اجل الدخول إلى فاس، فيقول ابن عسكر في مؤلفه دوحة الناشر ما يلي: " ومن يوم انضمام أبو الرواين إلى محمد الشيخ المهدي والسلطان المذكور في ظهور إلى أن تمت السنة فدخل فاس "⁽⁶⁾.

مهما يكن من أمر فقد اكتسب الدخول السعدي إلى مدينة فاس شعبية في الداخل والخارج ففي الداخل أعلنت الكثير من القيادات السياسية ولاءها للسلطان السعدي مثل حكام مليلية ونواحيها (علي أعراس) وحكام

(1) المجهول، المصدر السابق، ص 10.

(2) عبد الكريم كريم، المرجع السابق ص 70 ؛ و من جملة العلماء الذين رفضوا بيعة أبي عبد الله محمد الشيخ نذكر: عبد الواحد الونشريسي، عبد الوهاب الزقاق حفيد الشارح الناظم علي بن قاسم التجيبي والشيخ الطرون الأموي وأخوه احمد. انظر: عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ص 307.

(3) المجهول، المصدر السابق، ص 15.

(4) فاهم نعمة الياصري، حسنين عبد الكاظم عجه، الإسهامات السياسية لمتصوفة المغرب، المرجع السابق، ص 166.

(5) الوفرائي، المصدر السابق، ص 28.

(6) ابن عسكر، المصدر السابق، ص 80.

شفشاون (محمد بن رشيد) وحكام تطوان (الحسن المنظري) والقصر الكبير وحاكمها القائد العروسي وكافة قبائل الشمال المغربي كقبائل بني يزناسن وقبائل مديونة⁽¹⁾.

أما خارجيا فقد هلك المورسكيون بذلك طامحين في أن يسعى السلطان السعدي محمد الشيخ إلى تخليصهم من الاضطهاد الممارس عليهم من دولة اسبانيا⁽²⁾.

وقد ظهر السعديون كقادة حقيقيين يمكن الاعتماد عليهم في تحقيق تطلعات أمانى الشعب المغربي في الجهاد وتحرير الثغور المحتلة من الاحتلال البرتغالي، من خلال القضاء على الحكم الوطاسي المتحالف مع البرتغاليين، ثم السيطرة على كامل البلاد و توحيدها وبناء المغرب العربي الكبير⁽³⁾.

وهكذا وعند وقوع نبال استيلاء محمد الشيخ على مدينة فاس عاصمة بني وطاس على مسامع مدريد ولشبونة سارعتا إلى تعزيز مواقعهما في المغرب الأقصى، مترقبين ومتوقعين قيام تقارب و تعاون وتنسيق بين الأتراك حكام الجزائر والسلطة السعدية. تعاون من شأنه أن يطرد المسيحيين إلى ما وراء البحار وتحرير كل الثغور المحتلة بالمتوسطي أو الأطلسي، ولم يكتفي الايبيريون بتعزيز مراكز احتلالهم بل منعوا أي اتصال تجاري مع مواني الشريف دون إذن منهم كما جاء في احد مراسيمهم⁽⁴⁾.

وهكذا يمكننا اعتبار محمد الشيخ المؤسس الحقيقي والفعلي للدولة السعدية بالمغرب الأقصى وهو أيضا الراسم للمعالم السياسية الداخلية والموحد لأجزاء المغرب الأقصى، وهذا ما جاء على مؤرخ تلك المرحلة الـوفاي حيث قال: " واقع قواعد الملك وأسس مبانيه وأحيا مراسم الخلافة الدراسة ومعالمها الطامسة "⁽⁵⁾.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 70، 71.

(2) نفس المرجع، ص ص 71، 72.

(3) الغنيمي، المرجع السابق، ص 130.

(4) صدر هذا المرسوم في 29 مارس 1549م إضافة إلى منعه التجارة مع مواني المولى فقد منع المرسوم بعض أنواع التجارة كالذهب والفضة والسلاح واعتبرها محرمة، وقد اشترط المرسوم أن يكون أصحاب التجارة من أصل مسيحي وإثبات ذلك عليهم بان يأتوا بشهادة قاضي مدينتهم، وعليهم أن لا يستمر بقاءهم بالمغرب أكثر من سنة ولا يمكنهم العودة لمزاولة أعمالهم بالمغرب إلا بعد أن يقضوا شهرين على الأقل داخل أوطانهم، كما فرض المرسوم على البضائع أن تسجل لدى قاضي المواني، وأن تفتش من قبل الضباط. انظر: عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 71، 72.

(5) الـوفاي، المصدر السابق، ص 59.

المبحث الثاني: الصراع السعدي البرتغالي بالمغرب الأقصى في القرن 16.

سبق وقلنا أن المبرر الأساسي لمبايعة أهل المغرب للبيت الوطاسي هو جهاد هؤلاء ضد الاحتلال الخارجي للشعور المغربية وبالخصوص الاحتلال البرتغالي وقيادة صفوف المجاهدين ليس فقط ضدهم بل وضد أعوانهم من أهالي البلاد، فقد كان بعض القادة يعتقدون أن الاستعانة بالأجنبي ستجعلهم يتغلبون على خصومهم السياسيين وأن يعود الاستعمار بعدها من حيث أتى.

ومما هو جدير بالذكر هنا عدم ضبط المصادر العربية لتاريخ محدد يمكن اعتماده كبداية للدولة السعدية الناشئة، قد يعود ذلك إلى الاختلاف في تحديد الشخصية المؤسسة للدولة السعدية هل هو المولى محمد بن عبد الرحمان (القائم بالله) أم ابنه احمد الأعرج، وبالرغم من سابقة الاتصالات التي جرت بين محمد وابن المبارك إلا أن ابنه احمد هو أول من بويع ملكا على فاس كما أن محمد الأب لم يقم بأي عمل سياسي⁽¹⁾.

مهما يكن من أمر فقد جاء سردي للجهاد السعديين عن طريق التطرق لأبرز العمليات الجهادية في زمن كل حاكم من حكام الأسرة السعدية بدءا بعمليات الجهاد التي قام بها الأب بالتنسيق مع ولديه الذين كانا بمثابة أذرع، وصولا إلى المعركة الكبرى، وعليه يمكن اعتبار سنة 1511 بداية لعمليات الجهاد السعدي على مراكز البرتغاليين.

وهنا وجب أن انوه إلى إنني في تطريقي للجهاد السعدي ضد المحتل البرتغالي قد راعيت الاختصار لكثرة المعارك وتشعبها، وهو ما صعب علينا سردها كلها، فكان تركيزنا على أبرز المحطات سواء التي خسر فيها السعديون أو انتصروا. واستطاع السلطان السعدي أبو العباس الأعرج أن يحقق مجموعة من الانتصارات على البرتغال في عديد المناطق أبرزها في تلمست وأسفي حين وضع حدا لأطماع البرتغاليين بها.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص39.

المطلب الأول: جهود القائم بأمر الله ضد الاحتلال البرتغالي ضد البرتغاليين (915- 923هـ / 1510- 1517م):

1- معارك منفصلة:

بعد مبايعة أهل السوس لأبي عبد الله أولى المولى كما رأينا أهمية خاصة بالجيش فحدثت خزينة للحرب، وفرض على السكان ضريبة لتموينها⁽¹⁾، واستطاع بفضلها تكوين فرقة من المحاربين شكلت نواة الجيش المغربي، والتي ضمت في البداية 500 فارس، وتطور العدد إلى أن وصل سنة 1514م إلى 3000 فارس مع عدد من المشاة⁽²⁾.

وبعد أن تأكد القائم بأمر الله من صدق العزيمة وقوة الإرادة للجهاد، دعا المغاربة إلى القيام بحملة على الحصون البرتغالية⁽³⁾، مستهلاً مشواره في مرسى تفتنت⁽⁴⁾، وتمكن من إحراز انتصار أولي على القوى البرتغالية، ووصل الأمر أن أجبرهم على الجلاء من المرسى السابق الذكر⁽⁵⁾، وكان هذا أول انتصار حربي يحققه القائم بأمر الله على البرتغاليين⁽⁶⁾.

وباحتلال مدينة تافنتا استطاع المولى أحمد تعزيز سياسة المقاطعة⁽⁷⁾ التي كان قد فرضها على المغاربة فور بيعته، خاصة إذا علمنا أن المدينة كانت تشرف على طرق المواصلات مع أحد أهم الحصون

(1) بسبب تزايد الجهاد السعدي ضد البرتغاليين و القوى المعارضة فرض القائم بالله ضريبة مجتابة من الزراعة و أخرى شرعية كانت تأخذ أعشار و زكاة و التكميلية، مثل ضريبة النائبة التي استحدثها القائم في سوس و التي كان مقدارها بادئ الأمر بيضة و درهم واحد، و بوصول محمد الشيخ إلى الحكم زاد في قيمتها لتغطية مصاريف الجيش. انظر: الوفراني: المصدر السابق، ص 86، 88.

(2) طويريس، المرجع السابق، ص 66.

(3) الغنيمي، المرجع السابق، ص 120.

(4) وهي مدينة صغيرة تقع في جهة الغرب على شاطئ المحيط الأطلسي في طرف الرأس الذي يكونه جبال الأطلس و بها ميناء جيد للرسو كانت ترسو فيه المراكب الصغيرة و يتردد إليه التجار الأوروبيين و كان يسمى هذا الميناء قديماً بميناء هرقل. انظر: مارمول، المرجع السابق، ص 22.

(5) الوفراني، المصدر السابق، ص 16.

(6) الغنيمي، المرجع السابق، ص 120.

(7) إلى جانب تلك الغارات التي كانت تستهدف الحاميات البرتغالية في مراكز الاحتلال البرتغالي اعتمد السعديون في مقاومتهم للمحتل على الحصار الاقتصادي والتضييق على الحاميات لإرغامها على مغادرة المراكز، وطبق السعديون هذا الأسلوب في

البرتغالي بالمنطقة وهو حصن سانتا كروز، ما اثر بشكل كبير على وضعية الحصن هناك، نستدل على ذلك من خلال ردة الفعل البرتغالية بتعزيز التحصينات وتشديد الرقابة أكثر على عمليات تهريب السلاح الذي كان يصل إلى الجيش المغربي⁽¹⁾.

وبالرغم من عمليات التشديد تلك التي قامت بها السلطات البرتغالية إلا أن ذلك لم يوقف حركة الجهاد السعدية، كون المولى محمد استطاع فيما بعد السيطرة على مدينتين هامتين وهما تارودانت بالشمال ومدينة ماسا⁽²⁾ الساحلية، والتي سيخرج أهلها فيما بعد عن طاعة البرتغاليين بل وسيشاركون في العمليات الجهادية التي سيقودها المولى احمد ضد البرتغاليين وحليفهم " مالك بن داود "⁽³⁾.

كما قام القائم بأمر الله بعد توليه القيادة بهجوم على القوات البرتغالية عند أكادير⁽⁴⁾، وكانت له انتصارات أولية هناك عكس ما يدعيه البعض من انه لم يحصل أي انتصار هام، و دليلنا هنا على ذلك أن سكان منطقة الشياظمة وحاحا سرعان ما استقدا الشريف الأب ليقود جيوش المقاومة هناك ضد الاحتلال البرتغالي هناك، وقد كان ذلك عقب البيعة التي عقدها المولى لابنه الأعرج⁽⁵⁾، وقد اتخذ المولى القائم بأمر الله من المدينة دارا لإمارته⁽⁶⁾.

وقد شهدت هذه الفترة خلافا بين بعض قادة تيديسي وبين القائم بأمر الله سنة 1510 م جعل هذا الأخير يتوقف عن قيادة عمليات الجهاد ويتجه إلى مدينة درعة والاعتكاف بها لمدة سنتين من الزمن. ليعود إلى تيديسي سنة 1512 م طالبا من أهلها أن يبايعوا ابنه الأكبر احمد الأعرج فلبوا نداءه⁽⁷⁾.

جنوب المغرب بمنع القبائل المجاورة للمدن مثل آسفي و آزمور من المتاجرة مع الحاميات الو أداء الضرائب للسلطات المغربية. انظر: احمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وآزمور، المرجع السابق، 380، 381.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص46.

(2) تتكون هذه المدينة من ثلاث مدن صغيرة يحيط بها جدار من الأجر، تبعد كل منها عن الأخرى بحولي الميل، وهي مدينة أسسها الأفارقة القدامى على شاطئ المحيط، يمر بها نهر ماسا الذي ينبع من الأطلس الصغير، ويصب في المحيط بالقرب من أغادير اشتغل أهلها بالفلاحة. انظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، المصدر السابق، ص 113.

(3) عبد الكريم، كريم، المرجع السابق، ص ص 46، 47.

(4) الغنيمي، المرجع السابق، ص 120.

(5) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص275.

(6) الغنيمي، المرجع السابق، ص 120.

(7) الناصري، الاستقصاء، ج5، المرجع السابق، ص ص 12، 13.

بعد أن اخذ القائم بأمر الله البيعة لابنه احمد الأعرج سنة 1512م، تلقب هذا الأخير بملك بلاد سوس على عهد والده و منذ ذلك الوقت صار المولى احمد زعيما لحركة الجهاد ضد البرتغاليين، جاء ذلك بعد أن ضاع صيته نتيجة الانتصارات على العدو، فبدأت أفول الناس تنظم إليه لاستكمال عملية الجهاد⁽¹⁾.

قاد المغاربة بعدها و بقيادة احمد الأعرج على عهد والده عمليات جهادية كبيرة في مناطق المغرب الأقصى لم يكن فيها النصر دائما ملازما للسعديين، وهكذا هو شأن الحرب يوم لك ويوم عليك.

2- معركة تيدنست:

انتقل القائم بأمر الله رفقة ابنه الأكبر احمد إلى تيدنست⁽²⁾، وكان سبب هذا التنقل ذلك الاضطهاد الكبير الذي تعرض له أهالي المنطقة على يد البرتغاليين وعملائهم من سكان المغرب وعلى رأسهم " يحي بن تاعفوفت" والشيخ "بوجمعة" و " الشيخ مومن"⁽³⁾ وغيرهم كثير، بينما بقي ابنه محمد الشيخ بمنطقة السوس يدير أمورها ويوسع نفوذ السعديين بها وكانت مدينة تارودانت هي قاعدته في ذلك⁽⁴⁾.

وعندما وصلت أخبار وجود الشريف الأب وولديه في تيدنست إلى مسامع القائد البرتغالي وحليفه المغربي قررا معا شن حملة من اجل القضاء عليهم أو هزيمتهم التي من شأنها أن تفقدهم شعبيتهم المتزايدة، ومن اجل ذلك حشد البرتغال قوة مكونة من 400 فارس مسيحي و 3000 فارس مغربي و 800 من المشاة والأعراب في حين تجهز الأشرف بعد سماعهم أخبار الحملة ب 4000 فارس، والتقى الجيشان على بعد أربعة فراسخ من مدينة تيدنست أين وقعت رحى معركة عنيفة انتهت بهزيمة كبيرة للجيش السعدي المجاهد قدرت بثمانمائة فارس في حين لم يقتل ولا نصراني وتوفي مائة رجل من جنود يحي بن تاعفوفت⁽⁵⁾.

(1) الغنيمي، المرجع السابق، ص 120.

(2) وهي أهم مدن إقليم حاحا، أسسها الأفارقة القدامى من قبيلة مصمودة كانت أسوارها من الخشب، و يتخللها نهر مائي اشغل اغلب سكانها بالفلاحة كما شهدت إقبال التجار الأوربيين الذين يستبدلون الأقمشة بالشمع و الجلود، و قد احتوت المدينة على 200 دار لليهود، و بها مسجد كبير يعود بناؤه إلى يعقوب بن يوسف بن تاشفين. انظر: مارمول، المرجع السابق، ص 9، 10.

(3) قائد عرب عبدة

(4) الناصري، الاستقصاء، ج5، المصدر السابق، ص 13.

(5) يذكر مارمول عدد 112، انظر: مارمول، المرجع السابق، ص 11. وانظر: دي طوريس، المصدر السابق، ص 36.

تعتبر معركة تدنيست سنة 1514 م احد أهم المعارك على الإطلاق حيث انهزم فيها الجيش السعدي أمام نظيره البرتغالي الذي لم يكتف بالنصر فقط بل وراح ينهب المدينة ويأسر كل القرى التي تدين بالولاء للبيت السعدي⁽¹⁾. وقد كانت نتائج هذه الحرب وخيمة على السعديين، كما تزامن ذلك مع مرض الشريف الأب الذي توفي ودفن، ودخل بعدها البرتغاليين المدينة دون مقاومة تذكر.

المطلب الثاني: جهود أبو العباس احمد الأعرج (923_ 946هـ/1517_1550م) ضد البرتغاليين

اتصف عهد المولى احمد الأعرج بظاهرتين متلازمتين، و أن كنا قد تطرقنا للأولى ممثلة في الطموح إلى السيطرة وبسط النفوذ على كامل التراب المغربي فقد كان الجهاد عنوان الثانية، ويصف لنا الوفراني ذلك فيقول: " صرف همته إلى تمهيد البلاد و اقتناء الأجناد وتعبية الجنود إلى الشغور واستكثر من شن الغارات على العدو الكافر ..."⁽²⁾.

1- الانتصار على القائد لوبي بارिका:

بعد أن قضى الأخوان الشريفان حزن والدهما المتوفى قررا القيام بجولة حول البلاد و الوقوف على أعمال تشييد مدينة تارودانت وفي طريقها كانا يستميلان الناس لدعمهم في جهادهم ضد المحتل البرتغالي، وعند وصولهم إلى منطقة الوشي قام الأخوان بمتابعة جموع المغاربة العملاء بالمنطقة هؤلاء الذين طلبوا النجدة من القائد البرتغالي "تونيو فرناندو" يستغيثونه فبعث لهم ب 50 فارس بقيادة " لوبي بارিকা" الذي انتصر على جيش الشريفان بعد أن كمن لهما⁽³⁾.

ولأن الهم الأكبر " للوبي بارিকা " هو تتبع الأشراف ومنازلتهم أينما حلوا، فقد قرر القائد البرتغالي ملاحقة الأخوين السعديين بعد أن تلقى مددا من "تونيو" مكونا من 50 فارسا يقودهم "جورج مينديز" وفي المقابل كون السعديون قوة مكونة من 1600 جندي، وشكل لوبي بارিকা كتيبتين من 100 فارس يحملون الرماح وأسندت قيادتها إلى ابن أخيه "بير بارিকা" و"جورج منديس" واحتفظ بالثانية لنفسه في حين شكل الأشراف ثلاث

(1) مارمول، المرجع السابق، ص11.

(2) الوفراني، المصدر السابق، ص ص 18، 19.

(3) طويريس، المرجع السابق، ص ص 41، 42.

فيالاق ووضع على رأس كل منها أخ من الأخوة الأشرف الثلاثة، واشتعل قتيل حرب بين الطرفين دام أكثر من ساعتين انتهى بهزيمة أخرى للسعديين الذين فروا إلى داخل البلاد⁽¹⁾.

كان وقع الخسارة كبيرا على الشرفاء الذين انسحبوا إلى شوشاوة، وهناك مكثوا أياما استطاعوا من خلالها أن يجمعوا شملهم وينظموا صفوفهم كما قرروا الانتقام من العدو الذي ما فتئ يتقوى بما يكسب من غنائم جراء انتصاراته التي حققها⁽²⁾.

وعند سماع الأشرف بخبر استعداد لوبي باريكا لقصف مدينة أنكا سنة 1517م فقرروا نجدة المدينة ووصلوا في الوقت المناسب وحاربوا بشجاعة و قوة و استطاعوا أن يكلفوا العدو خسائر كبيرة ، ومات خلال المعركة كبير الإخوة عبد الكبير في حين عاد الأخوان بشرف إلى شوشاوة كونهما هزما باريكا احد اكبر القادة البرتغاليين ليس بالمغرب فقط بل بإفريقيا كلها⁽³⁾.

2- الانتصار على القائد البرتغالي نونيو دي أطايدي:

كان "نونيو دي اطايدي" قد نهب منطقة الدواوير الخاضعة لحكم شخص يدعى "ابن شموط"، وقد استطاع هذا الرجل أن يكون جيشا قويا من المغاربة لمقارعة البرتغاليين الذين اشتدت وطأتهم على سكان المنطقة وكان مما زاد في حماس الرجل هو اسر البرتغاليين لأحد لزوجته⁽⁴⁾.

كان "ابن شموط" يطارد المسيحيين و يهاجمهم ويرميهم برمحه حتى اضر والى مجابهته وقد دارت معركة كبيرة استطاع خلالها "ابن شموط" أن يطارد المسلمين قتل "نونيو فرناند" والذي بموته انقسم الجيش واقتتل في سبيل إيجاد قائد له، ووجد المغاربة في ذلك الفرصة للانضمام إلى "ابن شموط". واستمرت المعركة وكان ممن سقط فيها " نونيو فرناند دي أيدي" وصهره " دي الفونس ودي فارو" وعدد من الفرسان من بينهم "لوبي باريكا" وأصبح كل أولئك تحت رحمة السعديين⁽⁵⁾.

(1) مارمول، المرجع السابق، ص 80.

(2) طوريس، المرجع السابق، ص 42.

(3) نفس المرجع، ص43.

(4) مارمول، المرجع السابق، ص 81.

(5) طوريس، المرجع السابق، ص47.

وفي رأس أكبر قام احمد الأعرج بالإغارة على البلاد وإحراق أراضي المغاربة المتحالفين مع البرتغال واستطاع مع أخيه محمد الشيخ هزيمة بوعكاز احد ابرز الموالين للسياسة البرتغالية .

3- القضاء على العميل يحي بن تغوفت:

اعتمد البرتغاليون في عملية الاحتلال و لتسيير في الأراضي المغربية إضافة إلى الضباط العسكريين على العنصر المحلي، حيث برز اسم "يحي بن تغوفت" الذي كان ذراعا للبرتغاليين وساهم بشكل كبير في تثبيت الوجود البرتغالي بالمنطقة، ما حمل احمد الأعرج عقب انتصاره على "باريكا" إلى إيجاد سبيل للقضاء على هذا العميل⁽¹⁾، الذي كثيرا ما اضعف العمليات الجهادية.

استغل المولى احمد فرصة قيام "يحي بن تاعفوفت" بعد فترة ليس بالطويلة من عودته من البرتغال وبعد سماعه نبا وفاة احد القادة التابعين للبرتغال واسمه "بروان" والذي كان أخا لصديق له فقرر تعزيزه صديقه وتقديم الهدايا له على غرار ما يقوم به المغاربة، فسار بصحبة ثلاثة شيوخ⁽²⁾، وبينما هم يتناولون العشاء دخل عليهم شيخان من أولاد عمران التابعين للشرفاء، واغتالاه بطعنات خنجر وهلك معه من كان بصحبته بعد أن حاولوا إنقاذه ولم يستطيعوا⁽³⁾.

أدرك البرتغاليون انه بمقتل يحي بن تاعفوفت انه لم يعد باستطاعتهم تحقيق الأهداف التي خططوا لها، ونقصد مشروع احتلال الساحل الذي سيمكنهم من تخوم إفريقيا وثرواتها من ذهب وعبيد⁽⁴⁾.

والواقع انه بمقتل "يحي بن تاعفوفت" في سنة 1518 م تخلص السعديون من عقبة كبيرة فقد بذلك البرتغاليون حليفا مخلصا قدم لهم خدمات جليلة⁽⁵⁾، ولأنهم لم يجدوا من يعوضه اخذ نفوذهم بالتقهقر عن المناطق الداخلية وازداد السعديون قوة استمر في التقلص والانحسار حتى باتوا مهددين في آسفي وآزمور وأغادير وغيرها، بينما اخذ السعديون في التزايد والتوسع في الجنوب المغربي حيث توالى خضوع المدن والقرى

(1) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 275.

(2) طويريس، المرجع السابق، ص 52.

(3) مارمول، المصدر السابق، ص 83.

(4) عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ص 303.

(5) طويريس، المرجع السابق، ص ص 52، 53.

في المقاطعات الجنوبية كماسة وتيوط وتغاوست بالإضافة إلى تيديسي إلى أن أهم انتصار لهم كان سقوط مراكش تحت أيديهم من عام 1524م كما رأينا.

شكلت هذه الهزائم التي مني بها البرتغاليون في المعمورة من عام 1515 م بالإضافة إلى اغتيال حليفهم "يحيى بن تاعفوفت" في عام 1517 م ثم الحليف الآخر ملك بن داود من عام 1521م تشجيعاً للسعديين على مهاجمتهم لاستخلاص باق الثغور.

فتعرضت أصيلا خلال عام 1521م لعدد الهجمات من الشريف أبو العباس الأعرج⁽¹⁾، كما تعرضت مدينة أسفي في عام 1534 لحصار قوي من طرف السعديين وكادت المدينة تسقط في أيديهم لولا وصول الإمدادات البرتغالية،⁽²⁾ ما اضطر القوة المهاجمة لأسفي لرفع الحصار على المدينة، وأرسل الأمير إلى ممثل البرتغال "جاكوب روسالاس" في 22 سبتمبر 1534م، يقترح عليه احد من يثق بهم والمتمكنين من العربية للتفاوض في وضع الأقاليم التي هي تحت الحكم البرتغالي⁽³⁾.

أثبتت تلك الهجمات المغربية على المناطق النفوذ البرتغالي أن وضع البرتغال أصبح غير مستقر وضعيف على صعيدي العدة والعتاد، وقد أدى ذلك ظهور فكرة الجلاء على كل أو بعض الثغور المغربية وتركيز الجهد في المناطق الأخرى في الشرق ولعالم الجديد التي كان البرتغال قد وضعت يدها عليه⁽⁴⁾.

4- موقف المولى احمد من الصراع الوطاسي البرتغالي وبروز الهدنة السعدية البرتغالية:

تزامنت عمليات الجهاد تلك قادها الأشراف السعديون بعمليات أخرى قادها نظراؤهم الوطاسيون الذين ازداد صيتهم عقب انتصارهم على البرتغاليين في المعمورة و قبلها في مراكش، و يبدو أن موقف المولى احمد من تلك العمليات كان سلبيا إذ لا نكاد نجد أي تعاون حقيقي بين القوتين، على العكس من ذلك نجد الملك

(1) شوقي عطا لله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 65.

(2) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 56.

(3) شوقي عطا لله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 65

(4) نفس المرجع، ص 65.

الوطاسي يتراجع عن حصاره لأسفي في سنة 1517م نتيجة تأخر المولى احمد في إرسال المعونة اللازمة لمحمد البرتغالي، وقد يعزو ذلك إلى تخوف الأول من ازدياد نفوذ الأسرة الوطاسية في البلاد⁽¹⁾.

مهما يكن من أمر فقد استغل البرتغاليون ذلك الصراع بين الأسرتين والذي كان يزداد حدة، وفي سنة 1523م توجه وفد من البرتغال إلى تافنتا في سبتمبر من عام 1523م ليعرض على المولى تبادلا للأسرى وشروط الهدنة المرتقبة، وانتهى ذلك التفاوض بان عقدت هدنة بين البرتغاليين والسعديين بمدة ثلاث أشهر وانقلبت إلى هدنة طويلة فيما بعد⁽²⁾.

بالرغم من أن البرتغاليين كانوا أول من بادر إلى الهدنة إلا أنهم كانوا أول من نقضها يظهر ذل في تصرفات حاكم سانتاكروز ضد أنصار السعديين في سوس، مستغلين تواجد الإخوة في مراكش، ونذكر كذلك تجاوزات الحامية البرتغالية في آسفي وآزمور في الأراضي السعدية، وهو ما حمل المولى السعدي إلى مراسلة ملك البرتغال "جيان الثالث" يشتكيه محذرا إياه من مغبة التمادي والاستمرار في التجاوزات⁽³⁾.

و ما لبث المولى محمد بأن عقد معاهدة ثانية مع البرتغاليين في سبتمبر من عام 1526م، لمدة سنة، وقد تزامنت الهدنة مع الهدنة الوطاسية البرتغالية، وفي أبريل من عام 1537م وقعت هدنة لمدة ثلاث سنوات بين الشريف وحاكم أسفي "رودريكو" وقد شملت الهدنة المدن الثلاث آسفي، الجديدة، وآزمور⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: جهود محمد الشيخ السعدي المهدي (946_964هـ=1539_1556م) (تحرير أغادير)

كان أبو عبد الله محمد الشيخ الشقيق الأصغر لأبي العباس الأعرج واليا على سوس كما رأينا في الوقت الذي كان الجهاد شاغلا أبوه وأخوه الأكبر، ويبدو أنه شغف سكان المنطقة حبا، إذ كانوا يتمنون البيعة له بدلا من أخيه الأعرج لولا إرادة الوالد القائم⁽⁵⁾.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 49.

(2) نفس المرجع، ص 50.

(3) نفس المرجع، ص 52.

(4) عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج 8، (د ط) (د ن)، 1988م، ص 94.

(5) عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ص 302.

مهما يكن من أمر فقد حفلت فترة محمد الشيخ بالنشاط و الحركة على عديد الجبهات، ولان ما يهمنا من ذلك هو جهاده ضد البرتغاليين فقد واصل عملية الجهاد ونجح في طرد البرتغاليين بالرغم من الاقتتال مع أخيه والزج به في السجن فيما بعد، فيباشر بنفسه بعدها قطع المراحل الباقية في الجهاد.

بالرغم مما شهدته مملكة الأخوين الشريفين من امتداد على كل مناطق الجنوب المغربي ومقاطعات وسط المغرب فيما عدا الأطراف المتاخمة للمراكز البرتغالية، إلا أنها كانت تفتقر إلى ميناء كبير يتناسب وأهميتها، فصمم المولى على تحرير ميناء أغادير من الاحتلال البرتغالي وقد وقع الاختيار على هذا الميناء لإستراتيجيته، ومن أجل استغلاله في العمليات التجارية خاصة تجارة السكر⁽¹⁾.

تجدد الصراع السعدي البرتغالي بعد انقضاء الهدنة التي كان عقدها احمد الأعرج مع البرتغاليين بحصار كبير قام به محمد الشيخ ضد الحصن البرتغالي، فبعد أن حشد المولى ما يزيد عن الخمسين ألف رجل أوكل قيادتهم إلى ابنه (محمد الحران) الذي توجه إلى سانتاكروز، وقام بمحاصرتها برا⁽²⁾، ما اجبر حاكم الميناء إلى طلب النجدة من الحصار المفروض عليه ووصلت بعض القوات من جزر مديرة ومن آسفي لمساندة البرتغاليين لكن المدد جاء متأخراً، وبعد حصار دام سبعة أشهر⁽³⁾ تمكن الشريف السعدي محمد الذي التحق بالجيش ليشهد الحصار من اقتحام المركز، وقتل واسر من كان به من برتغاليين وأعوانهم، وكان من جملة الأسرى الحاكم البرتغالي وابنته⁽⁴⁾.

كانت مدينة أغادير أول مركز يحرر نهائياً من الاحتلال البرتغالي على يد السعديين سنة 1541م، ليبنى على أنقاضه مدينة أغادير، ما حمل أعوان البرتغاليين على الخضوع لهم والاعتراف بسلطتهم . وقد غنم محمد الشيخ غنائم كبيرة من انتصاره المظفر حيث بدأت عملية الاستغلال المباشرة للميناء من خلال فتح أبواب التجارة مع الدول الأوروبية كما استغل الميناء في تجارة الأسلحة والتي لا شك ستصب في صالح البيت السعدي⁽⁵⁾.

(1) طويريس، المصدر السابق، ص 73.

(2) نفس المرجع، ص73.

(3) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص68

(4) طويريس، المرجع السابق، ص74.

(5) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 54.

وجاء رد الفعل البرتغالي عقب سيطرة السعديين على حصن أغادير بأن قام الحاكم البرتغالي بمهاجمة الانتقام من أهالي المناطق المجاورة ثم التفكير في عقد حلف مع الأمير احمد الوطاسي، غير أن هذا الأخير تراجع عن قراره خوفا من أن يفقد مزيدا من مناصريه الذين يرفضون أي اتصال مع المحتل وإن كان على حساب العدو السعدي. كل هذا جعل البرتغاليين لا يفكرون في العدول عن الهجوم فقط وبل و يقررون الانسحاب من باقي الثغور المغربية دون قتال، وتقصد هنا أسفي و آزمور في عام 1541 م⁽¹⁾.

المطلب الرابع: عملية الإخلاء البرتغالية من المدن المغربية و ردود الفعل عليها

1- عمليات الإخلاء البرتغالية من المدن المغربية:

شكل سقوط سانتا كروز ضربة قوية لكل الوجود البرتغالي في السواحل المغربية كما يعتبر ذلك الحدث أول شرح في هيكل البناء الاستعماري البرتغالي والذي بدا على سواحل المغرب الأقصى باحتلال مدينة سبتة سنة 1415 م.

فإن كانت عملية الإخلاء والانسحاب من الثغور المغربية ممكنة في سنة عقب حصار احمد الأعرج على مدينة أسفي سنة 1534م⁽²⁾، فقد أصبح ذلك الأمر لزاما على البرتغاليين بعد سيطرة السعديين على حصن سانتا كروز فقد أصبح موقف مدينتي أسفي وآزمور في غاية الحرج بحيث أصبح إمدادهما بما تحتاجانه من تعزيزات صعبا. فكان لابد من عملية الإخلاء قبل أن يصبح ذلك مستحيلا⁽³⁾.

إن تزايد نفوذ السعديين بالمنطقة وحملهم لواء الجهاد ضد البرتغال الذي زاد في شعبيهم، جعل وضع الحاميات البرتغالية في القصر وأصيلا يزداد سوءا، فصدر الملك البرتغالي أوامره بإخلاء المدينتين، وأوعزت

(1) الوفراني، المصدر السابق، ص 19 ؛ عبد القادر العافية، المرجع السابق، ص 103.

(2) كان البرتغاليون قد فكروا في عملية إخلاء المدن المغربية أسفي وآزمور في أعوام 1533، 1534م عقب الحصار الذي فرضه المولى احمد الأعرج على أسفي سنة 1534م، إلا أنهم سرعان ما تراجعوا عن ذلك القرار عقب ذلك الصراع الذي نشب بين السعديين والوطاسيين سنة 1536م. انظر: الغنيمي، المرجع السابق، ص 45، 46.

(3) عطاء الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 68.

المهمة إلى القائد " لويس دي لوريفو"، الذي ترك العاصمة لشبونة في سنة 1549 م على رأس المراكب والسفن والأدوات اللازمة لعملية الإخلاء⁽¹⁾.

وقد ظهرت في الأفق فكرة تنازل البرتغال عن الميناءين للجارة اسبانيا، جاء ذلك بعد محادثات وقعت بين البلدين والتي شارك فيها الثائر " أبو حسون الوطاسي"، لكن الملك جيان رأى استحالة تنفيذ رغبة الأسبان فأصدر أوامره بإتمام عملية الإخلاء التي تأكدت في سنة 1550 م⁽²⁾.

فتم إخلاء آزمو و آسفي في أوائل سنة 1542م وجاء دور مدينة أصيلا أواخر سنة 1549 م والقصر الصغير في صيف سنة 1550م، ولم يبق بيد البرتغاليين سوى طنجة وسبتة بالشمال والجديدة (المعمورة) بالجنوب⁽³⁾، وفي هذا الصدد يقول " فريغانيار: " إن سقوط سانتا كروز يمثل الفصل الأول من رواية استمرت ما يقارب 125 سنة بينما يمثل سقوط أصيلا و القصر الصغير الفصل الأخير من هذه الرواية⁽⁴⁾.

وربط بعض المهتمين بشؤون الاحتلال الأيبيري في شمال إفريقيا فشل سياسة البرتغال في المغرب إلى الظروف العامة بالدولة وبالأزمة المالية وانعكاسها على سياسة الحكومة على الحاميات بالمراكز، ورأوا بان ما كانت تدره المستعمرات البرتغالية في العالم الجديد والهند من معادن نفيسة، كان سببا في انصراف الحكام عن شمال إفريقيا التي لم تكن توفر مثل ذلك، متجاهلين رفض المغاربة للاحتلال البرتغالي وضرب حصار شبه مستمر على قلاعهم⁽⁵⁾.

وغير بعيد من ذلك برر البرتغاليون انسحابهم من أسفي وآزمو برغبتهم في التخفيف عن خزينة الدولة، لان من شأن الاحتفاظ بهما أن يشكل عبئا كبيرا عليها، كما لم يكن للحصنين الأهمية التي كانت لهما في السابق، قد يرجع ذلك إلى قوة السعديين المتزايدة وتقليصهم لنفوذ المدينتين حتى بات لا يتجاوز أسوار

(1) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع، ص 69.

(2) نفس المرجع، ص ص 69، 70.

(3) محمد الفاسي، المرجع السابق، 23.

(4) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 68.

(5) احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي و نتائجه، المرجع السابق، ص 150 ؛ يقال أن اهتمامات البرتغال بين سنتي 1521 و 1557م قد تركزت على العالم الجديد ممثلا في البرازيل.

المدينتين، بالإضافة إلى أن أسفي ليس لها مرفأ صالح و تموينها عن طريق البحر استحالة صعبا وآزمور التي لا يمكنها استيعاب السفن الكبرى بسبب مصب نهر أم الربيع⁽¹⁾ الخطير⁽²⁾.

وكيفما كانت طبيعة ونوع الحجج التي قدمت لتبرير هذا الفشل فإنها لم تقلل من شأن ومن دور المقاومة المغربية التي أثبتت عن جدارة قدرتها وصلابتها ليس فقط بتوقيف المحتل عند السواحل بل والتخلي عن عدد من المراكز المهمة⁽³⁾.

شكل تحرير السعديين لأغادير وجلاء البرتغاليين تلقائيا عن أسفي وآزمور اخذ وجود هؤلاء على الشواطئ المغربية في الانحسار ولا سيما عن الشواطئ الجنوبية والوسطى من بلاد المغرب بحيث لم يبق لهم فيها إلا مازكان⁽⁴⁾ وطنجة وسبتة في الشمال، تقوم بالدفاع عنها حاميات صغيرة لا يتجاوز عدد جنودها مجتمعين 2500 رجل⁽⁵⁾، وقد ركز هؤلاء على نفوذهم في الموانئ الشمالية التي يبدو أن الخطر السعدي فيها لم يكن بمقدار المناطق الجنوبية، كما كان تخوف البرتغاليين واضحا من قيام حلف سعدي تركي واضحا وأحد أسباب التركيز على الشمال المغربي⁽⁶⁾.

2- ردود الفعل على عملية الإخلاء :

كان لتلك الخسائر البرتغالية عامة اثر استياء كبير في الأوساط الاستعمارية بلشبونة، وقامت بها حملة دعائية كبيرة يتزعمها الرهبان و العسكريون الذين كان يلقي عليهم اسم الفريق الإفريقي وقاموا ينددون بمن هو مسؤول عن هذه الخسائر وكيف هو السبيل إلى استدراك الوضع⁽⁷⁾.

(1) وهو نهر كبير جدا ينبع من الأطلس بين جبال عالية في حدود تادلا وفاس، ويجتاز النهر سهولا بين ناحية دكالة وناحية تامسنا إلى أن يصب في المحيط قرب صور مدينة آزمور ولا يمكن قطعه في الشتاء والربيع. انظر: دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص 95.

(2) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 54.

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 58.

(4) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 55.

(5) الغنيمي، المرجع السابق، ص 129.

(6) الغنيمي، المرجع السابق، ص 122.

(7) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

وتعرض الملك البرتغالي جيان الثالث إلى نقد كبير لإقدامه على أمر كهذا حيث لإخلاء هذه الموانئ الهامة بالغ الأثر على العالم المسيحي بصفة عامة والبرتغال بصفة خاصة .

فرأى الحاكم البرتغالي لأصيلا "دي رودوندو" الذي رأى انه وبقليل من الجهد كان بالإمكان امتلاك مملكة فاس كلها بدلا من ترك ما بأيديهم من ليسقط في يد الأتراك أو الأسبان، كما يذكر أن جيان الثالث أصبح غير قادر على إدارة شؤون الإمبراطورية البرتغالية⁽¹⁾.

أما القائد البرتغالي "ديجوى جوتو" فقد قال: " لم تكن أصيلا في خطر كبير حين فكرنا في إخراجها وكان يمكن تحصين قلعتها، وكما كان يلزم لمازكان وآزمور كل ماكننا نحتاج إليه هو تدعيم مركزنا في هذه الحصون عن طريق إمدادها ببضعة جنود وبالعناد اللازم لكننا فقدنا كل الحصون وكل النبل والشهامة التي كانت ترمز له إمبراطوريتنا"⁽²⁾.

ويستغرب الناصري هو الآخر في مؤلفه الاستقصاء جلاء البرتغاليين عن مدينة أصيلا بالذات، كونها قريبة من الوطاسيين بعيدة عن مجرى الأحداث في سوس أين يتواجد السعديون⁽³⁾. وغير بعيد عن "ديجوي" تحصر حاكم أصيلا " " دي رودوندو" عن جلاء البرتغال عن أصيلا نظرا لما يمتاز به هذا الميناء المطل عن الأطلسي، وعدم تكليف الميناء الكثير للدفاع عنه، مع إمكانية استغلاله رأس حربة للولوج إلى دواخل البلاد⁽⁴⁾.

ولم تختلف الروح الاستعمارية عند القائد الأسباني "جان دو لويزا" الذي كان في خدمة التاج البرتغالي حين كتب للملك البرتغالي يعدد الأضرار الذي ستتجم في حال تمت عملية الإخلاء فقال: "إن هذه الأماكن الهامة التي أخليت سيشغلها البربر و القراصنة و ستصبح طنجة و غيرها من الموانئ الهامة في خطر، كما أن شواطئ الجزائر ستصبح مركزا للقراصنة بالجملة ستصيب البرتغال والأسبان إضرار جسيمة"⁽⁵⁾.

(1) شوقي عطا لله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 80.

(2) نفس المرجع، ص 76.

(3) الناصري، الاستقصاء، ج5، المرجع السابق، ص17.

(4) شوقي عطا لله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص ص 80، 81.

(5) نفس المرجع، ص 82.

المطلب الخامس: محمد عبد الله الغالب بالله وجهوده ضد البرتغاليين (1557 - 1574 م)

بعد مقتل محمد الشيخ على يد الأتراك كما سنذكره في مبحث لاحق من هذا البحث آل الحكم في المغرب الأقصى إلى ابنه عبد الله⁽¹⁾ الذي تلقب بالغالب بالله والذي يبدو أن علاقاته مع البرتغاليين كانت سلمية إلى حد كبير إذا ما استثنينا حملته على مازكان (البريجة)⁽²⁾، وحصاره لها عام 1561م.

فقد كان لانهزام البرتغال على يد محمد الشيخ بالغ الأثر والاستياء على الأوساط الاستعمارية بلشبونة، وقامت بها حملة دعائية تزعمها الرهبان تستنفر ما حدث، فكان من اثر تلك الدعاية أن أرسلت البرتغال جنودا أكثر تعصبا واستعدادا للصمود في وجه الحركة الجهادية التي يقودها الأشراف السعديون، فلما قام السلطان عبد الله سنة 1562 بحصار البريجة⁽³⁾، بقيادة القائد علي بن ودة⁽⁴⁾ بإمكانيات كبيرة من عدة وعتاد وبالرغم من المقاومة البرتغالية العنيفة التي واجهته⁽⁵⁾، استطاع المغاربة الدخول إلى أبراجها حيث لم يبق إلا القليل منها في أيدي البرتغاليين إلى أن جاءه رسول من السلطان يأمره بالانسحاب فخرجوا منها بعد أن كادوا يحرقوها⁽⁶⁾، فتفوقت بذلك المقاومة البرتغالية على المغاربة بالرغم من الإمكانيات الهائلة التي كانت تحت يد المولى السعدي⁽⁷⁾.

وفي هذا الانسحاب يذكر المؤلف المجهول في مؤلفه تاريخ الدولة السعدية أن سبب رفع الحصار عن مازكان والإقلاع عن فكرة تحريرها إنما كان لقاء تعويض مالي هام تلقاه عبد الله من البرتغاليين، وانه باع لهم

(1) عبد الله بن محمد الشيخ المهدي ولد بمدينة تارودانت عام 1527م، تولى الحكم خلفا لوالده و سنه اثنين و ثلاثين عاما بعد أن بايعه أهل فاس عام 964هـ، و كان عاقلا حازما جامعا للملك محافظا على ملكه الذي قام في سبيله بارتكاب مذبحه في حق أقاربه خاصة بنو عمه احمد الأعرج. انظر الغنيمي، المرجع السابق، ص 139، 140.

(2) مزغان: تعرف بالجديدة عند أهل المغرب، ولقد أطلق عليها البرتغال اسم مزغان، وكانت تعرف قديما بالبريجة، استرجعها محمد بن عبد الله من البرتغال سنة 1768. أنظر: ابن العربي، المرجع السابق، ص 117.

(3) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

(4) المجهول، المصدر السابق، ص 42.

(5) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

(6) المجهول، المصدر السابق، ص 42.

(7) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

بادس واسلم لهم البريجة وتخاذل عن نصره المورسكين⁽¹⁾ وثورتهم التي اندلعت بالأندلس عام 1560 م وقال " ... و أما أهل الأندلس و غشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم و أموالهم و أولادهم و في نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه مثقال ذرة من إيمان...و يضيف مؤكداً على ذلك ".... فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة و كذب عليهم غشا منه لهم و لدين الله عز و جل و أدو له بعد رحيل المحلة مالا عريضا و هدية جميلة و كأنهم اشتروها منه...."⁽²⁾.

بينما ترجع المصادر والوثائق البرتغالية سبب الانسحاب إلى استعداد القوات البرتغالية و صمودها حتى وصول الإمدادات الكبيرة إلى القلعة المحاصرة، بالإضافة إلى نقص التموين و المواد الحربية اللازمة للاستمرار في الحصار، و كذلك الخسائر الفادحة التي تكبدها المغاربة⁽³⁾.

والحقيقة هي أن البرتغال عقب تلك الهزائم المتكررة وخسارة بعض مناطق النفوذ قد شهدت حركة دعائية قادها العسكريون و الرهبان و الذين كان يطلق عليهم اسم الفيلق الإفريقي، وكان هدف الدعاية تحميل المسؤولين خسارة مناطق النفوذ في المغرب وعدم التعامل الجيد مع الحركة الجهادية المغربية، وقد وجدت الدعاية أذانا صاغية عند الشاب البرتغالي خاصة الجنود الذين كانوا متوجهين إلى المغرب، فكانوا كثرا تعصبا وإصرارا على الصمود، ومن هنا استطاعوا الصبر على حصار الغالب لهم مدة 85 يوما⁽⁴⁾.

(1) المورسكيون تسمية أطلقت سنة 1499م على كل من هو عربي مسلم، واستعملت رسميا في محاكم التفتيش بإسبانيا عام 1520م، ثم شاع مصطلح المورسكيين عند المسلمين بعد ذلك، كما يطلق هذا المصطلح على المسلمين الذين بقوا في الأندلس تحت وطأة السلطة النصرانية، أخذت كلمة المورسكيين من الكلمة الإسبانية Moriscos التي تعني صغار المسلمين أو المسلمين المقهورين، المغلوبين على أمرهم. أنظر: مهدية طيبي، مقارنة للوضع الاجتماعي والاقتصادي لأهل الأندلس بمدينة الجزائر من خلال المحاكم الشرعية، القرن 17. 18م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، السنة الجامعية 2008-2009، ص15.

(2) المجهول، المصدر السابق، ص37، 38، 42.

(3) الغنيمي، المرجع السابق، ص 152.

(4) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص23.

كما أن الملك الاسباني فيليب وعند سماعه بأخبار المعركة الدامية التي سبقت الحصار أمر ضباطه في المدن الجنوبية الأندلسية ضرورة تقديم العون إلى للملك البرتغالي من الرجال و السلاح والعتاد لقضاء على الحصار المضروب على البرتغاليين، وقد نفذ الإسبانيون ما أمروا به من تقديم المساعدات (1).

مهما يكن من أمر فإن هذا النصر أعطى الجندي البرتغالي مزيدا من التحمس بعد هذا الفوز، ويظهر ذلك جليا من خلال تكثيف البرتغال لنشاطها بمنطقة الخليج العربي حيث استطاعت البحرية البرتغالية تحقيق عديد الانتصارات على العثمانيين، ما يعطينا فكرة عن تأثر المشرق بالمغرب في سلسلة الحروب هذه (2).

والواقع أن عهد عبد الله الغالب لم يكن بالهدوء الذي وصفه بعض المؤرخين كقول المجهول "... كانت أيامه أيام هدنة و عافية و رفاهية و ربح" (3) وأنه قد كان زمنه خال من الفتن ولا حروب داخلية، فإن صدقت تلك الأقاويل في بداية عصره إلا أنها لم تكن بنفس الصورة في بداية حكمه نظرا لتلك الثورات والحركات الانفصالية كثورة المولى عثمان إلي ظهرت بجنوب البلاد سنة 1558م، وثورة المولى عمر بشرق البلاد من نفس السنة، وثورة عبد المؤمن بن محمد الشيخ (4). كل هذه الثورات قد تكون في نظرنا عامل مساهما في عدم تحرير أي من الثغور المحتلة من طرف البرتغاليين زمن الغالب.

وكان مما شهدته فترة حكمه الغالب أن حاول البرتغاليون بقصبة مراكش أن ينسفوا جامع المنصور بمن فيه مستغلين فرصة أداء المغاربة لصلاة الجمعة، فحفروا حفرة ببعض جوانب الجامع ووضعوا بها كميات من البارود ثم أوقدوها ما سبب فزع في صفوف المسلمين وسقوط قبة المسجد، وقد انتقم منهم الغالب قتلا وتعذيبا (5).

وبعيدا عن الجهاد جعل الغالب نصب عينيه الإصلاح في شتى المجالات من إصلاح العمارات وبناء العديد منها والاهتمام بالزراعة والصناعة أيما اهتمام، وتقدمت عاصمة الملك مراكش وازدهرت كما شهدت الحاضرة بناء جامع المواسين والمارستين، كما شهد المغرب على عهد الغالب ازدهارا فكريا لا سيما انه كان

(1) الغنيمي، المرجع السابق، ص ص 151، 152.

(2) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 23.

(3) المجهول، المصدر السابق، ص 42.

(4) الغنيمي، المرجع السابق، ص 141.

(5) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 287.

يقرب العلماء منه ورجال الطرق الصوفية⁽¹⁾. فكانت سياسته بذلك بعيدة كل البعد عن نمط الجهاد الذي تأسست عليه الدولة السعدية.

وبتولي الملك سباستيان الأمور في البرتغال ستشهد العلاقات السعدية البرتغالية عهد الشريف السعدي توترا ملحوظا كون الملك البرتغالي الشاب كان متحمسا وعازما على استرجاع الثغور التي انجلى عليها أسلافه ما جعل الغالب بالله يعتمد سياسة تحصين الثغور بدءا بحصن أغادير خوفا من هجوم برتغالي محتمل⁽²⁾.

المطلب السادس: محمد المتوكل وجهوده ضد البرتغاليين (1574-1576م)

خلف محمد المتوكل⁽³⁾ على الله والده عبد الله الغالب سنة 1574 م، ولم يتمتع بالملك طويلا لان عمه عبد الملك⁽⁴⁾ الذي كان لاجئ في الجزائر مع أخيه احمد طالب بحقه في الملك، كون التقاليد السعدية تجعل الملك يؤول إلى الأكبر في العائلة⁽⁵⁾ ناهيك عن حنكة عبد الملك السياسية التي جعلته يرى في نفسه الأصلح للحكم⁽⁶⁾.

(1) الغنيمي، المرجع السابق، ص ص 145، 146.

(2) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 121.

(3) وهو الأمير الرابع في العائلة السعدية ، محمد المتوكل ابن عبد الله الغالب بعد وفاة أبوه ببيع له بفاس ثم في مراكش كان من الخلفاء السعديين ذوي الثقافة خاصة في مجالي الشعر والأدب تأمر على أعمامه في الملك و لم يدم فيه طويلا حتى انتزعه منه عمه عبد الملك، انتقل إلى سوس وطنجة وتحالف مع البرتغاليين وتوفي غريفا في معركة وادي المخازن سنة 1578م ولقب بالسلوخ لأنه سلخ جلده وحشي تبنا محمد بن الطيب القادري: نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر و الثاني، تح محمد حجي، واحمد توفيق، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996، ص ص 110، 111 ؛ الغنيمي، المرجع السابق، ص 157.

(4) هو رابع أولاد محمد الشيخ السعدي المهدي تمت البيعة له بفاس، أرسى قواعد الدولة السعدية و لقب بالغازي كما لقب بالمعتصم بالله، قام بتوطيد أركان الدولة السعدية من خلال مقاومة الحاقدين داخل المغرب والتصدي للأعداء المتربصين خارجه، توفي قبل انتهاء المعركة لكبرى. للمزيد انظر: عبد الله كانون: موسوعة مشاهير المغرب، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1994، ص ص 5، 6.

(5) الغنيمي، المرجع السابق، ص 157.

(6) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 24.

أراد المتوكل لعلاقاته مع دون سباستيان ملك البرتغال أن تكون ودية غير أن هذا الملك كان جدياً في محاولته غزو المغرب الأقصى واسترجاع الثغور التي اضطر البرتغاليون إلى الجلاء عنها، ما جعله يخوض عدة معارك سنة 1574 م، لم يستطع فيها الملك البرتغالي تحقيق أحلامه⁽¹⁾.

والحقيقة أن الملك سباستيان المتحمس أراد استغلال ذلك الصراع السياسي في المغرب من أجل تحقيق أحلامه في إعادة بعث الإمبراطورية البرتغالية، وقرر القيام بغارة على المغرب انطلاقاً إما من سبته أو طنجة على أن تكون هذه الغارة عبارة عن مناورة عسكرية لمعرفة قوة الخصم تمهيداً لحملة كبرى، وحشد الملك ألف و 200 جندي و نزل بطنجة عام 1574م⁽²⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر المغربية قد سكنت ولم تعطنا فكرة عن رد فعل المولى المتوكل إزاء أطماع الملك سباستيان و مناورة العسكرية تلك، في تذكر المصادر البرتغالية أن المتوكل قرر الرد على البرتغاليين من خلال تكوين جيش من قبيلة " الغومار " الريفية و توجه إلى طنجة وألحق خسائر كبيرة بالملك سباستيان⁽³⁾.

إن المنتبغ لعمليات الجهاد بعد محمد الشيخ لا يلبث أن يلاحظ ذلك النزول في النسق الجهادي إذ لا نكاد نجد طول هذه المدة أية محاولة جادة لاسترجاع الثغور المحتلة من طرف البرتغال باستثناء محاصرة جيوش عبد الله الغالب للبريجة (الجديدة) وتراجعهم أمام التحصينات البرتغالية الكبيرة، بل إن هذا الملك آثر محالفة الأسبان سرا بغض الطرف عن احتلالهم لحجرة بادس بالقرب من مليلة حتى لا يجد الأتراك منفذاً يستغلونه للتسرب إلى المغرب⁽⁴⁾. وبالتالي إعطاء الأولوية للخطر العثماني على البرتغالي.

وبالبحث في أسباب ذلك الركود في العمليات الجهادية نجد أن العلة كامنة في النظام العسكري الذي كان قائماً آنذاك، والذي يعتمد أساساً على رجال القبائل دون غيرهم وعدم اعتماد جيش منظم من شأنه أن ينافس البرتغاليين وأعوانهم، ومن الجدير بالذكر هنا تلك العمليات التي كانت قائمة من أجل جلب السلاح الأوربي إلى

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 123.

(2) فالح حنظل، المرجع السابق، ص ص 446، 447.

(3) نفس المرجع، ص 447.

(4) محمد حجي: " المغرب في عهد السعديين " مجلة دعوة الحق، العدد 5 السنة 21، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المملكة المغربية، الرباط، 1400هـ / 1980م، ص 29.

بلاد المغرب والتي كان يترجمها التجار الأوروبيون في السواحل المحررة خاصة الانجليز منهم والهولنديون البروتستانت، وقد استمرت تلك العمليات في عهد الملك المعتصم الذي سيغير في صورة الجيش المغربي⁽¹⁾.

المطلب السابع: عبد الملك وجهوده ضد الاحتلال البرتغالي (موقعة واد المخازن)⁽²⁾:

1- الظروف العامة للمعركة:

لم تكن معركة واد المخازن كسائر المعارك فهي تختلف عن غيرها كونها كانت وليدة أسباب وظروف ولعل في تسمية الملك الثلاث ما يوحي للمتأمل تلك الأبعاد من تصفية حسابات وتصحيح للأوضاع هددت كيان السعديين في الصميم فكانت بحق معركة بقاء أو فناء .

1.1- الصراع على الحكم بين المتوكل و عبد الملك:

عرفت الظروف التي انتقل فيها الحكم من المتوكل إلى عمه أبي مروان عبد الملك أهمية كبيرة، فب وفاة الغالب بالله انتقل الحكم إلى ابنه المتوكل على غير عادة الحكام السعديين الذين كانوا يولون الأكبر سنا الحكم، فلجا عبد الملك اخو السلطان المتوفى وأخوهم الأصغر احمد المنصور⁽³⁾ إلى تلمسان حيث أقام عند واليها حسن بن خير الدين، خشية بطش أبي عبد الله المتوكل بهما فقد عرف انه سفاك للدماء .

(1) محمد حجي، المرجع السابق، ص 29.

(2) معركة الملوك الثلاثة و يقال لها كذلك معركة الملوك الأربعة وهم ملك البرتغال سباستيان و الملك المخلوع محمد المتوكل و الملك عبد الله المعتصم الذي دبر المعركة وقضى فيها مريضا و الملك احمد المنصور الذي أعلن نتيجة المعركة، و هناك من شبهها بمعركة بدر الكبرى . انظر عبد الله كانون: "حول وقعة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص 18؛ عبد الهادي التازي، الصلات التاريخية بين المغرب وعمان، المرجع السابق، ص 225.

(3) أبو العباس احمد المنصور أعظم خلفاء الدولة السعدية، ولد في 956هـ بفاس التي درس فيها الأدب و الفقه، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه عبد الملك و تلقب بالمنصور تيمنا بالنصر في معركة المخازن، قاد الدولة نحو الاستقرار وشهد عصره توسعا للدولة ونموها في علاقاتها مع القوى الخارجية، بقي في الحكم ستة وعشرين عاما، اشتهر بحملته على السودان الغربي. انظر الغنيمي، المرجع السابق، ص ص 191، 192.

وكان عبد الملك رجلا حكيما رصينا داريا بأمر السياسة أصيلا في رأيه نتيجة تجاربه بالخارج واحتكاكه بشتى الحضارات التي كانت تتفاعل آنذاك حيث أجاد اللغة الاسبانية والايطالية والتركية⁽¹⁾.

قصد الأخوة أبو مروان واحمد المنصور إلى الجزائر ومنها إلى القسطنطينية قاصدين نجدة السلطان العثماني سليم ليعينهما على استرجاع حقهما في السلطة⁽²⁾، فأمدهما السلطان بـ 5000 ألف من جنده⁽³⁾ وفي سنة 973 هـ سار عبد الملك وأخوه حتى تخوم فاس، والتقيا بجيش ابن أخيهما المتوكل وانتصرا عليه ولذا المتوكل بالفرار إلى جبل درن، ودخل أبو مروان عبد الله فاس في 31 مارس 1576م و نال البيعة من أهلها وأجزل العطاء للجيش التركي ثم دخل مراكش من نفس العام و بايعه أهلها تاركا أخاه في فاس لتسيير أمورها⁽⁴⁾.

اخذ المولى عبد الملك والذي تلقب بالمعتصم بالله منذ أن بدأت الأحوال تستب إليه يعمل على إعادة الأمن والهدوء إلى المغرب دون إن يتقاعس عن متابعة المتوكل الذي اخذ يؤلب القبائل لاسترداد عرشه المسلوب وقد وصلت عدد المعارك بينه وبين عميه 24 معركة في سنتين خسرهما المتوكل كلها⁽⁵⁾.

أما المتوكل فقد تمكن من الوصول إلى طنجة بعد محاولة أخرى من اجل الوصول إلى طنجة ومنها قصد ملك الأسبان يستجده وعندما امتنع توجه إلى الجارة البرتغال يطلب عون ملكها المتحمس سباستيان ضد عمه أبي مروان⁽⁶⁾.

1. 2- ضعف البرتغال زمن الملك جيان الثالث (1531 - 1557م):

كان وصول الملك جيان الثالث إلى حكم البرتغال سنة 1531م متزامنا مع بداية الضعف الذي البرتغالي في المغرب، فقد أدت الحروب الكثيرة إلى استنزاف الموارد البرتغالية خاصة البشرية منها، إضافة إلى

(1) عبد العزيز بن عبد الله : " انتصار المغرب في واد المخازن أنقذه من حرب صليبية عارمة"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص 39.

(2) عبد الهادي التازي: " وقعة واد المخازن بدون رقابة"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص 27.

(3) عبد الله الجراري: " وقعة واد المخازن 986 هـ 1578م"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص 114.

(4) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص ص 24، 25.

(5) الوفراني، المصدر السابق، ص 65 ؛ عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 99.

(6) عبد الله الجراري، المرجع السابق، ص 114.

الحالة الاقتصادية، في الوقت الذي بدا فيه الصراع الحقيقي مع المغاربة إلى جانب الخطر العثماني الذي أصبح على مرمى حجر خاصة بعد أن سيطروا على تلمسان، كما لم تسلم البرتغال من منافسة الجارة اسبانيا التي فكانت نتيجة كل هذا كما رأينا إخلاء وجلاء البرتغاليين على مجموعة من الثغور كآسفي وأزمور وأصيلا.

1. 3- التقارب الانجليزي المغربي زمن عبد الملك:

إن المتأمل لفترة حكم المولى عبد الملك لا يلبث أن يلحظ ظاهرة فريدة ومميزه و هو ذلك التقارب والانفتاح في العلاقات الخارجية خاصة مع الانجليز.

وبعد أن خلصت البلاد إلى مولاي عبد الملك كاتب الملكة إليزابيث يخبرها بتوليها السلطة ويعلمها بأنه مستعد للتعاون بقوله: "إلى السلطنة إليزابيث المعظمة بنت السلطان المعظم كتبنا إليك من حضرتنا العلية بمراكش و موجه أننا نعرفك أن الله تبارك و تعالى مكنني من ملك والدي و استوليت على جميع بلاده، فلتتعرفي أنت على محبتك و كلما يعرض لك في بلادنا من الإغراض فانه مقض على ما يوافق غرضكم و مرادكم"⁽¹⁾.

ويبدو أن المولى عبد الملك كان يريد من وراء هذا الحلف أن يجعل المغرب سوقا للبضائع الانجليزية، من خلال السماح لهم بتصدير مرج البارود مقابل قنابل للمدافع والأسلحة، و قد أبدت الملكة اليزابيث نية في التعاون مع المولى على أن يبقى الحلف بينهما طي الكتمان⁽²⁾.

وكتجسيد لما سبق فتح عبد الملك الباب أمام التجار الانجليز للتجار بسواحل المغرب الأقصى، حيث كان هؤلاء يستوردون البوتاسيوم الذي منع تصديرها، وفي المقابل كان الانجليز يتولون عملة جلب الأسلحة والذخيرة لبلاد المسلمين من أسلحة من بنادق ورماح و ألبسة حربية وخوذات والمعدات المستعملة في المدافع والمدفعية والخشب بالإضافة إلى الأخشاب التي استعملت في صنع الأساطيل⁽³⁾.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 100

(2) الفيلاي، المرجع السابق، ص ص 331، 332.

(3) حسن السائح: الحضارة الإسلامية بالمغرب، ط2، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، 1986، ص 308.

كما المولى اتجه إلى تعزيز وتجديد القوة البحرية المغربية لحماية الثغور المغربية وتعقب البرتغاليين بالإضافة إلى الإهتمام بتأسيس قوة عسكرية على النمط النظامي، وقد اتبع في ذلك النظام التركي من لباس ومراتب قيادية⁽¹⁾.

لا شك إذن أن هذا الانفتاح في العلاقات بين الدولتين من شأنه أن يزود المغرب بالسلاح من أجل الجهاد ضد الأيبيريين عموماً والبرتغال على الخصوص، هذه الأخيرة التي كانت أكثر ما تخشاه هو تصدير سبائك القصدير التي كانت تنقل إلى بريطانيا وفرنسا لتصنع هناك مدافع وقذائف للقوة المسلحة المغربية⁽²⁾. كتنفيذ لسياسته على أرض الواقع أمر مولاي عبد الملك بإنشاء السفن في العرائش وسلا وضيق على المسيحيين أشد التضيق، وكان يستغل ويصرف كل ما يغنمه من انتصاراته على جيشه.

كان من أثر هذا التقارب المغربي الانجليزي أن شهد تنافر بين لشبونة ولندن، إذ أحدثت تلك المؤن والذخائر التي كان الانجليز يجلبونها للمغرب استياء البرتغاليين⁽³⁾ فتبادلت انجلترا والبرتغال الشتائم والاتهامات، وبحث البرتغاليون على مساندة الفاتيكان من أجل منع هذه المواد وأعطوا لأنفسهم الحق في مصادرة كل السفن الانجليزية المتورطة في هذه العمليات، ولكن عبثاً حاولت البرتغال إذ استمرت المبادلات الانجليزية المغربية من جديد⁽⁴⁾.

1. 4- استنجد المتوكل بالملك البرتغالي:

بعد تلك الخسائر التي تكبدها المتوكل لم يبق له إلا القوى الأيبيرية حليفاً له ويبدو أنه اختار الأسبان في البداية فاتجه إلى قاعدة عسكرية بالقرب من بادس الأسبانية ومعه عائلته وجيشه المكون من ألف رجل فطلب اللجوء من الملك الأسباني، ولكن طلبه جوبه بالرفض، ليتجه بعدها إلى الملك البرتغالي وراسله بواسطة حاكم سبته فوافق على الفكرة وقابله المتوكل بأن أمر صهره عبد الكريم بن تودة بالتنازل عن أصيلا للبرتغال⁽⁵⁾.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 100.

(2) فالخ حنظل، المرجع السابق، ص 451.

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 101.

(4) فالخ حنظل، المرجع السابق، ص ص 451، 452.

(5) نفس المرجع، ص 452، 453.

كان الملك البرتغالي دون سباستيان وعلى صغر سنه الذي لم يكن يتجاوز آنذاك أربعة وعشرين تراوده فكرة متابعة العرب في الشمال الإفريقي، بهدف توجيه ضربة جديدة إلى الإسلام، واخذ الفتى الصغير يحث خاله الملك "فيليب الثاني" ملك اسبانيا من اجل المشاركة، ويظهر له بان هذه الحملة كفيلة بالقضاء على خطر الأندلسيين النازحين لبلاد المغرب، والذين قد يفكرون في العودة في حال وجود تعاون سعدي عثماني⁽¹⁾.

وكان مما أغوى به المتوكل على الله إلى الملك سباستيان من اجل مساعدته في حملة تكون شاملة على المغرب، أن ادعى أن له أنصار كثر، واعداء إياه في حالة نجاح الحملة أن يقتطع له كل الثغور الواقعة على امتداد الشاطئ⁽²⁾.

وكانت الشروط البرتغالية تنص على أن يتنازل المتوكل للبرتغال على كل السواحل المغربية، وأن يكتفي هو بداخل البلاد، وهو ما قبله المتوكل طمعا في الانتقام من عمه عبد الملك⁽³⁾.

1. 5- التحالف الاسباني البرتغالي بين فيليب وسباستيان:

لا جرم أن تلك التنازلات قد أسالت لعاب الملك المغرور وشجعتة للقيام بحملة على شواطئ المغرب التي لطالما اختلجت رأسه. وكتحرك أولي من الملك البرتغالي نحو تحقيق الهدف المنشود، بعث إلى خاله ملك اسبانيا فيليب الثاني يحثه على لمشاركة في هذه المغامرة، ويظهر له مزاياها وأنها كفيلة بالقضاء على الأندلسيين الذين مازالت تراودهم فكرة العودة للأندلس، خاصة إذا تعاونت الدولة العثمانية مع السعدية⁽⁴⁾.

وقد واجهه الملك فيليب في هذه المرحلة عقبات ثلاث أولها التحالف السعدي العثماني الذي طفى على السطح كون المولى عبد الملك لن يفضل التحالف مع غير العثمانيين الذين ساندوه، ثانيها عقدة ابن أخته

(1) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 24.

(2) شوقي أبو خليل: وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة - القصر الكبير، ط1، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1988م، ص 70.

(3) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج8، المرجع السابق، ص 100.

(4) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 24.

المتحمس الذي يلح عليه بدخول المعركة وقد رأى الملك الاسباني أن لا يخذله في ذلك، والأمر الثالث وهو ما جعل الملك يفكر في ضرورة إضعاف المغرب هو ذلك التحالف المغربي الانجليزي⁽¹⁾.

إضافة إلى ما سبق فإن طمع الملك فيليب في احتلال العرائش، جعله يقرر مساعدة سباستيان شريطة أن لا تستمر الحرب أكثر من سنة، فقدمت اسبانيا ما مقداره خمسة آلاف شخص وخمسين سفينة، فضلا عن كميات هائلة من الذخائر والمؤن و هو ما زاد في إصرار الملك البرتغالي نحو تنفيذ مخططه، فأصبح الصراع محتوما⁽²⁾.

2- مقدمات المعركة:

بعد أن رأى الملك الفتي سباستيان أن الظروف ملائمة للقيام بالحملة، توجه نحو المغرب ضاربا عرض الحائط تلك التحذيرات⁽³⁾، التي كان يوجهها له القادة البرتغاليون، وبلغت الثقة بهم بان حملوا معهم الأجراس والأعلام التي كانوا يعتزمون نصبها و تعليقها على منارات المساجد الكبرى بالمغرب⁽⁴⁾.

وقد استعان عبد الملك بدهائه السياسي في التخطيط لسير المعركة فنجدته عند بلوغ أنباء الحملة إلى مسامعه، يرسل الملك البرتغالي يثنيه عن تلك المغامرة، وينذره عن ما يمكن أن ينجر عنها من أهوال، وأن لا ينجر وراء أطماع ابن أخيه المتوكل الساعي للانتقام، وأنه على استعداد تام من اجل التفاوض والجنح للسلم، كما لم تخلو الرسالة من لهجة التحذير للمتحالفين من مغبة ما يمكن أن ينجر عن فعلتهما وأن نبلاءه يشيرون عليه بآرائه فاشلة غير مسؤولة⁽⁵⁾.

(1) فالح حنظل ، المرجع السابق، ص 451.

(2) الغنيمي، المرجع السابق، ص 177 ؛ كان من المقرر أن يتولى احد الضباط الاسبانيين المسمى (دي اطيأتو) قيادة الحملة وفعلوا وافق الملك الاسباني إلا انه سرعان ما استدرك الموقف ورأى ضرورة التقليل من خط سير الحملة، وعدم إعلان الهدف الحقيقي من ورائها. انظر: نفس المرجع، ص 176.

(3) كان من بين من حذروا الملك الشاب سباستيان عم والده " الكاردينال هنري" وقال له أن الخسائر المنجرة من هذه المعركة أكثر من ربحها، كما حذر كبير الأساقفة وعرافه الخاص " لويس دي غونزالس ". انظر: حنظل فالح، المرجع السابق، ص 453.

(4) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج8، المرجع السابق، ص 101.

(5) انظر نص الرسالة كاملة في: الناصري، الاستقصاء، ج 5، المصدر السابق، ص 70، 78.

إن المتأمل إلى هذا الخطاب يجد انه خطاب ذو نبرة دبلوماسية لكنه يحمل في طياته الإنذار والتحذير من مغبة الأخطاء، كما يبدو في نفس الوقت ذو صفة تسامحية، وهي كلها أشياء استغلها عبد الملك في ربح الوقت من أجل تنظيم صفوفه.

ففي الوقت الذي كان فيه المولى عبد الملك يرسل الملك البرتغالي توجه احمد المنصور إلى تعبئة الجيوش ويعد العدة اللازمة للحرب من الرجال وعتاد، مستعينا بأتباع الحركة الجازولية بقيادة أبي المحاسن يوسف الفاسي الذي لم يبخل على الحاكم المغربي بالمعونة وشارك من جنده في المعركة حوالي الخمسين ألف⁽¹⁾، وبذلك تجمع تحت راية أبي مروان عبد الملك إزاء مائة ألف من المقاتلين ناهيك عن تلك السفن الحربية المشاركة في المعركة.

3- أحداث المعركة:

خرجت السفن البرتغالية من ميناء العاصمة لشبونة في 24 يونيو من عام 1578م لتصل قادس بعد أيام و بالضبط في 29 من هذا الشهر، لتبحر بعدها السفن إلى طنجة وتصل إليها في 8 يولييه من نفس السنة واتجهت القوات البرتغالية إلى أصيلا التي كانوا قد فروا منها في وقت سابق زمن المولى محمد الشيخ ليدخلوها بمساعدة من العميل ابن تودة⁽²⁾ ومحمد المتوكل الذي كان معه نحو 500 من الفرسان⁽³⁾.

وفي أصيلا استقر الجيش البرتغالي فترة من الزمن يرتب أموره مما أتاح بدوره للقوات المغربية إكمال استعداداتها، كما استغل الجيش المغربي ذلك الوقت الذي أضاعه الملك البرتغالي في مناقشة الطريق الذي يجب سلكه هل يتخذ طريق العرائش ثم القصر الكبير كما أشار عليه رجاله وحليفه الخائن المتوكل على الله، أم يتخذ طريق البر.

مهما يكن من أمر فقد استقر رأي البرتغاليين على أن تكون المعركة برية، قد يعزو ذلك إلى أن الملك أراد استعراض مهارته في الفروسية على غرار ما تذكره بعض المصادر.

(1) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 25.

(2) أبي فارس عبد العزيز القشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تح عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية و الثقافة، المغرب، (د ت)، ص 114.

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 105.

وعند وصول سباستيان إلى مدينة طنجة كاتبه عبد الملك مغيرا أسلوبه الأول نظرا لتغير الغاية المتوخاة من المراسلة، والتي كانت ترمي إلى جر الجيوش البرتغالية إلى معترك واد المخازن من أجل إبعادها عن الساحل أكثر وقطع سبل الإمداد، ومما جاء في هذه الرسالة ما يلي " إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك و جوازك البحر إلى عدوة المسلمين فان أنت تثبت في الساحل إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي و شجاع، و إن أنت رجعت إلى بلادك و حقرت بعض الرعية قبل أن يقاتلك ملك مثلك فأنت يهودي ابن يهودي .." (1) .

ولما كان مولاي عبد الملك ممن شاركوا في تأديب الأتراك للأسبان بتونس، دفعته دروسه العسكرية إلى أن يستدرج الجيش الغازي إلى منطقة ناحية القصر الكبير في مكان تكثر به الأنهار حيث ينصب واد لوكاس في العرائش و يتصل به من الضفة اليمنى واد ريسانة وواد المخازن، من أجل أن يعزل الجيش عن أسطوله بالشاطئ فدبر مكيدة رائعة استدرج بها الملك البرتغالي حيث بعث برسالة إليه يقول و يضيف " أني قد جئتك من مراكش ورحلت إليك ستة عشر مرحلة وأنت لم تقدم إلي مرحلة واحدة" (2) .

واختلفت المصادر حول حجم القوات البرتغالية و المغربية المشاركة في المعركة. فأشار الوفراني إلى 125 ألف من جانب البرتغال،⁽³⁾ رفقة 300 إلى 600 رجل من أنصار المتوكل، 200 من الدافع، وأقل ما قيل فيه انه ثمانون ألف رجل⁽⁴⁾، وتذهب الرواية المسيحية إلى المبالغة في وصف الجيش المغربي وعتاده والتقليل من حجم القوات البرتغالية⁽⁵⁾ .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المغرب كان بصدد مواجهة إغارة دولية عليه كون جيش سباستيان لم يكون كله من البرتغال فقد اختلفت أصولهم ما يعطينا فكرة عن صليبية هذه الحملة، وفي هذا تقول المصادر أن

(1) وفي رواية أخرى يقول أنت كلب بن كلب انظر: عبد الله الجباري، المرجع السابق، ص 115 ؛ الناصري، الاستقصاء، ج5، المصدر السابق، ص ؛ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج8، المرجع السابق، ص 103.

(2) المجهول، المصدر السابق، ص 60 ؛ الوفراني، المصدر السابق، ص 74 ؛ عبد الهادي التازي، وقعة واد المخازن بدون رقابة، المرجع السابق، ص28.

(3) الوفراني، المصدر السابق، ص139 ؛ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج8، المرجع السابق، ص 101.

(4) سعيد إعراب، المرجع السابق، ص 92

(5) شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 55 ؛ سعيد إعراب، المرجع السابق، ص 92.

القوات البرتغالية قدرت بعشرة آلاف كما شاركت إيطاليا بـ 3000 ألف جندي، ومثلهم من الألمان⁽¹⁾، بالإضافة إلى الجنود الأسبانيين الذين قدمهم الخال فيليب والذين قدروا بألف جندي، مرفوقين بما يقارب الألف سفينة حربية و 12 مدفعا⁽²⁾، كما بعث البابا متطوعين قدروا بأربعة آلاف فارس وخمسمائة من الخيل⁽³⁾، دون أن ننسى المتوكل وأنصاره الذين قدر عددهم بـ 300 و 600 جندي⁽⁴⁾.

أما الجيش المغربي فقد اختلفت التقديرات في تعدادهِ وتنظيمهِ وتسليحهِ⁽⁵⁾، وكان يتألف من عناصر عديدة فُضم إلى جانب المتطوعين من المغاربة رجال الطرق الصوفية، و لبربر وحتى الأتراك كما ضم عبد الملك وأخوه المنصور⁽⁶⁾. وكان كالأتي، 14 ألف فارس وألفين وخمسمائة من المشاة المسلحين بالبنادق، بالإضافة إلى جيش أخيه المنصور حاكم فاس و المكون من 22 ألف فارس و 5000 ألف جندي من المشاة المزودين بالبنادق، وذكر كذلك رقم ثمانون فارس 6000 جندي من الأتراك و 2000 محارب زواوي مع 12 مدفعا انضموا للجيش⁽⁷⁾.

وهنا وجب التنويه إلى فئة الجنود الأتراك الذين شاركوا في المعركة وهم الفئة التي وقفت مع الشريف عبد الملك السعدي في صراعه على الملك مع ابن أخيه محمد المتوكل ابن عبد الله الغالب⁽⁸⁾.

وكان الجيش البرتغالي قد انتظم على شكل مربع في مقدمته البرتغاليين وفي اليمين الألمان وعن اليسار جموع المتطوعين الأسبان والطلليان⁽⁹⁾، في حين جاء على الجناحين الخيالة وأنصار المتوكل على الله ،

(1) الناصري، الاستقصاء، ج5، المصدر السابق، ص 83.

(2) الغنيمي، المرجع السابق، ص 176.

(3) الناصري، الاستقصاء، ج5، المصدر السابق، ص 83.

(4) شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 56.

(5) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 457.

(6) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 293.

(7) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 457، 458.

(8) محمد بن تاويت : " وثيقتان هامتان عن معركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الرباط 1978م، ص 48.

(9) عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 180.

وتقدر المصادر عددهم ما بين 300 و 60⁽¹⁾، أما الجيش المغربي فقد توزع على شكل هلال في طرفيه الخيالة الخيالة وعلى وفي الوسط المشاة ومن خلفهم المدفعية⁽²⁾.

وقد اعتمد عبد الملك السعدي على قيادة عسكريين ذوو خبرة في المجال الحربي واتبع طريقة الأتراك في خوض المعارك الكبرى سواء في سلاح المدفعية التي تولاه القائد التركي رضوان، أو في تنظيم الجيوش وبالتالي امتازت خطة المولى بوجود كوكبة احتياطية عن الفرسان لتتنقض على العدو في الوقت المناسب⁽³⁾.

تقدم الجيش البرتغالي إلى واد المخازن على مقربة من قصر كتامة وعبر جسر الوادي بحيث أصبح معزولا عن الأسطول المتواجد بالشاطئ⁽⁴⁾، وفي الليلة التي سبقت المعركة أمر مولاي عبد الله أخاه المنصور بنسف قنطرة واد المخازن تنفيذا و تطبيقا للخطة الموضوعة سابقا⁽⁵⁾.

وقد التقى الجمعان في واد المخازن عند الهر من يوم الاثنين 30 جمادى الأولى 986هـ/4 أوت 1578م، وأطلقت العديد من الطلقات النارية إيذانا بالحرب بين الفريقين⁽⁶⁾، واحتد وطيس المعركة واسود الجو من دخان بارود المدافع و اشتد القتال و كثر الضرب و الطعن⁽⁷⁾، و يبدو أن النار المغربية كانت أكثر فاعلية ما دفع الملك سباستيان وجنده يتراجعون إلى أماكنهم الأولى خوفا من التفرق، إلا أن الجيش البرتغالي سرعان ما نجح في فصل بعض وحدات الجيش المغربي مما احدث تشتيتا وانقساما ما اضر المغاربة إلى العودة للخلف⁽⁸⁾.

للخلف⁽⁸⁾.

(1) سعيد إعراب، المرجع السابق، ص ص 92، 93.

(2) للتعرف أكثر على تشكيل القوات المغربية والبرتغالية انظر الملحق رقم 26، ص 310.

(3) شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص ص 7، 62 .

(4) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج8، المرجع السابق، ص 104.

(5) المجهول، المصدر السابق، ص 60 ؛ سعيد إعراب، المرجع السابق، ص 92.

(6) شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 65.

(7) الوفراني ، المصدر السابق، ص 75.

(8) زهر الدين صالح: موسوعة معارك العرب من الفتح العربي حتى 1968، تق مصطفى طلاس، ط1، دار الندوة الجديدة ، بيروت، 2000، ص، ص 817.

وتذكر إحدى الروايات أن الملك عبد الله الذي كان مريضاً لما رأى ذلك تأزم حاله وخر صريعاً.... فوجد نفسه وحيداً لا وجود للفرسان من حوله فغضب غضباً شديداً واستوي على مهام فرسه وامتشق سيفه وارتعش بعد ذلك ارتعاشاً شديداً اصطكت له أسنانه ففقد حينها الوعي والحياة...⁽¹⁾.

واستأنفت المعركة بقيادة المنصور بعد أن تم إخفاء خبر الوفاة من طرف أحد حجاب المولى عبد الملك⁽²⁾، وشهد الميدان كراو فرا من الجانبين انتهت بالانهزام التام للجيش الغازي المعتدي وفراره من الجيش المغربي المدافع عن بلده، ولأن جسر الوادي كان مهدماً كما علمنا سلفاً فلم يبق على الجيش البرتغالي إلا الارتقاء في النهر والغرق فيه فلم ينجو منهم أحد⁽³⁾. وقد وصفها عبد العزيز القشتالي في مؤلفه مناهل الصفا قائلاً : " وناهيك عن يوم اجلي عن ثلاثة ملوك موتى ما بين مجدل وغريق وفائض النفس غريق حتف الأنف وعن ثمانين ألف من المشركين ما بين قتيل وأسير "⁽⁴⁾.

وهكذا كانت نهاية المعركة التي كتب فيها الله النصر للمسلمين، بموت ثلاث ملوك، عبد الملك الذي توفي مريضاً، و محمد المتوكل الذي توفي غرقاً لعدم درايته و إتقانه للسباحة و الدون سباستيان الذي قتل بالرغم من استماتته⁽⁵⁾. ولذلك يسميها الأوربيون معركة الملوك الثلاثة ويسميها المسلمون معركة واد المخازن⁽⁶⁾.

وبمجرد انتهاء المعركة و انسحاب فلول البرتغاليين إلى أصيلاً أعلنت وفاة عبد الملك كما أعلنت البيعة إلى المنصور، أما المتوكل فقد أخرجت جثته و سلخ وأصبح يلقب في الكتب والروايات بالملسلوخ أما جثمان الملك البرتغالي فقد افتداه الملك فيليب مع الكثير من الأسرى⁽⁷⁾.

(1) محمد بن تاويت، المرجع السابق، ص 50 ؛ وقيل انه توفي مسموماً بواسطة الكعك المقدم إليه من الأتراك بأمر من القائد التركي رضوان وهي رواية لا تحققها الظروف نظراً إلى تلك العلاقة التي كانت قائمة بين عبد الملك والأتراك، كما انه رواية استقاها الوفراني من ابن القاضي دون تحديد من أي مصدر هي. انظر: الوفراني، المصدر السابق، ص 77 ؛ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 293.

(2) هو حاجب الملك رضوان العليج وقد قام بإخفاء خبر موت المولى عبد الملك كي لا تنهار معنويات الجيش المغربي، انظر: الوفراني، المصدر السابق، ص 75.

(3) الفيلاي، المرجع السابق، ص 351.

(4) القشتالي، المصدر السابق، ص 39.

(5) سعيد أعراب، المرجع السابق، ص 93.

(6) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 294.

(7) نفس المرجع، ص 294.

4- نتائج معركة الملوك الثلاثة:

أسفرت معركة واد المخازن الشهيرة على نتائج بعيدة الأثر في عديد الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية على جميع الأطراف.

4. 1- على البرتغال:

فقدان البرتغال لملكها الدون سباستيان، حيث لم يستوعب الشعب البرتغالي نبا وفاة ملكهم اعتقاداً منهم انه مأسور فقط، ولكن سرعان ما ثبت الخبر بعد وصول الجثة إلى لشبونة، ليتقرر بذلك مصير الإمبراطورية البرتغالية إلى المجهول⁽¹⁾.

كانت هذه الهزيمة الساحقة التي مني بها البرتغاليون كارثة تاريخية بحق ، إذ كانت إيذاناً ببداية أفول نجم الإمبراطورية البرتغالية ليس لأنها فقدت جيشها وملكها دون سباستيان في المعركة فحسب، بل بعد ذلك بقليل فقدت استقلالها تماماً فقد أدى انقراض أسرة سباستيان وعدم وجود وريث للعرش إلى ضمها للتاج الاسباني بضربة من ضربات الحظ، لتتحول بعد ذلك تلك الإمبراطورية الاستعمارية إلى محمية في كنف الجارة اسبانيا لمدة سنتين عاماً⁽²⁾. حيث أقدم الملك فيليب على الزواج من ملكة البرتغال التي سلمت مملكتها إلى زوجها الجديد ما زاد في ملكه قوة ومنعة⁽³⁾، وتم بذلك تشكيل مملكة مزدوجة برعاية اسبانية إلى غاية 1640م⁽⁴⁾.

والحقيقة أن البرتغال تعرضت إلى صراع طويل من أجل العرش، كون الأمير دون انطونيو الذي كان أسيراً بالمغرب السعدي عقب المعركة، وبعد أن تم فك أسره طالب بعرش البرتغال متمسكاً بشفاعته انه من أسرة عمانوئيل ملك البرتغال، وقد أدى ذلك الصراع الذي كان قائماً بينه وبين فيليب إلى تأزم الوضع⁽⁵⁾ وتباين في

(1) زهر الدين صالح، المرجع السابق، ص 820.

(2) عبد العزيز بن عبد الله، المرجع السابق، ص 40.

(3) عبد العلي الوزاني، المرجع السابق، ص 112.

(4) Robert ricord, « Les portugais au maroc », Document générie n56, le 17-3-2016, juillet 1973, p23.

(5) ظهر هذا الصراع كون البرتغاليين و بعد موت ملكهم أوكلوا أمرهم إلى الكاردينال دون هنريك، وهو اخو جد سباستيان، وكان هذا عجوزاً طاعناً في السن، فعينوه وصياً للعرش ثم ثبتوه في الملك في 29 أوت 1578م، وقد شهدت فترة حكمه القصيرة بوادر الضعف و الانهيار العسكري والاقتصادي للبرتغال والذي كان قد بدا في زمن الدون سباستيان، وعندما مات الملك عام 1580م ظهرت مشكلة جديدة وهي وراثة العرش البرتغالي، ذلك لان الكاردينال ترك وصية تقول أن يؤول الملك من بعده إلى الملك فيليب =

وجهات النظر الدولية، فقد لقي الأمير البرتغالي التأييد من الملكة إليزابيث والسلطان المغربي احمد المنصور، ولم يكن الهدف من محاولة إرجاع الأمير هكذا جزافا بل كان يرجع إلى ذلك الصراع الدولي الذي كان قائما آنذاك⁽¹⁾. حيث كانت الملكة الانجليزية تمنى النفس بالسيطرة على البرتغال وانتزاعها من اسبانيا العدة⁽²⁾.

مهما يكن من أمر فق أدى انضمام مملكة البرتغال إلى الجارة اسبانيا أن انتقلت كل ممتلكات الأولى إلى الثانية مشرقا و مغربا، وأصبح الملك فيليب الثاني الراعي على كل مناطق النفوذ البرتغالي داخل القارة الأوربية و خارجها، ولما كانت الحكومة الاسبانية التي كانت قائمة في ذلك الوقت حكومة مركزية ومتحيزة وغير رشيدة فقد كانت نتائجها جد سلبية على البرتغال⁽³⁾. ولما كانت اسبانيا حالة حروب دائمة في كل مكان خاصة في العقد الثالث من القرن 17 فقد تأثرت دولة البرتغال وأصابها الضعف نتيجة تحملها تبعات السياسة الاسبانية الطموحة.

وقد أدى انضمام البرتغال إلى الجارة اسبانيا أن عجزت الأولى عن إرسال التعزيزات للمراكز التجارية في البحار الشرقية و تعرضت خطو الملاحة البحرية البرتغالية إلى الاضطراب فتراخت سيطرتهم على منطقة الخليج العربي⁽⁴⁾.

أصبحت مصالح وأمالك البرتغال بعدها عرضة للنهب والسلب من طرف الدول الأخرى التي وجدت في تلك المساحات الشاسعة و الأملاك مجالا خصبا للتوسع خاصة بعد أن أهمل الملك الاسباني " فيليب الثاني أملاك إمبراطورية البرتغال طيلة فترة حكم الأسبان لها (1580 _ 1640م)⁽⁵⁾.

= الثاني ملك اسبانيا وقد لاقى هذا اعتراضا من الأسرة الحاكمة ومنهم المنشق دون انطونيو فأرسل الملك الاسباني جيشا إلى البرتغال وأعلن ضم البرتغال إلى حظيرته . انظر : حنظل فالح، المرجع السابق، ص ص476، 477.

(1) شوقي عطا لله الجمل، المرجع السابق، ص 178.

(2) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 477.

(3) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، ج2، المرجع السابق، 67.

(4) نفس المرجع، 67.

(5) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص ص 56، 57.

4. 2- على العالم الإسلامي:

تعتبر واقعة المخازن احد اعم الملامح الحاسمة في تاريخ الإسلام والعروبة ووصلت قداستها أن سماها كثيرون معركة بدر الثانية لما لها من تأثير حاسم على إيقاف موجات الزحف الصليبي على ديار الإسلام مشرقا ومغربا، فقد وضعت المعركة حدا فاصلا لتكالب الأوربيين ليس فقط على بلاد المغرب ولكن على كل بقاع العالم الإسلامية والإفريقية التي كانت مهددة (1).

أوقفت هذه المعركة كل خطر صليبي على البلاد الإسلامية من المشرق والمغرب، وهنا يمكن التساؤل عن ماذا كان سيحدث لو أن البرتغال نجحت في حملتها تلك، كان من المرجح أن تتوسع وتبسط نفوذها شرقا فتحتل المغربين الأوسط والأدنى وترغم الأتراك على الانسحاب من المنطقة ولو بالتعاون مع قوى أوروبية (2).

كما أرغمت المعركة الدولة العثمانية أن تعدل سياستها التوسعية بالمغرب الأقصى لذلك بقيت بلاد المغرب بعيدة عن النفوذ التركي وحافت على مقوماتها الجغرافية (3).

في الحقيقة لم يكن تأثير معركة واد المخازن مؤثرا على الجانب المحلي والبرتغالي فقط، بل تجاوزها إلى ابعد من ذلك إلى العلاقات الدولية الأوربية فقد تغيرت نظرة الدول الأوربية كلها إلى المغرب و جعلت واضطرت المعركة تلك الدول إلى أن تكن الاحترام و التقدير ليس فقط للمغرب بل وللعالم الإسلامي ككل، وأن تحسب ألف حساب قبل أن تقدم على مثل هذه المجازفات العشوائية (4).

كما كان لانتصار الجيش المغربي على الجيش البرتغالي في واقعة المخازن بالغ الصدى و الأثر في إمارات الخليج العربي خاصة عمان التي لا شك وصلتها أخبار الهزيمة البرتغالية (5)، و تنفست الصعداء فكسرت فكسرت بذلك شوكة النفوذ البرتغالي بتلك المنطقة، و كانت - المعركة - بمثابة الملهم لتلك المناطق و راحت كل

(1) احمد رمزي: " المغرب يحتفل بالذكرى الأربعمئة لمعركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، ع 8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص 10.

(2) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 295.

(3) شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 177.

(4) نفس المرجع، ص 178.

(5) عبد الهادي التازي، الصلات التاريخية بين المغرب وعمان، المرجع السابق، ص 226.

منها تحذو حذو المغرب فاستطاعت البحرين التخلص من البرتغال سنة 1011هـ / 1602م، وحذت حذوها الجارة عمان سنة 1043هـ / 1633م عندما طارت جموع البرتغاليين في صحار وجلفار، ووصل الأمر أن صرح المؤرخ البريطاني "روبير ليندن" أن مصرع ملك البرتغال في المغرب هو الذي فكك أوصال الوجود البرتغالي في الخليج العربي⁽¹⁾.

وقد ظهر الضعف البرتغالي جليا في المحاولات البرتغالية الغير ناجحة في منع سفن الشركة الانجليزية بالمنطقة، كما وجدت البرتغال صعوبة كبيرة في توفير الأموال اللازمة لبناء السفن و صناعة المعدات و الذخائر الحربية وحشد الجيوش وإرسالها إلى الشرق.⁽²⁾ وعليه يمكننا القول أن اثر معركة واد المخازن اثر بشكل سلبي على كل الممتلكات البرتغالية في العالم كله⁽³⁾.

4. 3- على المغرب :

كان لانتصار واد المخازن أثار بعيدة المدى على بلاد المغرب الأقصى، تأتي في مقدمتها استعادة المغرب لوحده السياسية رغم بقاء مجموعة من الثغور تحت الاحتلال.

إن كانت نتائج المعركة جد وخيمة على بلاد البرتغال بخسائرهم المادية والبشرية الكبيرة ناهيك عن فقدانهم ملكهم، حيث أصبحوا تحت السيادة الاسبانية فان النتائج كانت جد مرضية للجانب المغربي، الذي كان أول ما أهدته المعركة ملكا جديدا قويا ممثلا في شخص احمد المنصور⁽⁴⁾، والذي تمت له البيعة مباشرة بعد أن وضعت لحرب أوزارها في 4 أوت 1578م، وجاء هذا التنصيب كتلبية لرغبة الأخ المتوفى والذي كان قد راسله قبل المعركة قائلا: " ورغبتي في انتقال الأمر من بعدي إليك لا لغيرك". ويعتبر المنصور ابرز من حكم المغرب في العهد السعدي⁽⁵⁾. وقد تلقى المنصور التهاني من الوزراء وال شعراء الذين نمو له الشعر احتفاءا بالمعركة على غرار ما فعل الشاعر " أبي عبد الله محمد الهوزالي" وقال⁽⁶⁾:

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج8، المرجع السابق، ص 79، 122.

(2) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص 71.

(3) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج8، المرجع السابق، ص124.

(4) محمد بن تاوويت، المرجع السابق، ص 48.

(5) الغنيمي، المرجع السابق، ص 191.

(6) عبد الهادي التازي، الصلات التاريخية، المرجع السابق، ص228.

وحسبك من واد المخازن وقعة بها الشرك حتى آخر الدهر ناعس

وضاقت على بستان كل عويصة وذلت لنا منه الأنوف الغطارس.

فجهز ما تحوي ذخائر ملكه يزود بها عن نفسه ويداعس.

أعاد هذا الانتصار للشعب المغربي ثقته بنفسه و بقدرته في القضاء على المطامع الاستعمارية و المخططات التوسعية التي تعرضت لها البلاد منذ استولى البرتغال على سبته عام 1415 م، وبدأت الرسائل تتوافد على احمد المنصور من اجل استغلال النصر وتحرير باق الثغور بالمغرب⁽¹⁾.

دعم هذا النصر و الفوز نفوذ البيت السعدي في المغرب وفرض احترامهم على الجميع سواء على العالم الإسلامي أو في أوروبا المسيحية فكان أول ما قام به السلطان السعدي احمد المنصور اثر بيعته أن كتب إلى ملوك الإسلام ينبئهم بهذا الفتح المبين والانتصار العظيم . فتوافدت التهاني والوفود من كل الجهات تحمل الهدايا وتقدم التهاني والتكريمات⁽²⁾، بما فيها هدية السلطان العثماني مراد الثاني⁽³⁾ والتي كانت عبارة عن سيف محلى بديع الصبغة فاخر الحلي بالإضافة إلى الملابس الفاخرة والهدايا الثمينة⁽⁴⁾.

ومن مظاهر القوة الدبلوماسية التي أضحت عليها المغرب عقب المعركة أن أرسلت الملكة البريطانية تعرض على الملك المنصور أن يشترك كلا الجيشان المغربي والانجليزي للاستيلاء على أمريكا، علما أن الملكة كانت قد عرضت فيوقت سابق على المنصور الاشتراك معها في غزو اسبانيا التي كانت على عداوة معها⁽⁵⁾ .

(1) محمد المنوني : " وثيقتان جديدتان عن ذيول معركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، ع 8، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص ص 30، 31.

(2) شوقي عطا لله الجمل، المرجع السابق، ص 177.

(3) مراد الثالث (953_982هـ=1546_1595م) و هو السلطان العثماني الثاني عشر و كانت فترة حكمه من (982_1005هـ=1574_1595م)،و قد خاض هذا السلطان عدة حروب مع الدولة الصفوية الإيرانية و مع الدول الأوروبية على جبهة المجر توفي في استانبول و دفن في فناء أيا صوفيا. انظر: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج1، تر عدنان محمود سليمان، ط1، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، استانبول، 1988، ص 383، 384.

(4) الوفراني، المصدر السابق، ص 82.

(5) محمد بن تاويت، المرجع السابق، ص 48.

كما استطاع المخزن المغربي أن يفرض هيئته وينهج سلما طويلا تمكن على إثره من تحقيق أشواط في الميدان الفكري والاقتصادي:

فمن الناحية الاقتصادية تدفقت على المغرب الأموال البرتغالية التي دفعت لافتداء الأسرى المسيحيين⁽¹⁾، ناهيك عن تلك القفزة و البحبوحة التجارية التي اكتتفت المغرب عقب المعركة والتي حملت الدول الأوروبية على التسابق نحو ربط علاقات تجارية بالمغرب خاصة عقب حملة المنصور الذهبي على بلاد السودان.

ومن الناحية الثقافية وكنتيجة لذلك الاستقرار الذي عرفه المغرب عقب المعركة شهدت الساحة الثقافية المغرب الأقصى ازدهارا ملحوظا وتميزا في الحركة الفكرية الأدبية فبرز الكتاب والشعراء⁽²⁾، من أمثال عبد العزيز القشتالي ، والمقري وابن القاضي وغيرهم.

المطلب الثامن: احمد المنصور و جهوده ضد البرتغاليين

كان من المنتظر والمتوقع من احمد المنصور استثمار الفوز من خلال استكمال تحرير الثغور المغربية من يد البرتغاليين ونقصد هنا طنجة وأصيلا وسبتة خاصة بعد تلك المراسلات التي بعث بها بعث العلماء يلحون فيها على المولى احمد أن يستغل فرصة تدهور البرتغال لاستكمال النصر⁽³⁾.

إلا أن شيئا من هذا لم يحدث فلم يقيم بأي تحرك ضد البرتغاليين بل انه قام بالتقرب من الإسبان من أجل التعاون معهم ضد العثمانيين، فجنده يرحب ويقبل بطلب فيليب الثاني المتمثل في تسليم جثة سباستيان للوفد الاسباني البرتغالي بدون مقابل بالرغم من أن الوفد كان في نيته دفع دية نظرا لما قدموا به من هدايا⁽⁴⁾،

(1) سعيد إعراب، المرجع السابق، ص 96.

(2) نفس المرجع، ص 96.

(3) من أمثال رضوان الجنوي الذي أرسل إلى المولى رسالتين. انظر: عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج8، المرجع السابق، ص 119.

(4) القشتالي، المصدر السابق، ص 49.

وأطلق معه السفير الاسباني " خوان داس يلفا الذي وقع أسيرا في معركة وادي المخازن⁽¹⁾، وقد تعهد أيضا المولى المنصور بان لا يتحرك ضد القواعد البرتغالية على البحر⁽²⁾.

وهكذا لم نلمس في سياسة المولى أية اهتمام باسترجاع باق الثغور إذا ما استثنينا فرض الحصار على مدينة طنجة سنة 1584م⁽³⁾، أو حصاره لسبته والذي بالرغم من الانتصار على المشركين في ساحة القتال إلا انه لم يفض إلى تحرير المدينة⁽⁴⁾، كما عرف عهد استرجاع المغاربة لأصيلا التي وضعت يدها عليها بعد أن كانت حررت سنة 1555م⁽⁵⁾. ومن المفارقات العجيبة تطور العلاقات المغربية البرتغالية في زمن المنصور من خلال تقدم الملك " انطونيو " إلى المولى بطلب استرجاع ملكه الذي استولت عليه الجارة اسبانيا، فبعد أن لجا هذا الأخير إلى الملكة الإنجليزية إليزابيث توجه نحو المنصور من اجل استرجاع ملك الأجداد المسلوب وقد بعث بابنه كريستوف الذي نزل بالمغرب⁽⁶⁾.

وقد بقي الأمير كريستوف زمنا بالمغرب إلى أن صدرت الأوامر بعودته إلى انجلترا سنة 1595، بعد أن شاع انه في نية المنصور تسليمه إلى ملك اسبانيا⁽⁷⁾. وهكذا طوي عهد البرتغال إلى أن يفتح من جديد على عهد الأسرة العلوية وبالضبط عهد المولى إسماعيل.

مما تقدم نجد أن:

الأسرة السعدية بقيادة القائم بأمر الله السعدي لم تقرض نفسها على أهل السوس بجنوب المغرب الأقصى، وإنما تم اختيارها من قبل هؤلاء الذين اسندوا لها مقاليد أمورهم بمحض إرادتهم. كما كان لشرف الأسرة السعدية و سمعتها الدينية والعلمية الدور الكبير في تتويجها بالإضافة إلى تلك التزكية التي نالتها الأسرة من ابن المبارك وغيره من المرابطين كابن البركات التديسي وابن عمر المطغري.

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 215.

(2) المجهول، المصدر السابق، ص ص 65، 66.

(3) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 232.

(4) القشتالي، المصدر السابق، ص ص 96، 97.

(5) انظر: عن استرجاعها القشتالي، المصدر السابق، ص ص 114، 115.

(6) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج 8، المرجع السابق، ص ص 125، 126.

(7) نفس المرجع، ص 126.

كما أن أحد أهم مبررات مبايعة هذه الأسرة عن غيرها هو استعدادها لحمل راية الجهاد ضد البرتغاليين وأعوانهم المتحالفين معهم، وقيادة صفوف المجاهدين وحماية أهل المغرب على العموم وأهل الجنوب بصفة خاصة.

منذ بزوغ فجر الدولة السعدية على مسرح الأحداث بالمغرب الأقصى كان هدفها تحرير الأراضي المغربية من السيطرة الغربية، وحققت حركة الجهاد الإسلامي كل ما كانت تصبو إليه من نجاح و طموحات في إنهاء الوجود البرتغالي وحصره في أضيق نطاق ممكن، وجاءت معركة القصر الكبير لتضع نهاية مأساوية لكل الاحتلال البرتغالية في السيطرة الكاملة على كل الأراضي المغربية، و بذلك أعيد النظر في العلاقات المغربية الأوربية برمتها ويظهر ذلك جليا في عهد المنصور الذهبي.

تمكنت الدولة السعدية من خلال معركة واد المخازن من إلحاق الضربة القاصمة للبرتغاليين ما أدى إلى ظهور أولى إرهابات الأفول لأحد اكبر الإمبراطوريات الاستعمارية ووأولها في التاريخ.

بالرغم من تلك المكاسب الجمة للمغرب الأقصى نتيجة المعركة الكبرى، إلا أن المغرب لم يستغلها على أكمل وجه، يظهر ذلك من خلال عدم استكمال أحمد المنصور تحرير ما بقي من ثغور في يد البرتغاليين، نتيجة سياسته التي كانت مركزة بالدرجة الأولى نحو التوسع بالبلاد جنوبا في منطقة السودان الغربي.

الفصل الثالث: الدولة العثمانية و التصدي لاحتلال البرتغالي بمنطقة الخليج العربي خلال القرن 16م.

أولا : التوسع العثماني في المشرق العربي وصولا إلى الخليج العربي.

1. اسباب التوجه العثماني نحو المشرق العربي
2. القضاء على الصفويين (معركة تشاليدران)
3. القضاء على دولة المماليك (معركتي مرج دابق والريدانية)
4. انتقال الخلافة الاسلامية الى العثمانيين وموقف السلطان سليم من البرتغاليين
5. التوسع العثماني في العراق وأهمية البصرة في الخليج العربي
6. الدولة العثمانية في منطقة القطيف والإحساء 1550م

ثانيا: البحرية العثمانية ومشروع التصدي لاحتلال البرتغالي في الخليج.

1. الاستعدادات العثمانية للتصدي للبرتغاليين
2. حملة سليمان باشا الخادم
3. حملة بيري رايس
4. حملة الرايس مراك بك
5. حملة سيدي علي رايس
6. هجوم والي الاحساء العثماني مصطفى باشا على البحرين
7. فترة الهدوء
8. حملة علي بك على مسقط

الفصل الثالث: الدولة العثمانية و التصدي للاحتلال البرتغالي بمنطقة الخليج العربي خلال القرن 16.

تمهيد:

يعود الاهتمام العثماني بمنطقة الشرق العربي بصفة عامة ومنطقة الخليج على الخصوص، إلى زمن السلطان سليم الأول⁽¹⁾ وحروبه المشرقية ضد ممالك مصر والشام وصفوي إيران، إلا إن منطقة الخليج العربي بدأت تستأثر باهتمام العثمانيين حقا في العقدين الثالث والرابع من القرن السادس عشر.

والواقع أن النصف الثاني من القرن السادس عشر قد شهد تغيرات كبيرة في ميزان القوى في منطقة المشرق العربي على العموم، ومنطقة الخليج على الخصوص من خلال ذلك التقدم التركي إلى بغداد سنة 1534 م، ثم إلى البصرة لتضع بذلك الدولة العثمانية قدما لها في الخليج العربي من خلال السيطرة على ميناء البصرة (ثغر الهند) .

للتدلع بذلك مواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين لا نهاية لها، معظمها في القرن السادس عشر وتركزت في ثلاث مناطق هي: البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي، يأتي ذلك بعد أن أدرك البرتغاليين عقب معركة ديو عام 1509 م، أن وجود أي قوة إسلامية مهيمنة في البحر الأحمر من شأنه أن يشكل خطرا حقيقيا على تجارتهم في المحيط والخليج على حد سواء. انطلاقا مما سبق يمكن أن نطرح السؤال التالي: إذا كانت تخوف البرتغال من القوى الإسلامية كان تخوفا اقتصاديا تجاري فمالذي حمل الدولة العثمانية إلى التوجه إلى الشرق ومجابهة البرتغال بالخليج العربي وما طبيعة تلك الحملات العثمانية بالمنطقة وكيف كانت؟.

حسبي في هذا الفصل أن أبين للقارئ كيف وضع العثمانيون أولى خطواتهم بالشرق العربي، ثم العراق كونه إحدى أقطاعات الخليج ولاحتوائه على البصرة قاعدة ومنطلق الحملات العثمانية ضد البرتغال في المنطقة، مع استعراض لحملات العثمانيين في الخليج دون سواه تماشيا مع عنوان البحث.

(1) سليم الأول (ياوز) (875-926هـ / 1470 - 1520م)، وهو السلطان العثماني التاسع والذي اعتلى عرش الدولة العثمانية خلال الفترة 918 - 926هـ / 1512 - 1520م)، وكان يلقب بياوز وتعني الشديد أو القاطع نظرا لميله إلى سفك الدماء، وفي عهده انتقلت الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين، وفتح بلاد مصر والشام، ويعتبر سليم الأول أول سلطان عثماني حمل لقب الخليفة وقد دفن في استانبول في حاضرة جامع السليمية، انظر: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص 313، 223 ؛ مجموعة مؤلفين، المنجد في اللغة و الإعلام، مج1، ط29، دار المشرق، بيروت، 2008م، ص 308.

المبحث الأول: التوسع العثماني في المشرق العربي وصولاً إلى الخليج العربي

شهدت المنطقة العربية الإسلامية في شرق العالم الإسلامي في بداية القرن 16م موجة من الصراعات والخلافات تزامناً مع ظهور الغزو البرتغالي للمنطقة، فعند قدوم هذا الأخير بوحشيته التي رأينا انفجرت معه سلسلة معارك لا تقل عنه وحشية وهي الحروب الإسلامية التي قادتها القوى الكبرى آنذاك العثمانية والمملوكية و الفارسية، والتي بدل أن توجه كامل قواها نحو استئصال الجسم الدخيل ممثلاً في البرتغال، احتدم الصراع دمويًا بينها، فكانت الحروب الفارسية العثمانية التي انتهت - نسبياً - بموقعة جالدران ثم استحالة الصراع بشكل دراماتيكي عثماني مملوكي بين سنتي (1516-1518م) وهي نفس سنوات غزو البرتغال للخليج والبحر الأحمر. لتفرز موجة الحروب تلك فائزاً احتوى معظم أقاليم العرب وهو الدولة العثمانية.

المطلب الأول: أسباب التوجه العثماني إلى المشرق العربي

اختلف المؤرخون في ظاهرة التوجه العثماني نحو المشرق العربي عهد السلطان سليم الأول، وانحصرت آراؤهم في وجهات ثلاث:

1-الخطر البرتغالي:

يرى جمع من المؤرخين أن التحول العسكري العثماني نحو العالم العربي في أوائل القرن السادس عشر كان سببه تلك الأحداث العالمية التي وقعت حول أطراف العالم العربي شرقاً وغرباً ونقصد هنا بداية الزحف الاستعماري الأوروبي ممثلاً في دولة إسبانيا والبرتغال⁽¹⁾.

يأتي ذلك في محاولة من الدولة العثمانية الفتية التقدم بفتوحاتها نحو الوطن العربي لكي تصل إلى ميادين المواجهة تلك مع القوى الصليبية الجديدة⁽²⁾، من أجل حماية المنطقة العربية من الخطر الأوروبي والبرتغالي على وجه الخصوص، والذي بدأ يظهر حول المنافذ البحرية للمشرق العربي خاصة بعد أن حاول

(1) أحمد ياغي: العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1997م، ص31.

(2) محمد حسن العيدروس: التاريخ العسكري العثماني الثاني من 1512 إلى 1789 م، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2016، ص62.

العبور من مضيق باب المندب إلى البحر الأحمر بل و حاول الوصول إلى الحجاز لانتهاك حرماته المقدسة⁽¹⁾ متحالفا بذلك مع حكام الحبشة المسيحيين⁽²⁾.

حيث رأى العثمانيون وجوب وقف الزحف الصليبي البرتغالي بالمنطقة وحماية المقدسات الإسلامية و التي كان البرتغاليون يعتزمون السيطرة عليها⁽³⁾، من خلال دخول البحر الأحمر و اجتياح الحجاز عن طريق احتلال ميناء جدة وصولا إلى مكة المكرمة، و اقتحام المسجد الحرام و هدم الكعبة المكرمة و المدينة المنورة أين يمكن نبش قبر الرسول ﷺ، ثم السير قدما نحو تبوك وصولا إلى البيت المقدس لتصبح المساجد الثلاثة في قبضة البرتغاليين⁽⁴⁾.

ويضيف أصحاب هذا الرأي أن السلطان سليم الأول كان أكثر تفهما للخطر الدولي القادم على عكس الشاه إسماعيل الصفوي، وقد جاءت تخوفاته مما يمكن أن ينجر عن حصار القوتين الأيبيريتين لشرق المنطقة العربية و غربها⁽⁵⁾، في وقت كانت الدولة المملوكية غير قادرة على حماية البقاع المقدسة، في حين رأت الدولة الصفوية الشيعية أن تحالف البرتغاليين المسيحيين على حساب الدولة العثمانية⁽⁶⁾.

كما لا يخلو من وجه الدلالة البعد الاقتصادي في سياسة السلطان سليم الذي كان يمني النفس بتحقيق سيطرة عثمانية على طرق التجارة بين الشرق والغرب والوصول إلى الهند والقضاء على الاحتكار البرتغالي لتجارة التوابل من خلال سيطرتهم على طرق التجارة الجنوبية مع الهند⁽⁷⁾.

(1) احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ، المرجع السابق، ص 31.

(2) كان من جملة أهداف المخطط البرتغالي التحالف مع ملوك الحبشة من اجل تحويل مجرى النيل بحيث يصب في البحر الأحمر بدلا من البحر المتوسط، في محاولة منهم حرمان مصر من شريانها الحيوي، غير أن البرتغاليين أخفقوا في ذلك كون الحبشة كانت محاطة بممالك وإمارات إسلامية توحدت فيما بينها لدفع الأخطار الصليبية عنها، كما فشلوا في الاستيلاء على ميناء عدن الاستراتيجي بسبب قوة المقاومة والتحصينات القوية . انظر: محمد حسن العيدروس: التاريخ العسكري العثماني، ج2، المرجع السابق، ص ص 61، 62.

(3) زكريا سليمان بيومي: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين التحالف الماسوني الاستعماري و ضرب الاتجاه الإسلامي، ط1، دار عالم المعرفة، جدة، (د ت)، ص 59 .

(4) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، ج2، المرجع السابق، ص ص 23 147 .

(5) احمد ياغي العالم العربي، المرجع السابق، ص ص 31، 32.

(6) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري، ج2، المرجع السابق، ص 35.

(7) نفس المرجع، ص 29 .

وبعد الدخول العثماني لبغداد في الربع الأول من القرن السادس صارت الحاجة واضحة لإعادة إنعاش طرق التجارة من هذه الأراضي الجديدة وتقاطع طرق جنوب العراق مع الخليج العربي ومضيق هرمز ونعني هنا المساحات الخاضعة للحكم البرتغالي، ومن هنا كان لزاما على الدولة العثمانية ليس إخراج البرتغال ومقارعتة في الخليج فحسب بل والمحيط الهندي كذلك⁽¹⁾ .

ليزداد الاهتمام بمنطقة الخليج لاحقا، فبعد أن تمكن البوكيرك على رأس حملة برتغالية من السيطرة على الساحل العماني وجزيرة هرمز والبحرين تضاعف النشاط البرتغالي بالمنطقة خاصة بين عامي (1550 و 1551م) على اثر محاولتهم منع التغلغل العثماني بالمنطقة، بل ومحاولة طرد العثمانيين من المناطق التي وصلوا إليها، من خلال تخريب منطقة القطيف والإحساء، ووصل الأمر بهم أن قاموا بتأسيس علاقات مع شيوخ القبائل العربية الرافضة أو المناوئة للحكم العثماني في أطراف البصرة، وأخذوا في تشجيعهم للوقوف ضد الأتراك ومنعهم من التجارة بالمنطقة⁽²⁾.

2- المد الصفوي الشيعي على حدود الدولة العثمانية:

ويرى أصحاب هذا الرأي أن الأحداث و التطورات المحلية بأطراف المشرق الإسلامي كانت سببا كافيا لبروز العثمانيين بالمنطقة، ونقصد هنا بالتطورات الحاصلة قيام الدولة الصفوية الشيعية في إيران.

كان انتقال الدولة العثماني من الجبهة الأوروبية إلى المشرق العربي ثم فتح البلاد العربي في القرن السادس عشر نتيجة من نتائج الصراع والسياسي والمذهبي بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية، فظهر هذه الأخيرة على مسرح الأحداث كان من عوامل نقل العثمانيين من الشرق إلى الغرب⁽³⁾.

كما تعتبر السياسة الصفوية الإيرانية المتعلقة ببسط المذهب الشيعي في العراق واسيا الصغرى إحدى أهم الأسباب التي أدت بالدولة العثمانية إلى نقل جبهتها العسكرية من أوربا صوب المشرق العربي قصد حماية

(1) Mohamed Hameed Salman, **aspect of portuguese rule in the arabien gulf (1521-1622)**, being a thesis submitted for degree of phylosophy in the université of hull, december 2004, p . .

(2) فيصل عبد الله الكندري: **الملاح والجغرافي بيري ريس ت 1554** ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1999، ص 30

(3) الغالي غربي، المرجع السابق، ص 56.

المسلمين السنة بالمنطقة فهي ترى في نفسها حامية العالم الإسلامي السني⁽¹⁾. كما اعتبرت الدولة الصفوية الناشئة أن سلاطين بنو عثمان يشكلون عائقاً أمام خططهم التوسعية ما يعطينا فكرة عن طبيعة العلاقات العثمانية الفارسية في الفترة القصيرة القادمة⁽²⁾.

والحقيقة أن العلاقات تأزمت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية بعد أن برزت هذه الأخيرة كقوة لها ثقلها السياسي والديني والعسكري بالمنطقة⁽³⁾، وذلك كون تمركزها بين الدول الإسلامية الثلاث العثمانية والمملوكية والأوزبك⁽⁴⁾، جعلها تقف حاجزاً بين العثمانيين وأصولهم الشرقية⁽⁵⁾، ما فتح بدوره باباً من النزاعات الحدودية بين الدولتين بسبب تداخل الحدود، والقبائل التركمانية بين الجانبين والتي كانت تتقل ولأهلها بين الجانبين بحسب المصالح⁽⁶⁾.

وقد استطاعت الأسرة الصفوية بقيادة الشاه إسماعيل الصفوي الذي تبني حركة قومية دينية تمكن على إثرها من توحيد إيران على المذهب الشيعي بل وحاولت أن تتجاوز حدود منطقتها إلى البلاد المتاخمة لها، نقصد هنا منطقة العراق التي غزاها إسماعيل الصفوي عام 1508م، نظراً لما للعراق من قيمة قدسية عند الشيعة فهم يعتبرونه قبلة لهم لاحتوائه على مقابر الأئمة الشيعة في كربلاء والنجف والتي يطلق عليها اسم المزارات المقدسة⁽⁷⁾.

(1) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني، ج2، المرجع السابق، ص40.

(2) علي إبراهيم الدرويش، المرجع السابق، ص 118.

(3) فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 243.

(4) الأوزبك نسبة إلى أوزبك بن قطاي القان بن القان، وهي منطقة محصورة بين بحر القسطنطينية إلى مدينة البلغار، تمكن هؤلاء الأوزبكيون بقيادة الشيبانيون أقوى قبائلهم من مد نفوذهم إلى مناطق خراسان، كما تمكنوا من السيطرة على القسم الشرقي من الإمبراطورية التيمورية في سمرقند وخوارزم و مدينة هراة خلال الفترة الممتدة بين 1504-1507م، واتجه والي خراسان في بلاد فارس، جمعت الأوزبك مع الصفيين علاقات عدائية عكس العثمانيين الذي تعاونوا معهم. انظر: احمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، تح احمد حطيط و فهمي سعد، مج3، ط1، دار الكتب، بيروت، 1992م، ص ص 121، 123.

(5) علي إبراهيم الدرويش، ص ص 111، 112.

(6) محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص 83.

(7) محمد دراج: الدخول العثماني إلى الجزائر و دور الإخوة بربروس 1512م 1543م، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 15 ؛ ويسمى البعض العتبات المقدسة وهي المزارات الرئيسي للشيعة يفدون إليها من أنحاء العالم الإسلامي للتبرك بها وهي ثلاث مزارات الأولى قبر علي كرم الله وجهه بالنجف، و الثانية قبر الإمام الحسين بن علي في كربلاء و الثالثة هي الكاظمية لاحتوائها قبور الأئمة الشيعة كالإمام السابع الإمام موسى بن جعفر، و الإمام التاسع و هو حفيده الإمام محمد بن علي. انظر: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص ص 103، 104.

كما استباح الشاه إسماعيل قدسية السنة من خلال الكثير من الإجراءات الاستفزازية، فأمر أتباعه بهدم قبور الأئمة المسلمين وعلى رأسهم الإمام المبجل " أبو حنيفة النعمان"⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة المملوكية بمصر قد أدركت خطورة التوسع الشيعي هي الأخرى، ومنافسة الشاه لسلطين مصر في المشرق العربي، وظهرت بوادر إعداد حملة عسكرية استعدادا للتصدي لها الخطر، إلا أن الظروف السياسية الصعبة التي كانت تمر بها الدولة المملوكية نتيجة نشاط الأسطول البرتغالي في السواحل الإسلامية وغلقه البحر الأحمر والخليج العربي بهدف تحويل التجارة حال دون القيام بمناورات عسكرية بأي شكل⁽²⁾.

كما أن سياسة إسماعيل الصفوي الاستفزازية للدولة العثمانية من خلال استقطابه للفارين من الحكم العثماني واعتبارهم رعاياه لا يسلمهم جعلت السلطين يكون كل الحقد للدولة الصفوية الفتية، يأتي ذلك بعد أن قام لشاه بمساندة الأمير مراد بعد هزيمته أمام عمه سليم الأول وتحريضه عليه⁽³⁾.

أما مذهبيا فقد كان تبني الصفويين للمذهب الشيعي بالاعتماد على خلايا في الأناضول والذي تعتبره الدولة العثمانية مسرعا لها، أكثر العوامل إثارة لحفيظة العثمانيين وعزمهم وضع حد لطموحات هذه الدولة⁽⁴⁾، وواحدا من أكثر ما حفز السلطان سليم على نقل الجبهة العسكرية نحو المشرق، ولم يكتف إسماعيل بنشر مذهبه فقط بل حاول من خلال الأقلية الشيعية المتواجدة بجسم الدولة العثمانية أن يبيت نار الفتنة عن طريق تحريض هؤلاء من اجل القيام بثورات ضد الحكم العثماني السني⁽⁵⁾.

(1) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني، ج2، المرجع السابق، ص 40؛ وهو الإمام أبو الحنيفة النعمان بن ثابت الكوفي الفارسي (80- 150هـ/699-767م)، وهو احد الأئمة الأربعة المجتهدين عند أهل السنة، ولد في الكوفة و درس فيها و أفنى، وهو أول من فصل الفقه إلى أبواب وأقسام، وقد اختارت الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الثاني الحنفية مذهباً رسمياً للدولة. انظر: احمد صدقي علي الشقيرات، معجم شيوخ الإسلام في العهد العثماني 1425 1922م، مج 1، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2014، ص ص 78، 79؛ مجموعة مؤلفين؛ المنجد في الأعلام، المرجع السابق، ص ص 18، 19.

(2) سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2، دار النفائس لبنان بيروت، ص155.

(3) عزلتو يوسف أصفاف: تاريخ سلاطين بنو عثمان منذ نشأتهم إلى الآن، تق محمد زينهم، محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص، ص31، 32.

(4) الغالي غربي، المرجع السابق، ص 56.

(5) يلماز أوزتونا، ج1، المرجع السابق، ص 203.

وكان من اثر ذلك أن قامت فتنة في السنة الأخيرة من حكم السلطان بايزيد الثاني⁽¹⁾ غير أن ابنه سليم استطاع إخماد الفتنة بعد أن ارتكب مذبة في حق هؤلاء وبادله إسماعيل الصفوي الفعل بان اضطهد السنة المتواجدين بأرضه و تطورت المذابح بين الطرفين و ازدادت وصولا إلى معركة تشالديران عام 1514 م.

وبتولي سليم الأول قيادة السلطنة العثمانية أخذت العلاقات بين العثمانيين ونظرهم الصفويين تأخذ في الفتور، يظهر ذلك جليا عقب اعتلاء السلطان سليم العرش، إذ قدم لتهنئته سفراء البندقية، والمجر ومصر وروسيا لتهنئته بهذه المناسبة في حين غاب السفير الصفوي، فلاح في الأفق بوادر حرب ستقع بين البلدين⁽²⁾.

والواقع أن نظرة السلطان سليم العدائية لم تقتصر على الصفويين وحدهم بل وشملت دولة المماليك أيضا، ففي حين كانت الدولة الصفوية تنشر المذهب، وتسعى لإضعاف الدولة العثمانية عن طريق الفوضى والإرهاب، كان السلطان الغوري يستقبل في بلاطه الثائرين والفارين من وجه السلطان ومن ثم كان لزاما أن يقع الصدام بينه وبين الشاه من جهة وبينه وبين الغوري من جهة أخرى⁽³⁾.

ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق رغبة الدولة العثمانية في الزعامة الإسلامية، وتخوفها من قيام حلف صفوي مملوكي من شأنه أن يعصف بفكرة الزعامة الإسلامية خاصة وأن الدولة الصفوية أبدت نيتها حتى في التحالف مع القوى المسيحية⁽⁴⁾.

3- نظرية التشبع العثماني:

ويرى أصحاب هذا الرأي أن الدولة العثمانية قد وصلت حد التشبع في فتوحاتها الغربية نحو أوروبا بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان لزاما عليها في بداية القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة

(1) بايزيد الثاني ابن محمد الثاني و هو ثامن السلاطين العثمانيين ولد عام (818 هـ 1446 م) تولى مقاليد السلطة عام (886 هـ 1481م) و عمره 35 سنة، عرف بتسامحه ورقة قلبه عزله الانكشارية، توفي سنة 918 هـ 1512 م عن عمر يناهز 67 عاما دام حكمه اثنان وثلاثون سنة، للمزيد انظر: عزلتو يوسف أضاف، المصدر السابق، ص 53، 55 ؛ مجموعة باحثين، المنجد في الأعلام، المرجع السابق، ص 109.

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 244.

(3) سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، المرجع السابق، ص 156.

(4) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 83.

للنشاط و التوسع، أي بعبارة أخرى انه كان من المتعذر على الدولة العثمانية أن تتوغل بأوروبا بعد المدى الذي وصلت إليه جيوشها⁽¹⁾.

وقد لقي هذا الطرح رفضا من لدن بعض الباحثين كون السلطان العثماني سليمان بن سليم قد أوغل في فتوحاته بالقارة الأوربية فاستولى على بلغراد واكتسح المجر ووصل إلى أسوار فيينا، ليواصل خلفاؤه من بعده عملية الفتوحات تلك⁽²⁾.

المطلب الثاني: القضاء على الصفويين (معركة تشالديران):

إن كانت العلاقات العثمانية الأوربية عهد السلطان سليم الأول قد عرفت نوع من الهدنة والاستقرار فإن الوضع كان مختلفا في علاقات سلاطين بنو عثمان مع قوى العالم الإسلامي كدولة المماليك بمصر والدولة الصفوية بإيران.

والواقع أن العلاقات العدائية والمضطربة بين الدولة العثمانية وجارتها الصفوية إلى زمن السلطان بايزيد الثاني، إلا أنها و على اضطرابها لم تصل الدرجة الدموية التي وقعت عندما تولى ابنه السلطان سليم زمام الأمور خلفا لوالده، إذ جعل من أولوياته القضاء على الخطر الصفوي المتربص على حدود دولته.

وهنا تجدر الإشارة إلى حقيقة مهمة في العلاقات الصفوية العثمانية إبان حكم بايزيد الثاني(1481-1516م)، وهي انه وبالرغم من قوة الجيش العثماني في تلك الحقبة إلا انه لم يكتسح الصفويين، مبجلين بذلك البعد الإسلامي للدولتين، بل وكاد أن يقوم تعاون بين الدولتين الصفوية والعثمانية في مستهل القرن 16م (1504م)، لولا تدهور العلاقات سريعا بين الجانبين⁽³⁾، وصولا إلى معركة الحاسمة التي قادها السلطان سليم.

(1) احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص27.

(2) نفس المرجع، ص ص 27، 28.

(3) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص83.

1- مقدمات المعركة:

حاولت الدولة الشيعية الفتية عقد تحالف مع دولة المماليك ضد العثمانيين وكانت حجة الشيعة في ذلك انه في حالة عدم التحالف فان الدولة العثمانية لن توفر ممالك مصر والشام⁽¹⁾ ألا أن هؤلاء التزموا الحياد بين القوتين، ذلك لأنهم راو أن الخطر الشيعي لا يختلف عن نظيره العثماني فأى كان المنتصر لن يدخر جهدا في سبيل التوسع على حساب أراضي المماليك في مصر والشام. كما حاول الصفويون إيجاد حلف مع القوى الأوروبية الحاكمة على العثمانيين وعلى رأسهم البندقية فعرض إسماعيل الصفوي على البنادقة مشروعه الرامي بالقضاء على الدولة العثمانية وانه يترتب على الدول الأوروبية أن تتحرك في الروملي مقابل أن تكون لها مصر بينما يستأثر هو بحكم الشام والأناضول⁽²⁾.

ومع ذلك استطاع سليم أن يؤمن الجبهة الأوروبية بعقد الكثير من المعاهدات الدبلوماسية بوجه خاص مع البندقية والمجر⁽³⁾، كما نجح في عقد تحالف مع المماليك في مصر ضد الصفويين في عام 1513 م بالرغم من ذلك العداء المستحكم بين الطرفين مستغلا ارتياب المماليك من اضطهاد إسماعيل الصفوي للسنة في العراق، بالإضافة إلى خوفهم على أملاكهم ببلاد الشام⁽⁴⁾، مما أتاح الفرصة للسلطان العثماني في أن يوجه كل قواته صوب الجبهة الصفوية⁽⁵⁾.

ويظهر أن سليم اعتمد سياسة عقد الأحلاف لعزل الدولة الصفوية فنجده يعقد حلفا آخر مع سلطان الدولة الأوزبكية، وقد اختلف هذا الحلف عن سابقه كونه ينص على شن عبيد الله الأوزبكي هجوما على الصفويين من ناحية الشرق، بمجرد أن تصل الجيوش العثمانية إلى أسيا الوسطى⁽⁶⁾، كم أمر السلطان بفرض حصار اقتصادي على الصفويين انطلاقا من إغلاق الحدود بينهما⁽⁷⁾.

(1) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981، ص 189 ؛ محمد دراج، المرجع سابق، ص 15.

(2) محمد سهيل طقوس، تاريخ العثمانيين، المرجع السابق، ص 156 .

(3) احمد عبد الرحيم مصفى، المرجع السابق، ص 79.

(4) محمد سهيل طقوس، تاريخ العثمانيين، المرجع السابق، ص 157.

(5) احمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 79.

(6) محمد سهيل طقوس، تاريخ الدولة الصفوية، المرجع السابق، ص 75.

(7) سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ط1، دار الشروق، عمان، 1997م، ص ص 81، 82.

قام بعدها السلطان سليم و كخطوة متقدمة نحو تحقيق هدف القضاء على الصفويين باستصدار فتوى من شيخ الإسلام⁽¹⁾ " صاري جوريز" أعلي مرجع ديني في الدولة العثمانية، تخرج الشاه إسماعيل وأتباعه من الدين الإسلامي⁽²⁾، ولذا فإن من الضرورة محاربتهم⁽³⁾، ومما جاء فيها "إن طائفة القزلباش"⁽⁴⁾ التي يترأسها إسماعيل بن أردبيل استخفت بشريعة نبينا ﷺ وسنته والدين الإسلامي ولأن هذه الطائفة كافرة وملحدة ومن أهل الفساد إذن ينبغي قتالها والقضاء عليها"⁽⁵⁾، وانطلاقاً من هذه الفتوة ارتكب السلطان سليم مذبة في أتباع المذهب الشيعي المتواجدين بشرق الأناضول في عام 1514م⁽⁶⁾، واتبعه بإعلان العرب على الدولة الصفوية⁽⁷⁾.

2- أحداث المعركة :

- (1) يطلق لقب شيخ الاسلام في الدولة العثمانية على الشخصية الثالثة في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم، وقد كان يتمتع بصلاحيات واسعة فهو مستشار السلطان وند منافس للصدر الأعظم، فضلاً عن كونه أعلى مرجع شرعي يصدر فتوى، وقد وصل الأمر به أن أصبح هو من يبايع السلطان الجديد، وقد تأخر ظهور منصب شيخ الاسلام عن ظهور مؤسسة مشيخة الاسلام التي تأسست في 828هـ/1425م أطلق عليه في البداية اسم المفتي، ويعتبر أبو السعود أفندي أشهر شيوخ الاسلام في الدولة العثمانية. انظر: احمد صدقي علي الشقيرات، المرجع السابق، ص ص116، 117.
- (2) روبير مونتران، تاريخ الدولة العثمانية، تر بشير السباعي، ج1، ط1، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع، القاهرة، 1992، ص209.
- (3) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، سلسلة دراسات عثمانية 1، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1994، ص 24.
- (4) القزلباش: وهي كلمة عثمانية في الأصل تتكون من لفظين قزل وتعني اللون الأحمر وباش التي تعني الرأس ومعناها أصحاب الرؤوس الحمراء، وقد أطلقت هذه التسمية لتمييز الجيش الصفوي الذي كان يضع العمام على الرؤوس، انظر: محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية و ذيله الطائف الربانية على المنح الرحمانية، تح ليلي الصباغ، ط1، دار البشائر للطباعة و النشر، دمشق، 1995م، ص 57.
- (5) احمد فؤاد متولي وفهمي هويدا محمد: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى العصر الذهبي، دار إيتراك، القاهرة ، 2005، ص 185.
- (6) قيل إن عدد الذين قتلوا في هذه المذبحة قد بلغ عدد أربعين ألف، وقد شبهت هذه المعركة بمذبحة (سان برتليمي) بفرنسا عام 1572م. انظر: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ص 189، 190.
- (7) عبد الحفيظ دحدح، " الصدام العثماني الصفوي في تشاليدران (الآثار والدوافع)"، دورية كان التاريخية، العدد 25، الكويت، 2014، ص 115.

اجتاز الجيش العثماني قونية وقيصرية وأبحر الأسطول إلى طرابزون وترك السلطان أربعين ألف من الجند خلفه للمحافظة على الحدود بين سيواس وقيصرية، واتجه نحو تبريز⁽¹⁾، والتقى الجيشان في صحراء تشالديران⁽²⁾ في 23 أوت 1514م حيث وقعت معركة عنيفة انتهت بانتصار العثمانيين وفتحت مدينة تبريز أبوابها للسلطان العثماني أين استولى السلطان سليمان على خزائن الشاه وأرسلها إلى اسطنبول⁽³⁾.

والواقع أن دخول العثمانيين العاصمة تبريز لم يكن مفروشا بالورود فقد تعرض الجيش العثماني لخسائر كبيرة مقابل ذلك النصر الكبير، فبعد أن حمي وطيس المعركة { قتل من بني عثمان نحو من ثلاثين ألفا...⁽⁴⁾، إلا أن ذلك لم يمنع العثمانيين من الاستماتة في حربهم فكادوا يأسرون الشاه لولا أن تمكن جنوده من من إنقاذه⁽⁵⁾ ففر إلى دواخل إيران ووقع الكثير من جنده وقواده في الأسر بما فيهم إحدى زوجاته⁽⁶⁾.

بعد دخول السلطان سليم إلى العاصمة قرر استئناف الحرب فأمر الجند بملاحقة الشاه إسماعيل الذي فر إلى الجبال، فرفض الانكشافية التقدم بحجة البرد ونقص المؤن⁷، فاضطر السلطان للعودة إلى الأناضول منتظرا فصل الربيع فالعودة إلى استانبول تاركا مهمة استكمال فتح بلاد فارس خاصة الجزء الشرقي إلى قادة جنده.

3- نتائج المعركة:

ترتب عن انهزام الصفويين أمام الدولة العثمانية مجموعة من النتائج نذكر منها:⁽⁸⁾

- (1) يقول الحموي أنها بكسر التاء وسكون الباء و كسر الراء، و هي أشهر مدن أذربجان و تقع في الشمال الغربي من إيران، بالقرب من الحدود التركية. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 2، دار البصائر، بيروت، (دت)، ص 13.
- (2) هي مدينة في إيران تقع شرق مدينة تبريز.
- (3) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، المرجع السابق، ص 190 ؛ محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني، ج 2، المرجع سابق، ص 54.
- (4) ابن إياس، المصدر السابق، ج 4، ص 398.
- (5) إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، تق حسن الزين، ط 1، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988م، ص 67.
- (6) J. Hammer histoire de l'empire de Ottoman depuis son origine jusqu' a nos jours traduit de l'allemand par (1494 1520) , V4, J.J.hallert, Impirmerie de renridupuy, paris, S P, P 195.

- محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 190.

⁷ سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، المرجع السابق، ص 159.

(8) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، المرجع سابق، ص 159.

- سيطرة العثمانيين على الأناضول الشرقي و الجنوبي باستثناء القسم الواقع تحت حكم المماليك.
- خمود المشكل الصفوي العثماني مدة عشرين عاما يأتي ذلك كون الضربة التي تلقتها الدولة الصفوية الإيرانية لم تكن قاضية حيث ظلت إيران على تشيعها.
- انضمام السنة الذين كانوا منضوين تحت الحكم الشيعي إلى حمى الدولة العثمانية.

4- الأحداث بعد المعركة:

أدى انهزام القوة الصفوية أمام نظيرتها العثمانية إلى انحصار الأولى في المنطقة لمدة تسعة عشر سنة، كما أدى الحدث إلى تغيير واضح في الخارطة السياسية بين الدولتين حيث أصبح المجال مفتوحا أمام الأتراك العثمانيين لإخضاع الأقاليم المتبقية⁽¹⁾، ونقصد هنا الأناضول الشرقي وشمال العراق، والمنطقة الشرقية للجزيرة العربية⁽²⁾، فأدخل السلطان سليم أرمنيا⁽³⁾ سنة 1514م والكرج وكردستان تحت نفوذه، وقد جاء هذا بعد أن عدل السلطان في سياسته القتالية ورأى أن القضاء على الصفويين سيأتي بفرض حصار اقتصادي شديد من خلال السيطرة على تلك المناطق⁽⁴⁾.

بالرغم من كل تلك الانتصارات العثمانية إلا أن الصراع في الحقيقة لم يحسم بعد بشكل نهائي، فقد ظل كل طرف يتحين الفرصة للقضاء على الآخر، وبعد عودة السلطان سليم الاضطرابية إلى أماسيا استطاع

(1) دحدح عبد الحفيظ، المرجع السابق، ص 116.

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 246.

(3) تقع أرمنيا في آسيا الوسطى، يحدها من الغرب المرتفعات المركزية الأنضولية، وإلى الشمال الغربي سلسلة جبال اللونتيك والمنحدرات الغابية للأسيستان، ومن الشمال تحدها جورجيا، ومن الشرق أذربيجان، وجنوبا سلسلة جبال طوروس، والعراق من الجهة الشرقية الغربية، و عليه فهي تقع في الحدود بين أوربا و آسيا دخلت أرمنيا للمرة الأولى في الحكم العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح 1473م، ثم فيعهد سليم 1514م، عانت أرمنيا من الحروب العثمانية الفارسي التي كانت تجري على أراضيها، و أرمنيا حاليا تتنازع مع أذربيجان حول إقليم كراباخ، و تعرضت إلى مذابح و حروب مع الدولة العثمانية في الفترة المعاصرة . للمزيد أنظر: تقية حنا منصور، الأرمن والدولة العثمانية، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 2016م، ص ص 27، 31 ؛ مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج1، (د ط)، دار رواد النهضة، لبنان، (د ت)، ص ص 224، 226.

(4) سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، المرجع السابق، ص 160.

الشاه إسماعيل التسلل إلى تبريز وشرع في حركة إصلاحية شملت تنظيم الجيش لإعادة واسترجاع بعضا مما فقده⁽¹⁾.

وكتنفيد لذلك أرسل الشاه قوة إلى ديار بكر لإخضاعها وإعادتها إلى الحظيرة الصفوية، لكن أهل المنطقة استجدوا بالسلطان سليم الأول الذي لبي النداء وأرسل قوة عسكرية بقيادة " إدريس البدليسي "⁽²⁾، والذي تمكن من حشد الأمراء الأكراد وإلحاقهم بقواته، وبذلك تمكن العثمانيون بفضل الأساليب الدبلوماسية التي نفذها البدليسي مع الأقطاب الاجتماعية من استقطاب المدن في تلك النواحي و التي راحت تثور على الحكم الصفوي مثل ديار بكر⁽³⁾ وبديليس وأزرن وبالو وأناق ووصلت الانتفاضة حتى كركوك وأربيل⁽⁴⁾.

كما شهدت المنطقة صداما صفوي عثماني آخر بالقرب من بلدة قوج، حين تعرضت لحصار عام 1516م، واستطاعت على أثره القوات العثمانية من جديد أن تؤكد تفوقها على نظيرتها الصفوية في هذه المعركة، والتي بانتهائها سيطر العثمانيون على إقليم بلاد الجزيرة وشمال غرب العراق، وكانت الموصل⁽⁵⁾ أول منطقة عربية تدخل تحت لواء الدولة العثمانية⁽⁶⁾.

تتطع بعدها السلطان سليم الأول للقضاء على الصفويين نهائيا عن طريق شن حملة تهدف إلى القضاء على الدولة الصفوية من جهة، وضم باقي مناطق العراق الأوسط والجنوبي من جهة أخرى، ما يعطينا

(1) نفس المرجع، ص 161.

(2) مؤرخ كردي عمل في بلاد الأق قوينلو ثم توظف في البلاط العثماني في عهد السلطان بابيزيد الثاني واستمر في خدمة ابنه السلطان سليم، والذي رأى فيه القائد العسكري لدوائه وقدرته على التفاوض، فقاد وشهد عديد المعارك ضد الصفويين والمماليك. للمزيد أنظر: دحدح، العلاقات العثمانية الصفوية، المرجع السابق، ص 104.

(3) وهي مركز القسم الشمالي من الجزيرة الفراتية أو منطقة كردستان، وقد فتحها العرب المسلمين في القرن الأول الهجري السابع ميلادي والقوا عليها اسم ديار بكر نسبة إلى بكر بن وائل احد أهم قبائل العرب، وعندما فتحها العثمانيون سنة 1515م أسسوا فيها ولاية ديار بكر وكانت تضم 12 لواء، وفي نهاية عهد الدولة العثمانية أصبحت تتكون من 3 ألوية، أما المدينة فهي مدينة تركية شرق الأناضول انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 760، 769، 770 ؛ مجموعة مؤلفين، المنجد في اللغة والأعلام، المرجع السابق، ص 251.

(4) سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، المرجع السابق، ص 160.

(5) الموصل بفتح الميم وكسر الصاد وهي مدينة في شمال غرب العراق. يصفها الحموي بأنها إحدى قواعد بلاد الإسلام و محط الركبان، باب العراق ومفتاح خرسان ومنها يقصد إلى أذربجان. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 5، دار البصائر بيروت، 1977م، ص 223.

(6) سيار الجميل، المرجع السابق، ص 86 .

نظرة عن مدى حرص السلطان سليم الأول على تصفية الوجود الصفوي، إلا أن سياسة الشاه المرنة وعدم اعتماده الصدام المباشر حال دون تحقيق ذلك.

كان من اثر ضم الأناضول الشرقية نهائيا إلى الإمبراطورية العثمانية نتائج إستراتيجية اقتصادية مهمة، منها أنها حمت الأناضول الشرقي من الغزاة القادمين من أواسط آسيا، كما سيطر من خلالها العثمانيون على الخطوط الثلاث: تبريز ايروان قره باغ عام 1515 م، وخط أماسيا كماخي 1515م، و خط ديار بكر ماردين⁽¹⁾ الموصل عام 1516 م، ما يعني أن الدولة العثمانية قد وضعت يدها على طرق نقل الحرير الإيراني التي تصل تبريز بحلب أو تبريز ببورصة ناهيك عن تأمين حدودها الشرقية من أي تدخل من الجانب الصفوي.⁽²⁾

بتأمين الدولة العثمانية لحدودها الشرقية و الجنوبية الشرقية نسبيا على اثر انهزام الدولة الصفوية الفتية في معركة تشالديران عام 1514م، أصبح بمقدور السلطان سليم التوجه نحو منطقة الخليج العربي مباشرة ومقارعة البرتغاليين هناك، إلا أن ممالك مصر والشام وقفوا حجرة عثرة في طريقه خاصة بعد تأزم العلاقات بين البلدين⁽³⁾.

المطلب الثالث: القضاء على المماليك

1- مقدمات الصراع:

عندما كان السلطان سليم عائدا إلى استانبول عقب حملته على الصفويين، وجه السلطان قواته صوب إمارة ذي القادر⁽⁴⁾ بين عامي (1514-1515م)، وتمكنت من قتل حاكم الإمارة واستولت على العاصمة ألبستان ألبستان التي أضحت في حكم الدولة العثمانية بعد أن كانت تابعة للمماليك⁽¹⁾.

(1) بلدة تركية في جنوب شرق الأناضول، و هي قريبة من الحدود السورية.

(2) عباس إسماعيل الصباغ: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية الحرب والسلام بين العثمانيين و الصفويين، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2011، ص 134.

(3) فتحة النبراي، محمد نصر مهنا، المرجع السابق، ص 97.

(4) وهي إمارة تركمانية أنشأت سنة 1339م في ضواحي معرش والبستان، وتنسب إلى مؤسسها الحقيقي زين الدين قرجا بن ذي القادر، والبستان، وكانت إمارة حاجزة بين العثمانيين و المماليك، ويبدو أن الإمارة لم تكن تنبذ بالطاعة لأي طرف إلا أنها كانت اسميا تحت الحكم المملوكي إلى غاية استيلاء العثمانيين عليها سنة 1517م، انظر: احمد فؤاد متولي: الفتح العثماني لمصر

ويظهر أن الدولة العثمانية قامت بذلك الإجراء كون حاكم الإمارة "علاء الدين" الخاضع لحكم المماليك كان قد رفض مساعدة العثمانيين في حربهم على صفوي إيران، ما جعل دولة المماليك تتوتر وتأخذ حذرهما مما هو قادم، ومما زاد في التوتر بين الدولتين المملوكية والعثمانية هو تأكد الأخيرة من وجود حلف صفوي مملوكي أكدته المخابرات التركية عقب حصولهم على وثيقة التحالف⁽²⁾.

تزامن ذلك الاضطراب في العلاقات بين القوتين العثمانية والمملوكية مع ضعف الثانية التي كانت في أيامها الأخيرة، ولما تداعت تلك الأسباب على السلطان سليم الأول فضل السلطان التوجه نحو مصر في الشام والقضاء على آخر قوة تحول بينه وبين الجلوس على السيادة السياسية والروحية للعالم الإسلامي.

ويبدو أن الصراع العثماني الصفوي هو الذي جعل السلطان سليم يقوم بالتفكير في الاستيلاء على الأراضي المملوكية لأسباب إستراتيجية، كونه في حال سيطرته على موانئ "كيليك"، من شأنها أن توفر له طريقا بحريا يسهل عليه تمويل حملاته القادمة ضد الصفويين بصورة أحسن مما كان عليه الحال خلال الحرب السابقة⁽³⁾، فضلا عن حماية ظهر الدولة في حال أعاد الكرة على الفرس⁽⁴⁾.

ويعطينا "ابن إياس" في مؤلفه "بدائع الزهور" فكرة عن ذلك التخوف الذي بدا جليا على محيا السلطان المملوكي "قانصوه الغوري" من القوة العثمانية عقب انتصار هذه الأخيرة على الجبهة الصفوية الفتية في معركة تشالديران، فيقول: "جاءت الأخبار من بلاد الشرق أن سليم شاه.... وقع بينه وبين إسماعيل الصفوي وقعة مهولة.... وفي آخر الأمر أن الصوفي انكسر كسرة قوية.... وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصوفي من ممالك الشرق فلم يرسل السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر وكذلك الأمراء اخذوا حذرهم من ابن عثمان.... لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان"⁽⁵⁾، (يقصد السلطان المملوكي).

وبلاد الشام، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1995، ص ص73، 75؛ القرمانلي، المصدر السابق، ص 102؛ يلماز

أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، المرجع السابق، ص 77.

(1) أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني، المرجع السابق، ص 127.

(2) محمد حرب، المرجع السابق، ص 25.

(3) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 83.

(4) محمد حرب، المرجع السابق، ص 25.

(5) ابن إياس، المصدر السابق، ج4، ص 398.

وقد يعزى ذلك التخوف من السلطان سليم، كون قانصوه الغوري لم يقدم المساعدة والدعم اللازمين للدولة العثمانية في حربها مع العدو المشترك ممثلاً في الدولة الصفوية، خشية انتصار العثمانيين الذين لن يوفروه ودولته في الشام ومصر، في حال انتصارهم، إذ سرعان ما ستتحول أنظارهم إليها .

مهما يكن من أمر فقد استصدر السلطان سليم من شيخ الإسلام " علي أفندي " ⁽¹⁾ فتوى شرعية تجيز الحرب ضد المماليك المسلمين، وأعلن العثمانيون أن السبب الظاهري للحرب إنما هو مساعدة أهل الشام، ومصر ضد الدولة الصفوية من أجل الحصول على الشرعية ⁽²⁾.

2- معركة برج دابق :

التقى الجيشان الإسلاميان العثماني والمملوكي بسهل مرج دابق ⁽³⁾ في شهر أغسطس سنة 1516م، واشتبكا في احد اعنف المعارك بالمنطقة والتي دامت قرابة ثمان ساعات، لينتهي الاحتدام بين الطرفين بانتصار العثمانيين بعد مقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري ⁽⁴⁾، فخضعت بذلك حلب ثم دمشق ودعي للسلطان سليم

(1) وهو المولى علي(علاء الدين)بت احمد بن محمد الجمالي الأقسرابي بن محمد بن محمد التبريزي بن محمد بن فخر الدين الرازي، ويصل نسبه إلى جلال الدين الرومي، اخذ العلم من علماء القسطنطينية فدرس العلوم العقلية والشرعية، عين شيخاً للإسلام وفتي الدولة عام 1503م في عهد بايزيد و استمر في عهد ابنه سليم و كان من ابرز ما شهدته و أفتى فيه الحروب العثمانية المملوكية، توفي على أفندي في 1525م و دفن في حظيرة زيريك. انظر: احمد صدقي الشقيرات، معجم شيوخ الإسلام، المرجع السابق، ص 310، 318.

(2) طرح سؤال الفتوى على الشكل التالي: إذا أراد قائد مسلم أن يستأصل الفرس بمساعدة جماعة هم أيضا يعانون من طاغية، و منع هذا القائد من ذلك، فهل يكون مباحا قتل هذا الطاغية و استباحة أملاكه فكان الجواب بنعم و ارتكز جواب المفتي على حديث من ساعد ملحداً فهو ملحد. و جاء ت الفتوى الثانية مشابهة للأولى : إذا كان شعب يدين بالإسلام و يقصد أهل الشام و مصر يفضل أن يخل أولاده بعائلات غير مسلمين الجركس على أن يخلهم بالمسلمين فهل يحل قتله و كان الجواب نعم. و جاءت الفتوى الثالثة فكانت تنص على انه إن كان هناك أناس تحت حجج ظاهرية لتكريم الإسلام الذي يعتنقونه يسكون الشهادة على النقود المعدنية و هم يعرفون أنها ستقع في يد النصارى و اليهود و أصحاب الفرق الاثنتين و سبعين و ذا - لا قدر الله - دخلوا بها دورات المياه و هم غير طاهرين فكيف يكون الحال ؟ فجاء الجواب : إذا لم يسمحوا بالدفاع فان قتالهم في محله. انظر: احمد الشقيرات، معجم شيوخ الإسلام، المرجع السابق، ص 315، 316.

(3) و هي إحدى قرى بلدة عزاز قرب حلب السورية، ومرج دابق هو تسمية للمرج الذي كان ينزله بنو مروان الأمويون، و فيه دفن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي سنة 98 هـ ، للمزيد انظر، المحامي المرجع سابق، ص 192 . وانظر: محمد عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان بيروت، 1984م، ص 231.

(4) اختلفت الروايات و كثرت الإشاعات حول مقتل الغوري فبعضها ذكر انه انتحر أثناء انهزام الجيش المملوكي أمام العثمانيين، حيث تناول السم عندما سماعه الخبر و خر مقتولاً من على جواده، و هناك رواية أخرى تقول بان السلطان الغوري أصيب بمرض الخفقان فهرب خلاصاً بنفسه و مات وهو ينزل على جواده، و قيل أصيب بفالج عند سماعه نبأ قدوم العثمانيين فتوفي. انظر: محمد

في المساجد وسكت العملة باسمه⁽¹⁾. كما خضعت مدن حلب ولبنان وفلسطين وصولاً إلى مصر عبر صحراء سيناء.

3- الصدام العثماني المملوكي في الريدانية بمصر:

كان لزاماً على السلطان سليم خوض جولة ثانية للقضاء التام على المماليك و تحقيق طموحه في توحيد العالم الإسلامي تحت راية الدولة العثمانية، خاصة إذا علمنا انه في الوقت الذي كان يتجه فيه السلطان نحو مصر فوض المماليك "طومان باي"⁽²⁾ سلطاناً عليهم خلفاً لقانصوه الغوري⁽³⁾.

ظهر السلطان العثماني سليم في هذا المرحلة ميالاً إلى التفاوض بدل الصدام العسكري المباشر يظهر ذلك جلياً في تلك الاقتراحات التي حملها خطابه إلى سلطان المماليك طومان باي و الذي جاء فيه: "و إن أردت أن تنجو من سطوة باسنا فاضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة و تكون نائباً عنا في مصر"⁽⁴⁾.

وفي المقابل لم يولي "طومان باي" أي اهتمام لهذا الخطاب و شرع يحشد الجند ويعد العدة استعداداً للمعركة، و تمكن رغم ضيق الوقت من إعادة تنظيم الصفوف و تزويدها بالعتاد الحربي بما في ذلك المدفعية المثبتة على العربات و إقامة التحصينات حول مدينة القاهرة⁽⁵⁾.

التقى الجيشان في 22 جانفي 1517 م بالريدانية و تمكن العثمانيون فيها من محاصرة المماليك الذين تفرقوا إلى فرقتين " فرقة تحت الجبل المقطم وفرقة جاءت للسكر عند الوطاق بالريدانية"⁽⁶⁾ و بالرغم من

حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني، ج2، المرجع السابق، ص 75، و ما قبلها. وانظر: احمد فؤاد متولي، المرجع السابق، ص 169. وانظر: هنادي زعل مسعود، المرجع السابق، ص ص 6، 7.

(1) محمد حرب، المرجع السابق، ص 25.

(2) الملقب بالملك الأشرف و هو آخر سلاطين دولة المماليك اظهر شجاعة كبيرة في صراعه مت العثمانيين إلى أن وقع في اسر السلطان سليم الأول الذي أعدمه شنقا حكم لفترة قصيرة فكانت مدته "3 أشهر و 14 يوم . للمزيد انظر: عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص ص 223، 224.

(3) سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، المرجع السابق، ص 191، 192 ؛ محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 193.

(4) ابن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح محمد مصطفى، ج 5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984. ص 125.

(5) طقوس، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 503.

(6) ابن إياس، ج5، المصدر السابق، ص 156.

استتبسال طومان باي في المعركة والتي أسفرت عن مقتل الصدر الأعظم سنان باشا و عديد الأمراء العثمانيين⁽¹⁾، إلا أن الغلبة كانت للأتراك حيث لاذ السلطان المملوكي تاركا وراءه كل معداته كغنائم للجيش العثماني⁽²⁾.

دخل الجيش العثماني بعدها القاهرة في 28 جانفي 1517م أين وقعت معركة شرسة أسفرت على الاستلام النهائي لدولة المماليك في 30 جانفي 1517م، والقي القبض على طومان باي وتم إعدامه⁽³⁾.

المطلب الرابع: انتقال الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين (923هـ/1517م) وموقف سليم من الوجود البرتغالي:

1- انضمام الحجاز وانتقال الخلافة إلى العثمانيين:

بحلول سنة 1517م اكتمل البناء السياسي والديني للدولة العثمانية، لكي تصبح وبكل جدارة دولة الخلافة الإسلامية، إذ أصبحت في هذه السنة من أكبر الدول الإسلامية بل من أقوى دول العالم، فضمت معظم أراضي الوطن العربي في آسيا وإفريقيا وأصبحت البنية الإسلامية جاهزة لتتولى أمور الخلافة⁽⁴⁾.

كما أن دخول العثمانيين إلى مصر جعل اغلب الشعوب الإسلامية والعربية ترى في الدولة العثمانية حامية للعالم الإسلامي من الأخطار الأوروبية المحدقة بهم خاصة الأيبيرية (الأسبان والبرتغال).

وسرعان ما سوف يتأكد هذا الشعور لدى الشعوب العربية بعد انضمام منطقة الحجاز⁽⁵⁾ إلى حظيرة الدولة العثمانية، يأتي ذلك بعد أن قام شريف مكة "أبي البركات"⁽⁶⁾ بإرسال ابنه الشريف "أبو نمي"

(1) سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 72.

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 398.

(3) احمد ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1416هـ، ص61.

(4) احمد صدقي علي الشقيرات، المرجع السابق، ص ص95، 96.

(5) كان يقصد بالحجاز المنطقة الواقعة شمال غرب المملكة العربية السعودية على خليج العقبة والبحر الأحمر وتتحدّر في الشرق إلى هضبة نجد وكانت بلاد الحجاز تضم عدة مناطق وهي مكة المكرمة، المدينة المنورة، جدة، تبوك، الطائف، الظفير، القنفذة، الجوف، والعلاء، وقد كان الحجاز يحكم عن طريق الأشراف، وكانوا يدينون بالطاعة إلى السلاطين المماليك بمصر ثم إلى الخلفاء العثمانيين فيما بعد. انظر: إبراهيم مذكور وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ط1، شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت، 2010، ص ص 1312 - 1313.

(6) الشريف بركات (861، - 931هـ، 1456 - 1525م)، وهو الشريف بركات بن محمد بن بركات بن عجلان بن رميثة (أبي نمي نمي) محمد بن أبي سعيد، ولد بمكة المشرفة و كانت والدته شريفة من بني حسين و نشأ بمكة و درس على يد العشرات من العلماء

إلى مصر لتقديم التهنئة للسلطان العثماني إلى جانب مفاتيح الكعبة والأمانات المقدسة⁽¹⁾ إلى السلطان سليم هذا الأخير الذي اصطحب الخليفة العباسي المتوكل على الله الرابع⁽²⁾ معه إلى استانبول التي دخلها في 25 تموز 1518م، وبعد ذلك تنازل المتوكل عن الخلافة الإسلامية إلى بني عثمان في مراسيم جرت في أيا صوفيا⁽³⁾، ما جعل الدولة العثمانية تجمع بين السيادةتين السياسية والروحية، فأصبحت بذلك الخلافة الإسلامية الرابعة⁽⁴⁾. نهاية الخلافة العباسية في مصر⁽⁵⁾.

ومن أهم الأعمال التي قام سهر السلطان العثماني على القيام بها عقب إفلاحه في ضم بلاد الشام ومصر والحجاز إلى حظيرة الدولة العثمانية، أن قام بنقل الحكومة العثمانية من أدرنة⁽⁶⁾ إلى استانبول، كما بذل الخليفة جهدا كبيرا في تشييد أسطول قوي من شأنه مقارعة البرتغاليين في المياه الشرقية⁽⁷⁾.

، ما تولى العديد من المناصب الرسمية في الدولة المملوكية ثم عين أميراً على مكة لأربع عهودات و استمرت إمارته في العهد العثماني توفي في سنة 1525م، انظر: احمد صدقي علي الشقيرات، المرجع السابق، ص 95.

(1) توجد هذه الأمانات الدينية الإسلامية المقدسة في جناح خاص في سرايا طوب قابوسي، في إستانبول وقد شيد ها الجناح السلطان سليم الأول عقب عودته من القاهرة ويحتوي جناح الأمانات على البردة الشريفة والراية النبوية والسيوف والقوس النبويين بالإضافة إلى أشياء أخرى. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص ص 301، 302 ؛ احمد صدقي الشقيرات، المرجع السابق، ص133.

(2) وهو الخليفة العباسي محمد أبو عبد الله بن المعتضد، ببيع له بالخلافة في مصر من عام 831هـ، على عهد السلطان المملوكي قلاوون، توفي بالقاهرة عام 858هـ ودامت فترة حكمه 45 سنة. أنظر القرماني، المصدر السابق، ص 186.

(3) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 224 ؛ ومن الروايات التاريخية الأخرى حول مسألة انتقال الخلافة إلى بني عثمان نجد رواية تقول أن الخليفة العباسي المتوكل على الله الرابع قلد السلطان العثماني سليم الأول السيف وألبسه الخلعة في جامع أيوب سلطان بعد مراسيم أيا صوفيا، وقد اشترك في هذه المراسيم علماء الأزهر وعلماء الدولة العثمانية، وتمت عملية نقل الخلافة بناء على قرار هذا المجلس الشرعي. أنظر احمد صدقي علي الشقيرات، المرجع السابق، ص 98.

(4) نفس المرجع، ص 99.

(5) الخلافة العباسية في مصر، 659 - 1261/923 - 1517م) كانت الخلافة العباسية قد انتقلت إلى مصر عقب سقوط بغداد 1258/1/18م بيد التتار و انتهت بذلك الدولة العباسية في بغداد و انقطعت الخلافة العباسية بموت الخليفة العباسي المستعصم بالله وهرب العباسيون إلى القاهرة وهناك تمت إعادة الخلافة، وكان أول من بوع بها المستعصم بالله احمد. انظر: جلال الدين أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تح وتقا قاسم الرفاعي ومحمد العثماني، (دط)، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (دت)، ص 364، 406.

(6) وهي مدينة تركية على نهر ماريتسا، قرب الحدود اليونانية، كانت مدينة أدرنة هي العاصمة العثمانية الثانية بعد بروسة، وقد انتقلت إليها الحكومة العثمانية بعد معركة أنقرة في 805هـ/1453م. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص727؛ مجموعة مؤلفين، المنجد في الأعلام، المرجع السابق، 32.

(7) احمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص87.

2- موقف السلطان سليم من الأطماع البرتغالية:

ترتب عن سيطرة العثمانيين لبلاد مصر والشام أن ظهر العثمانيون بالبحر الأحمر ومحاولتهم المضي قدما لاستكمال الفتح عن طريق سيطرتهم على اليمن وتأسيس أيلة الحبشة لإنقاذ البحر الأحمر من الخطر البرتغالي القادم من المحيط الهندي و الذي أصبحت له ممتلكات على شاطئه بل وصار محالفا لحكام الحبشة ما جعله على مشارف البحر الأحمر⁽¹⁾.

والواقع انه بفتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر لم تصبح مهمتهم الكفاح ضد البرتغاليين من اجل إنقاذ الأراضي المقدسة الحجازية من تهديداتهم المتكررة لها فحسب، بل والمضي قدما نحو محاولة إنعاش التجار المشرقية إلى طريق مصر والخليج العربي، لتبدأ بذلك صفحة جديدة من الصراع في المياه العربية لم يشترك العرب فيها إلا بشكل هامشي أو جزئي.⁽²⁾

وعليه نطرح السؤال التالي: ماذا فعلت الدولة العثمانية اتجاه الغزو البرتغالي المتدفق في شرق العالم الإسلامي والذي اخذ يمتص جل الموارد الاقتصادية بالخليج والبحر الأحمر؟

بذل السلطان العثماني سليم جهودا لبناء أسطول قوي في ميناء السويس حيث جدد الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" المرسى القديم في السويس، وأقام قيادة بحرية منفصلة للبحر والبحر الأحمر تم تموينها من إيرادات الجمارك العثمانية في مصر⁽³⁾.

وقد كان من المتوقع أن يتخذ السلطان سليم مجموعة إجراءات للقضاء على البرتغاليين المتواجدين بالمنطقة، غير أن شيئا من ذلك لم يحدث، على العكس من ذلك جاءت كل قرارات السلطان غير خادمة لمشروع طرد البرتغال من المنطقة من خلال:⁽⁴⁾

(1) فاضل البيات، المرجع السابق، ص 402_452.

(2) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، (د م)، (د ت)، ص 120.

(3) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص 40.

(4) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 91، 92، 93.

- عودت كل قطع الأسطول العثماني المشتركة في عملية الفتح و المقدرة ب 310 قطعة بحرية متنوعة، إلى استانبول بعد أن مكثت بالقاهرة 57 يوما، بدل التوجه لمقارعة البرتغاليين، كما انه قام فوق هذا بمصادرة كل مراكب و قطع أسطول المماليك.

- قام السلطان سليم بإرسال سليمان الرئيس قائد الأسطول المملوكي الثاني والذي كان متوجها أساسا إلى محاربة البرتغاليين بالمحيط الهندي إلى استانبول بحجة الاستفادة منه ومن خبراته.

- لم يحرك السلطان سليم ساكنا تجاه الدولة الصفوية و تحالفها المعلن مع البرتغاليين عبر الاتفاق الصفوي البرتغالي سنة 1515م والذي جسده الشاه الصفوي والبوكيرك.

- معاقبة الدولة العثمانية و تأنيب كل من يقوم بأي حركة لمقاومة الاحتلال البرتغالي للسواحل والبلاد العربية في المنطقة التي تسير عليها دون مشورتها.

وهكذا لم يقم السلطان سليم بإجراءات كبيرة للعدو البرتغالي المتواجد بالمياه العربية، قد يعزى ذلك إلى كون الدولة العثمانية خرجت للتو من حربين كبيرتين ضد فارس ومماليك مصر، ليتوفى السلطان بعد ذلك بفترة قصيرة.

انطلاقا من كل ما سبق ذكره في هذا الفصل يمكننا القول أن صراع الدولة العثمانية مع القوى الإسلامية في المشرق على عهد السلطان سليم لم يؤدي إلى زوال الخطر البرتغالي في المناطق التي دخلها هؤلاء، بل قد تكون حروب الدولة العثمانية ضد القوى الإسلامية أتاح الفرصة للبرتغال لتلتقط أنفاسها عقب الضربة الموجهة التي تلقتها الأخيرة من دولة المماليك سنة 1508م، بل وتزيد من نشاطها التوسعي مستغلة حالة الفوضى والصراع⁽¹⁾.

(1) محمد حميد السلطان، المرجع السابق، ص 95.

المطلب الخامس: التوسع العثماني في العراق و أهمية البصرة الإستراتيجية في الخليج العربي

1- الحملة على العراق:

بانتهاى المعركة الكبرى (جاليدران) بين الدولتين العثمانية والصفوية، أعلنت عن ميلاد مرحلة أشبه ما تكون إلى هدنة غير موقعة بين الطرفين دامت حوالي عقدين من الزمن على الرغم من تلك المناوشات التي كانت تحصل بين القادة الميدانيين، والتي كما رأينا تمخضت عن سيرة العثمانيين على القسم الأكبر من الأجزاء الشمالية والغربية للعراق.

وبوفاة السلطان سليم خلفه ابنه السلطان سليمان⁽¹⁾، وقد سار الابن على خطى أبيه من خلال استكمال الفتح والتوجه نحو الشرق وبالضبط منطقة العراق لمقارعة ملوك الفرس أحفاد الساسانيين⁽²⁾، الذين حكمهم في هذه الفترة الشاه " طمهاسب الأول"⁽³⁾ خلفاً لأبيه الشاه إسماعيل الصفوي المتوفى عام 1524م ، وتجدر الإشارة إلى أن الصراع لم ينته بين الدولتين، بل استمر العداء محتدماً، ولعل اقوى صوره هي ما يسمى في التاريخ باسم الحملة العثمانية على العراقيين عراق العرب والعجم⁽⁴⁾.

والحقيقة أن الحملة العثمانية على العراق هي حملة فرضتها مجموعة من الظروف الاقتصادية والعسكرية السياسية، حيث أن تجربة البحر الأحمر جعلت العثمانيون يقدرّون مدى أهمية التوجه نحو البصرة ، كما يعتبر فتح العراق خاصة شرق الهلال الخصيب، إلى جانب فتح الشام ومصر سابقا حدثاً منطقياً من الناحية السياسية، إذ أن

(1) سليمان القانوني (900 974 هـ، 1495، 1566م) وهو السلطان العثماني العاشر وقد اعتلى عرش الدولة العثمانية خلال الفترة (926 ، 974 هـ، 1520 ، 1566م)، و لقب بالقانوني أو المشرع بسبب عنايته بكتابة القوانين العثمانية وتطبيقها، وقد بلغت مدة حكمه 48 سنة هجرية و 46 سنة ميلادية وهي بذلك أطول فترة حكم في الدولة العثمانية ، واصل الفتحات في البلقان و فتح بلغرادو زودس والمجر ودخل بغداد وتبريز، وقد توفي في ميدان المعركة في المجر ونقل جثمانه إلى استانبول أين تم دفنه في حظيرة جامع السلليمانية .انظر يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، المرجع السابق، ص 261، 375.

(2) قدرى قلعي، المرجع السابق، ص372.

(3) طهماز شاه الأول(920 -984 هـ/1514 -1576م) شاه الدولة الصفوية الإيرانية، وقد تولى العرش بعد والده إسماعيل الأول خلال الفترة (930 -984 هـ/1524 -1576م) و هزم الأوزبك تغلب عليه العثمانيون في معركة 1534م، و عقد الصلح معهم عام 1554م، وشهدت فترة حكمه نقل العاصمة غالى قزوين 1555م، توفي 1576م. انظر: براوز بولس وآخرون، المنجد في الأعلام، ط19، دار المشرق، بيروت، 1992م، ص ص 346، 358.

(4) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 255.

التحكم في طريق الحرير من تبريز إلى أرضروم ومنها إلى بورصة، وبجانبه طريق تجارة التوابل، ابتداء من البصرة باتجاه بغداد ثم حلب ، من شأنه أن يدعم الاقتصاد العثماني⁽¹⁾.

ولأن طريق التوابل المار بالبصرة كان يدهمه خطران في آن واحد، الخطر البرتغالي في خليج البصرة والخطر الصفوي الذي مازال يسير على الأجزاء البرية منه، جعل الدولة العثمانية تضع نصب عينيها السيطرة على الطرق التجارية الممتدة إلى بلاد الشام، كما أن وصول العثمانيين إلى البصرة وهو الثغر الشمالي للخليج سيضعهم كما سنرى أمام مرحلة نحو السيطرة على الطريق البحري بين الهند والشرق⁽²⁾ (نقصد الخليج).

ويبدو أن البعد السياسي و الديني قد لعبا دورا في هذه الحملة، فهناك من فسر الحملة على العراق على أنها كانت محاولة للقضاء على الصفويين الذين يستهدفون زعزعة الدور الديني إلي تقوم به الدولة العثمانية كحامية للسنة خاصة إذا علمنا أن مذبحة سليم الأول المشهورة في الأناضول لم تؤدي إلى استئصالهم بالكامل من المنطقة⁽³⁾.

ونحن كمتتبعين لسير الأحداث وبالنظر في تلك الظروف يمكننا الجزم بان الدولة العثمانية لم تضع خيارا آخر غير الوصول إلى الخليج العربي والامتداد إلى مسلمي الهند لمقارعة البرتغاليين هناك، فكان لزاما عليها مد النفوذ إلى البصرة لتصبح منفذا لهم بالخليج.

مهما يكن من أمر فقد سار سليمان القانوني على رأس جيش عثماني قاصدا الصفويين في عاصمتهم الجديدة (قزوین)، وفي أواخر خريف عام 1534م جاءه موفد من "محمد خان" حاكم بغداد الصفوي يحمل رسالة بقي مضمونها سرياء، و لكن سرعان ما ظهرت معالمها عندما اتجه العثمانيون صوب بغداد التي استقبلت الجيش

(1) صالح أوزبان: الأتراك العثمانيون البرتغاليون في الخليج العربي 1534 1571م، ترجمة عبد الجبار ناجي، (د ط)، دار الرشاد، بغداد، (د ت)، ص28.

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص258.

(3) نفس المرجع، ص ص258، 259.

العثماني بالزينة و الترحاب، وأعلنت باقي المدن العراقية خضوعها الواحدة تلو الأخرى⁽¹⁾. فخضعت المناطق الواقعة حول ارض روم وشمال وأواسط العراق، إلا أن النفوذ لم يمتد إلى مناطق البصرة والحسا⁽²⁾.

كان من اثر انتزاع العثمانيين بقيادة السلطان سليمان القانوني، بغداد من الفرس سنة 1534، واقتداء " بأبي نمي" الذي سلم مفاتيح الحرمين إلى سليم أن قام حاكم البصرة "راشد بن مغامس" بتسليم مفاتيح المدينة إلى السلطان سليمان⁽³⁾، وراسله ويعلن ولائه له، فوافق السلطان وعينه والياً عثمانياً عليها على أن يقوم بصك النقود وقراءة الخطبة باسم السلطان، ويعود سبب اتصال راشد بالدولة العثمانية إلى خشيته من تحرك البرتغاليين نحوه⁽⁴⁾.

وهكذا وبإعلان راشد الولاء تسابق أمراء وشيوخ الجزر على شط العرب في "اهوار"، "الجزائر"، "الغراف"، "لورستانو"، "الحويزة"، إلى الدخول تحت حكم الدولة العثمانية، واستقبل السلطان وفوداً من البحرين والقطيف مع رسائل ترحيب بالعثمانيين، ورغبتهم في التعاون معاً للتصدي للبرتغاليين⁽⁵⁾.

ويبدو أن اقتراب السلطان من الخليج العربي قد أدى إلى قلق الإمارات السابقة بشأن مستقبلها، غير أن حاجتها لقائد ينهي العداوة فيما بينها، مع حاجتهم لقوة رادعة تقف في وجه البرتغاليين، جعلهم يقبلون السلطة العثمانية، وأمر السلطان بإعداد أسطول عثماني لمواجهة البرتغاليين الذين تزايد خطرهم في البحار العربية، ثم عين حاكم ديار بكر "سليمان باشا" الطويل والياً على بغداد، وأبقى فيها حامية من 1000 جندي مزودين بالأسلحة ومعهم 1000 فارس، وهياً لهم تمويناً كافياً للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم فارسي⁽⁶⁾.

(1) إبراهيم خوري: "توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي و نتائجه الاقتصادية في الحقبة البرتغالية"، ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية 19_ 21 نوفمبر 1988م، الصلات التاريخية بين الخليج العربي و الدولة العثمانية، ط1، مركز الدراسات والوثائق، الإمارات، 2001، ص 209.

(2) صالح أوزبان، المرجع السابق، ص 68.

(3) قدري قلعجي، المرجع السابق، ص 376.

(4) علي ظريف الأعظمي: مختصر تاريخ البصرة، تق تح عزة رفعت، (د ط)، مكتبة الثقافة الدينية، (د م)، (د ت)، ص 145.

فاضل بيات، المرجع السابق، ص ص 264، 265.

(5) نبيل عبد الحي رضوان: جهود العثمانيين في الحد من التهديد البرتغالي للنشاط التجاري في الخليج العربي من خلال

الوثائق العثمانية 945هـ / 1538م - 967هـ / 1559م، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

/ جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (د.ت)، ص 10.

(6) نفس المرجع، ص 11.

ثم قسم العثمانيون العراق لأربع ولايات : بغداد بثمانية عشر سنجقاً⁽¹⁾، والموصل بستة سناجق، وشهرزور بواحد وعشرين سنجقاً ، والبصرة لم يكن بها سناجق، ولكن إجراءات العثمانيين في تثبيت سلطانهم عليها، والتحكم بشبكة الطرق التجارية، دفع أسرة "راشد بن مغامس" إلى الثورة، فأصدر السلطان العثماني أوامره لواليه في بغداد بالتحرك اتجاه البصرة ، فتحرك بك الموصل عبر النهر وبرفته مائة وعشرين سفينة، كما قاد "علي ذو القدير أوغلي" قوة برية تجمعت في "القورنة" ، ولم يجد والي بغداد صعوبة في تدمير قوات حاكم المدينة عبد "المحسن بن عليان" ، والبالغ عددها نحو ثلاثة آلاف جندي⁽²⁾.

ونلاحظ هنا إلحاح الدولة العثمانية في هذا الوقت بالذات كانت تستهدف الوصول إلى سواحل خليج البصرة ما يسمح بالدخول و الخروج إلى مياه المحيط الهندي، وبالتالي فإن أي وجود لأي كيان غير خاضع لهم في هذه المنطقة من شأنه عرقلة وصولهم هناك⁽³⁾، وبالتالي عرقلتهم في سبيل مقارعة البرتغاليين المتواجدين في المنطقة منذ فترة ليست بالهينة.

مهما يكن من أمر فق دخلت القوات العثمانية البصرة في 29 رجب 953 هـ / 26 سبتمبر 1546 م، بالرغم من نصيحة الصدر الأعظم "رستم باشا" بعدم فتحها لأنها خربة ولا قيمة لها، إلا أن العثمانيين تمركزوا فيها وكان إيذاناً بدخول الصراع العثماني البرتغالي مرحلة حادة من الصراع الدائم، تخلله في بعض الأحيان فترات تسعى فيها الدولة العثمانية لإقامة علاقات جيدة، ففي 954 هـ / 1547 م ، أرسل والي المدينة محمد باشا تاجراً يدعى الحاج فياض إلى الحاكم البرتغالي في هرمز ، يعرض قيام علاقات تجارية ودية⁽⁴⁾، غير أن البرتغاليين ترددوا وظل موقفهم عدوانياً فبات القتال محتوماً⁽⁵⁾.

(1) السنجق هو الوحدة الإدارية الأساسية حيث انقسمت الدولة على عدد من السناجق على رأس كل منها سنجق بكّي وكانت الأقسام الإدارية في الدولة على النحو التالي: قضاء، سنجق، ولاية ، وكان السنجق يشتمل على 15 إلى 20 قضاء، وكان حاكم السنجق في ذلك الوقت حاكماً عسكرياً ومدنياً لا يتحكم في القضاء . أنظر سهيل صان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000 م، ص 136.

(2) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 11.

(3) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 266.

(4) صالح أوزبان، المرجع السابق، ص 32.

(5) نبيل عبدالحی رضوان، المرجع السابق، ص 11.

2- أهمية البصرة كمحطة عثمانية في الخليج:

تكتسي مدينة البصرة⁽¹⁾ أهمية كبيرة من حيث جغرافيتها كونها تمثل الحدود بين إيران والعراق بالإضافة إلى إطلالتها على مياه الخليج العربي بما يقارب 600 كلم فهي على ذلك المنفذ البحري الوحيد للعراق، ما جعل البعض يصفها بثغر الهند، باعتبارها الطريق المؤدي إلى الهند مروراً بالخليج العربي.

وعلى الرغم من كون البصرة ميناء نهري أكثر منه بحرياً إلا أنها كانت بمثابة قاعدة بحرية استغلها العثمانيون لشن حملاتهم وتنظيم صفوفهم مع أهالي المنطقة الذين أبدوا تجاوباً للتصدي للبرتغاليين الذين كانت لهم محطات في المحيط الهندي والخليج العربي منذ بداية القرن السادس عشر⁽²⁾، ولو أن الدولة الصفوية كانت لا تزال تسيطر على جنوب العراق أو شمال الخليج العربي، لكان موقف القوات البحرية العثمانية محرجاً في مواجهة البرتغاليين، كما كان للبصرة الفضل في تقدم العثمانيين في مياه الخليج العربي من خلال ضم بعض من أقطاره ولعل هذا هو سبب احتدام الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين بالمنطقة⁽³⁾.

والواقع أن بداية توسع العثمانيين بالمنطقة كانت بطيئة بعض الشيء، كون العثمانيين لم يستتب لهم وضع أسس حقيقية بالبصرة وما جاورها، فكانت تعاني من تمرد القبائل المناوئة لحكمها كتمرد (أل عليان)⁽⁴⁾ بالقرب من (القرنة)، وعشائر (المنطق) في (الجويزة)، ناهيك عن الغزو الفارسي الذي كانت تتعرض له البصرة، بل كانت تتفصل من حين لآخر عن الحكم العثماني على يد بعض الأسر والعشائر⁽⁵⁾.

(1) مدينة نشأت في الإسلام، إذ مصرت في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ومنذ ذلك الوقت أصبحت البصرة إحدى أهم العواصم العربية وأكبر مركز حضري على الخليج العربي، كما أصبحت البصرة أحد أبرز المراكز التجارية في العالم الإسلامي منذ زمن العباسيين، فهي مرفأً استيراد التجارة الشرقية، وميناء تصدير للسلع الزراعية وقيل أن البصرة كانت تدخل إليها نحو من ألفين سفينة يومياً لا تبيت فيها سفينة واحدة . انظر: عصام سخيني، المرجع السابق، ص 125، 126.

(2) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 85.

(3) محمد حسن العيدروس: دراسات في الخليج والجزيرة العربية، ج 1 (د ط) دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2009، ص 12.

(4) كان أبناء عليان يتمتعون بنفوذ كبير بين العرب في منطقة الجزائر كان معظمهم يدين بالمذهب الشيعي و كانوا تحت التأثير الإيراني لم تكن علاقاتهم مع الدولة العثمانية جيدة بل وصل حدتهم إلى استعمال الدولة العثمانية الحديد والنار ضدهم . انظر: فاضل بيات، المرجع السابق، ص 318، 319.

(5) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 13.

ومن تمردات القبائل نذكر على سبيل المثال لا الحصر تمرد ابن عليان حاكم مدينة بمنطقة الجزائر الذي تغير موقفه من الدولة العثمانية، و قرر منع القوات العثمانية من الوصول إلى المنطقة، خوفا على منصبه، وسار على رأس ثلاثة آلاف من أتباعه المقاتلين إلا انه انهزم على أطراف البصرة⁽¹⁾.

كما كان من الصعب بمكان على الدولة العثمانية أن تنجح في محاولاتها التوسع في بعض أجزاء الخليج العربي نظرا لصغر أسطولها هناك، ناهيك عن تلك المقاومات التي جوبهت بها سواء فارسية، أو برتغالية، أو حتى محلية، بالإضافة إلى البعد عن مركز التموين في البحر المتوسط أو حتى بالبحر الأحمر إلا أن ذلك لم يثني العثمانيين عن التمسك بالبصرة وجعلها قاعدة لهم .

ويبدو أن البرتغاليين أبدوا تحمسا كبيرا ونية في احتلال مدينة البصرة لما لها من أهمية، نستدل على ذلك من خلال ذلك التقرير المرسل من احد مبعوثي الملك جوا الثالث مكلف بمرافقة باشا البصرة خلال تنقلاته بين هرمز والهند والبصرة قصد التفاوض، وحمل التقرير المؤرخ 11 ديسمبر 1563م، كل ما يتعلق بأوضاع البصرة الطبوغرافية من موقع ومصب النهر وأسوارها ومواقع أبوابها والقوة العسكرية الموجودة بها، كما تطرق التقرير إلى المستوى الاقتصادي للمدينة ورفاهية سكانها⁽²⁾.

ولا شك أن إطلالة على التقرير توحى لنا جليا أن المبعوث قد أرسل خصيصا لها الغرض، كما أن طبيعة المعلومات المحصل عليها كانت لاشك تخدم مشروع إعداد حملة برتغالية تستهدف المدينة، خاصة إذا علمنا أن التقرير أرفق بأماكن إنزال الجنود والتحصينات ونقاط الضعف⁽³⁾.

مهما يكن من أمر فان هدف الأتراك من ذلك كان إعادة ازدهار البصرة اقتصاديا من خلال إعادة بعث التجارة مع الهند والسيطرة على ضفتي الخليج العربي، وهذا ما تظن له البرتغاليون ما أدى إلى نشوب اشتباكات متكررة بين الطرفين، على أن البرتغال حاولت تجنب العداء في كثير من المواقف يظهر ذلك من خلال مفاوضاتهم للأتراك وتقديم معاهدة يتم بموجبها تبادل القمح بالفلفل⁽⁴⁾.

(1) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 267.

(2) احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المرجع السابق، ص 138.

(3) نفس المرجع، ص 138.

(4) Mohamed Hameed Salman, op. cit, p187 .

وبالعودة إلى تقطن لشبونة والسلطات البرتغالية بالهند بازدهار تجارة البصرة، نجد تلك الرسالة المرسلة من البوكيرك إلى السلطات في لشبونة في 1515/9/22م، يخبرهم فيها بأنه على علم بان العالم العربي والتركي والفارسي يتزود بالتوابل من البصرة وانه لا يرى في ذلك أي خطر على البرتغال مادامت تلك المناطق خارجة عن نفوذ العثماني، كما أن الكميات المحصل عليها لا تسمح بمنافسة البرتغال في أوربا⁽¹⁾.

ومن الرسائل التي أظهرت إلى استمرار السفن العربية بالتزود والاتجار بالتوابل نجد رسالة "فرانثيسكو طفرش" والمؤرخة في 1535/1/14م والتي وإن كان خبرها الأساس هو إعلام الملك بوفاة ملك هرمز إلا أنها تطرقت إلى استمرار التجارة العربية، بالرغم من مجهودات البرتغاليين في منعها⁽²⁾، كما بعث جاسوس برتغالي آخر أرسل إلى مصر سنة 1564م إلى حكومته يقول انه وصل إلى الإسكندرية ثلاثون ألف قنطار من التوابل، ومن شهادات حيوية واستمرارية التجارة في البصرة نجد تصريح "جون الدرد" احد زوار البصرة في سنة 1583م حيث قال انه في كل شهر تصل إلى ميناء البصرة من هرمز سفن تحمل سلع الهند المتنوعة، ولم يقتصر دور الاتجار على البصرة فحسب فقد كان يصل إلى ميناء جدة كل سنة ما مقداره عشرين سفينة محملة بالتوابل⁽³⁾.

والواقع أن القادة البرتغاليين قد رؤوا ضرورة تغيير سياساتهم في التعامل مع مسألة التجارة العربية الآسيوية، فقد علموا أن هذه الأخيرة عريقة ضاربة في التاريخ، وأن إغلاق البحار في وجه التجار العرب والمسلمين من شأنه أن بنهاية الأمر إلى تنشيط وإعادة إحياء الطرق البرية التي لا يمكن للبرتغاليين السيرة عليها، فضلا عن أن الهند لا يمكنها الاستغناء على منتجات تعودت استيرادها من الموانئ العربية كالخيول والفضة⁽⁴⁾.

مهما يكن من أمر التجارة فقد استطاعت الدولة العثمانية إخضاع القبائل العربية على تخوم البصرة وجددوا الثقة للتجار العاملين بالمنطقة لتشهد بذلك سنوات بعد 1546 م ازديادا ملحوظا في المبيعات حتى قبل أن يصير كل الهلال الخصيب تحت الحكم العثماني⁽⁵⁾، خاصة إذا علمنا أن الدولة العثمانية قد اعتمدت سياسة

(1) احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المرجع السابق، ص 153.

(2) نفس المرجع، ص 139.

3 خليل إينالجي: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر محمد م. الأرنؤوط، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2014، ص ص 199، 200.

(4) احمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المرجع السابق، ص 153.

(5) Mohamed Hameed Salman, op. cit, p187 .

انفتاحية مع الدول الإسلامية في شبه القارة الهندية، وجنوب شرق آسيا فقام العثمانيون بإنشاء أسطول لهم في البصرة لتحقيق تلك الأهداف من جهة ومواجهة البرتغاليين من جهة أخرى⁽¹⁾.

وجاء أول استغلال للميناء عام 1546 بان حاول العثمانيون متابعة البرتغاليين بمسقط ووصلوا إلى مشارف الميناء وتم قصفه بأربع سفن لمدة شهر إلا أن الحملة باءت بالفشل نظرا لصغر الأسطول، ثم حاول البرتغاليون في سنة 1549م التوغل شمالا إلى أن الشيخ "راشد بن مغامس" الذي كان يدير الميناء لصالح العثمانيين آنذاك تمكن من أن يجمع ثلاثين ألف رجل ويتصدى لهم، وعندما قررت الدولة العثمانية تحويل البصرة إلى ولاية عام 1549م عزلوه فكان من اثر ذلك أن طلب عون البرتغال في إعادته لعرشه مقابل السماح لهم ببناء قلعة والكثير من الامتيازات⁽²⁾.

وخلاصة القول هنا انه وبانضواء البصرة تحت الحكم العثماني له أبعاد خيرة للتاريخ المنطقة برمتها، أصبح طريق البصرة بغداد حلب بيد العثمانيين بلا منازع، كما صارت البصرة مدخلا للعثمانيين إلى الخليج العربي، ليجدوا أنفسهم أمام خطر جديد يهدد المسلمين الذين يعدون أنفسهم حاميين لهم وهو الخطر البرتغالي⁽³⁾. فكيف سيكون تعامل العثمانيين مع هؤلاء يا ترى؟.

المطلب السادس: الدولة العثمانية في القطيف والإحساء 1550

بعد سنوات من دخول العثمانيين للبصرة التي كانت لا تزال قادرة على خوض معركة بحرية ضد البرتغاليين في مياه الخليج العربي، فدخل الجيش العثماني للقطيف⁽⁴⁾ وبعدها منطقة الإحساء⁽⁵⁾ سنة 1550م⁽⁶⁾.

لا شك أن وجود إدارة عثمانية في البصرة عبر شط العرب قد شجع أهل القطيف على الاستجداء بالعثمانيين⁽¹⁾ كما أعطى الحدث شحنة للمقاومة العربية بالمنطقة، وحرصت الدولة العثمانية على توطيد نفوذها في

(1) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 317.

(2) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج والجزيرة العربي، ج1، المرجع السابق، ص14.

(3) فاضل بيات، المرجع السابق، ص ص 266، 267.

(4) بفتح القاف و كسر الطاء و هي أعظم مدن مدينة البحرين، وكان اسمها قديما لكورة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج4، دار البصائر، بيروت، (د ت)، ص 378.

(5) هي مدينة مشهورة بالبحرين، و كان أول من عمرها و حصنها و جعلها قصبة رجل يدعى هجر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجناني القرمطي، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج1، المصدر السابق، ص 112.

(6) Mohamed Hameed Salman, op. cit, p 186 .

منطقة القطيف عاصمة الإحساء بعد أن أعلن هؤلاء ولاءهم للدولة العثمانية، ورفضهم التبعية الإدارية لهرمز الخاضعة للحكم البرتغالي، وكان سكان القطيف قد تمردوا على الحاكم الهرمزي بمساعدة من شيخ الإحساء، وطلبوا المساعدة من السلطات العثمانية في البصرة من أجل تحرير حصن القطيف من التبعية لمملكة هرمز⁽²⁾، ومن ضعف حاكمهم المحلي المتردد من طرد البرتغاليين، فلبت الدولة العثمانية النداء وقامت بطرد بقية البرتغاليين، وأرسل السلطان قواته ودخلت منطقة الإحساء سنة (957 هـ / 1550 م) وأعلن القائد العثماني (مراد بك) تبعية المنطقة للحكم العثماني⁽³⁾.

بعد أن صارت القطيف سنجقاً تابعاً لبلدية البصرة، بدأت السيادة العثمانية على اليمن والبصرة والإحساء والقطيف تثير فزع البرتغاليين، فقد أصبحت جزيرة هرمز أقوى القلاع البرتغالية معرضة للخطر، كما أن هناك احتمالية خروج مدخل الخليج العربي من سيادتهم، وكانت تقارير البحر الأحمر والخليج العربي تشير إلى أن هناك استعدادات عثمانية للسيطرة على مياه الخليج، ففي عام 1550م ظهر القائد البرتغالي (لويس فيقورا Luiz Figueira) بجوار رأس الحد، وانهزم أثناء أربع سفن عثمانية بقيادة "سفر ريس Sefer Reis" اتجهت إلى الهند عازمة على مواجهة البرتغاليين في البحار الجنوبية، وبعد سيطرة العثمانيين على القطيف المدينة الساحلية والقلعة الهامة لإقليم الإحساء، ازداد قلق البرتغاليين وخافوا من ضياع سيطرتهم على الخليج العربي، لذلك رأوا ضرورة إيقاف العثمانيين وطردهم من المناطق الساحلية التي وصلوا إليها⁽⁴⁾.

وانتهز ألفونسو دي نورنھا (Alfonso de Noronha) الحاكم البرتغالي في الهند فرصة التوترات الموجودة بين الأتراك والقبائل العربية بالبصرة⁽⁵⁾ ومناشدة زعماء تلك القبائل للبرتغاليين من أجل التدخل ضد العثمانيين، فعين ابن أخيه "أنطونيو دي نورنھا Antioia de Noronha" قائداً لقوة تتكون من 1200 رجل وسبع سفن كبيرة، انضمت إليها قوة بحرية بقيادة "شرف الدين" أمير هرمز، وتمكنت من احتلال القطيف بعد حصار دام ثمانية أيام⁽⁶⁾، ثم توجه أنطونيو دي نورنھا نحو البصرة، لكنه لم يحقق شيئاً لأن والي البصرة علي باشا

(1) صلاح العقاد، دور العرب و الفرس، المرجع السابق، ص 67.

(2) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 12.

(3) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج و الجزيرة، ج1، المرجع السابق، ص 14.

(4) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 12.

(5) Mohamed Hameed Salman, op. Cit, p 187 .

(6) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص، 12.

تقادى الهجوم، عن طريق جعل القائد البرتغالي يعتقد أن العثمانيين والعرب قد شكلوا حلفاً ضد البرتغاليين، الأمر الذي جعل أنطونيو دي نورنھا يقرر الانسحاب من هرمز⁽¹⁾.

وهكذا شكلت منطقة الإحساء أهمية كبرى لكلا الطرفين، فالعثمانيون أرادوا مد نفوذهم الفعلي من شمال الخليج العربي إلى جنوبه، وتحريره من السيطرة البرتغالية نظراً للأهمية التي تتمتع بها هذه المنطقة في الشرق الإسلامي، والبرتغاليون كانوا يرون أن هذه المنطقة كانت بعيدة كل البعد عن صراع العسكري العثماني أو حتى الصراع البرتغالي المملوكي سابقاً، كون القوتين الإسلاميتين ركزتاً في جهودهما على الساحل الغربي من الهند باعتباره مقر أساس التواجد البرتغال ولتواجد مقر السلطة به⁽²⁾.

المبحث الثاني: البحرية العثمانية و مشروع التصدي للاحتلال البرتغالي في الخليج العربي

المطلب الأول: الاستعدادات العثمانية للتصدي للبرتغاليين

كان الغزو البرتغالي لشبه القارة الهندية ومياه الخليج العربي في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر السبب الرئيسي ومن أهم أسباب تضاعف اهتمام القوى الدولية بمنطقة الخليج العربي⁽³⁾، وعلى رؤسهم الدولة العثمانية، التي اقتنعت بأن المحافظة على وجودها في منطقة الخليج العربي خاصة الإحساء يتطلب إبعاد الخطر البرتغالي عن المنطقة، وبالتالي إدخال هرمز تحت سيطرتها وتأمين الطريق البحري بين الخليج والبحر الأحمر، كون الوجود البرتغالي لم يكن يهدد الممتلكات العثمانية في المنطقة فحسب بل تعداها إلى الوجود العثماني في اليمن والبحر الأحمر⁽⁴⁾.

وبالرغم من امتلاكها لأسطول بحري قوي وحسن التنظيم منذ أواخر حكم السلطان سليم إلا أن هذا الأسطول لم يستعمل على نطاق واسع إلا في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني. الذي أراد تنفيذ مشروع

(1) نفس المرجع، ص 13.

(2) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج1، المرجع السابق، ص 15 .

(3) مصطفى عقيل الخطيب: الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية والتطور السياسي، ط1، وزارة الثقافة و الفنون والتراث، قطر، الدوحة، 2013، ص 33 .

(4) فاضل بيات، المرجع السابق، ص ص 502، 503.

سليم الأول القديم الذي راوده منذ 1519م، والمتمثل في إنهاء السيطرة البرتغالية، من خلال إنزال ضربة قوية واحد من شأنها أن تقضي على وجودهم بساحل مالابار⁽¹⁾.

مهما يكن من أمر فقد قررت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني التفرغ للخطر البرتغالي ومن أجل ذلك قامت بزيادة نشاط الترسانة البحرية من خلال بناء عديد السفن الحربية⁽²⁾، من أجل تشكيل أسطول بحري قوي لمواجهة الخطر البرتغالي المترص بالمياه العربية، ومن أجل ذلك عقد السلطان سليمان القانوني اتفاق سلام مع أوروبا وأمر بكلر بك مصر بالإسراع في بناء الأسطول، وانتشرت على أثر ذلك حركة بناء كبيرة في السويس، وتوافد إليها العمال والبحارة من كل جانب⁽³⁾.

وحدث في الإسكندرية أن القي القبض على بضع المئات من البحارة القادمين من البندقية وتم إشراكهم للعمل بأحواض السفن في السويس، وكانت المواد الغذائية تجلب من القاهرة في حين تنقل المواد الصناعية من أخشاب وعتاد و تجهيزات من كيليكيا بطريق البحر إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة بواسطة نهر النيل ومن هنالك إلى السويس على ظهور الجمال، وقد اشرف على إدارة الأعمال احد ابرز مهندسي جنوة، كما تولى ابرع الصناع مهمة صب المدفعية، ولعل مما اربح البرتغاليين صنع العثمانيين تسعة مدافع عملاقة بإمكانها إطلاق قذائف تزن الواحدة منها مائة كيلوغرام⁽⁴⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطات البرتغالية في لشبونة كانت، على علم بكل التحركات المبذولة في بناء الأسطول، من خلال ذلك التقرير المرسل إلى الملك البرتغالي جوان الثالث من برتغالي كان مقيما في البندقية، والمؤرخ في 1531/11/14م. يخبره فيه بمحاولات العثمانيين الجادة لبناء أسطول قوي بالسويس، و المشاكل التي يواجهونها في ذلك (الأشربة والمدافع ترسل من القسطنطينية والأخشاب من لبنان اعتمادا على أسطول خاص يحملها إلى مينائي الإسكندرية ورشيد وتحمل على ظهر 4000 جمل إلى السويس) كما وصف التقرير تلك الحراسة المشددة التي يمارسها البرتغاليون على مدخل البحر الأحمر⁽⁵⁾.

(1) إيفانوف نيقولا: **الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م**، تر يوسف عطالله، تق مسعود ظاهر، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث، منشورات دار الفارابي، بيروت، 1988م، ص 131.

(2) عبد العزيز محمد الشناوي، ج2، المرجع السابق، ص 24.

(3) إيفانوف نيقولا، المرجع السابق، ص 131.

(4) نفس المرجع، ص 131.

(5) احمد بوشرب، دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي ونتائجه، المرجع السابق، ص 139.

يتضح لنا مما سبق مدى تصميم ونية العثمانيين في مواجهة البرتغاليين وصد مخططهم على الموانئ العربية الإسلامية، انطلاقاً من مبدأ الجهاد الإسلامي المقدس، وإحلال السيادة الإسلامية بدل السيادة الغربية الأوروبية.

المطلب الثاني: حملة سليمان باشا الخادم

بالرغم من أن هذه الحملة لم تكن موجهة إلى الخليج العربي مباشرة كونها جاءت لنجدة مسلمي الهند إلا أنني رأيت وجوب ذكرها في هذا الباب لسببين أساسيين: أولهما أنه من شأن القضاء على البرتغاليين في المحيط الهندي أن يضعف نفوذهم في تفرعاته - نقصد المحيط - والتي يشكل الخليج العربي واحدا منها هذا من جهة، ومن جهة أخرى رأيت وجوب هذه الحملة نظرا لما لها من أهمية ونتائج، كون الحملات العثمانية ستأتي على نمطها كما كان لهذه الحملة الأثر الكبير في علاقات الدولة العثمانية مع القوى المحلية بالمنطقة كما سنرى.

في سنة 1537م كانت مدينتا " كالكوتا " و " كامباي " المسلمتين بالهند تعانيان الدمار من البرتغاليين⁽¹⁾، لذا لجأ ملكاهما إلى طلب الاستغاثة من السلطان العثماني بالقسطنطينية والذي لبى النداء بأن بعث إلى عامله في مصر سليمان باشا الخادم يأمره ببناء أسطول قوي وتكوين جيش عظيم بالسويس⁽²⁾، ومما جاء في خطاب السلطان لعامله: " عليك ببيك البكوات بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه تجهيز حقيبتك وحاجتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء فانك إن قطعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية إلى مكة و لمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم"⁽³⁾.

على اثر تلك الأوامر وفي سنة 1538م، قاد "سليمان باشا الخادم" بيلرباي مصر أسطولا حربيا عثمانيا قوي في المحيط الهندي⁽⁴⁾، ويذكر لنا " النهروالي " في مؤلفه " البرق اليماني في الفتح العثماني " بأن

(1) قدرى قلججي، المرجع السابق، ص، ص 372.

(2) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، المرجع السابق، ص 195.

(3) قدرى قلججي، المرجع السابق، ص، ص 372، 373.

(4) محمود شاكر، موسوعة تاريخ الخليج العربي، المرجع السابق، ص 175.

الأسطول كان مكونا من سبعين سفينة غراب و ثلاثين برشة مسلحة بالمدافع⁽¹⁾ وقيل ثمانين سفينة من مختلف الأنواع و قيل أن أسطول هذه الحملة مكون من ستين غرابا وثلاثين سفينة أي تسعين غراب وسفينة في المجموع⁽²⁾ تقل عشرين ألف جندي⁽³⁾.

ويبدو أن الحملة العثمانية إلى الهند قد جهزت بسرعة نتيجة لبعض الأحداث التي قد وقعت ومن الأسباب التي عجلت بها نذكر:⁽⁴⁾

- تزايد أعمال القرصنة البرتغالية في المياه العربي خاصة خليج عدن و البحر الأحمر.

- مد البرتغاليين للفرس بالمعونات العسكرية، على اثر سقوط بغداد بيد العثمانيين سنة 1534م.

- قتل البرتغاليين للسلطان بهادر شاه سلطان الكجرات، بسبب علاقته مع الأتراك و تحريضه لهم على محاربة البرتغاليين في الهند.

كانت الخطة العثمانية تتضمن توجه الأسطول العثماني من ميناء السويس إلى ميناء جدة، و منه إلى مواني اليمن على البحر الأحمر ليصل إلى عدن و من هناك إلى البحر العربي فالمحيط الهندي لرد البرتغاليين و تحطيم أساطيلهم الراسية سواء في الموانئ العربية أو الهندية⁽⁵⁾.

غادرت الحملة ميناء السويس في يونيو 1538م⁽⁶⁾، ويسرد لنا النهروالي أحداث القصة قائلا: "...أبحر...أبحر الأسطول العثماني من السويس قاصدا جدة التي وصلها بعد سبعة أيام ثم الانتقال إلى عدن والتي

(1) قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليمني في الفتح العثماني، ط1، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1967م، ص 71.

(2) محمد كريم إبراهيم، " الحملة العثمانية على عدن سنة 945هـ / 1538م أسبابها ونتائجها"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مج4، ع 2، بابل(العراق)، (د ت)، ص ص 400، 401.

(3) قدرتي قلعي، المرجع السابق، ص 373 ؛ اختلفت روايات المصادر والمراجع التاريخية بخصوص إعداد الحملة وعدد سفنها وكوادرها وقياداتها وطريق مسيرها وابرز الحوادث التي رافقت سيرها وصولا إلى عدن، فضلا عن ما حدث بعدن من حوادث تباينت حولها آراء المؤرخين. انظر محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 397.

(4) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 99.

(5) محمد كريم إبراهيم، الحملة العثمانية على عدن، المرجع السابق، ص 397.

(6) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 99.

كانت تحت حكم الملك عامر بن داود⁽¹⁾ ولما بلغ هذا الأخير خبر وصول الحملة العثمانية إلى عدن ووجهتها نحو قتال البرتغاليين فتح له باب المدينة وتوجه هو ووزيره للسلام عليه إلى الغراب، الذي هو فيه، وبمجرد أن رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح أمر عسكره بدخول عدن وأخذها، ولما وصل السلطان عامر بن داود البسه سليمان باشا ومن معه خلعا، ثم أمر بصلبهم على الصاري (حبل المركب الذي هو فيه) الغراب الذي هو فيه، ونهب عسكره داره، وشرع في نهب البلد...⁽²⁾

ثم يستطرد النهروالي في الحادثة قائلا: " ... وأتاب عنه في عدن: " بهرام بك"، سنجقا كبيرا، ونائبا أميراً، فضبط البلاد بذلك وكتب إلى الأبواب السلطانية، انه اخذ عدنا قهرا، و انه افتتحها قصرا، وكتب على باب عدن انه افتتح هذه البلاد في سنة 945هـ / 1538م، وتوجه سليمان باشا إلى الهند لمقاتلة الإفرنج الذين في الديو⁽³⁾.

نستشف من رواية النهروالي هذه أن سليمان الخادم تصرف بشكل غير مناسب مع " عامر بن داود" سلطان اليمن، قد يعود ذلك إلى طبيعة العلاقة بين الطاهريين و البرتغاليين في عهد عامر بن داود بن عبد الوهاب الطاهري (1489م، 1517م)، والذي كما رأينا اعترف بالسيادة البرتغالية على اليمن ثلاث مرات متتالية⁽⁴⁾.

مهما يكن من أمر فقد أبحر بعدها الأسطول إلى الساحل الغربي للهند، التي يبدو أن سكانها متحمسين لقتال البرتغاليين بقيادة احد أمرائها وهو " الخواجة صفر " الذي ما إن علم بقدوم الخادم إليه حتى شمر عن ساعديه واعد الجند، ولما وصل الخادم إلى مكان بالقرب من ديو يسمى مظفر أباد، أراد الخواجة التوجه إليه واستقبله إلا أن احد وزرائه حذره من مغبة الذهاب وأن يحصل له ما حصل لسلطان اليمن فقرر أن يتم التعامل بالرسل⁽⁵⁾.

(1) وهو احد من تبقوا من بنو طاهر ملوك اليمن، وفي فترة حكمه لم يبق في يده من مملكة اليمن إلا عدن، وصفه النهروالي بأنه كان شابا كريما جوادا حلما محسنا، إلى الناس، موقرا للعلم والعلماء. انظر: النهروالي، المصدر السابق، ص 80.

(2) نفس المصدر ، ص 80.

(3) النهروالي، المصدر السابق، ص 80، 81.

(4) محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 399.

(5) النهروالي، المصدر السابق، ص 82.

وغير بعيد من ذلك تكدرت علاقة احد أمراء الهند يدعى محمودا (امير كجرات) مع سليمان الخادم نتيجة ومعاملة هذا الأخير لأحد رسل محمود واحتقاره له، فما كان من محمود إلا أن قام بمبادلتة الاحتقار من خلال رفض هدية كان قد أرسلها الخادم إلى محمود، ويذكر النهروالي رد محمود بالقول: "إن كانت هذه الخلعة والسيف من عند حضرة السلطان سليمان وإن كانت من عندك فليس من مرتبتك إرسال الخلعة إلينا" فتشاحت الأنفوس بين الجانبين⁽¹⁾.

مهما يكن من أمر فقد استطاع الخادم الوصول إلى ميناء ديو الذي كان يتواجد به البرتغاليون وتمكن من ضرب قلعتي (كوه) و(كار) بالقنابل واستولى عليهما بعد أن قتل ألفا من البرتغاليين، ثم قرر العودة إلى حصن ديو البرتغالي بإقليم كجرات و ضرب حصارا عليه، و لكن الحصار الذي طال مدة شهر لم يفضي إلى نتيجة، كون ملك كجرات محمود لم يمددهم بالذخيرة بعد أن ارتاب من فعل الخادم مع سلطان اليم⁽²⁾.

والحقيقة انه بالرغم من عدم نجاح هذه الحملة في تحقيق أهدافها إلا انه من المتوقع أن يكون أعطى للبرتغاليين فكرة عن الخطر العثماني المهدد بهم المنطلق من ميناء السويس، و قد أكدت الحملة العثمانية هذه سيطرة الأتراك على عدن⁽³⁾. كما انه وبالرغم من أن الأسطول العثماني قد انهزم إلا أن هذه الحركة كانت عاملا في كبريا في زعزعة سلطان البرتغاليين في بحار أسيا⁽⁴⁾، نظرا للحملة العثمانية التي سترسل على أعقاب هذه الخسارة.

وقد أشاع سليمان باشا الخادم عند وصوله إلى ميناء الشحر⁽⁵⁾ بعد انسحابه من الهند في 1538/11/26م، انه لم يلق أية مساعدة من جانب الهنود في كجرات، وأنهم لم يمدوه بالمؤن اللازمة، وذلك

(1) النهروالي، المصدر السابق، ص ص82، 83.

(2) حاجي خليفة: تحفة الكبار في أسفار البحار، تح وتر محمد حرب وتسليم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، 2017، ص 121.

(3) محمود شاكر، موسوعة تاريخ الخليج العربي، المرجع السابق، ص 175.

(4) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري، المرجع السابق، ص 280.

(5) ميناء رئيسي في جنوب شبه جزيرة العرب، و هي مدينة حربية قديمة، و قيل عنها انه ينسب إليها العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحلها، عاشت مدينة الشحر شان موانئ شبه الجزيرة العربية ازدهارا عظيما في القرن 16م لوقوعها على خط الملاحة الدولي المتجه من الهند إلى عدن، اشتهرت بإنتاج البخور واللبن والخيول العربية الأصيلة. انظر: عصام سخيني، المرجع السابق، ص ص115، 116.

لتبرير عودته السريعة من الهند دون تحقيق النتائج المرجوة⁽¹⁾. فلم تقم الدولة العثمانية بعدها بإرسال حملة إلى الهند حتى وقت طويل⁽²⁾.

المطلب الثالث: حملة بيري رايس

كنتيجة لتلك الحملات البرتغالية بمنطقة الخليج العربي سواء الناجحة منها أو الفاشلة جعلت الباب العالي⁽³⁾ يفكر جديا في إرسال حملات بحرية كبيرة لمقارعة البرتغال المتواجد بالمياه الإسلامية الجنوبية يأتي ذلك بعد أن قام الأسطول البرتغالي بتخريب قلعة القطيف التابعة للحكم العثماني والذي اعتبره العثمانيون مساسا لهيبتهم⁽⁴⁾.

والواقع أن هذه الحملة جاءت بعد مرور خمس سنوات من وصول الدولة العثمانية إلى البصرة على رأس الخليج العربي، فكان لزاما عليها بعد أن أصبحت وجها لوجه أمام البرتغاليين توفير قوة عسكرية بحرية لحماية المدينة و موانئ الساحل الذي امتدت إليه كما رأينا ومن أجل هذا جاءت هذه الحملة⁽⁵⁾.

اصدر الباب العالي أوامره إلى قبودان⁽⁶⁾ مصر للتوجه نحو الخليج العربي ومقارعة البرتغاليين هناك، هناك، خاصة بعد أن قام هؤلاء بتعزيز دفاعاتهم بمسقط من خلال تجديد بناء قلعتي (ادميرال وسانت جوا)

(1) محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 406.

(2) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 83.

(3) الباب العالي : وهو مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية، وكان يطلق عليه في العهود الأولى "ديوان همايون" أي الديوان السلطاني وكان يرأسه السلطان العثماني بنفسه، فلما اتسعت الدولة العثمانية وكثر عدد الوزراء والأمراء في عهد محمد الفاتح كانت الحاجة إلى تنظيمات جديدة شملت الديوان السالف الذكر وأطلق عليه اسم " الباب العالي" وكان أول من أنشأه هو محمد الرابع سنة 1654م، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني الوزير الأعظم، وقد أصبح للباب العالي أهمية كبيرة في القرن التاسع عشر ميلادي خاصة زمن السلطانين عبد العزيز وعبد الحميد الثاني.

(4) عبد العزيز نوار: تاريخ الشعوب الإسلامية دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص 123 .

(5) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 108.

(6) القبودان: أو قبودان داريا وداريا يقصد بها البحر وأحيانا يطلقون عليه لقب قبودان باشا وهو مصطلح أطلقه العثمانيون على قائد القوات البحرية و لم يكن ها المنصب ذو أهمية قبل القرن 16م لان الدولة لم تكن بحرية، وكان صاحب هذا اللقب عضوا في الديوان الهياموني واعتبر واليا بحريا عاما وكان قبودان داريا غير تابع لقائد القوات البرية بل كان يتلقى أوامره مباشرة من الصدر الأعظم و السلطان، و كانت البحرية العثمانية كلها تحت سلطته، كما كان يتصرف تصرفا مطلقا في الميزانية، استمر استعمال المصطلح من 1451 إلى 1876 ليتغير الاسم بعدها إلى بحرية ناظري انظر: محمد محمود خليل، المدير العام للأكاديمية المصرية للتاريخ والفنون، وثائق بحرية عن قبودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين (الخليج العربي الجزيرة العربية ولاية

وجلفار (رأس الخيمة) وغيرها من التحصينات⁽¹⁾، ضف إلى ذلك تلك العلاقات التي أقامها البرتغاليون مع الأهالي وشيوخ القبائل الرافضة للحكم العثماني في أطراف البصرة، بل وصل الأمر أن حثوا أهالي المنطقة للوقوف في وجه الأتراك العثمانيين⁽²⁾، كل هذا دفع بالدولة العثمانية إلى توجيه حملة نحو الخليج العربي.

وقد وقع اختيار السلطان العثماني لبيري ريس⁽³⁾ للقيام بهذه الحملة نظرا لما يتمتع به هذا البحار من خبرة ودراية عسكرية بالبحار⁽⁴⁾، كما اصدر الباب العالي أوامره إلى بيلر بك البصرة (قباد باشا) للاستعداد وتجهيز السفن الحربية والجنود⁽⁵⁾.

يتضح من التعليمات الموجهة لبيري ريس أن وجهة الحملة كانت إلى جزيرة هرمز لإلحاق إدارتها بالبصرة⁽⁶⁾، وبعد السيطرة على هرمز أن يقوم بتخريب أراضيها إذا لم يرض أهلها الدخول تحت الحكم العثماني، وإذا صارت الأمور كما ينبغي يتجه بعد ذلك للبحرين ليسيطر عليها، وبما أن المناطق المجاورة للبصرة خطرة

=الحبشة المحيط الهندي المغرب العربي) ج1، (د ط)، (د ن)، (د ت)، ص 4. محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علق علي باشا، (د ط)، دار الأمل للطباعة والنشر و التوزيع، (د م)، 2009، ص 179.
(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 388.

(2) فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص 30.

(3) محي الدين الرئيس (1465 1554م)، من عائلة قره مانبة احد ابرز القادة البحرينيين العثمانيين في القرن السادس عشر في غالبيولي، ولا يوجد تاريخ دقيق لولادته، إلا انه على الأرجح من مواليد سنة 1465م، اشتهر في عهد السلطان "بايزيد" باعتباره من أهم القادة البحرينيين في البحر المتوسط بعد أن رافق منذ صباه كمال الرئيس في أسفاره، اشتهر في البحر الأبيض المتوسط حتى قيل فيه انه لا يوجد ساحل أو جزيرة أو سخرة في البحر المتوسط إلا وشاهدها، بل ورسم لها الخرائط، وفي سنة 1500م أصبح قبطانا(عقيد بحري صاحي سفينة). استعان به السلطان سليم الثاني في فتح مصر وفيما تلا ذلك من عمليات بحرية في البحر الأحمر، ووضع بييري اكبر موسوعة بحرية في ذلك الوقت كتاب البحرية الذي يعتبر مصدرا مهما في تاريخ و جغرافيا المضائق والمسطحات المائية التي كانت مسرحا لنشاط البحرية العثمانية، كما كان جغرافيا و فنانا في رسم الخرائط فقد رسم خريطتين للعالم وهو راسم أقدم خريطة معروفة لحد الآن، عين سنة 1552م قبودانا على للبحرية المصرية، اعدم في مصر سنة 1554م. انظر: يلماز أورتونا: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، تر عدنان محمود سلمان، مج1، ط1، الدار العربي للموسوعات، بيروت، 2010م، ص 333 ؛ حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 107؛ محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص 18 ؛ محمد دراج: الجزائر في المصادر العثمانية، ط1، دار الوراق للدراسات و النشر والتوزيع، الجزائر، 2017م، ص 31، 41؛ نسبية عبد عبد العزيز الحاج علاوي، " البحار العثماني محي الدين بييري ريس حياته وجهاده البحري 1465-1554"، مجلة التربية و العلم، ع 4، جامعة الموصل، 2009م، ص 76.

(4) فيصل الكندري، المرجع سابق، ص 30.

(5) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص ص 204 ، 205.

(6) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج1، المرجع السابق، ص 17.

بسبب العشائر العربية دائمة الثورة ضد العثمانيين والمحرضين من قبل البرتغاليين، فعلى بييري ريس أن يتوجه إلى البصرة، وأن يقضي فصل الشتاء إذا تطلب الأمر ذلك، وبعد الانتهاء من المهمة يمكن إبقاء عشرة سفن في الخليج العربي على أن تعود بقية السفن إلى السويس، وكان صاحب القرار في ذلك قائد الأسطول⁽¹⁾.

أبحر بييري ريس في أبريل 1552 م من السويس ومعه ثلاثين سفينة⁽²⁾، خمسة وعشرين سفينة من نوع (كدركة) وأربعة (غليون) وسفينة أخرى كبيرة و حوالي ثمان مئة وخمسين جندي (وقيل ألف وستمئة)، وعبر باب المندب و وصل إلى عدن⁽³⁾، أين ساعد والي اليمن على إخضاع القبائل الثائرة في الجزء الذي تسيطر عليه الدولة العثمانية⁽⁴⁾.

وبعد تموين الأسطول توجه إلى ميناء " شهر " إحدى المدن التجارية الهامة بعد عدن، وبالقرب منها تفرقت السفن العثمانية بسبب الضباب الكثيف وجنحت إحداها إلى البر، ثم توجهت البقية نحو ميناء ظفر في الشمال، ثم واصلت إلى (رأس الحد) ومنها تحركت إلى الشمال، وبذلك دخل الأسطول العثماني خليج عمان، وكانت اسطنبول قد استقرت من بيلريك البصرة " قباد باشا " عن أخبار الأسطول العثماني، ولأن هذا الأمر مبعوث إلى البصرة ، قام بييري ريس في أكتوبر سنة 1552 م بإرسال ابنه محمد بك إلى البصرة ومعه قرار تعيينه قبودان عليها، وأطلع "محمد بك" " قباد باشا" على براءة التعيين وسلمه الرسالة وأخبره عن الوظيفة الممنوحة⁽⁵⁾.

1- حصار مسقط:

أرسل حاكم هرمز البرتغالي الدون " ألفارو دي نورنھا D. Alvaro de Noronha " عدة سفن تجسسية واستطلاعية بقيادة القائد " سايمو دي كوستا "، لمعرفة أحوال الأسطول العثماني ، وتقابلت إحدى السفن التجسسية مع سفينة محمد بك، الذي بعثه بييري ريس إلى قباد باشا، ولكن لم تحدث مواجهة⁽⁶⁾. و قيل أن الأسطول العثماني اصدم بالبرتغاليين في معركة واغرق أسطولهم⁽⁷⁾.

(1) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 13.

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 503.

(3) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 14

(4) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 83.

(5) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 14.

(6) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 14.

(7) فالج حنظل، المرجع السابق، ص ص 388، 389.

واستمر بييري ريس في تقدمه حتى وصل أمام قلعة مسقط والتي كانت تشكل القاعدة الثانية للبرتغاليين بعد جزيرة هرمز⁽¹⁾، فحاصرها وقذفها لمدة سبعة وعشرين يوما⁽²⁾، ولم يكن في نية " بييري ريس " الاحتفاظ بهذه القلعة، لسيطرة البرتغاليين عليها من قواعدهم في هرمز وديو وجوا، كما أنه لم يكن لديه أعداد كافية من الجنود لإبقائهم فيها، بالإضافة إلى قرب مسقط من هرمز التي كانت قاعدة البرتغاليين في الخليج العربي وبعدها عن الولايات العثمانية سواء كانت الإحساء والبصرة أو الحجاز واليمن⁽³⁾.

مهما يكن من أمر فقد أدت قوة الحصار على مسقط إلى استسلام قائدها (جوا دي لزبوا)⁽⁴⁾ وبعد استسلام الحامية البرتغالية بادر بييري ريس إلى تجريد الحامية من سلاحها ونقله إلى سفنه وأسر قائدها رفقة ستة عشر من جنوده⁽⁵⁾ وكبار ضباطها واكتفى بتخريبها وتوجه إلى هرمز معقل البرتغاليين⁽⁶⁾.

2- حصار هرمز:

كان القائد البرتغالي لهرمز " الدون ألفارو دي نورنھا " على علم تام بتحركات العثمانيين فاخذ احتياطاته اللازمة من تحصين للقلعة، وتوفير تسعمائة جندي دربوا تدريباً جيداً، كما وفر المواد الغذائية والأسلحة اللازمة لتحتمل الحصار طويل⁽⁷⁾.

بدأ بييري ريس حصاره لهذه المدينة بأسطوله المكون من ثمانية وعشرين سفينة وثمانمائة وخمسين جندي، وأخذ يقصفها من البحر والبر، حتى أحدث تلفيات في أبنية قلعتها، و لم يفلح العثمانيون في تحقيق نتائج جيدة في هرمز بعد أن تراجع الجنود البرتغاليون إلى القلعة الداخلية، كما لم يوافقوا على الاستسلام، حيث استمر حصار بييري ريس للقلعة وطال أمده، فتسرب اليأس وقل الحماس لدى الجنود العثمانيين، وخاف بييري ريس من قيام أسطول برتغالي بالهجوم عليه أثناء الحصار، فاضطر لرفع الحصار عن هرمز⁽⁸⁾.

(1) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج والجزيرة ، ج1، المرجع السابق، ص 19.

(2) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص14.

(3) فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص 32.

(4) فالخ حنظل، المرجع السابق، ص 389.

(5) محمد سعيد المسيلم: ساحل الذهب الأسود، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د ت)، ص 173.

(6) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج ، ج1، المرجع السابق، ص 20.

(7) فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص32؛ نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي، المرجع السابق، ص 83.

(8) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص14.

واتجه إلى جزيرة قشم ثم دخل ميناء إيران (الذي سيسمى فيما بعد بندر عباس) وقام بعرض فيه، كما لام السكان المحليين الذين كانوا يتعاونون مع البرتغاليين، كما زار إمارات عمان وقطر والبحرين وحصل على اعتراف منهم بالتبعية للدولة العثمانية⁽¹⁾، ليصل بعدها إلى البصرة محملاً بالغنائم، منها البشارة الخليجيين على مراقبة التحركات البرتغالية.

وجاء رد البرتغاليين على تلك الهجمة العثمانية بإعداد أسطول برتغالي اقلع من جوا في سبتمبر عام 1552م ولكنه سرعان ما عاد بمجرد زوال الخطر وانتهاء الحصار⁽²⁾ وهو ما يعطينا فكرة عن مدى صواب قرار بيرى ريس في تحديد وقت الانسحاب.

و هكذا مع أن حصار هرمز لم يحقق النتائج المرجوة منه كما سبق إلا أنه كبد التجارة البرتغالية خسائر فادحة ، بدليل أن الأسطول التجاري البرتغالي المكون من ست سفن، انطلق من لشبونة إلى ديو سنة 960 هـ / 1552م ولم يبلغ هرمز كالمعتاد، إلا بعد أن علموا بفشل الأسطول العثماني فيها، ومن هنا انتعشت الحركة التجارية من جديد لدى البرتغاليين⁽³⁾.

عندما علم بيرى ريس أثناء وجوده بالبصرة بتقدم أسطول برتغالي قوي نحوه وبعد تحذير "جيان ليزاوا" الأسير البرتغالي له من صعوبة عودة الأسطول العثماني إلى السويس في حالة إغلاق البرتغاليين مضيق هرمز، أسرع بمقابلة بيلر بك البصرة "قباد باشا"⁽⁴⁾، وهم بمغادرة البصرة وبصحبه ثلاث سفن تاركا ما تبقى من أسطوله هناك وفي الطريق تحطمت إحدى سفنه بالقرب من البحرين وأكمل بيرى الطريق بالسفينتين المتبقيتين إلى مصر⁽⁵⁾، وهناك أعدم بعد أن وجهت إليه تهمة الفشل في تحقيق أهداف العثمانيين في الخليج العربي، وذلك حسب التقارير التي بعثها كل من والي مصر "داود باشا"، وبيلر بك البصرة قباد باشا، الذي كان له دور فعال في إعدام بيرى ريس، إذ احتوى التقرير المبعوث إلى اسطنبول أن بيرى ريس قد سلب أموال المسلمين في هرمز، وذلك أثناء

(1) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج1، المرجع السابق، ص 333.

(2) Mohamed Hameed Salman, op. cit, p 189.

(3) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15؛ نسيبة عبد العزيز، المرجع السابق، ص 84.

(4) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(5) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج ، ج1، المرجع السابق ، ص 21.

حصاره لها، ومع نجاح قباد باشا في عزل القائد العثماني، إلا أن ذلك لم يشفع له لدى السلطات العثمانية، إذ عزل بعد فترة قصيرة من بيلربكية البصرة⁽¹⁾.

وبوصول الخبر الذي يدين بيرى ريس ويحملة مسؤولية الهزيمة في الخليج إلى السلطان العثماني، تقرر عرض البحار بيرى على محاكمة عسكرية انتهت بإعدامه عن عمر يناهز الثمانون سنة⁽²⁾، وجرت عملية الإعدام في القاهرة⁽³⁾.

وجدير بالتنويه هنا أن المصادر لم تستطع أن تعلق السبب الحقيقي لإعدام بيرى ريس⁽⁴⁾، فظهرت تفسيرات وأقوال عديدة قيلت في حادثة إعدام البحار الكبير والجغرافي المتمرس بيرى ريس، إذ أرجع بعضهم سبب إعدامه إلى قيامه برفع الحصار في هرمز وأنه فعل ذلك مقابل رشوة تلقاها من عند البرتغاليين، في حين قال آخرون أن سبب الإعدام يعود إلى قيامه باخذ الخراج والهدايا باسم الدولة العثمانية، غير أن هذا الرأي لم يكن مقبولا كون القبطان بيرى اضطر إلى رفع الحصار عن هرمز لأسباب إستراتيجية⁽⁵⁾.

فيما أشار البعض إلى أن السبب عصيان سليمان القانوني بعدم الجد في حصار هرمز قبل الذهاب إلى البصرة للتزود لياخذ جنودا آخرين، غير أن بيرى بك رأى ونتيجة لما وجده من ضعف للبرتغاليين في مسقط جعله يتوقع أن هرمز ستكون بنفس الضعف و لكنه كان مخطئا⁽⁶⁾.

ولعل في الرأي الأخير ما يتقبله العقل كونه ليس من المعقول أن يأخذ بحار بمرتبة بيرى ريس برأي احد أسراه في عدم مواجهة البرتغاليين، نظرا للشجاعة التي عرف بها البحار سواء في البحر الأبيض أو الأحمر، وكذلك من غير المعقول أن يقبل بيرى رشاوى من أسيره، خاصة إذا علمنا انه كان قد استولى على غنائم كثيرة في هرمز وقشم⁽⁷⁾.

(1) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(2) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 9.

(3) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، المرجع السابق، ص 195.

(4) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 23.

(5) احمد أق كونز، سعيد أوزتوك: الدولة العثمانية المجهولة، 300 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية، وقف البحوث العثمانية، استانبول، 2008، ص 250، 253.

(6) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 23.

(7) نفس المرجع، ص 24.

المطلب الرابع: حملة الرئيس مراد بك 1553

كان لزاما على الدولة العثمانية أن تحاول من جديد مقارعة البرتغاليين في مياه الخليج العربي من جديد بعد تلك الخسائر الناتجة عن الحملة السابقة لييري ريس⁽¹⁾، بالرغم من ذلك الصراع الذي كان قائما على الحدود الفارسية العثمانية عام 1553م، والذي أفضى إلى عقد معاهدة أماسيا المعروفة، والتي تم بموجبها تعديل على الحدود العثمانية الفارسية.

عهد السلطان سليمان سنة 961 هـ / 1553 م إلى مراد ريس بيلر بك القطيف السابق في ذلك الوقت والذي كان مقيما بالبصرة مهمة قيادة الأسطول العثماني في البصرة⁽²⁾، ويعزى اختيار السلطان لشخص مراد بك نظرا للخبرة الكبيرة التي يتمتع بها البحار في الحروب ضد البرتغاليين بمنطقة الخليج العربي⁽³⁾.

كانت الأوامر بان يقوم مراد بإعادة الأسطول إلى السويس مع جميع الجزء المتبقي بالبصرة للدفاع عنها مع إعداد صيانة السفن الأخرى عن طريق تلك الإمدادات القادمة برا، وبعد أن تم إصلاح تلك السفن ترك مراد سفينتين حربيتين وخمسة أغربة⁽⁴⁾، وجهاز خمسة عشر سفينة وعبر الخليج العربي نحو البحر الأحمر لمقارعة الأسطول البرتغالي الذي كان متوجها نحو ميناء جدة، وعبثا قام مراد ريس في طريقه باستدراج البرتغاليين في الخليج محاولا إبعادهم خارج حصونهم إلا أن محاولاته لم تؤتي نجاحا⁽⁵⁾.

مهما يكن من أمر فقد اصطدم الرئيس مراد بك بالأسطول البرتغالي بقيادة (ديجو دي نورنھا) بالقرب من جزيرة هرمز أمام السواحل الفارسية، أين يتواجد أقوى حصن برتغالي، غير أن المعركة انتهت بين الطرفين دون انتصار حاسم لأي منهما، وغرقت عدة سفن برتغالية وسفينتي سلمان ريس ورجب ريس⁽⁶⁾.

لم يتمكن مراد بعدها من إرجاع الأسطول العثماني الذي كان راسيا في ميناء البصرة إلى السويس بل اضطر إلى إرجاع كل الأسطول إلى البصرة نضرا لتضرر عدد من السفن والتي لم يعد بإمكانها الإبحار لمسافات

(1) عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 143.

(2) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(3) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 25.

(4) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 109.

(5) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(6) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج 1، المرجع السابق، ص 334.

طويلة⁽¹⁾ وكان ولكن الأسطول البرتغالي كان له بالمرصاد، فحال بذلك دون نجاح مهمة مراد ريس، الذي اضطر للعودة إلى اسطنبول براً، بعد أن خسر عدداً من سفنه في معركة بحرية مع الأسطول البرتغالي إلى الشمال من مسقط في شوال 961 هـ / أوت 1553 م⁽²⁾. ليقوم بعدها السلطان سليمان القانوني بتعيين السيد علي الريس تولي مهمة إنقاذ الأسطول الراسي بالبصرة.

المطلب الخامس: حملة سيد علي ريس في الخليج العربي

عند وصول تقارير الوقائع إلى الأستانة رفعت السلطات التحدي و أصرت الدولة العثمانية على إعادة أسطولها المحاصر في الخليج العربي إلى ميناء السويس، وعينت سيدي علي ريس⁽³⁾ قبوداناً على السويس لهذه المهمة في ذو القعدة 961 هـ / سبتمبر 1553 م براتب قدره مائة وخمسين أجرة⁽⁴⁾ يومياً⁽⁵⁾، مستغلة فرصة تواجد تواجد القبطان في حلب⁽⁶⁾.

تحرك سيدي علي ريس برا من حلب صوب البصرة في 21 شوال 961 هـ / 7 سبتمبر 1553 م، ووصل إليها في 20 ربيع أول 962 هـ / 03 فبراير 1554 م ماراً (بأورفة) و (نصيبين) و (الموصل)، وتسلم من

(1) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص 25.

(2) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(3) وهو سيدي علي ريس المولود في اسطنبول من عائلة ذات أصول من مدينة سينوب، عمل جده وأبوه في البحر كمستشارين في مصنع السفن العثماني "سينوب" على البحر الأسود، واشتغل على غرار أهله في الصناعة البحرية كما شارك في عديد الفعاليات البحرية كمشاركته في فتح طرابلس سنة 1551م ورودس سنة 1552م، فضلاً عن مشاركته في الصراع البرتغالي العثماني الذي كان مشتتاً في الخليج العربي والمحيط الهندي، تقلد منصب المستشار الخاص للسلطان سليمان، وكانت له القدرة على النظم والنظر. ترك سيدي علي ريس مؤلفات في البحرية أشار إليها في كتابه (تحفة الكبار في أسفار البحار) وهو كتاب يتكلم عن الأسطول العثماني، وله أيضاً كتاب (مرآة الكائنات) حول استخدامات صناعة الإسطرلابات وارتفاع الشمس ومسافات النجوم وتحديد القبلة والمواقيت، انظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 126؛ يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج1، المرجع السابق، ص ص 334، 335؛ محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 09.

(4) معناها نقد أبيض و هي قطعة من صغيرة من الفضة ضربت وصكت لأول مرة 769هـ / 1327م. في عهد السلطان اورخان، وكانت تستعمل في الأوساط الشعبية للدلالة على الدراهم و النقود، و تساوي ربع أو ثلث البارة انظر: سهيل صابان، المرجع السابق، ص ص 20، 21؛ محمود عامر: "المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، ع 117، 118، قسم التاريخ جامعة دمشق، جانفي، جوان 2012م، ص 362.

(5) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(6) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج1، المرجع السابق، ص 335.

بيلريك البصرة " مصطفى باشا " خمسة عشر سفينة، وظل خمسة أشهر في البصرة رتب فيها أسطوله ووضع فيها ما يلزم من القواد البحارة، ليتحرك بعدها في 18 شعبان 962 هـ / 02 يوليو 1554م بأسطوله قاصداً موانئ الساحل الشرقي من الخليج العربي، ومنها توجه إلى القطيف ثم البحرين لتمويه الأسطول البرتغالي⁽¹⁾.

يأتي ذلك بعد وصول أخبار بأنه متوجه نحو استرجاع مسقط بقيادة (فرناند دي نورنھا) والذي كان قد علم هو الآخر بقوم سيد علي راييس وإجراءاته التي اتخذها بفضل الجواسيس البرتغاليين الذين كانوا منتشرين ومتخفين بزي صيادي الأسماك لكي لا يلفتوا النظر إليهم⁽²⁾.

وعندما علم القائد البرتغالي أن الأسطول العثماني متجه نحو مسقط سار على إثره، وبوصول علي الريس إلى مشارف المدينة هجم على الحامية المرابطة هناك حتى وصل بالقرب من خور فكان، وهناك التقى بأسطول برتغالي آخر في 09 أوت 1554م، مكون من خمس وعشرين قطعة بحرية، وجرت هناك معركة حربية عنيفة بين الأسطولين استمرت حتى المساء، مما اضطر البرتغاليين للانسحاب بعد أن أغرق العثمانيون قليون برتغالي، و هو ما اعتبره سيدي علي ريس انتصاراً⁽³⁾.

تابع الأسطول العثماني سيره نحو (مسقط)⁽⁴⁾ و (قلهات)⁽⁵⁾، وفاجأه هناك نفس الأسطول البرتغالي الأول الأول الذي قام بأخذ الإمدادات و عاد في لمجابهة العثمانيين بالقرب من الساحل العماني 25 أوت من نفس السنة⁽⁶⁾، و كان الأسطول مكون من أربع وثلاثين سفينة، في مقابل الأسطول العثماني المكون من خمسة عشر سفينة المذكورة بعضها معطل لم يتم إصلاحه بعد المعركة الأولى بسبب بعد مراكز التموين في البصرة أو السويس إلا أن ذلك لم يثنى البحار العثماني سيد علي الريس من أداء واجبه⁽⁷⁾.

(1) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(2) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 26.

(3) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(4) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج 1، المرجع السابق، ص 335.

(5) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15.

(6) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج 1، المرجع السابق، ص 335.

(7) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15، 16.

وفي جو حار وقعت المعركة التي دامت 18 ساعة، بدون توقف، وقاد البرتغاليين في معركتهم " دون فيرنان don fernan" ابن نائب الملك بالهند⁽¹⁾، وانتهت المعركة بإغراق ست سفن برتغالية، وخمس سفن عثمانية، وأحرقت أخرى عندئذ قرر سيدي علي ريس الانسحاب لينجوا ببقية أسطوله، ولكن عاصفة قوية جرفته إلى عرض الخليج ثم ألقت به على ساحل (كمران)⁽²⁾ .

تعتبر هذه المعركة احد أهم المعارك العثمانية البرتغالية بمياه الخليج العربي بل قد تتفوق حتى حملات خير الدين بربروس في مياه المتوسط³، مع العلم أن سيد علي الريس كان قد عمل معه في فترة من الفترات. هذا وتكتسي الحملة أهمية كبيرة كون العثمانيين وبالرغم من ذلك التفوق في السفن والمعدات إلا أنهم عجزوا عن تحقيق انتصار قاسح يخرج ويطرد العدو حتى مضيق هرمز⁽⁴⁾.

و هكذا وبعد تلك المعركة قرر سيد علي الريس التوجه إلى السويس، وبعد أن تزود الأسطول العثماني بالمؤن والعتاد قصد موانئ اليمن، وفي أثناء سيره هبت عليه زوبعة عنيفة اضطرتته إلى أن يتبع مجرى الرياح لعدم قدرته على مقاومتها بتلك السفن التي قد خرب معظمها من كثرة الحروب، إلا أن ألقته الرياح أخيرا بساحل الهند أين غرقت منه بعض السفن ولاقى الأسطول العثماني أهوالا كبيرة في ذلك⁽⁵⁾.

وبالرغم من ذلك استطاع علي الريس أن يوصل أسطوله إلى بر الأمان بميناء سوارت التابع لحكم كجرات الخاضعة لحكم إسلامي، ونظرا لصعوبة عودة معظم البحارة وجنود الأسطول العثماني إلى ميناء السويس قرر هؤلاء الالتحاق بخدمة سلطان كجرات المسلم⁽⁶⁾ والاستقرار بالهند⁽⁷⁾.

ومما هو جدير بالذكر هنا التطرق إلى الحالة المزرية التي آلت إليها سلطنة كجرات الإسلامية في الهند وماسها من ضعف شأنها في ذلك شأن الدولة المملوكة المندثرة، حيث كانت في عهدها الأخير، وقد كانت قواها البحرية ومدفيعيتها وحتى بعض من ألياتها قد انتقلت إلى الضباط الأتراك، إلا أن الدولة العثمانية لم تستغل الوضع

(1) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج1، المرجع السابق، ص335.

(2) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 15، ص16

3 حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 128.

(4) محمد حسن العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج1، المرجع السابق، ص 27؛ جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 89.

(5) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص109.

(6) وهو احمد شاه الثاني (1553-1561م) .

(7) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي والجزيرة، ج1، المرجع السابق، ص28.

وتتفرد بحكم كجرات، ولنا أن نتخيل في حال حدوث ذلك ماذا كان سيحل بالبرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي⁽¹⁾.

مهما يكن من أمر وبالرغم من الإغراءات التي تلقاها علي ريس من طرف سلطان كجرات من أجل البقاء والدخول في خدمته إلا أنه رفض، وأمام هذه الظروف قرر سيدي علي ريس العودة إلى الوطن، بعد أن سلم السفن ومعداتها إلى الملك "أحمد" ملك كجرات على أن يدفع ثمنها فيما بعد إلى السلطان العثماني⁽²⁾، وبعدها عاد وبرفقته خمسين من أتباعه، مارين ببلاد الهند وأرض فارس بعد أن صادفوا الأهوال والصعاب، والتي أوضحها في رحلته المسماة باسم "مرآة الممالك"، وقد كتبها بعد عودته من مهمته التي استغرقت ثلاثة أعوام⁽³⁾.

وعند وصول البحار علي ريس إلى الأستانة قابل هناك السلطان سليمان القانوني ووضح له في ليال بعض ما حدث له من مغامراته ومقارعتة للبرتغاليين⁽⁴⁾، كما قدم إليه رسائل من أمراء وحكام البلاد التي مر بأراضيها ونال بذلك علي ريس استحسان ورضا السلطان وصدرة الأعظم رستم باشا معاً، واعتبروه غير محظوظ في حربه للبرتغاليين وأسندت إليه وظائف قيادية في الدولة⁽⁵⁾.

أدرك البرتغاليون خطورة الوجود العثماني على سواحل الخليج الشمالية، لذلك وبعد الانتصار النسبي الذي حققته البحرية البرتغالية على نظيرتها العثمانيين حاولت الأولى استكمال النصر والسير قدماً نحو إنهاء الوجود العثماني بمنطقة الخليج العربي من خلال وضع مخطط بحري كبير، فاتجهوا صوب البصرة قاعد العثمانيين في 1556م والحقوا الأضرار بالميناء⁽⁶⁾، إلا أن استماتة العثمانيين الموجودين بالمنطقة إضافة إلى رداءة الأحوال الجوية أفشلت المخطط واضطرتهم - البرتغاليين - للعودة إلى جزيرة هرمز دون تحقيق الهدف المنشود⁽⁷⁾.

(1) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج1، المرجع السابق، ص 337.

(2) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص 28.

(3) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 16.

(4) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج1، المرجع السابق، ص 336.

(5) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 16.

(6) صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار، المرجع السابق، ص 67.

(7) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص 28.

المطلب السادس: هجوم والي الإحساء العثماني مصطفى باشا على البحرين

بانكشارية بغداد ودون علم من السلطان العثماني قرر بيلرباي الإحساء "مصطفى باشا" في عام 1559م التوجه نحو البحرين في محاولة منه لحصار المنامة⁽¹⁾ على رأس أسطول عثماني من البصرة يحتوي على سبعون سفينة ذات حجم صغير من نوع (صندل) بالمجاديف، بالإضافة إلى سفينتين من الحجم الكبير نوع (غالليون) و حاصر العثمانيون القلعة بألف ومائتي جندي مقاتل⁽²⁾.

وحين وصل خبر هذا الحصار إلى هرمز معقل البرتغاليين بادر هؤلاء إلى إرسال قطع بحرية من أسطولهم من أجل التصدي للحملة العثمانية ، وكان الأسطول البرتغالي تحت قيادة (سالفرو داسيلفا) الذي حاصر بدوره الأسطول العثماني هناك متعاوناً مع مراد ريس الذي ما إن سمع بقدوم داسيلفا حتى سارع إلى الخروج من القلعة رفقة قواته، واستطاعت القوات المتحالفة مطاردة القوات العثمانية وإحراق سفنهم ومحاصرتهم⁽³⁾.

وفي هذه الأثناء بعث بيلربك البصرة إلى السلطان العثماني تقريراً يصف فيه الوضع هناك وحاصر القوات المشتركة للعثمانيين، فكان رد السلطان أن أمر بيلربك البصرة باستعجال إنشاء وصناعة سفن لإنقاذ المحاصرين وخصص لذلك مبلغاً من خزينة مصر، وجاءت الأوامر إلى حكام "طرابزون" و"أنطاكية" و"رودس" بتقديم الإمدادات بما فيها صناعة السفن بالبصرة وإرسالها إلى البحرين، كما وجهت الأوامر إلى أمير أمراء ديار بكر وبغداد لإرسال المدافع والبارود إلى الإحساء خاصة وأن مصطفى قد كان اخذ معه كل السلاح في بداية حربه⁽⁴⁾.

وبسبب تأخر الإمدادات أصبح موقف مصطفى باشا محرجاً في البحرين ذلك لأن القوات البرتغالية على وشك إحكام الحصار عليه، كما أن الدولة الصفوية وقفت موقف المتفرج ولم تحرك ساكناً فهي ترى أن القضاء على القائد العثماني ذو أولوية في مخططاتها، فلم يكن أمام مصطفى باشا إلا أن يفاوض (مراد الريس) حاكم جزيرة البحرين بأن اقترح عليه توفير السفن اللازمة مقابل أن يترك الجزيرة فرفض مراد الاقتراح، بل وفضل الانضمام إلى

(1) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 89.

(2) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص30.

(3) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص19.

(4) نفس المرجع ص19.

صفوف البرتغاليين ما جعل مصطفى يختبئ و رجاله في دواخل الجزيرة و أن ينصبوا كمينا خلف النخيل للقوات المتحالفة⁽¹⁾.

أسفر ذلك الكمين عن قتل العديد من البرتغاليين بما فيهم القائد (الفارو دى سيلفا)، كما حقق العثمانيون انتصارا على قوات مراد⁽²⁾ غير أن نقص الذخيرة من جهة وعدم وصول المدد جعل مصطفى يؤثر التفاوض على المجابهة، وقد استغل حاكم البحرين الموقف خاصة وأنه يعلم أن الحملة خرجت من دون إذن السلطان العثماني سليمان القانوني.

انتهت المفاوضات بين الجانبين على أن يسلم العثمانيون ما لديهم من الذخيرة وأسلحة ومعدات وأسرى الحرب والخيول وغرامة مالية يقدمها أمير لواء القطيف علي بك للبرتغاليين، والتي قدرت بعشرة أقباج عثمانية وكل أقبجة تحتوي على تحتوي على مائة ألف درهم عثماني⁽³⁾، ليعلن بعد ذلك السلطان العثماني سليمان القانوني فرمانا يمنح بموجبه حاكم البحرين (مراد ريس) لقب سنجق على الرغم من ذلك النفوذ البرتغالي الكبير بالجزيرة⁽⁴⁾. وسيبذل السنجق مراد جهدا كبيرا بالمنطقة في سبيل توطيد الحكم العثماني بالمنطقة خاصة وأن تلك المعارك العنيفة والتي دامت قرابة الستة أشهر قد جعلت الكثير من المناطق تنمرد وتستقل عن الحكم العثماني⁽⁵⁾.

وهنا وجب أن ننوه إلى أنه بالرغم من توقف الحملات العثمانية على البحرية العثمانية على منطقة البحرين وانحسار النفوذ العثماني منها على غير ما كان، إلا أنها ظلت مع ذلك تشكل منطقة عازلة بين الأتراك العثمانيين في الإحساء والقطيف والبصرة، وبين البرتغاليين في هرمز والمناطق التابعة لهم في مسقط والساحل الجنوبي للخليج العربي⁽⁶⁾.

(1) محمد حسن العيدروس، ، دراسات في الخليج العربي ، ج1، المرجع السابق ، ص30.

(2) نفس المرجع، ص 31.

(3) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 20.

(4) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 89.

(5) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص20.

(6) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص ص 89 ، 90 .

المطلب السابع: فترة الهدوء (1560 - 1581)

توقفت الحملات العثمانية في هذه الفترة على مراكز البرتغاليين في الخليج العربي وانحسر النفوذ العثماني في منطقة البحرين، ويظهر أن البرتغاليين هم من بادر إلى مهادنة العثمانيين يتضح ذلك من خلال ذلك الوفد الذي أرسله نائب الملك في الهند إلى الأستانة في عام 1562 م، في محاولة لتجسيد السلم بين القوتين إلا إن ذلك لم يكتب له النجاح بسبب إلحاح السلطان العثماني على إنهاء نام الاحتكار البرتغالي للتجارة ومحاولة تأمين الطرق البرية والبحرية و حمايتها و توفيرها للرعايا والتجار المنضوين تحت كنف الدولة العثمانية⁽¹⁾.

ثم جرت محاولة ثانية بعد أن اتصل علي باشا والي البصرة بالحاكم البرتغالي بهرمز، و كان فحوى الاتصال هو استئناف العلاقات التجارية عبر الخليج العربي، وعلى هذا الأساس أرسل نائب الملك في الهند شخصا اسمه " انطونيو تكسيرا " سفيراً إلى اسطنبول للقاء السلطان، وتم ذلك حيث قبل السلطان سليمان القانوني المبعوث البرتغالي في الأستانة وصرح (أي السلطان سليمان القانوني) انه لا يمانع إقامة علاقات ودية بين الطرفين شريطة عدم التعرض للتجار المسلمين في مناطق الجزائر والخليج وبلاد الهند⁽²⁾.

وفي عهد السلطان العثماني " سليم الثاني " ⁽³⁾ (1566_1574م) يظهر جليا دبلوماسية العلاقات العثمانية البرتغالية فقد اثر الطرفان حل القضايا العالقة بينهما بشكل سلمي، وهذا ما نلمحه في الرسالة الهمايونية التي بعثها السلطان سليم الثاني إلى ملك البرتغال " سباستيان " والتي جاء فيها: " إذا كان هدفكم الصلح يجب أن ترفع تجاوزاتكم عن الحجاج والتجار فورا حين وصول رسالتنا الهمايونية و تبعثوا بمندوبكم حتى يقر بالتزام الأطراف و يعلن رغبة بلاده في ذلك علنا " ⁽⁴⁾.

ويعزى توقف الصراع العثماني البرتغالي بالمنطقة العربية على العموم في تلك الفترة إلى انشغال الدولة العثمانية في صراعها ضد القوة الصفوية يأتي ذلك بعد أن قام الشاه " طمهااسب " بالتغلغل إلى الأراضي العثمانية،

(1) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 90.

(2) نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 21.

(3) السلطان سليم الثاني (931_982هـ = 1524_1574م) وهو السلطان العثماني الحادي عشر تولى مقاليد السلطة العثمانية خلال الفترة (974_982هـ = 1566_1574م) وفي عهده فتحت جزيرة قبرص وتونس، وفي عهده أيضا حدثت معركة ليبانتو، توفي في استانبول عام 1574م، إذ لم تدم فترة حكمه سوى ثمان سنوات، ودفن في جامع أيا صوفيا. انظر عنه في: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 363، 382 ؛ نزار قازان، سلاطين بنو عثمان، المرجع السابق، ص 57 ؛ مجموعة مؤلفين، المنجد في الأعلام، المرجع السابق، ص 308.

(4) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 239 ؛ نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 21.

حيث نجد انه بمجرد توقف هذه العمليات عام 1575م سرعان ما جدد السلطان العثماني أوامره بفتح البحرين وطرد البرتغاليين منها، حيث اصدر فرمانا إلى الولي العثماني ببغداد يحثه على استطلاع الموقف، يأتي ذلك بعد أن حثه والي الإحساء العثماني على فتح البحرين، هذا الانجاز الذي سيضمن حسب تقديره 400000 فلوري سنويا لكن المشروع الغي بسبب عدم تأكد نجاحه⁽¹⁾.

المطلب الثامن: حملة علي بيك على مسقط 1581

بعد فترة الهدوء تلك التي لم يتكرر النزاع العثماني البرتغالي بمنطقة الخليج إلا في عام 1581م، يأتي ذلك في ظل فقد البرتغال لاستقلالها نتيجة اجتياح جارتها اسبانيا لها، وإحاقها بالتاج الاسباني في عهد الملك "فيليب الثاني"⁽²⁾، ليبقي البرتغال تابعا للحكم الاسباني ما يقارب الستين عاما.

حاول العثمانيون على اثر ذلك الاستفادة من الوضع وجهزوا آخر حملة لإخراج البرتغاليين من مسقط عام 1581، حيث اعد والي اليمن وكان ايطاليا معتقاً للاستسلام حملة وكلف علي بيك لقيادتها صوب مسقط و تعتبر هذه الحملة ختام الحملات العثمانية بالمنطقة.

قام الملاح العثماني بالإبحار إليها بثلاث سفن مجهزة بالعتاد متخذاً من ميناء مخا اليمني قاعدة لانطلاقه وبمجرد وصوله إلى مسقط قام علي بشن هجوم بحري مفاجئ بالمدافع الثقيلة على المراكز البرتغالية والتي لم تكن تتوقع الهجوم،⁽³⁾ وتمكن القائد البحري علي بك من الدخول إلى مسقط والسيطرة عليها بنفس السنة، يأتي ذلك بعد أن انسحب منها البرتغاليون إلى داخل البلاد⁽⁴⁾. وكان مما ساعد في إنجاح الهجوم العثماني استجابة أهالي عرب عمان لنداء الحرب فقاموا بالزحف البري على الحامية البرتغالية، ما جعل البرتغاليين في موقف محرج، ففر من فر إلى داخل البلاد واستسلم الباقيون⁽⁵⁾.

(1) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 90.

(2) الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا ابن كارلوس الأول (الخامس بالنسبة لألمانيا) وإيزابيل البرتغالية ابنة الملك البرتغالي إمانويل المحفوظ وهو خال الملك البرتغالي سباستيان. انظر عبد الله العمراني، المرجع السابق، ص 46.

(3) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 33.

(4) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 483.

(5) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 33.

إلا أن العثمانيين سارعوا في العودة إلى عدن بعد سماعهم خبر توجه البرتغال إلى الحامية العثمانية هناك، وعلى اثر هذا الانسحاب قام البرتغاليون بالعودة إلى مسقط، وبالرغم من الخراب الذي كان موجودا قرروا تعزيز تحصيناتهم أكثر من ذي قبل فقد أحسوا بالخطر نتيجة الاختراق العثماني لمسقط وفعلا هذا ما وقع فقد أصدرت الحكومة الاسبانية التي كانت مشرفة على المستعمرات البرتغالية في تلك الفترة قرارا بتقوية التحصينات بالمنطقة وتأسيس قلعتين عرفتا باسم كابيتان وسان جوا⁽¹⁾.

تعتبر حملة علي بيك آخر حملات الدولة العثمانية ضد التحصينات البرتغالية بمياه الخليج العربي في القرن السادس عشر، هذه الحملة التي لم يكن لها أي فائدة على الجانب العثماني بل على العكس من ذلك كانت ذو نتائج جسيمة على أهالي المنطقة، ذلك لأنه من أثر تلك الحملة أن اكتشف البرتغاليون نقاط ضعفهم وحاولوا احتواءها عن طريق تحصينات جديدة .

وتظهر سياسة التحصين البرتغالية في سنة 1586م حين توجهت حملة برتغالية إلى منطقة مباسة ودمرت حصنا تركيا هناك وقصفت المدينة، وراحت تبني حصنا برتغاليا جديدا لها في مسقط التي كان حكم البرتغاليين فيها شبيها بحكمهم لهرمز⁽²⁾ . وعليه يمكننا القول انه كما عجز العثمانيون عن مواجهة البرتغاليين في القسم الجنوبي من الخليج العربي فقد اخفق هؤلاء أيضا في الامتداد نحو القسم الشمالي منه⁽³⁾.

غير انه وفيما كان القرن السادس عشر يوشك على الانتهاء بدأت التجارة البرتغالية تتدهور نتيجة وقوعها تحت السيطرة الاسبانية سياستها المعادية و مستعمراتها⁽⁴⁾، وبدا النفوذ البرتغالي يودع المنطقة، إذ برز بالمنطقة منافسون جدد اخذوا في زحزحة دولة البرتغال عن مناطق نفوذها، وفي طليعة أولئك نجد الهولنديين والبريطانيين،

(1) تعرف هاتين القلعتين باسم قلعتي الميراني والجيلالي وتعود هذه التسمية إلى الفرس الذين أطلقوا هذه التسمية على القلعتين عندما دخلوا مسقط بطلب من الإمام المخلوع أنذاك سيف الدين بن سلطان الثاني و مساعدة القوات الفارسية بقيادة نادر شاه من أجل إرجاعه إلى منصبه . انظر: محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي و الجزيرة العربية، ج1، المرجع السابق، ص 34. وانظر: فالح حنظل، المرجع السابق، ص 486.

(2) قدرتي قلعتي، المرجع السابق، ص 374 .

(3) صلا العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاحتلال البرتغالي، المرجع السابق، ص 67.

(4) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص60.

في حين ظل العثمانيون دولة خليجية حتى أواخر الحرب العالمية الأولى مستقرين في منطقتي الحسا والبصرة، وإن نازعهم على الثانية جيرانهم الفرس وتمكنوا من احتلالها لفترة قصيرة من الزمن⁽¹⁾.

مما سبق يمكننا القول:

أن الدولة العثمانية قد ورثت عقب سيطرتها على أقاليم الشام ومصر مشكلات التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ووصول البرتغاليين إلى المياه العربية بالخليج العربي، وكان لزاما على السلطان سليمان القانوني أن يواجه هذا الخطر الذي التف حول العالم الإسلامي من الجنوب، وبدأ في تهديد منطقة الخليج العربي لأول مرة في التاريخ.

بذلت الدولة العثمانية جهدا كبيرا من أجل إبعاد النفوذ البرتغالي من مياه الخليج العربي، خاصة في عهد السلطان سليمان القانوني، ويظهر الاهتمام أكثر في نظرنا من خلال الاهتمام بالأسطول العثماني الذي كان دائما محل رعايته رغم إخفاقه، فمنذ دخول العثمانيين البصرة عام 1546م أصبح الخليج العربي مسرحا للتصارع بين البرتغاليين والعمانيين، وتطور الأمر إلى صراع مكشوف خاصة إذا علمنا أن البرتغال قد بلغ ذروة قوته في منتصف القرن السادس عشر في الوقت الذي بدا العثمانيون أيضا يقومون بنشاط متزايد في مياه الخليج العربي.

مواجهة العثمانيين للبرتغال بمياه الخليج العربي قد تأخرت إلى غاية 1546 بالرغم من دحر الدولة العثمانية للقويتين الإسلاميتين الصاعدتين الصفوية والمملوكية في وقت مبكر من هذا القرن بسبب تأخر دخول البصرة للحكم العثماني المباشر حيث اعتمد قبل ذلك على ميناء السويس البعيد.

لم تتمكن الدولة العثمانية من تحقيق الهدف الأسمى ممثلا في إخراج البرتغاليين من منطقة الخليج العربي رغم تلك المحاولات العديدة، إذ انتهت اغلب تلك الحملات أن لم نقل كلها دون تحقيق نجاح يذكر.

(1) قدرى قلعجي، المرجع السابق، ص 375، 375.

الفصل الرابع : تحليل صراع القوتين السعدية والعثمانية مع الاحتلال البرتغالي.

المبحث الأول : أسباب الاخفاق العثماني في منطقة الخليج العربي.

1. التقصير العثماني البحري في الخليج
2. الحروب العثمانية الأوربية
3. طبيعة الحملات وتباين مفهوم الدفاع
4. التفوق البرتغالي في القيادات والسفن
5. الإمداد والتجهيز
6. الصراع الفارسي العثماني
7. غياب التنسيق بين القوى المحلية والإقليمية مع الدولة العثمانية

المبحث الثاني : تأثير العلاقات العثمانية السعدية على الصراع السعدي البرتغالي

1. العلاقات السعدية العثمانية في عهد أحمد الأعرج
2. العلاقات السعدية العثمانية في عهد محمد الشيخ
3. العلاقات السعدية العثمانية في عهد عبد الله الغالب
4. العلاقات السعدية العثمانية في عهد محمد المتوكل
5. العلاقات السعدية العثمانية في عهد أبو مروان عبد الملك
6. العلاقات السعدية العثمانية في عهد أحمد المنصور

الفصل الرابع: تحليل جهود القوتين السعدية و العثمانية ضد الاحتلال البرتغالي

سأحاول من خلال هذا الفصل تحليل مجهودات الدولتين السعدية والعثمانية ضد الاحتلال البرتغالي لكل من الخليج والمغرب الأقصى، من خلال التطرق إلى بعض المسائل التي رأيت أنها محل نقاش وتحليل وقد أجملتها في مسألتين أساسيتين هما: الإخفاق العثماني في الخليج العربي و أسبابه، واثـر العلاقات بين الدولتين في سير عمليات الجهاد، ومن ثم البحث عن أي سبيل تعاون بينهما من اجل اقتلاع المحتل، فتطـرقت أولاً إلى ابرز وأهم الأسباب التي جعلت الدولة العثمانية لا تتجـح في معاركها بمنطقة الخليج العربي، وهو ما يعني عدم إخراجها للبرتغال من هذا الجزء من العالم الإسلامي، ثم البحث في علاقتها مع الدولة السعدية التي اجتهدت كثيراً في محاربة البرتغاليين، وهل كان تأثير تلك العلاقات على سير الجهاد سلبياً أو العكس.

المبحث الأول: أسباب الإخفاق العثماني في احتواء الخطر البرتغالي بمنطقة الخليج:

تمهيد:

بلغ الأسطول العثماني أقصى مداه وذروته في القرن السادس عشر وبالضبط عهد السلطان سليمان القانوني (1520، 1566م) ، حيث تذكر المصادر العثمانية أن إجمالي عدد القوات البحرية العثمانية يعادل عدد القطع والقوات البحرية الموجودة في المعمورة جمعاء⁽¹⁾، فقدّر عدد سفن الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان حوالي 300 قطعة⁽²⁾، وبالرغم من ما في تلك المعلومة من مبالغة إلا أنها توضح المستوى الذي وصل إليه الأسطول العثماني البحري في المرحلة السالفة الذكر⁽³⁾.

وقيل أن البحرية العثمانية في أواسط القرن 16م قد بلغت درجة عالية من القوة لخبرتها وكثرة سفنها بحيث يمكنها أن تتفوق على اقوي الأساطيل متفرقة بل عليها مجتمعة، خاصة بانضمام أساطيل الجزائر وليبيا للبحرية العثمانية كان المجموع يزيد عن عدد سفن اكبر دولتين بحريتين عندئذ⁽⁴⁾.

(1) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 2.

(2) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 29.

(3) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 2.

(4) ففي عهد شارل الخامس كان عدد السفن العثمانية 80 كاليرا مقابل 60 لاسبانيا من نفس الحجم، وفي عهد فيليب الثاني مائة وخمسين مقابل مائة، وفي معركة الليبانـت عام 1571م تجاوز العدد 300 قطعة، ناهيك عن الترسانات المنتشرة في الكثير من=

إلا أنه لا يخلو من وجه الدلالة للمستعرض للحملات العثمانيين المتعددة في منطقة الخليج العربي، فشل تلك الحملات و النجاح المحدود الذي قابل حملة واحدة في سبيل احتواء المد البرتغالي بالمنطقة و طرده نهائيا على غرار ما قامت به الدولة في البحر الأحمر الذي لطالما عد بحرا إسلاميا بامتياز، أو كما قامت به في مواجهة التحرشات الأوروبية بمياه البحر الأبيض المتوسط. و في هذا الشأن يقول المؤرخ البريطاني "أرنولد توينبي": " فشلت الهجمات البحرية العثمانية في الانتصار على الأساطيل البرتغالية سواء في غرب البحر المتوسط أو المحيط الهندي ولو كانت تلك الهجمات ناجحة لأدت إلى قطع المواصلات البحرية بين البرتغال و الهند"⁽¹⁾.

والحقيقة أن تلك الحملات وان فشلت في قطع علاقات البرتغال بالهند إلا أنها استطاعت أن تحد ولو نسبيا من الخطر البرتغالي في مياه الخليج العربي، وأن تحافظ على الوطن العربي والإسلامي، وخاصة الديار المقدسة في الحجاز وفلسطين من عبث الإرهاب البرتغالي وهذا في حد ذاته يعتبر في نظرنا انتصارا كبيرا للدولة العثمانية. فضلا عن نجاحها في حماية طرق الحج والأماكن المقدسة والتي كان يمكن للبرتغال الوصول إليها من جنوب غرب الجزيرة العربية.

ولأن الدور الأساسي للتاريخ هو البحث في الأسباب فقد جاء هذا الفصل محاولة للإجابة على التساؤل التالي: ما سبب الإخفاق العثماني في هذا الجزء من العالم الإسلامي بينما انتصروا في كل معاركهم ضد المسلمين في الشرق مثل تشالديران 1514م، و مرج دابق عام 1516م، هل يعود إلى عدم اهتمام الدولة العثمانية بتلك المنطقة حيث لم تضع الخليج العربي من أولوياتها أم أن الإستراتيجية البرتغالية قد تفوقت على نظيرتها العثمانية بالمنطقة؟.

المطلب الأول: التقصير العثماني البحري في الخليج العربي

يبدو أن منطقة الخليج العربي لم تكن تستهوي السلاطين العثمانيين كون اهتمامهم عقب دخولهم مصر كان منصبا في الأساس على السيطرة على البحر الأحمر وجعله بحيرة إسلامية عثمانية مغلقة، بالإضافة إلى مساندة القوى الإسلامية في الحبشة ضد التوغل البرتغالي هناك، وتجد الإشارة هنا إلى أن هذه الأعمال لم

= الأماكن نذكر منها : ترسانة غاليلوي التي شيدها يلدريم (الصاعقة) وترسانة اسطنبول التي شيدها سليم الأول، ترسانة السويس التابعة للأسطول المصري و هي لا تقل أهمية عن سابقتها. انظر: محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 29، 30.
(1) محمد حسن العيدروس: دراسات في تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية، ج1، المرجع السابق، ص37.

تكن في عهد السلطان سليم بل تمت في عهد السلطان سليمان الذي تباطأ هو الآخر في إرسال حملات عثمانية في منطقة الخليج العربي⁽¹⁾.

وهكذا استطاعت دولة البرتغال في ظل العشرين عاما الأولى من حكم السلطان العثماني(1520 - 1540) أن تدعم مراكزها في الخليج العربي الذي لم يحظى بالاهتمام العثماني إلا في سنة 1552م، عندما أرسل السلطان سليم حملة بقيادة " بييري رايس "، أي بعد 32 سنة من توليه العرش⁽²⁾.

والحقيقة أن السياسة العثمانية في الخليج العربي ومحاولتهم الدفاع عن المنطقة من الخطر البرتغالي لم تتسم بالجدية والاستمرارية المطلوبة التي من شأنها أن تعطي النتائج الايجابية بسبب بعد المنطقة عنهم⁽³⁾، فقد بدأت الدولة العثمانية شن حملاتها على البرتغال بمنطقة الخليج العربي بأساطيل كبيرة وقوية كتلك التي قادها بييري رايس وسليمان الخادم، حيث استطاعت هذه الحملات أن تلحق الضرر بالعدو وكبدته خسائر كبيرة بل وشجعت القوى المحلية بالخليج العربي على الجهاد ضد قوى البرتغال بالمنطقة⁽⁴⁾، ولكن سرعان ما أصبح نسق الحملات العثمانية على الخليج العربي نسقا تنازليا، خاصة بعد حملة بييري ريس، فلو عدنا إلى حملة هذا الأخير مثلا نجد أن أسطوله كان مكونا من عشرون سفينة، ليتقلص العدد بعد ذلك في الأسطول الذي قاده مراد بك بخمس عشر سفينة، لتصل إلى ثلاث سفن فقط في أسطول علي بك الذي كانت وجهته مسقط عام 1581م فكانت بذلك حملات ضعيفة وغير مؤثرة⁽⁵⁾.

وهكذا توقف العثمانيون بعد حملة "بييري رايس" عن إرسال حملات بحرية كبيرة، ولجئوا إلى الهجمات الخاطفة الغير مستديمة، يرجع ذلك إلى كون السلاح البحري العثماني قد توقف عن التطور منذ منتصف القرن السادس عشر، وأصبح المجال البحري العثماني لا يتعدى سواحل اليمن والمدخل الجنوبي للبحر الأحمر⁽⁶⁾. الذي يبدو أن الدولة العثمانية اكتفت به كمورد اقتصادي.

(1) محمد حميد السلمان، المرجع السابق، ص 94.

(2) نفس المرجع، ص 94.

(3) محمد نصر مهنا، الخليج العربي الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ص 81.

(4) عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص 124.

(5) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي ، ج1، المرجع السابق، ص 38.

(6) نفس المرجع، ص 38.

على العكس من ذلك كان الأسطول البرتغالي مجهزا باعتي المدافع والأسلحة بشكل يكاد يكون دائما، وكان أسطوله لا يقل في الغالب من الأحيان عن ثلاثين سفينة في أي وضعية كان هجوما أو دفاعيا، ونلمح جدية البرتغال أكثر من خلال تلك التحصينات الكبيرة التي كان يقوم بها في حالات الانهزام أو حتى الانتصار، كما حدث بعد حملة علي بك أين حصن البرتغاليون أنفسهم رغم انتصارهم بقلعتين جديدتين.

كما أن طبيعة التخطيط العثماني في حملاتها لم تجدي نفعا ذلك كونها اعتمدت في حربها على أسلوب المباغته والحرب الخاطفة الغير مستديمة بالأساطيل الصغيرة⁽¹⁾، وهذا النوع من الاستراتيجيات في الحروب وإن كان يجدي برا كما رأينا في جهاد السعديين بالمغرب الأقصى ضد البرتغال، فإنه لا يجدي نفعا في المعارك البحرية التي تستلزم التنظيم وقوة العتاد.

المطلب الثاني: الحروب العثمانية الأوربية

أضحى حوض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي ساحة جديدة خلال القرن السادس عشر للصراع بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي، و قد انتقل هذا الصراع فيما بعد إلى البحار والمحيطات بسبب الكشف الجغرافي.

وقد وقعت معارك هذا الصراع المتجدد على عاتق الدولة العثمانية منذ 1517م، باعتبارها حامية العالم الإسلامي عقب سيطرتها على مصر. فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت من الدول البحرية ذات الشأن إلا أنها بقيت بعد سيطرتها على مصر مشغولة بحروبها في أوروبا، وتقوية بحريتها في البحر الأبيض المتوسط بعيدة عن الاهتمام بالخطر البرتغالي في الخليج العربي⁽²⁾، إذ لم تتمكن من تجهيز حملة بحرية كبيرة في المياه الهندية إلا في سنة 1538م، بعد أكثر من عشرين عاما من استيلائها على مصر⁽³⁾.

والواقع أن السياسة الخارجية للدولة العثمانية زمن الوجود البرتغالي في المنطقة العربية، كانت موجهة بالدرجة الأولى نحو القارة الأوربية⁽⁴⁾، ففي القرن السادس عشر وبالضبط في عهد السلطان العثماني سليمان

(1) عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص 124.

(2) محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 395.

(3) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 82.

(4) محمد نصر مهنا، الخليج العربي الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ص 81.

القانوني فتحت الدولة جبهات جهادية عدة، فنجدها في الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ووسط و شرق أوروبا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المساحة الشاسعة تحتوي على أعتى القوى العظمى ذات التاريخ القتالي العريق، فلم يكن بمقدور السلاطين العثمانيين القضاء عليها خاصة حين تتزامن هجماتها مع بعضها⁽¹⁾، وبالرغم من إجماع المؤرخين على انتصار سليمان عليها في الغالب من الأحيان إلا أنها ساهمت بشكل أو بآخر في إضعاف جبهة الجهاد العثمانية بمنطقة الخليج العربي، ولعل معركة ليبانتو⁽²⁾ والتي هزم بها الأتراك العثمانيين كانت سببا في إحجام الدولة العثمانية عن إرسال حملات جدية إلى الخليج العربي والاكتفاء بالبحر الأحمر والمتوسط نتيجة ما لحقها من أضرار جسيمة⁽³⁾.

ففي أوروبا مثلا و بعد أربعين عاما من توقف الفتوحات سواء مع السلطان "بايزيد الثاني" أو ابنه السلطان سليم الذي اختار الشرق الإسلامي وجهة له في توسعه، عادت تلك الفتوحات عهد السلطان "سليمان القانوني" الذي اختلف في سياسته عن أبيه وجده، حيث أعاد فتح جبهة الجهاد في أوروبا ممثلا في صراعه مع أسرة الهابسبورغ و على رأسها الملك شارل الخامس، واستمر هذا الصراع بين الطرفين مدة قرن و نصف من الزمن⁽⁴⁾.

(1) عبد اللطيف هريدي: الحروب العثمانية الفارسية و أثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، ط1، دار الصحو للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص60.

(2) حدثت هذه المعركة في 17 أكتوبر 1571م، في ميناء ليبانت اليوناني، حيث شكلت الانتصارات التي حققها العثمانيون على البندقية و فتحهم لكثير من الموانئ الأوروبية استياء المدينة السالفة، و التي راحت تستجد بملك اسبانيا فيليب الثاني لوقف التقدم العثماني، كما شاركت المدن الايطالية كجنوه و فلورنسا و بارما في هذه الحرب بالسلاح والرجال. أفرزت الحرب عن هزيمة العثمانيين في مياه البحر الأبيض المتوسط، حيث تم اسر 130 سفينة عثمانية و إغراق 93 أخرى كما غنم العدو 300 مدفع وفقدان 20 ألف بين قتل وأسير، وكانت إعلانا ببداية نهاية التفوق العثماني وتأكيد سيطرة الملاحة البحرية الأوروبية على طرق التجارة العالمية. للمزيد انظر: عزيز سامح ألتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر محمود على عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989، ص 231 ؛ طحطح، المرجع السابق، ص 107.

(3) عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص124.

(4) عبد الونيس شتا و آخرون، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، ج11، المرجع السابق، ص 25.

ولا بأس هنا في أن نسمي تلك الدول التي ضمها السلطان سليمان جزئيا أو كليا بأسمائها المعاصرة في أوروبا، وهي المجر ورومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وألبانيا واليونان وبيسارابيا واليونان والقرم⁽¹⁾.

بدأت هذه الفتوحات بالتحرك نحو شرق أوروبا ودخول بلغراد عام 1521م ثم التقدم نحو المجر حتى تم فتح عاصمتها الجديدة عام 1526م عقب معركة موهاكس الشهيرة، ليبدأ بعدها الصراع مع الجارة النمسا والتي فشل فيها الحصار على العاصمة فينا سنوات 1529 / 1541 / 1565 م⁽²⁾.

والملاحظ لهذه السنوات يجد أنها لم تكن ببعيدة عن بداية ظهور الأساطيل البرتغالية بالمياه الجنوبية، حيث شكلت هذه الفترة بداية التمرکز للبرتغاليين، فوطد هؤلاء أقدامهم في بعض المعاقل المنيعة بمنطقة الخليج العربي (كمسقط وهرمز والبحرين وساحل الملبار الهندي وجوا)، الذي يبدو انه لم يكن يستأثر باهتمام الدولة العثمانية، التي لم تفكر في التغلغل إلى بلاد لا تقدم لها الجزية⁽³⁾.

فكان من الممكن للدولة العثمانية استغلال ذلك الجهد بالتفرغ للقضاء على الخطر البرتغالي المتنامي منذ بداية القرن السادس عشر في المياه الجنوبية، والتوسع آسيويا أو ربما حتى إفريقيا، وإعادة بناء الإمبراطورية الإسلامية إلى وحدتها، عوض التوجه إلى أوروبا ذات التاريخ القتالي العريق والتي استنفذت قوة العثمانيين⁽⁴⁾.

ونقصد هنا بدواخل إفريقيا المناطق التي لم يتسنى للدولة العثمانية الدخول إليها، على عكس ما قامت به البرتغال من خلال حملة الكشف التي قامت بها بنهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر كما رأينا في ثنايا هذا البحث.

وبعيدا عن القارة الأوروبية كان حوض البحر الأبيض المتوسط شرقه وغربه هو الساحة الثانية بعد أوروبا التي شهدت دخول العثمانيين في صراع مع القوى الأوروبية، حيث شهد صداما قويا بين الدولة العثمانية وإسبانيا، وقد كانت الأداة الأساسية المستعملة في ذلك الصراع هي القوة البحرية⁽⁵⁾. وعليه لا نستغرب أن تكون هذه

(1) روبير مونتران، المرجع السابق، ص 239.

(2) عبد الونيس شتا وآخرون، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 25.

(3) محمد نصر مهنا، الخليج العربي الحديث و المعاصر، المرجع السابق، ص 81.

(4) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي و الجزيرة، المرجع السابق، ص 40.

(5) عبد الونيس شتا وآخرون ، المرجع السابق، ص 24.

الحروب في هذا الجزء من العالم قد كانت احد الأسباب التي الهت الدولة العثمانية عن تركيز القوات لمجابهة العدو البرتغالي في المياه الجنوبية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصراع الاسباني العثماني في المتوسط ظل مشتتلا إلى غاية نهاية القرن السادس عشر، وكان ذا أبعاد متعددة وهي الفتوحات العثمانية للقواعد المسيحية في المتوسط (رودس، مالطا، ايطاليا)، واستمرار التهديد الأيبيري برتغالي كان أو اسباني لشمال القارة الإفريقية، وأخيرا النجدة العثمانية لمضطهدي الأندلس وما عانوه من من تصفية⁽¹⁾.

المطلب الثالث: طبيعة الحملات وتباين مفهوم الدفاع

لطالما عرف الغرب بالتطور الحربي البحري في حين عرف الشرق بالتطور البري منذ عصور الحملات الصليبية، فقد كان اعتماد الحملات الصليبية الأوربية إلى الشرق يرتكز أساسا على السفن، من خلال تنقل المحارب الأوربي على الأساطيل الحربية إلى الشرق الإسلامي، فقليلًا ما نجد حملة صليبية برية نحو المشرق العربي، و هو ما أدى إلى مران الملاحين نظرا لطول المسافة ومشاق السفر، ما جعلهم أكثر نضجا سواء في أساليب الحرب البحرية من إعداد خطط حرب وإغارة والدفاع⁽²⁾.

ويبدو أن العالم الغربي قد تنبه إلى مواقع الضعف في الشرق الإسلامي من حيث ضعف الملاحة، فصاروا يعتمدون على الإغارة البحرية والحصار لتحقيق الأهداف، ودليلنا على ذلك مرافقة أساطيل جنوى والبندقية ذات الخبرة البحرية لتلك الحملات الصليبية، فكان الغرب كله يهاب الجيش البري العثماني الذي حاصر حتى فينا وكاد يدخل قلب أوربا، إلا أن استدراج الدولة العثمانية بمعركة بحرية واحدة كفيل بقلب الموازين كمعركة ليبانتو 1571⁽³⁾.

وهكذا قليلا ما نجد البرتغال منهزما أمام العثمانيين، فكانت هزائمهم نادرة أبرزها التي وقعت عام 1585م عندما اخطأ البرتغاليون بالنزول برا في الساحل الشرقي من الخليج العربي وبالضبط في " بخيلوه " من اجل محاولة تأديب بعض المتمردين، أين انهزمت القوات البرتغالية أمام سكان المنطقة الذين استطاعوا أن

(1) عبد الونيس شتا وآخرون ، المرجع السابق ، ص 24.

(2) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي و الجزيرة، ج1، المرجع السابق، ص42

(3) نفس المرجع، ص42.

يقتلوا منهم 250 جندي فتكبدت البرتغال خسائر كبيرة، وامتنعوا بعدها على النزول برا مهما كانت الأسباب، عدا ذلك تنذر الهزائم البرتغالية في مياه الخليج⁽¹⁾.

وفي المقابل لم تتقطن البحرية العثمانية إلى ذلك الفارق وجاءت كل الحملات البحرية المجهزة للخليج العربي والمحيط الهندي متأثرة وعلى خطى " سلمان الرئيس " وحملته في 1525م، حيث نصح هذا الأخير السلطان بمواجهة البرتغال في البحر من أجل تسهيل مهمة طردهم، وأنه باستعمال الأسلحة والسفن يمكن الاستيلاء على الحصون والأرصفة المحكومة من الكفار، ويبدو أن هذا لم يكن تقييم دقيق من المؤسسة البحرية العثمانية⁽²⁾.

كما أن مفهوم الدفاع بين الجانبين كان مختلفا، فقد اظهر البرتغاليون قوتهم وغطرستهم الوحشية بمنطقة الخليج العربي منذ وصولهم، وعلق القائد العسكري البوكيرك على ذلك قائلا: " اختفت السفن المحلية لدى سماعها بقدمونا حتى أن الطيور توقفت عن الطيران فوق سطح المياه "⁽³⁾.

قد يعود ذلك إلى الحقد الديني الذي تبناه في أولى انطلاقاتهم نحو استعمار العالم العربي، وهو ما يجعلنا نجزم بعد استعراض الصراع العثماني البرتغالي أن الأخيرين دافعوا عن أملاكهم بمنطقة الخليج كدفاعهم عن أنفسهم، قد يعزى ذلك إلى أسبقية الوجود في هذا الجزء من المياه، وهو ما ساهم في الهام المحارب البرتغالي فقد كان يرى في نفسه أول من وصل إلى منطقة الخليج العربي ونصب نفسه حاميا عليه.

كما كان البرتغاليون يعتبرون الخليج العربي احد مراكزهم الرئيسية وربما كان أكبرها بالمحيط الهندي، في حين اختلفت رؤى الدفاع العثماني بالمنطقة كليا عن نظيرتها البرتغالية إذ كان العثمانيون يعتبرون المنطقة طرفا بعيدا من أطراف دولتهم في قتالهم على قواد غرباء عن المنطقة بجنود متطوعين لم يكن لهم هدف سوى جمع الغنائم بمنطقة لم تكن تقدم لهم الجزية⁽⁴⁾.

(1) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص 142 ؛ ثارت بلدة نخيلو الفارسية ضد حكم هرمز، فأصدرت أوامر البرتغال إلى القائد " بيدرو بيريرا " لتجهيز حملة برتغالية مكونة من 600 جندي و عشرين سفينة و اتجهت نحو المدينة لإخضاعها و كان أهالي المدينة على استعداد لصددها ف وقعت معركة برية انتهت بهزيمة كارثية على البرتغاليين. انظر: فالج حنظل، المرجع السابق، ص 484، 485.

(2) Mohamed hameed salman, op. cit, p 198.

(3) نبال فرغسون، الحضارة، المرجع السابق، ص 81.

(4) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص 142.

المطلب الرابع: التفوق البرتغالي في السفن الحربية

بمطلع العصور الحديثة بدأت معايير القوى تتغير بتغير وجهة التاريخ ووقائعه، يظهر ذلك من خلال إسقاط الأمم البرية للسلاح واستبداله بالشرع الذي اظهر في فترة من الفترات انه امضي من السيف، وأصبحنا نرى قوى صغيرة برا عريضة بحرا كالبرتغال وهولندا وانجلترا.

وغير بعيد من هذا جاء رأي المؤرخ " كارلو كيبولا " في مؤلفه المعنون " المدافع والمراكب الشراعية والإمبراطوريات" بقوله : " إن ميزان القوى العالمية أصبح في صالح الغرب منذ القرن الخامس عشر، عندما استغل الملاحون الأطلسيون البدع التكتيكية في فن الملاحة وصناعة المدافع كي ينشروا تفوقهم على المحيطات، في حين أن المجتمعات الآسيوية فشلت الاستجابة للتحدي الأوربي لان عوامل حضارية اجتماعية قوية منعتها من تبني التكنولوجيا المتفوقة"⁽¹⁾.

والحقيقة أن منطقة الخليج العربي أثبتت بحكم طبيعتها البحرية وفي مختلف عصورها التاريخية أن القوة البحرية هي القوة الوحيدة القادرة على السيطرة على ضفافها، ومما يؤكد ذلك انه على اثر انهيار العصر الذهبي للملاحة والتجارة الإسلامية في كل من الخليج والمحيط تمكنت القوى الأوربية التي تميزت بتفوقها في المجال الحربي البحري كالبرتغاليين وبعدهم الهولنديين والإنجليز من السيطرة على مقومات المنطقة، ولم تجد من يخرجها من المنطقة إلا حين ظهرت قوى توازيها في البراعة الحربية البحرية، كدولة اليعاربة التي أخرجت البرتغال في القرن السابع عشر ميلادي⁽²⁾.

وبالرجوع قليلا إلى عصر النهضة الأوربية نجد أن الدول وعلى رأسها البرتغال عرفت تقدما كبيرا في المجال البحري نتيجة التنافس على الكشف الجغرافي، ما جعل صناعة السفن تشهد اهتماما وتطورا ملحوظا سواء من الناحية التصنيعية أو التجهيزية، وبالرغم من أن السفن العربية كانت تحظى بمكانة وأهمية كبيرة لدى الغرب، إلا أنواع السفن سرعان ما تعددت بتقدم صناعة بنائها⁽³⁾.

(1) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص38.

(2) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص 11 .

(3) عيسى علي إبراهيم ومحمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص 100 .

ففي أوائل القرن الخامس عشر كان "الكرافال Caravel" وهو نوع معين من الأقارب، قد فضل استخدامه على "القادس Galley" و"البارشا Barcha" و"البارنيل Barinel"، وكان قد استعير من المراكب العربية التي كانوا يستعملونها في البحر الأبيض المتوسط بنجاح لقرون عديدة⁽¹⁾.

وقد كانت سفن الكرافيل مجهزة بمدافع كثيرة وقد تضاعفت سرعتها نتيجة تزويدها بالأشعة المثلية مما خول لها الإبحار في البحار العالية والمحيطات⁽²⁾، وقد ضمن لها الحجم الصغير السرعة والخفة في عمليات المناورة في المعارك والحروب⁽³⁾.

وبعيدا عن الحروب ساهمت أيضا هذه السفن في عملية الكشف، فكان الكرافال سببا في اكتشاف جزيرة مديرا في الفترة بين 1330 و1418م، وجزر الكناري في سنة 1341م، كما وصلت الكشوفات إلى مناطق يصعب الوصول إليها إلا بالكرافيل مثل جزر الأزور 1431م، و جزر الرأس الأخضر بين سنوات 1456 و1459 م، ويبدو أن الكرافيل قد استخدمه كولومبس في رحلاته⁽⁴⁾.

كما أفاد البرتغاليون عقب وصولهم إلى السواحل العربية من المراكب العربية الأصغر حجما والأكثر مرونة والتي كانت تستعمل في مياه المحيط الهندي⁽⁵⁾. بالإضافة إلى ميزة أخرى للسفن البرتغالية وهي قدرتها على المكوث في البحار لمدة طويلة بعيدة عن البرتغال⁽⁶⁾.

ومن أنواع السفن نذكر سفن الغاليون والتي استطاع البرتغاليون إدخال تعديلات عليها، فأصبحت وبالرغم من أنها كانت بطيئة لثقلها إلا أنها كانت تستطيع حمل المدافع الثقيلة⁽⁷⁾، وهي إسبانية الصنع وقد كانت كانت تستعمل المجاديف والأشعة، لتتحول إلى سفن شراعية بحتة فيما بعد، واستمر تطويرها إلى أن وصلت أحجام كبيرة وكانت مقاييس تلك السفينة تتراوح ما بين 6,43 متر طولا إلى و 11 متر عرضا، وكان لها أربع

(1) عباس حمداني، المرجع السابق، ص 2.

(2) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص43.

(3) جورجيو قينياني، المرجع سابق، ص32.

(4) عباس حمداني، المرجع السابق، ص 2.

(5) نبال فرغسون، المرجع السابق، ص 86.

(6) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج1، المرجع السابق، ص43.

(7) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص 116.

صوار وكان أقصى طرف المؤخرة طويلا و بارزا و كان البرج الأمامي يبعد عن المقدمة و كان أقصى طرف المؤخرة طويلا و بارزا⁽¹⁾.

وفي القرن السادس عشر ابتكر الفرنسيون فكرة وضع صفين من المدافع في فتحات خاصة على جانبي السفينة، الأمر الذي جعل رجال الحرب في أوربا وكأنهم في قلاع عائمة⁽²⁾. تصل حمولتها إلى ما يقارب 2000 برميل و 500 جندي ناهيك عن العتاد و السلاح، هذه السفن التي تتلاءم جيدا مع مياه المحيطات بل و بإمكانها حتى اجتياز الأنهار صعودا.

ومن السفن ذات الشأن والمستعملة في هذه الفترة سفن "الناو Nau" التي كانت تمتاز بشرايعها الدائري وصعوبة التحكم بها، وقد كانت قادرة على حمل ما بين 1000 و 1500 طن، كما ظهرت سفن الشيني و هي عبارة عن سفن حربية ضخمة تتكون من عدة طبقات، وسفن الطريدة أو الطراد صغيرة حجم وسريعة الحركة وسفن الشلندي وهو نوع من السفن الحربية الكبيرة المسطحة التي تحمل المقاتلين والسلاح⁽³⁾.

كما ادخل البرتغاليون إلى المحيط الهندي أيضا السفن الكبيرة ذات الشراع المربع والتي تستطيع قطع المحيطات وتحدي الرياح القوية في أعالي البحار، بينما لم يكن لدى العرب ومن ورائهم حكامهم المسلمون إمكانية بناء السفن الكبيرة لعدم توفر الأخشاب المناسبة في بلدانهم، باستثناء منطقة أسيا الصغرى، التي تملك أخشابا ملائمة وإن كانت اقل جودة من الأخشاب الأوربية على ساحل المحيط الأطلسي، فاثرت ذلك سلبا على نتائج المعارك البحرية التي خاضها العرب والأتراك العثمانيون ضد السفن البرتغالية في البحار العربية والجنوبية⁽⁴⁾.

وهكذا شكل تطوير السفن المسلحة بعيدة المدى إرهابا بحدوث تطور وتغير جذري في مكانة القوى الأوربية عامة والبرتغال على الخصوص بالعالم، فبهذه النوعية من السفن أضحت الدول الأوربية في وضع يسمح لها بالسيطرة على المضائق والطرق البحرية التجارية، وقد ظهر هذا التفوق جليا وواضحا في أول صدام

(1) جورجيو قينياني، المرجع السابق، ص 32 ؛ بول كيندي، المرجع السابق، ص 44.

(2) نبال فرغسون، المرجع السابق، ص ص 85، 86.

(3) دريس بن مصطفى، المرجع السابق، ص 183.

(4) عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص 14.

للبرتغاليين مع القوى العربية والإسلامية في ساحل الملابار وفي مضائق هرمز وملقا عندما هزمت تلك القوى أمام البرتغال التي بدت لا تقهر⁽¹⁾.

وبالرغم من التجهيزات المتطورة في السفن العثمانية إلا أن التفوق كان واضحا في الصناعة البحرية البرتغالية، ذلك لأن البحرية العثمانية توقفت عن التطور الحربي البحري منذ منتصف القرن السادس عشر، على اثر ذلك الضرر الذي أصاب البحرية العثمانية ضد الحلف الصليبي في معركة الليبانو الشهيرة عام 1571م⁽²⁾. والتي توقف العثمانيون بعدها على بناء السفن الضخمة المشابهة لنظيرتها الأوروبية⁽³⁾، إذ كان الأسطول العثماني مكونا من سفن صغيرة غير قادرة على مقارعة السفن الكبيرة، كما كانت سفنهم ذات صيانة ضعيفة ناهيك عن صعوبة التحكم بها،⁽⁴⁾ ومن السفن التي استعملها الأتراك في مياه الخليج العربي نذكر سفن الغاليون التي قال عنها ادهم: " انه بإمكان سفينة حربية كبيرة بريطانية بإمكانها دحر نحو عشرين سفينة من نوع غاليون الصغيرة"⁽⁵⁾.

كما تطلب محاولة تكوين أسطول عثماني قوي بالمنطقة توفير المدافع والأخشاب برا إلى السويس، أو إلى مواقع أخرى عبر انهار العراق نحو البصرة، في حين شهدت صناعة السفن بالخليج العربي صعوبة كبيرة نظرا لاستعمال العثمانيين طريقة قديمة أنت ثمارها في البحر الأبيض المتوسط، وحاولت توظيفها بالمياه العربية القريبة من المحيط الهندي والتي تتميز بالعمق⁽⁶⁾، ليظهر لنا مشكل إيجاد المهندسين و الفنيين ذوي الكفاءة من اجل تصنيع سفن عالية التقنية لمقارعة القوة البرتغالية الضاربة⁽⁷⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطات البرتغالية في لشبونة كانت على علم بالصعوبات التي كانت تواجه العثمانيين في بنائهم للأساطيل. من خلال ذلك التقرير المرسل إلى الملك البرتغالي جوا الثالث من برتغالي كان مقيما في البندقية، والمؤرخ في 1531/11/14م. يخبره فيه بمحاولات العثمانيين الجادة لبناء أسطول قوي بالسويس، والمشاكل التي يواجهونها في ذلك، فالأشربة والمدافع ترسل من القسطنطينية والأخشاب

(1) بول كيندي، المرجع السابق، ص 46.

(2) عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص 124.

(3) بول كيندي، المرجع السابق، ص 33.

(4) Mohamed hameed salman, op. cit, p199.

(5) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج1، المرجع السابق، ص 44.

(6) Mohamed hameed salman, op. cit, p 198 .

(7) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج1، المرجع السابق، ص 43 .

من لبنان اعتمادا على أسطول خاص يحملها إلى مينائي الإسكندرية ورشيد وتحمل على ظهر 4000 جمل إلى السويس⁽¹⁾.

وبعيدا عن السفن عانى العثمانيون من مشكل إيجاد الموانئ الصالحة في الخليج العربي وحتى البحر الأحمر⁽²⁾، فلم تكن البصرة بتلك الدرجة الإستراتيجية التي من شأنها أن توقف الزحف البرتغالي⁽³⁾.

والحقيقة انه لم يكن على الدولة العثمانية مواجهة القوات البرتغالية في الخليج العربي والمحيط الهندي فحسب، بل كان عليهم مواجهة الظروف المناخية كذلك، فلقد لاحظنا في بحثنا هذا كيف أثرت العواصف على سير المعارك، ويبدو أن المناخ قد اثر حتى في البحارة العثمانيين الذين كانوا عرضة للأمراض أكثر من البرتغاليين أو أي قوة أجنبية بالمنطقة⁽⁴⁾.

المطلب الخامس: التفوق البرتغالي القيادي العسكري

سبق وتحدثنا عن تفوق الشرق في العراك البري والغرب الأوربي بالتفوق البحري والاعتماد أساسا على السفن، وهو ما زاد مران الملاحين الذين عرفوا أساليب إعداد الأساطيل والحملات البحرية ذات المدى الطويل، و هذا بالضبط ما زاد في الأوربيين بما فيهم البرتغال خبرة أوسع من غيرهم في أساليب الحرب البحرية⁽⁵⁾.

ولان البرتغال كانت من الدول السبّاقة في إرسال تلك الحملات إلى الشرق فقد كان لزاما عليها إيجاد بحارة و قادة عسكريين مدربين وأكفاء قادرين على قيادة سفن بتلك الجودة والتجهيز، فكان الاختيار على طبقة النبلاء الذي فضلوا حياة البحار والمغامرة على البقاء في دولتهم التي كانوا يعانون فيها ظلم الملك وجوره⁽⁶⁾، وفوق كل ذلك شجاعة أولئك الذين قادوا الرحلات عبر البحار و تحملوا مصاعب ركوب البحر في أجواء صعبة وارض وعرة وخصوم أقوياء، فكانوا مستعدين للمخاطرة بكل شيء في سبيل مزيج من الدوافع كالمجد القومي و

(1) احمد بوشرب، دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي، المرجع السابق، ص 139.

(2) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج، ج 1، المرجع السابق، ص 43.

(3) Mohamed hameed salman. op. cit, p 200.

(4) Ipid.p 198.

(5) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج 1، المرجع السابق، ص 42.

(6) نفس المرجع، ص 44 .

الكسب المادي والغيرة الدينية⁽¹⁾، وهو ما يعطينا فكرة عن مثابرة هؤلاء وجديتهم وسعيهم الدءوب نحو النجاح في معاركهم خارج بلدهم عن طريق وضع الخطط واستعمال أساليب الحرب المستحدثة.

وفي المقابل كانت الدولة العثمانية ترسل على رأس حملاتها رجالا كبيرين في السن، على غرار ما فعلت في الحملة العثمانية للهند، والتي عينت على رأسها سليمان الخادم الذي كان في سن الثمانين ولم تعرف عنه أية مواهب تتلاءم مع مسؤوليته في قيادة حملة عسكرية كبيرة، ووضعت تحت إمرته أكثر من سبعين سفينة حربية وقرابة مائة سفينة نقل تحمل على ظهرها عشرين ألف جندي لمواجهة قوى عسكرية كبرى ذات إمكانيات عسكرية مثل قوة البرتغاليين⁽²⁾.

كما كان الشغل الشاغل للقباطنة والقواد الأتراك هو الكسب المادي السريع⁽³⁾ و نهب ثروات المدن⁽⁴⁾، وجهلهم لجغرافيا المنطقة⁽⁵⁾، ناهيك عن نقص خبرة هؤلاء في المحيطات وتعودهم على مياه البحار،⁽⁶⁾ فكانوا مغامرين أكثر منهم قادة عسكريين يديرون الحرب بطريقتهم الخاصة دون تعليمات محددة، وهكذا كان حال البحار " بييري ريس" أو " الرئيس مراد " وكلاهما اشتهر بغارات ضد البرتغاليين⁽⁷⁾.

كما استعمل البرتغاليون في حربهم خطط وأساليب حرب مستحدثة كاعتمادهم على أسلوب الجوسسة، فقد لمسنا في استعراضنا للصراع البرتغالي العثماني استعمال البرتغاليين لأسلوب الاستطلاع أثناء صراعهم مع العثمانيين بالخليج العربي، ما جعلهم في حالة توقع وسابقة للعدو، على العكس من ذلك كانت الدولة العثمانية

(1) بول كيندي، المرجع السابق، ص 48.

(2) إيفانوف نيقولا، المرجع السابق، ص 131، 132 ؛ محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 402.

(3) قيل إن بييري ريس قد أطلق صراح ستين من الأسرى البرتغاليين مقابل مبلغ من المال و لعل هذا احد أسباب إعدامه، كما تكلمت بعض المصادر عن ثروة هائلة خلفها بييري ريس عقب إعدامه تمت مصادرتها وضمها إلى الأموال الأميرية، و تتكلم ذات المصادر عن قدوم وفود من هرمز تطالب بهذه الأموال والتي كان بييري ريس قد افتكها منهم حسب قولهم . انظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 125 ؛ صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة البرتغاليين، المرجع السابق، ص 66 .

(4) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص 142.

(5) Mohamed hameed salman, op. cit, p194.

(6) ipid, pp. 189 – 198.

(7) صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة البرتغاليين، المرجع السابق، ص 66.

تقتصر إلى أسلوب مخابراتي قوي يمكنها من خوض معاركها في البحار بمعلومات ذات نفع على المنطقة والعدو على حد سواء⁽¹⁾.

والحقيقة انه وبالرغم من تلك الصعوبات التي واجهتها الدولة العثمانية من قلة الموانئ بالخليج العربي والبحر الأحمر إلا أن العثمانيين استطاعوا أن ينجحوا نسبيا في وضع قدم لهم في الخليج العربي ومواجهة البرتغاليين هناك ردحا من الزمن.

المطلب السادس: الإمداد والتجهيز

إن المتأمل للصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر بالمنطقة يلمح ظاهرة نقص الإمدادات التي أرقت كثيرا الدولة العثمانية في صراعها مع البرتغال بمنطقة الخليج العربي، قد يعزى ذلك إلى محاولة العثمانيين فرض سيادتهم في البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي والمحيط الهندي في أن واحد.

فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت من الدول ذات الصيت في المجال الحربي إلا أنها بعد سيطرتها على مصر لم تركز على تقوية بحريتها في البحر الأبيض المتوسط دون سواه، فنراها تعتمد في الدفاع البحري بالمياه العربية إلى غاية سنة 1526م على ما ورثته من سفن المماليك التي بقيت من حملة المماليك الثانية التي جهزت في عهد قانصو الغوري، وهي قطعا ليست بالكثيرة⁽²⁾، وكان عددها لا يزيد عن عشرين سفينة⁽³⁾.

فكان من الصعوبة بمكان للدولة العثمانية توفير و بناء العدد الكافي من السفن لتغطية الجبهات الثلاث خاصة وأنها تعتمد في ذلك على ميناء واحد ممثلا في ميناء السويس الموروث عن دولة المماليك والذي يعد الأقرب إلى المياه الإسلامية فكان العثمانيون يبنون أسطولا لكل حملة نظرا لانشغال قطعهم البحرية في جبهات أخرى⁽⁴⁾.

(1) Mohamed hameed salman, op. cit, pp .199 – 191.

(2) محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 395.

(3) حسن صالح شهاب، البحرية العثمانية، المرجع السابق، ص 81.

(4) عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص 125.

على العكس من ذلك كانت القوات البرتغالية تعتمد السرعة في التجهيز والإمداد مما أدى إلى استطالة المعارك، فبالرغم من أن السفن البرتغالية كانت تسلك طريق رأس الرجاء الصالح البعيد إلا أن الأساطيل البرتغالية كانت تتميز بدقة التوقيت والتنسيق المحكم فيما بينها، فلا يفتأ الأسطول المتجه إلى الشرق أن يرفق بثان ويعزز بثالث بكامل التجهيز والمعدات، ما جعل البرتغاليين يستميتون في الدفاع أثناء المعارك خاصة في فترات الحصار، ويعود ذلك إلى علمهم اليقين بأن الإمداد قريب نتيجة وصول الرسائل والرسائل⁽¹⁾.

كل تلك الإعدادات والتجهيزات والمستوى التقني المتقدم جعل دولة البرتغال تحكم السيطرة على المياه الإسلامية الجنوبية بالرغم من الصعوبات التي واجهتها .

المطلب السابع: الصراع الفارسي العثماني

شهدت سنوات بين 1501 و1576م أن تعاقب على حكم الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوي الأول وابنه الشاه طهماسب الأول أما في الجانب العثماني، فكان السلطان بايزيد حاكما إلى غاية 1512م عندما أجبره ابنه السلطان سليم الأول (1512 - 1522م)، على التنازل على الحكم ثم خلفه السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566م) ثم السلطان سليم الثاني (1566 - 1574م)، فالسلطان مراد الثالث (1574 - 1595م)، وقد طبعت العلاقات بين الدولتين بصيغة الحذر السياسي الدائم وصولا إلى الصراع العسكري المباشر⁽²⁾.

فمنذ تولي السلطان سليم الأول مقاليد السلطة وقهره للقوة الصفوية الناشئة في معركة جالدران بدأت شرارة الحروب العثمانية الفارسية التي استنفذت ما يقارب الثلاث قرون من عمر هذين الدولتين والصراع مستمر بين الطرفين⁽³⁾، نتيجة الاختلاف المذهبي والمصالح التجارية، ولعل مشكلة الحدود هي احد ابرز أسباب العداء في الغالب.

مهما يكن من أمر سبب تلك الحروب فلا جرم أن تلك الحروب التي وبالرغم من الاتفاقيات والمعاهدات التي كانت تتخللها إلا أنها ساهمت كثيرا في إضعاف الجبهة الجهادية العثمانية ليس في أوروبا

(1) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص133 ؛ محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي والجزيرة، ج1، المرجع السابق، ص 43.

(2) علي إبراهيم درويش، المرجع السابق، ص 115.

(3) صلاح هريدي، المرجع السابق، ص51.

فحسب، بل حتى في منطقة الخليج العربي في صراعها ضد البرتغاليين، فبعد تلك المكاسب التي حققها العثمانيون على بعد معركة جالدران، وكنتيجة لذلك الحصار الاقتصادي الذي فرضه السلطان سليم على الدولة الصفوية بسبب السيطرة على البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، لم يألو الشاه إسماعيل الصفوي جهداً في سبيل إيجاد حليف له.

ومن جاءت محاولة الإيرانيين بقيادة الشاه إسماعيل الصفوي التحالف مع القوة البرتغالية التي بدأت تستتب بالمنطقة، يأتي ذلك بعد استنجد ملك هرمز بالشاه نتيجة السطو البرتغالي بمملكة هرمز، فكان رد الشاه أن وافق على بقاء هرمز تحت حكم البرتغال شريطة أن يكون الإحساء من نصيبه وعلى هذا النحو جاءت سياسة الشاهات الصفويين⁽¹⁾.

والحقيقة أن البرتغاليون ومعهم حلفاؤهم لم يكن نصب أعينهم الدولة العثمانية، فقط بل تعداها إلى دولة المماليك بمصر إذ كان في مخطط البوكيرك الذي أرسله للشاه إسماعيل بأن يقتسما ممتلكات الدولة المملوكية فيأخذ الشاه مصر وتأخذ البرتغال فلسطين نظراً لاحتوائها على المقدسات النصرانية، ما يعينا فكرة عن الثقة الكبيرة التي كانت بين الجانبين، ولكن السفير البرتغالي لم يتمكن من الوصول بلاد فارس بعد أن مات فجأة⁽²⁾.

وبالرغم من أن نية الشاه من هذا التحالف الغريب هو الاستعانة بالبرتغاليين لمد نفوذهم على كل الخليج العربي واحتلال البصرة، إلا أن استفادتهم منه كانت نسبية، على العكس من ذلك كان البرتغال المستفيد الأكبر من جراء تبعات هذا الحلف، يظهر ذلك من خلال تأمين البرتغال لحدوده، والتفرغ لقتال الأتراك وتحقيق الفوز في أغلب معاركه⁽³⁾.

والواقع أن حملة تشاليدران عام 1514م ترمز إلى بداية حروب جد طويلة في أغلب الأحيان وصولاً إلى القرن 18م⁽⁴⁾، فالقرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي مثلاً شهد بعد معركة جالدران ثلاث جولات

(1) عبد العزيز نوا، المرجع السابق، ص ؛ ومن الشاهات نذكر الشاه طهماسب الذي ربطته علاقات ودية مع دولة البرتغال، وسار على نهج والده . انظر: عبد الونيس شتا وآخرون، المرجع السابق، ص 53.

(2) يعتقد أن سكان هرمز قد قاموا بقتل السفير بعد أن دسوا له السم، خوفاً وغيره على بلادهم وما يمكن أن يقوم من خراب بالعالم الإسلامي في حال تطبيق هذا المخطط. انظر: محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص 198.

(3) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص 142.

(4) روبير مونتران، المرجع السابق، ص 210.

كبرى بين العثمانيين والصفويين، كان ذلك في سنوات (1534م، 1548م، 1553م)، وبالرغم من هذه الالتحامات الحادة بين الجانبين إلا أنها لم تحسم الصراع بين القوتين⁽¹⁾.

فبالانتقال إلى العلاقات العثمانية الصفوية زمن السلطان سليمان القانوني نجد أنها اتسمت بالعداء هي الأخرى، ذلك لأن الصفويون ظلوا على سياية الشاه إسماعيل ممثلة في إيجاد أي حليف في سبيل أبعاد الخطر العثماني وهذا ما قام به الشاه " طهماسب " من خلال طلب معونات فنية وإرسال مدربين لجيشه من طرف الإمبراطور شارل الخامس في مقابل التعاون معا ضد العثمانيين⁽²⁾.

إضافة إلى ما سبق وبعد التحركات الصفوية النشطة نحو الأناضول، جعلت السلطان سليمان يلتفت إلى المشرق مجدداً، و تأكدت ضرورة إعداد حملة عليهم بعد أن قام الصفويون بنشر مذهبهم بالقوة في شمالي أذربيجان وفي داعستان شرق القوقاز، فقام السلطان سليمان مهاجمة إيران و وضع حد لطموحات الشاه⁽³⁾.

كما قام السلطان سليمان بشن عمليات عسكرية في جهات شرقي الأناضول وتمكن من دخول تبريز في عام 1553م، وفتح بلاد داغستان وشروان واستأنفت الحرب في سنة 1554م ففتح العثمانيون مدينتي روان ونهجون واجتازت العثمانيين بعد ذلك نهر الرس إلى جنوبي أذربيجان وضيقوا على الشاه طهماسب، وكادت تندلع حرب لا نهاية لها لولا الصلح الذي عقد في اتفاقية أماسيا في سنة 1555م⁽⁴⁾.

وشهدت فترة حكم السلطان مراد الثالث توسعا عثمانيا في الشرق على حساب الدولة الصفوية، فب وفاة الشاه طهماسب من غير أن يسمي وريث للعرش أدى إلى تنازع أبناؤه ودخلت إيران في فوضى من النزاعات⁽⁵⁾، فأرسل الصدر الأعظم محمد " باشا صوقلي " حملة عسكرية بقيادة " لالا مصطفى باشا صوقلي " لفتح ما تيسر من أقاليم الصفويين المتنازعين⁽⁶⁾.

(1) عبد الونيس شتا، المرجع السابق، ص 56.

(2) صلاح العقاد، دور العرب والفرس، المرجع السابق، ص 64.

(3) سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 215.

(4) نفس المرجع، ص 215.

(5) بعد وفاة الشاه طهماسب سنة 1576م تولى الحكم بعده ابنه حيدر و قتل بعد ساعات من دفن والده، ثم تولى بعده الحكم إسماعيل بن طهماسب وقتل مسموما ليخلفه بعد ذلك أخوه محمد. انظر: المحامي، المرجع السابق، ص 261.

(6) نفس المرجع ص 261.

تمكن الجيش العثماني من الوصول إلى الأقاليم الحدودية بين القوتين وتقدم بعد معارك حتى وصل إلى بلاد الكرج وفتح هذا الإقليم ودخل عاصمته تفليس في سنة 1578م بعد أن انسحب حاكمها إلى الشاه⁽¹⁾، و قد رأينا كيف أنه من الممكن أن تكون هذه الأحداث سببا في عدم إرسال الدولة العثمانية القوات الكافية إلى المغرب الأقصى لنصرة المغاربة في حربهم الكبرى ضد البرتغاليين⁽²⁾.

و بالرغم من الانقسام الصفوي جاء الرد الصفوي لإيقاف التمدد العثماني فأرسلت الدولة الصفوية أربع فرق عسكرية بقيادة ميرزا احمد هاجمت شروان واضطر واليها عثمان باشا إلى إخلائها كم حاولت الحملة الدخول إلى العاصمة تفليس بعد حصار طويل، وبعد فوزى تعرضت لها الدولة العثمانية بعد مقتل صوقلي تابع عثمان باشا أعماله وسار إلى أذربجان ودخلها، ثم قصد مدينة تبريز التي دخلها سنة 1585م⁽³⁾.

غير أن الحرب بين الدولتين استمرت ست سنوات توفي خلالها عثمان باشا وانتهت بصلح عام 1590م، والذي تنازل الصفويين بمقتضاه على إقليم الكرج وبعض المناطق الأخرى، كما نصت المعاهدة على عدم قيام الصفويين بالاستقرازات العقائدية⁽⁴⁾.

وبعد هذا الشرح البسيط لأبرز ما احتوته العلاقات الصفوية العثمانية في القرن السادس عشر، نجد أن الصراع و الحرب هي الطابع الذي اكتست به تلك العلاقات. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بالرغم مما كان يتخلل هذه الحروب من اتفاقيات ومعاهدات سلام إلا أن الوضع لم ينجح إلا السلم الحقيقي، و ظل الطرفان طيلة القرون الثلاثة يتربص كل منهما بالآخر، متوجسا منه خيفة، حتى أصبحت العلاقة بينها أشبه إلى العداء التقليدي⁽⁵⁾، كما رافق تلك الحروب أيضا بداية الأزمة المالية الكبيرة الناتجة عن تدفق الفضة الأمريكية إلى أوروبا

(1) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، المرجع السابق، ص 400.

(2) في الحقيقة إن حروب الدولة العثمانية التي شنتها على نظيرتها الصفوية عام 1578م، قد استمرت منقطعة إلى سنة 1649م، وقد شغلت الدولة العثمانية كثيرا عن توجيه طاقاتها العسكرية إلى جبهات عدة، بل كانت تجبرها أحيانا على حشد كل طاقاتها الممكنة إلى هذه الجبهة كما وقع سنة 1581م. انظر: عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 72.

(3) سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، المرجع السابق، ص 241، 242.

(4) نفس المرجع، ص 242، وللاطلاع على الصلح وما تبعه من مباحثات وأراء . انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، المرجع السابق، ص 419، 422 ؛ علي إبراهيم درويش، المرجع السابق، ص 136، 137.

(5) صلاح هريدي، المرجع السابق، ص 51.

أوروبا والدولة العثمانية، وما تبعها من ارتفاع في الأسعار، كما تأثر دخل الخزينة ودخول الانكشارية مما سيؤدي إلى أضرار في الاقتصاد العثماني فيما بعد⁽¹⁾.

لم تتوقف السياسة الصفوية عند هذا الحد فقد عمدت الحكومات الإيرانية إلى إثارة الاضطرابات وتحريض العشائر العربية من أجل القيام بثورات ضد الدولة العثمانية التي لم يكن في وسعها بالرغم مما تلاقيه من التزامن للأخطار في هذا الجزء من العالم وغيره، أن تصرف النظر عن المنطقة من أجل تأمين خطوط النقل البحرية خاصة بعد تبنيها لسياسة الانفتاح بعد مع الدول الإسلامية في شبه القارة الهندية والحيولة دون سيطرة البرتغاليين عليها⁽²⁾.

فبدلاً من أن يضع الصفويون أيدهم مع جيرانهم العثمانيين من أجل احتواء الخطر الخارجي وحماية المقدسات الإسلامية التي تشترك فيها القوتان وضعوا أنفسهم في خدمة الأسطول البرتغالي لطعن البحرية العثمانية وبالرغم من انتصار العثمانيين على صفوي إيران في أغلب الحروب التي جمعت بينهما إلا أن تلك الحروب استنزفت جهود العثمانيين ليس في فقط في التصدي للقوات البرتغالية بالخليج العربي بل حتى في جهاد الدولة وفتوحاتها بأوروبا⁽³⁾.

المطلب الثامن: غياب التنسيق بين القوى المحلية والإقليمية والدولة العثمانية

يبدو أن الجو الملائم الذي وجده العثمانيون في جهادهم ضد القوى الأوروبية الحوض الغربي الأبيض المتوسط، من تعاون تلك الشعوب الإسلامية معهم في حربهم ضد خصومهم قد افتقرت إليه الدولة العثمانية في الجبهة التي فتحتها في الخليج العربي و المحيط الهندي.

لا شك انه من ابرز عوامل فشل الدولة العثمانية في احتواء المد البرتغالي بمنطقة الخليج العربي هو عدم مشاركة القوة العربية المحلية بالجدية المطلوبة مع العثمانيين في حملاتهم الحربية، فلا قوى اليمن والخليج

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 221.

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 317.

(3) محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص ص 189، 198.

ولا قوى الهند أبدت نيتها واستعدادها من اجل التعاون المنسق مع الأتراك فوضعت تلك القوى مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العامة⁽¹⁾.

1- قبائل الخليج:

سبق وقلنا في بحثنا هذا أن الدولة العثمانية وجدت صعوبة في السيطرة على البصرة نتيجة تمردات القبائل بالعراق، ويبدو أن ثورات تلك العشائر لم تنقطع في منطقة وقد وصلت عصيان بعضها إلى حد كان قمعها يكلف الدولة العثمانية الكثير كثورة ابن عليان بالجزائر، ولأن الدولة العثمانية كانت تحرص على توفير الأمان للقوافل التجارية على طريق البصرة وبغداد ولأن هاتين المنطقتين بالذات كانتا تشكلان ابعد المناطق عن مركز الدولة العثمانية إذ كان الخبر المرسل لا يصل إلا بعد أربعين يوما، استحال أمر السيطرة على المنطقة صعبا خاصة و أن تلك العشائر كانت تنتشر على طول هذا الطريق⁽²⁾.

ومن القبائل التي أرقّت الدولة العثمانية نذكر على سبيل المثل لا الحصر، قبائل عرب الجزائر، الذين كان من الصعب بمكان السيطرة عليهم ولا يمكن الوصول إليهم إلا بواسطة المراكب النهرية، وكانوا على المذهب الشيعي، فلم تكن علاقتهم مع العثمانيين ترقى للمستوى المطلوب، ووصلت صعوبة السيطرة عليهم حد استجداد بكلرباي البصرة ببكلر باي بغداد وشهرزور وديار بكر من اجل السيطرة عليهم وقمع ثوراتهم⁽³⁾.

ومن حركات التمرد التي نجد تمرد عام 1549م، عندما قام ابن عليان بقطع الطرق المؤدية إلى البصرة، فأرسلت الدولة العثمانية والي بغداد (تمرد علي باشا) على رأس حملة لقمع حركته و التحقت به قوات على بك سنجق الغراف وأمام الضغط العثماني اضطر ابن عليان إلى طلب الصلح واعدا الدولة العثمانية بمجموعة من التنازلات، إلا انه لم يف بذلك، وفي سنة 1553م قام قباد باشا بكلر بكي البصرة بحشد قوة قوامها ألف مقاتل و تمكن من إلحاق الهزيمة بهم⁽⁴⁾، وهكذا ظل ابن عليان مترنحا بين الولاء والتمرد للدولة العثمانية لفترة ليست بالقصيرة⁽⁵⁾.

(1) عبد العزيز نوار، المرجع سابق، ص 124 .

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص ص 318، 319.

(3) نفس المرجع، ص 319.

(4) نفس المرجع، ص 319.

(5) حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 149.

ووصل الأمر بزعماء القبائل بمنطقة الخليج أن تعاونوا مع البرتغاليين الذين بنو القلاع في كل من هرمز و مسقط مزودة بالحاميات العسكرية، و حاولوا النزول بمنطقة القطيف من اجل منع العثمانيين من اتخاذ البصرة قاعدة ومدخل لهم في الخليج العربي⁽¹⁾، كما قام الأمير علي بن عليان وبالضبط في سنة 1546م بالاتصال بالقائد البرتغالي في هرمز بخليج البصرة محذرا إياه من مغبة الخطر العثماني، وطلب منه المساعدة وعلى الرغم من أن البرتغاليين قاموا بتحركات عسكرية في المنطقة إلا أنها لم تكن مؤثرة⁽²⁾.

كما قام احد شيوخ قبائل المنتفذ (لم تذكر المصادر اسمه) سنة 1547م بثورة ضد الأتراك، بل وأرسل كتابا إلى البرتغاليين يطلب منهم النجدة ويعددهم بالتحالف والموافقة على إقامة قاعدة حربية في البصرة وتجنيده عدة آلاف من أنصاره لمساعدتهم إن هم لبوا النداء⁽³⁾.

أما فيما يخص إمارة الجبور فبالرغم من ميل هؤلاء إلى التعاون مع الدولة العثمانية - عدم وجود دليل على ذلك - خصوصا بعد فتح بلاد مصر والشام، واشتراك مجموعة من الجند الأتراك (حوالي العشرين جنديا) مع جيش السلطان "مقرن الجبري" وحربه لتحرير البحرين من الاحتلال البرتغالي، إلا أن التعاون لم يكن بالمستوى المطلوب، خاصة إذا علمنا أن دور هؤلاء الجنود اقتصر على تدريب جيش الجبور على الأسلحة الحديثة⁽⁴⁾.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن تدهور وضع علاقات الدولة العثمانية بأهالي المنطقة لا تتحمله تلك العشائر الثائرة وحدها، إذ أن الجهاز الإداري العثماني بدءا بالبكلرباي يتحملون عدم الاستقرار ذاك، بحث أن القضاة والنواب ورجال السناجق وأمناء الخواص قاموا بممارسة الظلم على الرعية، الأمر الذي أدى بهؤلاء إلى هجران أماكنهم والتخلي عن النشاط الزراعي، ما حمل الصدر العظم في الدولة العثمانية إلى إرسال أوامره لرفع الظلم والتجاوزات من قبل موظفي الدولة⁽⁵⁾.

(1) احمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 99 .

(2) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 319.

(3) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 336.

(4) محمد حميد سلمان، المرجع السابق، ص 123.

(5) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 320.

2- القوى اليمنية و الهندية:

2. 1- القوى اليمنية:

أما القوى اليمنية فان عمل سليمان الخادم اللامسؤول ممثلا في قتل حاكم عدن عامر بن داود، قد كان له نتائجه الوخيمة على سمعة وسياسة الدولة العثمانية، فضلا عن نفور المسلمين وعدم تعاونهم معه في تحقيق أهدافه أو أهداف الدولة العثمانية في تكوين جبهة إسلامية مشتركة في البحار العربية والمحيط الهندي بتفرعاته، من اجل القضاء على البرتغاليين وإنهاء وجودهم بالمنطقة العربية⁽¹⁾.

وبالتحول إلى علاقات الدولة العثمانية بالكيانات السياسية في اليمن نجد أنها لم تكن بأحسن حال فقد كان موقف حكام عدن الطاهريين غريبا من الوجود البرتغالي، خاصة في حكم عامر بن داود الطاهري الذي كان مزدوج الموقف من خلال تظاهره بتأييد التجار المسلمين، والبرتغاليين في آن واحد⁽²⁾.

والحقيقة أن حاكم اليمن لم يرق بأي مواجهة ضد البرتغاليين، على العكس من ذلك نجده بين سنوات 1517، و1530م، يعقد الاتفاقيات مع البرتغاليين والتي اعترف من خلالها وفي ثلاث مناسبات بتبعيته للتاج البرتغالي، ودفع الضريبة مقابل السماح لسفن اليمن بالتجارة، كما فتح عامر بن داود مرفأ عدن أمام الأسطول البرتغالي من اجل التزود بالماء والمواد الغذائية، وهو الأمر الذي جعل السلطات العثمانية تتقم عليه وتضمر العداء له وتصدر أمر إعدام في أثناء الحملة العثمانية على عدن التي قادها سليمان الخادم⁽³⁾.

كما أن اليمن سيشكل فيما بعد احد اشد البلدان العربية مقاومة للامتداد العثماني⁽⁴⁾ حيث ستمتد هذه المقاومة للفتح العثماني الأول لليمن في القرن السادس عشر بين سنوات (1538 - 1569م)، والجدير بالذكر

(1) محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 399.

(2) نفس المرجع، ص 396.

(3) نفس المرجع ، ص 396.

(4) أدت مقاومة الزيديين الحادة للنفوذ العثماني إلى عدم تمكين العثمانيين من إحكام السيطرة على كل اليمن وتوحيده تحت السيادة العثمانية خلال فترة حكم السلطان العثماني سليمان القانوني خلال الفتح الأول (1539- 1555م)، وقد تحكم في هذا الصراع عوامل عدة كالعامل المذهبي عثمانيون سنة وزيديون شيعة، والتدخل الصفوي من اجل إشعال الحقد الزيدي ضد الأتراك، بالإضافة إلى التباين العرقي واللغوي، إضافة إلى قسوة الحكم العثماني. وبالرغم من تمكن الدولة العثمانية السيطرة على اليمن في سنة 1569م إلا أنها ظلت تعترف بالزعامة المحلية في اليمن. انظر: عبد الونيس شتا وآخرون ، المرجع السابق، ص 49، 50.

هنا أن هذه السنوات قد تخللتها جولات حاسمة في الصراع العثماني البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي⁽¹⁾.

2. 2- القوى الهندية:

أما القوى الهندية فلم تكن بأحسن حال في تعاونها مع العثمانيين من اليمن، إذ وبالرغم من أن الحملة العثمانية إلى الهند عام 1538م، كانت بناء على حاكم إمارة كجرات الإسلامية، إلا أن حاكمها الجديد اتفق مع البرتغاليين على حساب العثمانيين خوفا من السيطرة العثمانية، ولعدم ثقته بهم خاصة بعد ما فعلوه في اليمن⁽²⁾.

والحقيقة أن فعل سليمان الخادم سالف الذكر لم يؤثر فقط على التعاون العثماني اليمني الطاهري بل تعداه إلى القوى الإسلامية في الهند، واتضح ذلك عقب رفض الخواجة صفر عن مقابلة سليمان باشا الخادم في سفينته، وتقضيل أن يتم التعاون بينها عن طريق الرسل لذلك فشلت حملته إلى الهند فشلا ذريعا، كما كان لضعف وتقكك الجبهة الهندية من العوامل التي أدت إلى ذلك الفشل⁽³⁾.

وقد أكد هذا النهروالي أحد المؤرخين الرسميين للدولة العثمانية عن تصرفات الخادم في اليمن وما تبعها من نتائج بقوله: " وشاع غدره بصاحب عدن في أطراف البلاد، وأكناف العباد، وسبقه خبر هذا الغدر إلى بنادر (يقصد مرافئ) الهند، ونفرت خواطر الناس منه لذلك، ولما بلغ أهل الهند فعله بعامر، زاد نفورهم منه، وكان ذلك سببا لعدم مساعدتهم له على الفرقتال"⁽⁴⁾.

وقد يعود عدم تجاوب أهالي المنطقة مع العثمانيين إلى اختلاف الطرفين في ماهية التدخل العثماني بالخليج العربي، فإن كانت الدولة العثمانية تعتبر نفسها حامية العالم الإسلامي من الأخطار المحدقة به من تحرش صفوي شيعي واحتلال مسيحي إيبيري، فقد كان أهالي المنطقة من هرمرز ومسقط يرون في الوصول العثماني احتلالا كسابقه البرتغالي الذي أظهر نواياه الاستعمارية منذ البداية، من خلال حرمان أهالي المنطقة من منبع رزقهم الوحيد آنذاك وهو التجارة⁽⁵⁾.

(1) عبد الونيس شتا وآخرون ، المرجع السابق، ص 48.

(2) نفس المرجع، ص 57.

(3) محمد كريم إبراهيم، المرجع السابق، ص 406.

(4) النهروالي، المصدر السابق، ص 81.

(5) محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج2، المرجع السابق، ص 45.

يبدو أن انعدام الثقة بين الأهالي والدولة العثمانية كان متبادلاً يظهر ذلك من خلال عدم تجهيز العثمانيين لأهالي المنطقة بالسلاح والعتاد هؤلاء الذين كان بمقدورهم مقارعة البرتغال نظراً لما يتمتعون به خبرة ودراية بينتهم، وعليه كان الخوف العثماني من الأهالي يوازي خوفهم من البرتغال نفسه⁽¹⁾. ويمكننا تعليل ذلك نتيجة التجربة القاسية التي عانته الدولة العثمانية مع قبائل العراق السابقة الذكر⁽²⁾.

كما قد يكون مبعث عدم الثقة هذه نتيجة الإخفاقات العثمانية في بداية الحملات العثمانية على الخليج العربي ضد البرتغاليين ما جعل أهالي المنطقة يسحبون الثقة من الدولة العثمانية تدريجياً ويعتمدون على أنفسهم لإخراج العدو بأنفسهم والأخذ بتجربة معركة واد المخازن التي جرت رحاها بالمغرب الأقصى، والتي لم يكن تأثيرها على المغرب فحسب بل شمل كل العالم بما فيه سكان الخليج العربي، وهذا بالضبط ما قامت به أسرة اليعاربة بعمان.

مما سبق تجد أن:

فشل الدولة العثمانية في احتواء البرتغال بمنطقة الخليج يعود لأسباب عديدة منها ما هو ذاتي تتحمل الدولة العثمانية كاملة المسؤولية فيه، ومنها ما هو خارجي جاء نتيجة للظروف الدولية التي كانت قائمة وتحدياتها.

خاض العثمانيون حرباً محيطية مخالفة لتلك الحروب البحرية التي تعودت عليها أساطيلهم في البحر المتوسط أو البحر الأسود ناهيك عن دخولهم هذه الحرب متأخرين عن منافسيهم البرتغاليين الذين وطدوا قدامهم بأهم المناطق الإستراتيجية بالمنطقة.

كان للتفوق العسكري والتقني لدى البرتغال أو لنقص الإمدادات العثمانية نتيجة بعد مراكز التموين، أو لعدم مشاركة أهل المنطقة بالشكل المطلوب لاقتلاع المحتل البرتغالي من أراضيهم دور أساسي في انهزام العثمانيين بمنطقة الخليج العربي، ناهيك عن تلك العوامل الخارجة عن سيطرة الدولة العثمانية، والتي ساهمت

=Mohamed hameed salman, op. cit, p201.

(1) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص142.

(2) Mohamed hameed salman, op. cit, p 200 .

بشكل كبير في إحراج الدولة العثمانية في صراعها ضد البرتغال كتلك العواصف الهوجاء التي كثيرا ما حطمت الأساطيل العثمانية أو تلك الأمراض التي كانت تصب طاقم الأسطول.

المبحث الثاني: أثر العلاقات السعدية العثمانية على سير الجهاد السعدي ضد الاحتلال البرتغالي بالمغرب

تمهيد:

لطالما اكتسبت العلاقات العثمانية المغربية أهمية خاصة إذا ما اعتبرنا المغرب الأقصى هو البلد العربي الوحيد الذي افلت من الخضوع السياسي المباشر للحكم العثماني، والذي شمل جل الأقطار العربية خلال القرن السادس عشر، لتزداد تلك الأهمية كون المغرب كان يمثل مسرحا للصراع بين المسيحية ممثلة في الدول الأوروبية وعلى رأسها البرتغال، وبين القوى الإسلامية ممثلا في الدولة العثمانية.

تظهر أهمية أخرى بنظري في تلك العلاقات المتشعبة بين البلدين في تلك الحقبة، في أن مبرر قيام السعديين في المغرب ووجود الأتراك العثمانيين في الجزائر مبدئيا هو واحد، ممثلا في الجهاد ضد الكفار الأسبان والبرتغاليين، كما أن كلا الدولتين كانت ثيوقراطية الحكم فكان نظامها مستند إلى الفكر الديني⁽¹⁾. وهكذا واستنادا على هذا تحمس الشعب المغربي في الداخل والخارج وعلق آمالا كبيرة على ظهور العثمانيين من أجل مقاومة الاحتلال الأجنبي، وفي هذا يدخل رفض المغاربة في مصر لطلب سلطانها تجنيد ألف جندي للخروج معه ضد العثمانيين⁽²⁾.

فإذا علمنا أن الدولة العثمانية ذات التاريخ الحافل بالجهاد ضد الأوروبيين قد رفعت شعار الجهاد الإسلامي ضد البرتغاليين في المياه الإسلامية بالشرق قد وصلت أوج قوتها في القرن السادس عشر (العشر هجري)، وأنها قررت بعد أن امتلكت القوة البحرية المطلوبة وأنواع السفن المحتاج إليها قررت العبور إلى الأطلسي لمقارعة البرتغاليين هناك والمنافسة في حقل الكشوف الجغرافية الذي كان حصرا على الأوروبيين⁽³⁾.

وإذا علمنا أن الدولة السعدية كانت قد أعلنت الجهاد هي الأخرى على البرتغاليين بالرغم من قلة ألتها الحربية البحرية، وأنها تشرف على المضيق المؤدي إلى الأطلسي أين يتواجد البرتغاليون، انطلاقا من هذا وذاك

(1) فاهم نعمة الياسري، حسنين عبد الكاظم عجه، المرجع السابق، ص 167.

(2) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج 8، المرجع السابق، ص 15.

(3) عباس حمداني، المرجع السابق، ص 1.

واعتبارا للفلسفة الإسلامية التي كانت تقسم العالم إلى دار إسلام ودار حرب (قتال الأوربيين) وباعتبارهما ينتميان إلى نفس الدار (دار الإسلام) نطرح التساؤل التالي : كيف كانت تلك العلاقات بين القوتين يا ترى وهل ارتقت إلى التعاون الذي من شأنه أن يوقف تلك الهجمة الاستعمارية خاصة البرتغالية أم لا ؟

المطلب الأول: العلاقات العثمانية السعدية زمن احمد الأعرج

تعود الإرهاصات الأولى لعلاقة الحكام العثمانيين بالجزائر بالدولة السعدية الأولى إلى بدايات القرن السادس عشر أي إلى عهد الخلفاء عروج ومحمد القائم بأمر الله حيث يتوقع أن يكون هناك تقارب عثماني سعدي من خلال مشاركة الأتراك العثمانيين في حصار مدينة سنتا كروز مع القوة السعدية⁽¹⁾.

و يبدو أن بؤادر التعاون السعدي التركي ظهرت منذ العقد الثالث من القرن 16م، في تلك الحملات العسكرية المشتركة التي نظمها الجانبان ضد مراكز الاحتلال في المغرب والجزائر وعند السواحل الأيبيرية، وموازة لهذه العمليات ذات الطبيعة الرسمية والتي كانت تستهدف الأيبيريين وحلفائهم حصل كذلك تعاون بين مجاهدي شفشاون وتطوان و أتراك الجزائر، وكانت حاكمة تطوان تسمح للأتراك بالتردد على المدينة لبيع وشراء الأسرى المسيحيين⁽²⁾.

ليتعزز التقارب أكثر زمن الشريف احمد الأعرج بن القائم بأمر الله والذي كانت له علاقات طيبة مع الحكام العثمانيين بالجزائر، ما جعل البرتغال يتخوفون من الاتصالات ومن تزايد قوة الحاكم السعدي ما حملهم (البرتغاليون) على التفكير جديا في الجلاء عن بعض المراكز والثغور التي احتلوها سابقا خاصة الجنوبية والوسطى منها، والتي كانت تتعرض لمحاولات تحريرها من طرف السعديين كما لاحظنا كمدينة آسفي وآزمور وغيرها⁽³⁾.

كما عمل البرتغال على إحباط أي وفاق بين القوتين عن طريق التقرب من السعديين وعقد التحالفات لأطول فترة ممكنة كاتفاق سنة 1537 م الذي استمر لمدة ثلاث سنوات، كان الاتفاق على أساس القضاء على أي تقارب أو تغلغل عثماني بالمغرب، كما أن نجاح السعديين في تحرير أغادير سنة 1541 بالتزامن مع النجاح

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 89.

(2) زهراء النظام: العلاقات المغربية الجزائرية مقارنة سياسية ثقافية خلال القرن 16م، ط1، دار الأمان، الرباط، 2015، ص ص 110، 111.

(3) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 90 ؛ فالح حنظل، المرجع السابق، ص 350.

العثماني والتصدي لحملة شارلكان الشهيرة على مدينة الجزائر من نفس السنة اقلق كثيرا السلطات البرتغالية بالرغم من ذلك التنافس الاسباني البرتغالي، هذا القلق الذي قد يكون مبعثه الخوف من قيام حلف بين القوتين المتجاورتين، ما قد يساهم في تحرير الثغور المغربية خاصة إذا علمنا أن الجيش السعدي قد احتوى على الكثير من الأتراك الذين عملوا به كمدربين ومدافعين في صفوف المغاربة، يظهر ذلك في حصار سانتا كروز عام 1541⁽¹⁾.

وقدر شارك هؤلاء الأتراك بالإضافة إلى المناورات العسكرية في صنع الأسلحة والبنادق النارية وحراسة السلطان السعدي نفسه، وقد قدر عددهم في سنة 1543 بحوالي 700 جندي⁽²⁾.

وكنتيجة لتقدم السعديين نحو الشمال من المغرب وكنتيجة لذلك التقارب السعدي العثماني اضطر الملك البرتغالي إلى الاستنجاد بحليفه " شارل الخامس " ملك اسبانيا الذي لم يخفي هو الآخر انزعاجه من تلك التطورات، فمباشرة وبعد سقوط حصن سانتا كروز كاتب الملك البرتغالي "شارل" يحذره من المخاطر التي باتت تهدد المسيحية جمعاء، ويحثه على ضرورة البحث سويا في سبيل الحد من أخطار ذلك التحالف⁽³⁾.

وشببها بذلك جاءت القرارات البابوية لتحث الملكين على ضرورة التنسيق سويا وتوحيد المواقف لموجهة التحالف السعدي التركي ضد المسيحية، ولعل إعلان شارل الخامس شن حملته على الجزائر يندرج في هذا السياق⁽⁴⁾.

وعليه يمكن القول أن العلاقات العثمانية في عصر احمد الأعرج تميل إلى الود كما كان تأثيرها ايجابيا في الصراع السعدي البرتغالي، حيث ظهر ذلك التخوف من تلك الصلات الودية التي إن لم تقض على البرتغال بالمنطقة إلا أنها قد تكون أوقفت بشكل أو بآخر امتداد البرتغال في الأراضي المغربية، نستدل على ذلك من خلال ذلك النسق الجهادي القوي الذي سار عليه احمد الأعرج وانتصاراته الكثيرة على البرتغاليين في الكثير من المعارك.

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق 90 ؛ كما احتوت الجيوش السعدية على الكثير من الأتراك الذين ساهموا إلى جانب تحرير الثغور في عمليات إخماد الثورات والتمردات التي كانت تظهر في كثير من الأوقات. انظر: مارمول، المرجع السابق، ص 63.

(2) نفس المرجع ، ص 63.

(3) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 112.

(4) نفس المرجع، ص 112.

المطلب الثاني: العلاقات العثمانية السعدية في عهد محمد الشيخ السعدي و أثرها

كان من المفروض أن تتطور العلاقات بين القوتين الإسلاميتين المتجاورتين السعدية في المغرب والعثمانية في الجزائر في هذه الفترة باتجاه التعاون على الأقل لتحرير ما بقي بأيدي البرتغاليين وحتى الاسبان من قواعد على شواطئ البلدين من جهة، وتقديم العون للبقية الباقية من مسلمي الأندلس الذي عانوا من جحيم الاضطهاد الذي مارسه عليهم الاسبان من جهة أخرى .

هذا بالضبط ما توقعه الأيبيريون (البرتغال و اسبانيا) حيث تخوف هؤلاء وأولئك من قيام تعاون مرتقب بين القوتين الإسلاميتين ضد مراكز الاحتلال في كل من البلدين، ويظهر جليا ذلك التخوف في تلك التقارير والرسائل التي بعثها حاكم وهران الاسباني إلى حكومته مؤكدا فيها على أن المولى محمد الشيخ قد كتب إلى باشا الجزائر يقترح القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير، ويضيف أن كثيرا من البحارة الجزائريين سيدخلون في خدمة المولى⁽¹⁾.

ويبدو أن توقعات الحاكم الاسباني ثبتت، فقد ظهر في الأفق بوادر قيام تحالف ضد العدو المشترك الأيبيري من خلال انتقال كبير من الأتراك العثمانيين إلى الجبهة السعدية والذين قدر عددهم بحوالي الألف كان معظمهم من البحارة، حيث اشتغلوا في صناعة الأسلحة والسفن، ويظهر أن السلطان السعدي طلب المزيد منهم لعدم اكتفائه وكان "درغوث باشا" من أهم الأسماء المطلوبة نظرا لما كان يتمتع به البحار من حنكة في المعارك البحرية.⁽²⁾

ونشير هنا إلى أنه وإلى حدود سنة 1547م لم يكن هناك أي تعارض بين الأهداف التركية والسعدية، إذا ما استثنينا رفض السلطان السعدي الامتثال لأوامر السلطان العثماني بإطلاق سراح احمد الوطاسي الذي وقع تحت الأسر في سنة 1545م. بل إن تلك الأوضاع التي كانت قائمة في البلدين من احتلال أيبيري بين البلدين، حتم على القوتين التعاون والتنسيق لطرد المحتل، والعمل على تحقيق وحدة البلدين، وقد أسفر ذلك التعاون على تحرير عديد الثغور والمواقع، إلا انه بوصول الأتراك إلى الغرب الجزائري وتمكن السعديين من الدخول إلى فاس فتح بابا من التنافس مابين القوتين⁽³⁾.

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 75، 76.

(2) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص ص 90، 91.

(3) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 159.

مهما يكن من أمر فبعد سماع البرتغال لهذا التقارب السعدي العثماني وما حدث من عبور لمجموعة من الأتراك إلى الحدود المغربية قصد المساعدة العسكرية، سارع البرتغال إلى تعزيز تحصيناته بالمنطقة، لكنه سرعان ما عزف عن ذلك بعد اشتعال الحرب بين القوتين في الغرب الجزائري، نتيجة مشكل الحدود الذي كثيرا ما السبب في توتر العلاقات بين البلدين⁽¹⁾.

وهكذا وبتجاور القوتين السعدية والعثمانية انطلقت شرارة حرب بينها، ترنحت بين مد و جزر استطاع من خلالها السعديون الوصول إلى نهر الشلف، كما استطاع الأتراك العثمانيون الوصول والدخول إلى مدينة فاس .

استغل المولى محمد الشيخ إخلاء الإسبان لمدينة فاس⁽²⁾ وطلب النجدة الذي تقدم به الأمير الزياني " احمد بن عبد الله " من أجل مساعدته على استرجاع ملكه، فوصلت القوات المغربية بقيادة الحران بن محمد الشيخ إلى وجدة عام 1549م⁽³⁾، ثم التوجه إلى تلمسان والدخول إليها في 9 يونيو 1550م، حيث استقبل الحران وجيشه بفرح من سكانها فعين أخاه عبد الله قائدا عليها تاركا معه 1000 من الفرسان.⁽⁴⁾ وبدخول السعديين إلى تلمسان فتحت مرحلة جديدة في العلاقات السعدية العثمانية، لأن كلا من القوتين يدرك جيدا إستراتيجية المنطقة للتوسع على حساب الآخر⁽⁵⁾.

كان الرد العثماني قويا فقد بعث والي الجزائر حسن باشا قواته تحت قيادة حسن كرسو في محاولة لإخراج السعديين من الغرب الجزائري، وبالرغم من نجاح السعديين في التحصن بالمنطقة في الصدام الأول بين القوتين إلا أن القوات العثمانية تمكنت من هزم المغاربة وإخراجهم من تلمسان في الجولة الثانية والتطلع إلى التوسع غربا⁽⁶⁾.

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 91.

(2) الغنيمي، المرجع السابق، ص 131.

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 76، 77.

(4) الوفراني، المصدر السابق، ص 82. دي طويريس، المرجع السابق، ص 169.

(5) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 77 ؛ كانت هذه الحملة احد اكبر الحملات التي قامت بها الدولة السعدية زمن محمد الشيخ السعدي إذ كانت قواتها تتألف من ثلاثين ألف جندي مجهزين باعتي الأسلحة من مدافع ثقيلة وغيرها.

(6) نفس المرجع، ص 77.

وقد سنحت الفرصة بعد استغلال الصراع الوطاسي السعدي الذي كان من أثره أن لجأ " أبو حسون الوطاسي" إلى استمالة البرتغاليين وملكهم "جيان الثالث" الذي رحب بالفكرة بعد أن رفضها الأسبان، وقد استفاد أبو حسون من بعض القطع البحرية البرتغالية وبينما هو في طريقه إلى بادس التقى بأسطول عثماني الذي أسره مع ما كان معه من رجال وقطع واتجه بيه صوب الجزائر، أين التقى بحاكمها " صالح رايس" الذي وعده بالمساعدة في استرداد عرشه⁽¹⁾.

كتنفيذ لذلك الوعد توجهت القوات العثمانية رفقة أبي حسون إلى بادس، وبعد أن انضم إليه " مولاي عمر" ملك دبدو الذي كان لاجئاً في مليلة ، استطاع الجيش العثماني قهر قوات محمد الشيخ قرب بادس، ولم تنته سنة 1553م حتى دخلت القوات العثمانية مدينة تازة، فالسير قدما إلى الهدف المنشود مدينة فاس التي تمكن العثمانيون رفقة أبو حسون الوطاسي من دخولها في 8 يناير 1554م⁽²⁾.

وهكذا وباستقرار اذرع الدولة العثمانية "أبو حسون" في فاس ومولاي " عمر دبدو" ساد النفوذ التركي في شرق المغرب المناطق الوسطى منه، ما بعث بدوره على فزع البرتغال الذي سارع ملكه "جيان الثالث" إلى مراسلة الإمبراطور الاسباني يحثه على ضرورة التدخل في المغرب للحيلولة دون تغلغل العثمانيين في هذه البلاد لان ذلك من شأنه أن يشكل بالغ الخطر على ممتلكات الأمتين⁽³⁾.

انطلاقاً من التخوف البرتغالي هذا نتساءل ما الذي حال دون قيام حلف بين الدولة العثمانية التي أصبحت بدخولها مدينة فاس لا تشكل خطراً على المصالح البرتغالية فقط، وإنما أصبحت بذلك على مرمى حجر من الأراضي البرتغالية والاسبانية، مع محمد الشيخ الذي يعتبر عصره مع أخيه عصر جهاد بحق ؟. لعلنا نجد الجواب في نوعية المراسلات التي كانت تحدث بين حكام البلدين أو حتى مع السلطان العثماني.

ونشير هنا إلى أن العثمانيين حاولوا منذ البداية إتباع سياسة الاحتواء اتجاه السلاطين السعديين الأوائل، وهذا ما تؤكد مضامين الرسائل العثمانية التي كانت ترسل إليهم و تجس نبضهم، من خلال طبيعة المخاطبة التي لم تكن تحمل أكثر من صفة لحاكم ولاية فاس، وهو ما كان يعتبر من منظور العثمانيين أن المغرب ولاية تابعة لهم، ويتجلى ذلك أيضاً في السفارة العثمانية إلى محمد الشيخ حين اقترحت عليه المساعدة

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج8، المرجع السابق، ص23.

(2) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 81، 82.

(3) نفس المرجع السابق، ص 81.

لمحاربة المسيحيين مقابل الخطبة باسم السلطان العثماني، والتي إن تحققت تعني ضمناً تبعية المغرب للباب العالي⁽¹⁾.

في خضم ذلك الصراع الذي كان قائماً قرر الأتراك العثمانيون وبعد محاولات يائسة إرسال وفد إلى فاس ليقترح على المولى محمد الشيخ الهدنة والسلم وهذا ما ذكره " المؤلف المجهول " في كتابه " تاريخ الدولة السعدية" مفصلاً قائلاً: " فانه لما كان محمد الشيخ بفاس وفد عليه رسول السلطان سليم ليهنئه و يعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا و الود والمحبة والخدمة والميل إليه والرغبة فيه وانه في نصرتهم .فسكت ولم يجبه بشيء وبقي عنده إلى أن طال جلوس الرسول وطلب منه أن يسرحه فقال له محمد الشيخ سلم على أمير القوارب⁽²⁾ سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لا بد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام"⁽³⁾.

انطلاقاً من الجواب السعدي يظهر جلياً ذلك التنافس الذي كان قائماً بين السلطتين التركية و السعدية، والذي كانت تحركه أطماع الدولة العثمانية التي حاولت فرض نفوذها على هذا الجزء من العالم الإسلامي، وهو بالضبط ما كان يتعارض مع رغبة الحاكم السعدي محمد الشيخ⁽⁴⁾، الذي لم يكن يرى أية أحقية أو شرعية للخلافة العثمانية⁽⁵⁾، كما يعكس لنا ذات الجواب طموح الحاكم المغربي بإمامة المسلمين ليس فقط في شمال إفريقيا وإنما في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا بالضبط ما نفهمه قول " الوفراني " : " وحي مراسم الخلافة الدارسة ومعالها الطامسة" وفي قوله: " لما تغلب رحمه الله، على بلاد المغرب، ودانت له حواضره وبواديها، تافت نفسه همته العلية إلى بلاد المشرق"⁽⁶⁾.

(1) الغنيمي، المرجع السابق، ص 136، 137.

(2) كان أبو عبد الله الشيخ لا يسمى سلطان العثمانيين إلا سلطان الحوالة، لأن الغالب على هؤلاء العثمانيين السفر في السفن البحرية، قد يكون هذا الانزلاق في اللفظ نابع من بداوة المولى الذي عاش في صحراء سوس، و سيضمّر الأتراك العثمانيون الغل لمحمد الشيخ الذي تجرأ على تسمية سليمان القانوني بملك الحوالة .انظر: الوفراني، المصدر السابق، ص 42. وانظر: الغنيمي، المرجع السابق، ص 138.

(3) المجهول، المصدر السابق، ص 27.

(4) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 189_190.

(5) لم تكن الدولة السعدية فقط من لم تعترف للدولة العثمانية بالخلافة، فقد اشتركت في هذا الرفض كل من الدولة الصفوية الشيعية في إيران والدولة المغولية في الهند، الذين عارضوا ادعاء العثمانيين للخلافة.

(6) الوفراني، المصدر السابق، ص 82، 93.

وتجسد ذلك التضارب في المصالح والمشاريع بين القوتين العثمانية والسعدية من خلال تلك التدخلات الكبيرة والمتكررة التي قام بها الشريف السعدي في تلمسان⁽¹⁾ وتهديده بالزحف قدما على ممتلكات السلطان العثماني حين قال " لا بد لي أن اذهب إلى مصر واخرج منها الترك من أحجارهم وأنزلهم في ديارهم"⁽²⁾.

لا عجب إذن أن يكون هذا التوتر بين القوتين الإسلاميتين قد صب في صالح القوى الأيبيرية التي لا نتعجب إذا ما رأينا تقاربها مع الدولة السعدية من أجل ضرب الدولة العثمانية. ولعل في تلك الوثيقة المرسلة من الملك البرتغالي "جيان الثالث" إلى ضابطه في مازكان من عام 1554م ما يؤكد ذلك التقارب، تلك الوثيقة التي كانت عبارة عن جواب من البرتغال إلى السلطان السعدي الذي سبق له وأن أرسل إلى كل من مدريد ولشبونة طالبا الإمدادات اللازمة من أجل مقارعة العثمانيين، كما احتوى الخطاب الملكي تلك الشروط التي يراها الملك والتي تراها لشبونة من أجل تقديم المساعدات كالتنازل على بعض المراكز البحرية كبادس وبنيون و العرائش⁽³⁾، وقد رأى المولى محمد الشيخ أن تلك الشروط كانت قاسية فلم يقبلها⁽⁴⁾.

كان من اثر ذلك التقارب السعدي البرتغالي أن عقدت هدنة بين الطرفين بواسطة حاكم مازكان (الجديدة) من عام 1555م لمدة ستة أشهر وإن كانت في الواقع قد استمرت أطول من ذلك بكثير⁽⁵⁾.

كما حاول محمد الشيخ عقب استرجاعه مملكة فاس من خصمه أبو حسون⁽⁶⁾ استمالة الأسبان والدخول معهم في مفاوضات تبحث سبل وتحقيق أطماعه التوسعية في الجزائر والقضاء على الخطر العثماني المشترك⁽⁷⁾، وقد طلب المولى السعدي من أجل ذلك مساعدة عسكرية تمكنه من القضاء على العثمانيين بالجزائر، ويبدو أن اسبانيا قد رحبت بالفكرة وأبدت موافقتها⁽⁸⁾.

(1) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 190.

(2) الوفراني، المصدر السابق، ص 93. كان في نية المولى محمد الشيخ التوجه نحو ضم المغرب الأوسط إلى حظيرته ثم التوجه شرقا نحو وصولا إلى حدود المغرب الشرقية و القضاء على النفوذ التركي بالمنطقة، انظر: الغنيمي، المرجع السابق، ص 131.

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 83.

(4) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 162.

(5) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 83.

(6) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 162.

(7) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 184.

(8) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 162.

وهكذا حاول المولى محمد الشيخ أن يحافظ على كيان الدولة السعدية وأن يحول دون انضمام بلاده م تحت جناح العثمانيين عن طريق التحالف مع المسيحيين، وبالرغم من تلك الأعداء التي أوجدها البعض في سبيل تبرير ذلك التحالف إلا أن طلب المساعدة والتحالف مع الأعداء مع الدولة العثمانية ليس له ما يبرره، كون هذا الحلف كان على حساب أهم ما ارتكزت عليه الدولة السعدية وهو الجهاد ضد الأيبيريين مغتصبي الأراضي⁽¹⁾.

مهما يكن من أمر فقد التجأ بعدها حكام الجزائر العثمانية وكننتيجة لعدم رضوخ المولى السعدي إلى تدبير مؤامرة من اجل اغتيال محمد الشيخ، الذي سبق وعلما انه اتخذ من الجند الترك حرسا خاصا له⁽²⁾، وقد استغل الباب العالي ذلك المنفذ إلى الحرم السعدي من اجل تنفيذ عملية الاغتيال، وقاموا بإرسال جماعة وصلت إلى المغرب واستطاعت الانضمام إلى الحرس الخاص مظهرة الطاعة والولاء إلى أن سنحت لها الفرصة تنفيذ عملية اغتيال محمد الشيخ الذي كان يقوم بأحد أسفاره التقيدية لتارودانت⁽³⁾ سنة 1557م، وحملوا رأسه إلى القسطنطينية وعلق على باب القلعة إلى حين ذهاب ابنه عبد الملك احمد إلى القسطنطينية مطالبين من السلطان سليم الثاني إنزاله ودفنه، وهو ما سمح به السلطان العثماني⁽⁴⁾، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المولى محمد الشيخ عند اغتياله لم يكن قد عقد بعد اتفاقية التعاون مع الأسبان من اجل شن حملة مشتركة على الأتراك العثمانيين بشمال إفريقيا⁽⁵⁾.

وقد جاءت حادثة الاغتيال تلك مقدمة أو محاولة من السلطات العثمانية ضم المغرب الأقصى، وقد كان من بين ثلاثة أبناء تولوا الخلافة من بعده و كان لهم دول بارز في أزمنة ملكهم و أولهم عبد الله الغالب⁽⁶⁾.
الغالب⁽⁶⁾.

خلاصة القول هنا أن فترة (1549 1558 م) تعتبر أساسية في تاريخ العلاقات السعدية العثمانية فخلالها حاول محمد الشيخ السعدي التوسع على حساب المجال العثماني كما حاول العثمانيون التوسع على

(1) الغنيمي، المرجع السابق، ص ص 134، 135.

(2) نفس المرجع، ص 137.

(3) من المدن المغربية القديمة جدا احتلها المرابطون و حاصرها الموحدون و كانت شبه مستقلة عن المرينيين، اتخذها محمد الشيخ السعدي عاصمة له و سماها المحمية، و هي تقع على مقربة من واد سوس. انظر: ابن العربي، المرجع السابق، ص 93.

(4) الوفرائي، المصدر السابق، ص 95.

(5) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 85.

(6) الغنيمي، المرجع السابق، ص 137.

حساب المغرب لكنهما فشلا معا في تحقيق ذلك، وقد صاحب ذلك اثر سلبي على جهاد القوتين ضد القوى المسيحية.

المطلب الثالث: العلاقات السعدية العثمانية في عهد عبد الله الغالب

لقد كان اغتيال محمد الشيخ من قبل حراسه الأتراك بداية لتطورات عدة خاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية الناشئة، إذ لم يعد يخفى على احد نية الدولة العثمانية في الاستيلاء على بلاد المغرب الأقصى لاستكمال فتح الشمال الإفريقي، ووضع قدم في اقرب نقطة إستراتيجية لمواجهة الخطر الأيبيري، ومن هنا يأخذنا الفضول إلى معرفة كيف كانت علاقة خليفة السلطان الموتور أبو عبد الله الغالب يا ترى ؟.

بتولي أبو الله الغالب زمام الأمور كان من البديهي قيام هذا الأخير بالتقارب أكثر من مع الأوربيين على حساب الأتراك العثمانيين الذين قاموا باغتيال والده، خاصة إذا علمنا سلفا انه كان الساعد الأيمن لأبيه محمد الشيخ، وانه شارك في جميع المفاوضات السرية التي جمعت أباه بالقوى الأيبيرية بما فيها فكرة شن الحملة المشتركة على القوة العثمانية الصاعدة⁽¹⁾.

ببيع المولى عبد الله بمدينة فاس بعد وصول نبا اغتيال والده، وبعد أن اتخذ من اسم الغالب بالله لقباً له عزم السلطان الموتور على الانتقام من قتلة والده وإخضاع بعض الثورات الداخلية التي بدأت تظهر في بعض أجزاء المغرب السعدي، وهذا ما حدث بالضبط فقد قصد عبد الله الغالب بالله مدينة تارودانت أين استطاع الانتقام من الأتراك الذين دبروا مؤامرة اغتيال والده، حيث حاصر الانكشارية الذين تحصنوا بالمدينة فقتل بعضاً منهم وتتبع الفارين منهم إلى الجزائر وأجهز عليهم⁽²⁾.

ليعود بعدها إلى مدينته فاس قصد تنظيم الصفوف والتهيؤ للتصدي للحملة العثمانية القادمة إلى المغرب بقيادة حاكم الجزائر "حسن بن خير الدين" والذي أراد استغلال الظروف المضطربة بالمغرب عقب وفاة السلطان محمد الشيخ من اجل تحقيق الحلم المنشود وإلحاق المغرب بالتاج العثماني⁽³⁾، وقد جرت المعركة يوم

(1) عبد الكريم كريم، المرجع السابق ، ص 86.

(2) المجهول، المصدر السابق، ص 33.

(3) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 176.

السبت الثاني من ابريل عام 1558 م قرب واد اللين أين استطاع السلطان السعدي دحر القوة العثمانية التي تشتت وفرت إلى جبال المنطقة⁽¹⁾.

وقد كشف هذه الحملة عن تشبث الأتراك العثمانيين بفكرة إلحاق المغرب إلى الحظيرة العثمانية وفرض السيادة عليه كباقي الأقطار العربية، وجود تباين بين موقف السلاطين العثمانيين الذين كانوا يرغبون في ضم المغرب بطرق سلمية ، وبين ولايتهم في الجزائر الذين كانوا لا يبالون بتعليمات الباب العالي، فكانوا ميالين إلى النار والحديد لإجبار حكام المغرب على الرضوخ⁽²⁾.

وفي سنة 1560م وبعد أن استتب الحكم للغالب في المغرب على عكس جاره حاكم الجزائر الذي كان منهمكا في إخماد بعض الثورات، جاء التدخل السعدي من جديد في تلمسان والتي شهدت قبيل الحملة السعدية عليها ثورة ضد حاميتها، والتي لا يستبعد أن يكون الغالب وراءها، كما تزامنت الحملة مع المشروع الاسباني الرامي إلى إيقاف الدولة العثمانية بالحوض الغربي للمتوسط، ما جعل البعض يعتقد جازما أن الحملة السعدية كانت بالتنسيق مع الأسبان⁽³⁾.

وقد برز مشكل آخر بين القوتين العثمانية والسعدية عندما فر عبد المؤمن من بطش أخيه عبد الله الغالب و لجأ إلى الأتراك سنة 1559م، واستقبل من طرف حسن بن خير الدين الذي قرّبه وأكرم نزله بل واسند إليه حكم ولاية تلمسان، وسرعان ما لحق به أخواه عبد الملك و احمد ودخل الجميع في اتصالات مع العثمانيين من اجل طلب المساعدة لاسترجاع ملكهما المسلوب⁽⁴⁾.

وقد جاء الرد العثماني على طلب الأخوين كما تعرض له المجهول في مؤلفه: "إني لا أعينك على فتنة المسلمين وأخوك قد تولى وبايعه المسلمون من أهل المغرب، وهو اكبر منك سنا، ولكن أرسل إليه واستخبر حاله"⁽⁵⁾.

(1) نفس المرجع، ص 177.

(2) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 224

(3) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص ص 179، 180.

(4) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 224.

(5) المجهول، المصدر السابق، ص 42.

وبوصول مبعوث السلطان العثماني إلى المغرب وبعد أن أحسن المولى عبد الله الغالب ضيافته وأرسل معه كاتبه "أبا محمد السرغيني"، و قدم له كهدية إلى السلطان العثماني مالا و ذخائر من ذهب و الياقوت و سيوفا، كما أرسل مع مبعوث السلطان مبلغ من المال إلى أخويه المقيمان بالجزائر و وعد أن يكون لهما مقدار منه من كل سنة (1).

وبعد عودة السفير المغربي اخبر المولى الغالب بالشروط التي توصل إليها الطرفان ومنها أن يدفع مقدار من المال إلى أخويه فقبل الغالب بالشروط، لكنه انصرف بعدها مباشرة إلى ترتيب الجيوش وإعدادها وتحصين البلاد في حركة تعبر على رفضه التام في تدخل الأتراك بشؤون مملكته (2).

وبعد معركة ليبانتو قدر السلطان العثماني الخطر المحدق بدولته في البحر المتوسط خاصة بعد تحالف القوى المسيحية، الأمر الذي أصبح يستدعي في رأيه ضرورة إقامة حلف إسلامي مشابهو شعر السلطان بحاجة إلى التقارب من عبد الله الغالب للوقوف معا في وجه المسيحيين فكتب إلى الباشا الجديد في الجزائر عراب احمد يأمره بإرسال قائد للغالب يعلمه بالاقترح (3).

ويظهر رفض المغرب لتدخل الأتراك في شؤون البلاد من جديد من خلال رفض المولى عبد الله الغالب استقبال مبعوث السلطان سليم الثاني " حاجي موراتو " في آخر سنة 1572م، الذي كان قدومه من اجل قيام حلف بين القوتين، ويبدو أن هذا الرفض جاء خشية من أن يثير غضب الملك الاسباني فيليب الثاني الذي تأكدت صداقته مع المولى السعدي، أو لان السفير العثماني لم يكن محل ترحيب لدى الشريف السعدي كونه صهر لأخيه عبد الملك (4).

وقد اثار هذا الرفض تخوف حاكم الجزائر آنذاك " محمد أعراب" من قيام المولى بشن حملة على تلمسان، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث بل أرسل عبد الله الغالب في 1573م بسفارة إلى السلطان العثماني

(1) نفس المصدر، ص ص 35، 36.

(2) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 225.

(3) نفس المرجع، ص 247.

(4) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 186.

بقيادة "أبي عبد الله محمد الدرعي التمجروتي" لتأكيد السلام مع الجانب العثماني والتفرغ للخطر البرتغالي الذي جهر به الملك سباستيان من خلال عزمه على اكتساح المغرب واسترجاع باق الثغور وفي طليعتها أغادير⁽¹⁾.

أما أوربيا فلا جرم أن نجد السلطان السعدي يهادن القوى الأوربية وبخاصة الأيبيرية المحتلة على حساب الأتراك حيث سلم الأسبان حجرة بادم، حيث يقول الوفراي في ذلك: " أن السلطان لما رأى عمارة الجزائر وسفنهم لا يقطعون عن مرسى حجر بادم ومرسى طنجة وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجرة بادم ويخليها من المسلمين، فتنقطع بذلك مادة الترك من المغرب ولا يجدون سبيلا إليه"⁽²⁾. وعليه كان التنازل على المرسى أملا في قطع الغارات العثمانية المتوقعة.

كما تنازل المولى عبد الله للبرتغاليين عن ميناء البريجة في وقت كاد قائد جنده "علي بن ودة" أن يتمكن من استرجاعه⁽³⁾، ويبدو أن الغالب تنازل عنه مقابل فدية عظيمة من الأموال، فكانت صداقته للبرتغاليين على حساب معاداته للأتراك العثمانيين. فكانت سياسته السلبية إزاء الجهاد كانت أحد أهم أسباب توتر العلاقة بين الغالب والأتراك العثمانيين⁽⁴⁾.

والجدير بالذكر هنا أن هناك من أرجع سبب رفع المولى الحصار على البريجة إلى تخوف الأخير من هجوم عثماني، خاصة بعد أن وصلت أخبار تقيد تردددهم على بوغاز جبل طارق، وتهديده للعاهل المغربي⁽⁵⁾.

والحقيقة أن الغالب كان حريصا اشد الحرص على علاقات التقارب تلك مع البرتغاليين، حرصا منه للمحافظة على خلافة أبيه في مراكش وإلى حد التشكك من السعي السلمي العثماني لدى المولى والخوف من ضغط المرابطين المتصوفين على الشريف لانصياعه لطلب التقارب مع العثمانيين باسم الوحدة الإسلامية

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 186.

(2) الوفراي، المصدر السابق، ص 103.

(3) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 225.

(4) الغنيمي، المرجع السابق، ص 144.

(5) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج 8، ص 9.

الجهادية لإنقاذ بقية الثغور المغربية المحتلة، ولكن سياسة الغالب التي سار عليها والتي اعتمدت على الحذر والمراوغة جعلت العثمانيين يعلنون العداء له⁽¹⁾.

وعليه يمكن القول بأن العلاقات المغربية الجزائرية زمن حكم المولى عبد الله الغالب كانت تترنح بين العداء والسلم، إلا أنها كانت للأولى الأقرب فكانت في السنوات الأولى تميل إلى السلم الحذر ثم إلى التحالف الغير فعال في السنوات (1565، 1570 م) ثم إلى الفتور في السنوات الأخيرة من 1571 1574 م، كما لم تأخذ العلاقات بين البلدين السير المتوقع نحو تحرير الثغور المحتلة في البلدين⁽²⁾.

قد يعود فقدان الثقة بين الجانبين إلى كون عبد الله الغالب كان متأكد من رغبة العثمانيين العميقة في ضم المغرب لحكمهم، كما كانوا هم متأكدين من السلطان الغالب لن يرضى أبدا بتبعية الدولة العثمانية. وبعد وفاة الغالب ستظهر لنا مرحلة جديدة في العلاقات بين البلدين.

المطلب الرابع: العلاقات العثمانية السعدية في عهد محمد المتوكل

تولى محمد بن عبد الله الغالب المعروف في الكتب بالمتوكل على الله الحكم بعد والده في سابقة لم يعتد عليها البيت السعدي في تعيين السلطان فقد نصب نفسه سلطانا بالرغم من أن الأحقية كانت لعمه عبد الملك الذي لجأ إلى الجزائر، وقد تزامن وجوده هناك بالحملة العثمانية على تونس من عام 1574م⁽³⁾، وكان عبد الله أول من بشر السلطان العثماني سليم الثاني بالنصر على الأسبان في تونس⁽⁴⁾.

هذا التقارب لم ينل إعجاب السلطان واخذ يعمل على إحباطه عن طريق إرضاء العثمانيين بإرسال السفارات إلى اسطنبول معربا فيها عن رغبته في توطيد العهود والاتفاقيات التي وصلت حد الاعتراف بالتبعية للسلطان العثماني⁽⁵⁾، إلا أن سفارته لم تنجح فبحث عن مساعدة قوى خارجية أخرى يهملها أمر المغرب وفي

(1) الغنيمي، المرجع السابق ، ص 152.

(2) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 187.

(3) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 95.

(4) المجهول، المصدر السابق، ص ص 46، 47 ؛ الوفرائي، المصدر السابق، ص 62.

(5) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 193.

طليعتها البرتغال التي سلمها المتوكل ميناء أصيلا على غرار ما فعل والده مع الأسبان حين تنازل عن حجر بادس⁽¹⁾.

آثرت الدولة العثمانية مساعدة أعمام المتوكل (عبد الملك واحمد المنصور وعبد المؤمن أولاد محمد الشيخ) كون هؤلاء كانوا على استعداد لإنكار سياسة الاتصال والتقارب بالأيبيريين، العودة إلى الجهاد الإسلامي⁽²⁾، وقررت تنصيب عبد الملك سلطانا على المغرب وشرع الإخوان في اثر ذلك إلى التمهيد للعودة للمغرب وبعثا لشيعتهم هناك من اجل الاستعداد للحملة . في نفس الوقت اخذ المتوكل يعد العدة لمواجهة الحملة فجند الجند ونظم الصفوف وأرسل يتقرب من أعداء الأتراك العثمانيين وفي طليعتهم البرتغال التي نجح في استمالة ومهادنة ملكها الشاب سباستيان الذي كان بالأمس القريب يحارب من اجل استرجاع مجد البرتغال الضائع بالمغرب وبالضبط حول طنجة⁽³⁾ .

كان وراء تسريع عملية مساعدة الأتراك للمولى السعدي انشغال الملك الاسباني فيليب الثاني بثورات الأراضي المنخفضة ضده⁽⁴⁾، بالإضافة إلى موجة الحروب الدينية التي اكتسحت أوروبا في تلك الفترة بين الكاثوليك بزعامة فيليب والبروتستانت بزعامة ملكة انجلترا، وقد وجد الأتراك في ذلك الفرصة المناسبة⁽⁵⁾.

وقد تعهد المولى عبد الملك للسلطان مراد حسب المصادر الأوروبية بتقديم تعويض للسلطان قدره خمس مائة ألف دينار وعقد حلف لضرب النفوذ الاسباني، وتضيف المصادر أن المولى تعهد بالتنازل عن ميناء العرائش كقاعدة لأتراك الجزائر ينطلقون منها نحو الأطلسي، وهو ما تراجع عنه عبد الملك بجلوسه على العرش نتيجة ما فيه من مخاطر⁽⁶⁾.

(1) عبد الكريم محمود غرايبية : تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص 37.

(2) الغنيمي، المرجع السابق، ص 159.

(3) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 195.

(4) ثارت الأراضي المنخفضة على التاج الاسباني في سنتي 1567م، وفي سنة 1573م، وقد أخضعت على اثر ذلك الولايات العشر الجنوبية للحم الاسباني في استمرت المقاطعات السبع المتبقية في ثورتها بقيادة وليم دورانج، وفي سنة 1579 كونت مجتمعة ما أطلق عليه اسم اتحاد أوترخت ثم جمهوريات المقاطعة المتحدة، ناجحة بذلك في طرد الإقطاع الاسباني مما ساعدها على تطور الرأسمالية الزراعية. انظر: ليلي الصباغ، معالم تاريخ أوروبا الحديث، دمشق، 1981م، ص 179 ؛ محمد العيدروس، دراسات في تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية، ج1، المرجع السابق، ص 60.

(5) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج8 المرجع السابق، ص 44.

(6) نفس المرجع، ص 44.

وبعد أن تم التأكيد على الحملة بمشاركة عبد الملك فيها، اتفق الأخير مع باشا الجزائر على تمويل الحملة والالتزام بدفع عشرة آلاف على كل مرحلة بمجرد الوصول إلى المغرب ، وقدرت حجم القوات المحشودة من الأتراك بثلاثين غليوطة وأربعة آلاف جندي وذهب عبد الملك بفرقاطة وأزيد من ثلاثين رجل⁽¹⁾.

التقى الجيشان بأحواز فاس وهزم السلطان المتوكل بعد أن استطاع عبد الملك جمع واستمالة أهل الأندلس إلى صفه فبايعه أهل فاس عن رضا منهم، و تلقب بالمعتصم وبالغازي في سبيل الله⁽²⁾، ولم يلبث السلطان السعدي كثيرا في المدينة حتى دفع ما توجب عليه دفعه من مال لأتراك الجزائر فتعطى لرمضان باشا 500 ألف مثقال من الذهب⁽³⁾.

كانت هذه الحملة على المغرب هي الثانية التي استطاعت الوصول إلى فاس والدخول إليها، إلا أنها عادت أدراجها مكتفيا بمظاهر الولاء و الطاعة التي أبداهها عبد الملك، والذي عين سلطانا على فاس متعهدا بالتبعية إلى السلطان العثماني من خلال قراءة الخطب على المنابر باسم السلطان .

ومن الملاحظ أن العلاقة في هذه الفترة بالذات أخذت نفساً جديداً غلب عليه طابع الدبلوماسية والمجاملة بين الجانبين مع أخذ الحيطة والحذر، ويعزى ذلك كثرة الأسفار والمراسلات بين الجانبين.

وتظهر مخاوف البرتغاليين من الأهداف الحقيقية للأتراك العثمانيين في المغرب الأقصى من خلال تلك الرسالة التي بعثها " دون خوان دا سيلفا " إلى فيليب الثاني بتاريخ 02/ 04/ 1576 م و فيها أن البرتغاليين وعلى رأسهم الملك سباستيان يخشون أن ما جاء من اجله العثمانيون إلى المغرب اكبر من مجرد مساعدة وإنما أن يكون هدفهم الوصول إلى مواني المغرب وميناء العرائش بالذات نظرا لكبره وإستراتيجيته التي تضر بأمن الأيبيريين⁽⁴⁾.

وكان اقتراح الملك البرتغالي ضرورة إعداد حملة كبيرة لاحتلال العرائش قبل أن يظفر به العثمانيون ويتخذوا منه منطلقا لهم نحو المحيط الأطلسي الذي لطالما اعتبر برتغاليا محضا. وعليه فكر الملك البرتغالي

(1)المجهول، المصدر السابق، 46.

(2) عبد العزيز القشتالي، المصدر السابق، ص 110 ؛ المجهول، المصدر السابق، ص ص 49، 52.

(3) نفس المصدر، ص53.

(4) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 197.

جديا في غزو المغرب واحتلال العرائش ولم يلبث أن شرع في إعداد حملة ضخمة لتحقيق طموحه وإزالة مخاوفه⁽¹⁾.

المطلب الخامس: العلاقات السعدية العثمانية في عهد أبو مروان عبد الملك

إن الظروف التي انتقل فيها الحكم من المتوكل إلى عمه مروان عبد الملك لها أهميتها فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته سواء مع العثمانيين أو مع المستعمر البرتغال، والتي كانت عاملا حاسما في معركة واد المخازن.

فقد قرر العثمانيون كما رأينا في سنة 1575م تقديم المساعدات لعبد الملك المعتصم حليفهم الوحيد للسلطنة السعدية، وقد يرجع هذا القرار المفاجئ إلى التطور العام الذي كانت تعرفه شمال إفريقيا وبالأخص العثماني في حلق الوادي، وكذا بسياسة الاختراق التي كانت تنتهجها إمبراطوريات القرن السادس عشر والقاضية بمحاولة وضع قدم لهم داخل مجال الخاضع للطرف الآخر.

وترجع تلك المساعدات المقدمة من العثمانيين إلى المولى السعدي إلى أسباب عدة، كالأهمية التي تكتسبها السواحل في مراقبة شمال إفريقيا والدليل على ذلك ما بذله الباب العالي من مجهود في سبيل استرجاع تونس سنة 1571م، كما نجد البعد الاقتصادي ممثلا في محاولة الدولة العثمانية الوصول إلى الأطلسي لتكسير الاحتكار البرتغالي التواجد في البحار العربية الجنوبية (المحيط الهندي، البحر الأحمر، الخليج العربي)، كما أرادت الدول العثمانية من خلال هذا الحلف استغلال ظروف أوربا الغربية التي كانت التي شهدت ثورة الأراضي المنخفضة ضد فيليب العدو الأزلي للعثمانيين والحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت.

مهما يكن من فلا أدل على صدق نوايا الدولة العثمانية في مساعدتها للمولى السعدي من الانضباط الذي تميز به الجند العثمانيين عند دخولها إلى فاس حيث لم تقم بنهب المدينة ولا الانقلاب على المولى السعدي بل لزموا معسكراتهم إلى أن أذن لهم العبد الملك بالانصراف بعد ما أعطاهم ما وعدهم به.

لقد اتخذت العلاقة العثمانية السعدية في عهد هذا السلطان اتجاهاً آخر، لم يكن منتظراً، فقد عمل الأتراك على احتواء هذا السلطان بالهدايا والتحف. إلى درجة ما ذهبت إليه بعض الدراسات، متمثلة في إلقاء الخطب وسك العملة باسم الخليفة العثماني.⁽¹⁾

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق ، ص197.

ومن مظاهر الود تلك نجد عبد الملك وبعيد انتصاره على المتوكل في جنوب البلاد وبالضبط في مراكش إلى إرسال هدية ثمينة إلى السلطان العثماني مراد الثالث⁽²⁾، وقد قدرت قيمتها بأكثر من خمسمائة ألف دوكات، وأشيع أنه سيبعثها إلى السلطان مقابل جلب إمدادات عسكرية جديدة، و ذلك من أجل الرد على التهديدات البرتغالية و حول ما يمكن فعله ايزاء إلحاح الملك البرتغالي "سباستيان" على احتلال المغرب و احتلال ميناء العرائش الاستراتيجي⁽³⁾.

ظل التفاهم والود يطبعان العلاقات العثمانية السعدية ولكنها لم تلبث أن أخذت منحى آخر بسبب موقف أتراك الجزائر من المتشدد ورغبتهم في التوسع ببلاد المغرب الذي يبدو أن حكام الجزائر بدؤوا يعتبرونه تحت السيادة العثمانية ويظهر ذلك جليا في تلك العساكر الذي بعثها حاكم الجزائر إلى منطقة فكيك التابعة لفاس من أجل لجباية الضرائب وهو ما دفع بالمولى عبد الملك يرسل مبعوثا إلى السلطان العثماني يشتكيه⁽⁴⁾.

وكان رد السلطان العثماني للشريف بأن ذكره بما أن من تعاون بين القوتين في حربه ضد المتوكل في فاس كما أخبر السلطان عبد الملك بوضع حسين باشا و لقطع التي معه تحت تصرفه كما حثه على ضرورة الاتحاد مع الباشا الجديد للجزائر والسير قدما في عمليات الجهاد،⁽⁵⁾ لدفع مضرة الأعداء وكيد الكفرة وسائر الأشقياء⁽⁶⁾.

وفي رسالة أخرى يقول: " وإذا أحضرنا من سدتنا السنية لدفع ضرر الأعداء من تلك الديار أو للجهاد مع الكفار سفنا مملوءة بأبطال الرجال وفلكا مشحونة بأدوات الضرب والنزال فعليكم أن تعاونوا إياهم بالعساكر وآلات الحرب و الذخائر وغيرها مما يتفرغ..."⁽⁷⁾.

نفهم من خلال نوعية الخطابات السلطانية العثمانية بأن المغرب أصبح ما يشبه إحدى الولايات العثمانية التي من شأن السلطان حمايتها، والسهر على أن يسود التفاهم بين حكام و رعايا البلدين وأن يعمل

(1)المجهول، المرجع السابق، ص53.

(2) زهراء النظام، المرجع السابق، ص265.

(3) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 198.

(4) زهراء النظام، المرجع السابق، ص266.

(5) نفس المرجع، ص ص 266 _ 267.

(6) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 228.

(7) نفس المرجع، ص ص 228، 229 ؛ انظر نص الرسالة كاملا في : عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب،

مج8، المرجع السابق، ص 46.

الجميع في وفاق وانسجام⁽¹⁾، خاصة بعد أن اظهر عبد الملك للدولة العثمانية انه أهل للثقة التي وضعها فيه السلطان العثماني كونه كان يتبنى قضايا اسطنبول بالمنطقة فيقوم بمساعدة حكام الجزائر بكل مرة يطلب إليه ذلك⁽²⁾.

ولعل ما يؤكد ذلك تلك المشاورات والاتصالات المكثفة التي جرت بين الجانبين السعدي العثماني حول ما يمكن فعله إزاء إلهام الملك البرتغالي "سباستيان" على احتلال المغرب واحتلال أصيلا بتواطؤ من حاكمها "عبد الكريم بن تودة"⁽³⁾ صهر المتوكل المخلوع توجه عديد المبعوثين للتداول مع السلطان السعدي عبد الملك حول إمكانية التنسيق و ماذا يمكن لحكام الجزائر تقديمه من مساعدات في سبيل احتواء الخطر البرتغالي⁽⁴⁾.

وجاءت معركة المخازن التي حاول فيها البرتغاليون احتلال المغرب الأقصى بمساعدة محمد المتوكل الذي استنجد بهم كما ذكرنا سابقا، جاءت لتفتح عهدا جديدا وإن كان مؤقتا بين الباب العالي والسلطات المغربية، حيث شاركت القوات التركية النامية إلى جانب الجيش المغربي الكبير، يأتي ذلك بعد أن أمر الصدر الأعظم إلى والي طرابلس من أجل مساعدة المولى السعدي⁽⁵⁾.

وفي عشية معركة واد المخازن لفت عبد الملك نظر الملك البرتغالي إلى انه صديق مقرب للسلطان العثماني وانه يمكن الاعتماد عليه في تقديم المساعدات إن تطلب الأمر. ويظهر أن السلطان السعدي كان حتى قبيل بداية المعركة لم يشأ طلب المساعدة العثمانية خوفا من أطماعهم، وأملا في أن يتوقف الإسبان والبرتغاليون من مساندة المتوكل⁽⁶⁾.

وقد لاحت في الأفق عملية اتحاد بين الجانبين العثماني والسعدي عقب إشاعة مفادها أن البرتغاليين ومعهم الأسبان يريدون بتحالفهم مع المتوكل القضاء على الوجود العثماني بالمنطقة، وعليه وجب على

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 201 ؛ زهراء النظام، المرجع السابق، ص 268.

(2) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 228.

(3) عبد الكريم بن تودة صهر المتوكل و قد كان قائدا على المنطقة الغربية و التي تشمل مدن القصر الكبير و أصيلا و العرائش، وقد دخل في مفاوضات مع البرتغال عقب لجوء المتوكل إلى طنجة من أجل تسليمهم مدينة أصيلا مقابل حمايتهم انظر: عبد العزيز القشتالي، مناهل الصفا، المصدر السابق، ص 114.

(4) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 201.

(5) محمد فريد بك، المرجع السابق، ص 260.

(6) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 202.

العثمانيين الدخول إلى المغرب ونقل الحرب إلى أراضي الأيبيريين والمرور إلى الأطلسي لعرقلة الملاحة الهندية، غير أن السلطان العثماني قرر مهادنة الإسبان⁽¹⁾.

وتجد الإشارة هنا إلى ذلك المجهود الذي بذله باشا الجزائر من أجل الحيلولة دون قيام تلك الهدنة عن طريق إرسال رسالة إلى عبد الملك يحثه فيها على ضرورة إيقاف الهدنة العثمانية الإسبانية، وفي حال قامت الهدنة بين الجانبين نصحه بضرورة مهاجمة القواعد البرتغالية مما سيضطر الإسبان إلى نقضها، كما نصح باشا الجزائر " حسن فازيانو " المولى باستقبال أسطول جزائري في مينائي العرائش وسلا وقال له أن الأسطول بإمكانه تحرير مدن طنجة وسبتة من البرتغاليين غير أن المولى رفض كل ذلك⁽²⁾.

إلا أن هذا لا يعني عدم مشاركة الجنود العثمانيين في المعركة فقد رأينا كيف أقحم السلطان القوات العثمانية التي ساندته في حربه مع ابن أخيه المتوكل بغض النظر عن طبيعة وحجم المشاركة إلا أن هناك من يعتبر مشاركة الجنود الأتراك مع عبد الملك في معركة واد المخازن قد كانت جد فعالة، بل و حاسمة في انتصار السعديين على البرتغاليين⁽³⁾، ومن ابرز الأتراك الذين ابلوا حسنا في هذه المعركة نجد القائد التركي رضوان الذي تولى أمر المدفعية المغربية التي واجهت البرتغاليين، وقد ظهر جليا مدى فاعليتها ودورها في النصر⁽⁴⁾.

وقد يعود تردد الباب العالي في تقديم المساعدات التي كان من المنتظر تقديمها إلى الدولة السعدية في حربها الكبرى ضد البرتغال، إلى تزامن المعركة والحروب العثمانية الإيرانية التي سرعان ما استأنفت عقب مقتل السلطان "طمهاسب" واندلاع الصراع حول الحكم، وقد انهزم الأتراك في 31 مارس 1578 م، لكنها تمكنت من الانتقام لهزيمتها في نفس السنة⁽⁵⁾.

(1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق 202.

(2) نفس المرجع ص ص 202، 203.

(3) زهراء النظام، المرجع السابق، تهميش 2، ص 281 ؛

–Fray diego haedo, **histoire des roi de alger**, Tradui et annottee par H.D . de grammont, Revue africaine, Anne 1880 1881,p 429.

(4) شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 7.

(5) زهراء النظام، المرجع السابق، تهميش 2، ص 280. وللمزيد حول سلسلة الحروب تلك أنظر :

مهما يكن من أمر فقد قرر باشا الجزائر "حسن فينيزيانو" التحرك بأسطول مكون من ستة و عشرين سفيرة حربية كبيرة، و التوجه نحو الشواطئ الاسبانية قبل أربعة أيام من المعركة الكبرى، قصد تقديم المساعدة في حين تطلب الأمر ذلك، و إن لم تشارك تلك القطع حقيقة في المعركة إلا أن 14 سفينة بقيادة سنان باشا تمكنت من تتبع السفن البرتغالية الفارة و تمكنت من إلحاق أضرار بالبرتغاليين⁽¹⁾.

المطلب السادس: العلاقات السعدية العثمانية في عهد احمد المنصور

بنهاية معركة واد المخازن بايع المغرب السلطان احمد المنصور ملكا عليه، و قد عمل على تكون دولة قوية من خلال القضاء على الثورات و الفتن الداخلية خاصة تلك التي كان تقوم بها الزوايا،⁽²⁾ و كنتيجة لذلك الأمن عرف عهده هدوءا و رخاء قلما عرفته العهود السابقة له، كما أولى المنصور عناية بالجانب الاقتصادي من حيث الاهتمام بالتجارة و الصناعة خاصة صناعة السكر⁽³⁾، كما اهتم بالجنوب و ما يزخر به من ثروات حتى لقب بالمنصور الذهبي⁽⁴⁾.

وبالكلام عن علاقات المغرب مع الدولة العثمانية في هذه المرحلة نجد انه سرعان ما ستتغير الوضعية بعد انتصار السعديين في معركة واد المخازن، فرغم أن المنصور (1578/1603 م) استمر في بعث الهدايا إلى الباب العالي، فقد دشّن من جهة ملامح سياسة تختلف عن سابقه، فقد تلقب بالخليفة وأصبحت الخطبة تلقى باسمه، وكان هذا تأكيدا من احمد المنصور على استقلالية المغرب عن الباب العالي.

= De hammert, **hisoire de l'empire de Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours traduit de l'allemand par (1574 1600)** , t 7 , J. J. hellert, Impirmerie de renridupuy, paris, S P, pp 66_86 .

- (1) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص206.
- (2) من تلك الثورات نذكر ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد المهدي الشيخ سنة 1579م، ثورة قبيلة الخلط التي أبت المشاركة في الحرب على الصحراء، وثورة غمارة بزعامة الحاج قرقوش، وثورة الناصر بن عبد الله الغالب سنة 1594م وثورة ولي العهد عبد المأمون سنة 1592م. للمزيد انظر: إبراهيم حركات، " احمد المنصور الذهبي كرجل دولة " ، **مجلة دعوة الحق**، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1978م، ص ص66، 67.
- (3) شهدت عملية زراعة قصب السكر أوجها في العهد السعدي خاصة زمن المنصور الذهبي و كان أول من ادخلها إلى المغرب هم الأدارسة، وقد كانت زراعته في العهد السعدي مرتكزة في مناطق الصويرة وشيشاوة، و جهات متعددة من سوس. انظر: إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 71، 72.
- (4) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 229 ؛ جاءت تسمية المنصور بالذهبي نتيجة صك العملة الذهبية بشكل كبير على اثر انتهاء معركة واد المخازن، والتي درت على الخزينة أموالا طائلة نتيجة الغنية. انظر نفس المرجع، ص 71.

فلما أدرك المنصور قوته أراد التخلص من العهود التي كان أخوه المولى عبد الملك قد قطعها للعثمانيين، فكون علاقات قوية مع مختلف الدول الأوروبية وكان في نيته أن الاستتجاد بها من ضد الدولة العثمانية⁽¹⁾. يعزى ذلك كون المنصور يرى في نفسه الخليفة الحقيقي للعالم الإسلامي ، ويؤكد " القشتالي " على ذلك بالقول: " .. اختص الله اليوم أمير المؤمنين أيده الله بوصفه الشريف وصرف إليه بذلك كفالة الأمة ووراثة الأرض وتراث النبوة والرسالة وقلده بها حماية بيضة الإسلام لما اختصه به الله تعالى من شرف الشرف وأتاه من كمال الكمال و فضله على جميع أولي الأمر والسلطان من ملوك الأرض بالنسب القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع من علماء الإسلام وأئمة السنة والأعلام"⁽²⁾.

وهنا وجب أن ننوه إلى أن مشكل الخلافة بين الدولة العثمانية والدولة السعدية قد ظل منذ عهد محمد الشيخ مصدر تجاذب بينهما، وكثير ما كان سبب الاصطدام المسلح، ومن هنا جاءت أسس احمد المنصور لإبراز شرعيته في الخلافة والتصدي للخطر العثماني الطامع في البلاد⁽³⁾.

والحقيقة أن هناك امراً آخر كان قد ساهم في توتر العلاقة بين الدولة العثمانية الدولة السعدية زمن المنصور، من خلال تدخل القادة الأتراك في شؤون المغرب عقببيعة المنصور، ونادى هؤلاء بأحقية المولى إسماعيل بن عبد الملك في السلطة وهو مما اضطر المنصور إلى أتباع الحذر خوفا من القتل، فكانت هذه الحادثة بداية ليست بالحسنة بين الجارين، كما قد تكون السبب في عدم استكمال المنصور تحرير الثغور المحتلة⁽⁴⁾.

ويبدو أن الدولة العثمانية قد أحست بالخطر فعملت على تدارك الموقف قبل فوات الأدوات فأرسل السلطان مراد الثالث رسالة إلى المنصور في سبتمبر 1580م، و مما جاء فيها: "...فلما وصل بمسامعنا الشريفة و مشاعرنا الخقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتقال أو كاد وانه جعل أهلها في الأغلال والأصداف و انه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الإسلامية.... لإظهار الألفة الأزلية.... أن نتخذ عهدا ... ونؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب...ونعلق العهد بالكعبة المنورة و

(1) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 229.

(2) عبد العزيز القشتالي، المصدر السابق، ص 68، 69.

(3) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 297.

(4) فالح حنظل، المرجع السابق، ص 474.

الحوضه المعظمة فإذا تم هذا الشأن... نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس...⁽¹⁾.

كما بادر السلطان على فكرة مصاهرة المنصور، فوافق أن يتزوج الأخير من إحدى بناته بقوله "عهدنا إلى أمير الأمراء أن يصهر لكم إحدى بناتنا إسعافا لغرضك المنيف"⁽²⁾.

وقد تأخر احمد المنصور بعض الشيء في الرد على الباب العالي⁽³⁾، فأرسل السلطان أسطول كبير إلى المغرب قوامه 60 سفينة وكان ذلك في عام 1581م، وكان في نية السلطان من خلال هذه الحملة وضع حد لتصرفات المنصور الذي أراد منافسة الدولة العثمانية على الخلافة الإسلامية⁽⁴⁾، وطرده لكرهه للباب العالي وعدم تسليمه العرائش للأتراك⁽⁵⁾.

كانت الحملة بقيادة القبودان " علج علي "⁽⁶⁾ والذي يبدو انه كان يحمل بغضا للمنصور وكان حريصا على إثارة الملك وتحفيزه لإعداد الحملة العثمانية نحو المغرب، مذكرا السلطان بما كان من صراع بين الإباء ومما قاله : " قد ضاع صنيعك في هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك"⁽⁷⁾.

مهما يكن من أمر فقد قام المنصور بالاستعداد لصد الحملة من خلال حشد الموانئ و الحصون الموجودة على الحدود وكذا السواحل الشمالية للمغرب بالجنود، وتعهده فيليب الثاني بوضع جزء من قواته و

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج8، المرجع السابق، ص49 ؛ عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 111.

(2) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج8، المرجع السابق، ص50 ؛ عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 112.

(3) أرجعت بعض الدراسات تناقل المولى في الرد على السلطان العثماني إلى انشغال الأول بالإصلاحات في بلده واستئصال التمردات، وأرجعه البعض إلى علم المنصور عبر بعض المساعدين بنية اسطنبول احتواء المغرب. انظر: عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج8، المرجع السابق، ص50.

(4) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص ص 230، 232.

(5) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 298.

(6) علج علي هو احد ابرز الشخصيات العثمانية في الميدان البحري التي برزت في القرن 16، من خلال تفوقه على الأعداء في الحروب، ينحدر من أسرة فقيرة في ليكاستيل بجنوب إيطاليا، ولد سنة 1508م، وقد اسر في إحدى حملات التي البحرية التي قادها الجزائريون حوالي سنة 1520م، اسلم و أصبح من رياس البحر انضم إلى درغوث ريايس في الحوض الشرقي للبحر الأبيض، كما اشتغل مع حسن بن خير الدين، اشترك في العديد من المعارك كحملة استرجاع تونس عام 1574م وحصار ماطا عام 1565م الدين شغل منصب بايلرباي الجزائر في 1568م، شارك في معركة الليبانت دعم ثورات الأندلس، توفي عام 1587م عن عمر ناهز الثمانين، للمزيد حوله انظر: محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 69، 262.

(7) الناصري، الاستقصاء، ج5، المرجع السابق، ص 95 ؛ الوفرائي، المصدر السابق، ص 86.

أسطوله تحت تصرف الحاكم السعدي في مواجهة التدخل التركي، ووعده الحاكم السعدي بالتنازل له عن العرائش، تعويضاً له عن مصاريف الحرب، كما أمر الملك الإسباني بالتعبئة والاستعداد في سواحل إسبانيا وحشدتها بالقوات تحسباً لهجوم الأتراك على بلده⁽¹⁾.

غير أنه وبعد تدبر في الأمر وتقدير لحجم الخسائر والأضرار التي من الممكن أن تترب عن غزو المغرب، تدارك المنصور الموقف وبدأ له أهمية التقرب من علج وتجاوز الخلافات وتأمين حدود البلد، وعجل بإرسال سفارة إلى السلطان العثماني مراد الثالث، مكونة من الكاتب "أبا العباس أحمد بن يحيى الهوزلي" والقائد "أبا العباس أحمد بن ودة العمراني"⁽²⁾، حملت السفارة الهدايا إلى الباب العالي لإرضاء السلطان⁽³⁾.

والواقع أن السفارة حملت معها أيضاً هدايا إلى حاكم الجزائر، وكانت هدية هذا الأخير بمثابة جواز مرور لمبعوثيه إلى استانبول وكلف السفيران بضرورة التأكيد على الاتفاق الذي عقده عبد الملك مع الدولة العثمانية سابقاً⁽⁴⁾.

وبالتمعن في تصرف المنصور هذا نجد نوعاً من التناقض المصحوب بالحيرة إن صح التعبير، كون المولى يريد التخلص من الارتباط بالدولة العثمانية والتي رسمه أخوه عبد الملك ومن جهة أخرى يريد كسب السلطان العثماني الذي يبدو جاداً في الدخول إلى المغرب.

كما يمكننا تفسير تصرف المنصور الذهبي وجنوحه للسلم لأحد السببين وهما: إما أن الأخبار التي كانت تصل للدولة العثمانية والتي مفادها أن المنصور يريد قطع العلاقة مع الدولة العثمانية ومصاحبتها للقوى الخارجية قد كانت كاذبة ولا أساس لها من الصحة، وإما أن المنصور لم يكن يتخيل تحرك الباب العالي بسرعة

(1) زهراء النظام، المرجع السابق، ص ص 298، 299.

(2) القشتالي، المصدر السابق، ص 62.

(3) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 231.

(4) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 299.

وجديته في إرسال الحملة ، ومن المحتمل أيضا أن يكون حلفاء المنصور غير مستعدين⁽¹⁾ للمواجهة والنجدة ما اضطره إلى كسب الوقت وإرضاءه السلطان العثماني⁽²⁾.

وبالعودة إلى السفارة المغربية يظهر أن أتراك الجزائر كانوا يعملون على كي لا يعم السلم بين المغرب الأقصى والباب العالي، ولذلك كانوا يعرقلون كل المبادرات التي يقوم بها الطرفان في هذا المجال، ولعل محاولة عالج علي اعتراض السفينة المتجهة نحو تركيا تندرج ضمن هذا السياق⁽³⁾، ويصف لنا القشتالي الحادثة بالقول: " .. فليقيهما على باشا على ثبح البحر، منحدره في الأسطول إلى المغرب فحذرهم مغبة بلوغهم للأبواب العثمانية وإفساد النصبه عليه بالكشف عن مساوئه والإذلال على عورته و مكايده.."⁽⁴⁾ ويضيف: "... ثم اعتمل في رد البعض ليتقص من كيدهم ويفت في عضدهم، فتخير منه لصحبته إلى المغرب القائد أبا العباس احمد بن ودة لما توسم فيه من الدهاء بكبر السن"⁽⁵⁾.

مهما يكن من أمر فقد تمكن البعثة من الوصول إلى البلاط العثماني محملة بأنواع الهدايا و التحف والرسائل، وقد غض السلطان العثماني الطرف على ما بدر من المولى المنصور، وأرسل أوامره لعالج علي يأمره بإنهاء الحملة وعدم إجراء أي عمل إلى حين إرسال أوامر جديدة⁽⁶⁾.

ويبدو أن ظروف⁽⁷⁾ الدولة العثمانية في ذلك الوقت هي من هي من اضطر السلطان إلى قبول وعود المنصور و الاتفاق معه، وعلى هذا الأساس كتب إلى واليه في الجزائر يأمره بان يبعث من يتسلم الضريبة من

(1) ما نقصده هنا هو أن اسبانيا كانت تبحث عن صلح مع الدولة العثمانية وانتهت الاتصالات بينهما بعقد صلح لمدة ثلاث سنوات، سنة 1581م، في حين رأينا كيف أصبح حال البرتغال عقب معركة الملوك الثلاثة حيث قتل معظم أفراد جيشها وتدهورت بنيتها التحتية.

(2) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص ص 231، 232.

(3) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 299.

(4) القشتالي، المصدر السابق، ص 62.

(5) نفس المصدر، ص 62.

(6) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 232، 233.

(7) ينكر بعض المختصين في شان العلاقات العثمانية المغربية من أمثال هايدو و دي غرامون أن سبب إصدار الأوامر إلى عالج علي بالانسحاب والرجوع هو ما أشاعه الانكشارية من أن عالج علي إذا تمكن من دخول المغرب وهو الذي لديه جيش قوي سيقوم بالاستقلال به عن الدولة العثمانية و في سبيل منع ذلك أرسلوا له بوتيفة احد ابرز شيوخ الصوفية في الجزائر إلى استانبول توضح للسلطان الأمر، وبالفعل استجاب السلطان إلى أوامره ما يعطينا فكرة عن مكانة الانكشارية لدى السلطان العثماني. انظر:

المنصور وتحديد الشروط التي على أساسها سيتم إعلان تبعيته للدولة العثمانية، كما أمره بان يسعى إلى الصلح مع حاكم فاس⁽¹⁾.

غير أن الأحداث قد كشفت انه لم يكن مطمئنا لتصرفات وعود حاكم فاس⁽²⁾ كون السلطان العثماني كان يعلم جيدا أن المنصور قد ذهب بعيدا في علاقاته مع القوى الأوروبية خاصة ملك اسبانيا الذي وعده المنصور بالتنازل على ميناء العرائش، لذلك أرفق رسائله السابقة بأوامر أخرى إلى حيدر باشا والي طرابلس⁽³⁾ وعلج علي وحسن فزيانو والي الجزائر بالتزام اليقظة ومراقبة حاكم فاس خوفا من أن يفاجئها بحملة مشتركة مع الدول المسيحية⁽⁴⁾.

مهما يكن من أمر فقد استغل المنصور فترة الهدوء تلك في تسيير الأمور وتقوية الدولة من خلال تامين السواحل المغربية الشمالية فحصد العرائش، كما لم يخفي المنصور نيته في السلم والتعاون مع الجانب الجزائري و لعل في إرساله مبعوثين لتهنئة السلطان العثماني بفوزه في حربه على إيران ما يؤكد تلك النية⁽⁵⁾.

ويبدو أن السلطان مراد قد ارتاح لما يبديه المنصور من صداقة وود فاصدر فرمان إلى المنصور يعبر فيه على بأنه قرر منحه ولاية فاس والتي سيؤول فيها الحكم بعده إلى أبنائه من بعده، بل و اتخذ السلطان خطوة متقدمة في سبيل إنجاح هذا التواد والتفاهم وتطلع إلى استرجاع الأندلس وأصبح يعول على المنصور في ذلك وقرر وضع الجنود تحت إمرته للقيام بالجهاد⁽⁶⁾.

وهنا وجب أن ننوه إلى انه من الأمور التي تحسب إلى بنو عثمان وعلاقتهم بالدولة السعدية هو حرصهم على احتفاظ هؤلاء بالحكم شريطة تقديم الطاعة والبيعة للعثمانيين والالتزام بالتعاون في شتى الشؤون.

= زهراء النظام، المرجع السابق، 301 ؛ عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 221، 222 ؛ محمد سي يوسف، المرجع السابق، هامش 1، ص 233.

(1) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 301.

(2) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 233.

(3) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 302.

(4) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 233.

(5) زهراء النظام، المرجع السابق، ص 303.

(6) نفس المرجع، ص 305، 306.

والجدير بالذكر هنا أن فيليب الثاني ملك اسبانيا قد أوجس خيفة من ذلك التقارب العثماني السعدي، خاصة وأنه كان يعول على الأخيرين بالتنازل على ميناء العرائش التي كان ينوي من خلالها قطع الطريق على الأتراك العثمانيين نحو سواحل المغرب الأطلسية، فظل يلح على تسليمها وطالب بمنح امتيازات لتجاره في المغرب مقابل دعمه عسكريا وتحرير أسرى معركة واد المخازن، وقد أرسل من أجل ذلك سفيرا للتفاوض وعقد حلف عسكري⁽¹⁾، ولكن المولى المنصور وعقب ذلك التقارب مع العثمانيين تراجع عن توقيع أي التزام للإسبان بتسليم العرائش واخذ يموه إلى أن فقدوا الأمل بعد أن خسروا الكثير من المال لأجله⁽²⁾.

وهكذا انطبعت علاقات المغرب في عهد المنصور الذهبي بالدول بالمرونة واللباقة وبالتوازن في الاستفادة⁽³⁾، فنجدته يتملص من قبول المعونة العثمانية في سبيل الجهاد نتيجة عدم الارتياح لهم، ونراه يتملص من التفاوض والتحالف مع الأسبان مبديا جميع الذرائع رافضا.

والحقيقة هي أن أحمد المنصور استغل الأوضاع الدولية لصالحه، ولعب بالورقة الاسبانية الرابعة، وهو الشيء الذي فطن له سيلفا مبعوث الملك الاسباني، والذي بعث برسالة إلى الملك فيليب الثاني سنة 1583م يقول فيها (إن إمبراطور المغرب يسخر منا فهو متأرجح بين مصانعتنا ومصانعة الأتراك، فعندما يطالبه صاحب الجلالة بالعرائش يقول هيا بنا إلى الجزائر، وعندما يهدده الأتراك يقول هيا بنا إلى اسبانيا) .

وقد مالت العلاقات العثمانية السعدية أكثر فأكثر إلى السلم لا سيما بعد رحيل " حسن باشا" عن الجزائر و التوجه نحو اسطنبول من عام 1587م وموته هناك، كون هذا الأخير أبدى نيته ورغبته في التدخل بشؤون المغرب و اخذ يحرض السلطان على ذلك⁽⁴⁾، بالإضافة إلى غياب علج علي الذي استدعته الدولة العثمانية سنة 1582م لإخماد الثورة في الجزيرة العربي، و الذي كان شوقا إلى توحيد المغرب تحت اللواء العثماني⁽⁵⁾.

(1)زهراء النظام، المرجع، ص 305.

(2) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 221.

(3) إبراهيم حركات، أحمد المنصور ، المرجع السابق، ص 77.

(4) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 231.

(5) محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 235.

واستمرت العلاقات العثمانية السعدية على ما هي عليه وتعددت السفارات والمراسلات بين الطرفين بعد حادثة الحملة المذكورة ومن السفارات المهمة سفارة "علي التمكروتي" والتي دون عنها في رحلته المشهورة " النفحة المسكية في السفارة التركية"⁽¹⁾.

وبالحديث عن التعاون والتنسيق بين الجانبين نجد أن المولى المنصور لم يكن يتجاوب مع مقترحات السلطان العثماني مراد و هو ما يتجلى رفضه للحلف المقدم من الأخير إلى المنصور ضد الإسبان والذي كما رأينا رفضه المولى السعدي، كما يتجلى في قضية الأمير البرتغالي "دون انطونيو" و الذي كان السلطان العثماني قد أرسل رسولا يبحث مع المنصور في تقديم المساعدة للأمير و لم يستحب مرة أخرى⁽²⁾.

وهكذا كان الخوف من التوسع العثماني قد انسي الدولة السعدية عدوها التقليدي البرتغال بل إن الأحداث أظهرت كم من سلطان سعدي قام بالتعاون مع الأسبان ضد الدولة العثمانية فتنازل الغالب عن حجر بادس للأسبان وسلم ابنه المتوكل ميناء أصيلا للبرتغاليين⁽³⁾.

نجد انه لم تكن العلاقات بين حكام العثمانيين بالجزائر ونظرائهم السلاطين السعديين بالمغرب الأقصى تأخذ صورتها التعاونية التي كانت يجب أن تكون عليها من اجل التصدي للاحتلال الغربي لأرض البلدين خاصة البرتغالي الذي تزامن محاربته بين هؤلاء و أولئك في القرن السادس عشر، و حتى في أوقات السلم لم يستطع الطرفان الوصول إلى الثقة التي من شأنها التنسيق معا من اجل ضرب البرتغال والقضاء عليه مشرقا ومغربا.

بالرغم من فشل الدولة العثمانية في طرد الاحتلال البرتغالي من الخليج العربي إلا أنها لم تعمل على استدراك الموقف في المغرب بالتعاون مع الدولة السعدية من اجل توجيه ضربات للأساطيل البرتغالية على الأطلسي، و راحت - الدولة العثمانية- تحاول السيطرة على المغرب و هو ما رفضه حكام الدولة السعدية.

ولا شك أن التخوف العثماني من إمكانية قيام تحالف سعدي اسباني يعتبر من الأسباب التي جعلت العثمانيين لم يسعوا بتاتا إلى القيام بغزو شامل للمغرب، والدخول في مغامرة ليست مضمونة النتائج، خصوصا مع الوعي العثماني بأن القوى الأوروبية لن تقف صامتا إزاء مثل هذا المشروع الذي يهدد طموحاتها في السيطرة

(1) إبراهيم حركات، احمد المنصور الذهبي رجل دولة، المرجع السابق، ص، 78.

(2) عمار بن خروف، العلاقات السياسية، المرجع السابق، ص 234.

(3) عبد الكريم محمود غرايبي، ص 37.

على الموارد الإفريقية انطلاقاً من السواحل الأطلسية، كما نعتقد أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسمح الأوروبيون لقوة بحرية واحدة بالسيطرة على منافذ الطرق التجارية المتوسطية والأطلسية في آن واحد.

يمكن القول أن كلا من الدولة العثمانية و الدولة السعدية الشريفة قد اكتسبت مكانة و حظوة في العالم الإسلامي اجمع نتيجة حملهم لواء الجهاد ضد الحركة الاستعمارية الأوروبية للمنطقة العربية و بالأخص البرتغالية، إلا أن كلا القوتين حاولت الهيمنة على الطرف الآخر تحت لواء هذا الشعار بدل التكتل و العمل سوياً من أجل اقتلاع المحتل الذي طال وجوده بالبلاد.

تميزت العلاقات بين الجزائر العثمانية والمغرب الأقصى في القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري بالتوتر والاضطراب تارة وإلى السلم الحذر تارة أخرى فشهد النصف الأول من القرن المذكور سلاماً وحسن جوار بين الطرفين وصل إلى حد التعاون المحدود، كون حكام البلدين في تلك الفترة كانوا في حاجة ماسة إلى السلم من أجل التفرغ إلى الصعوبات التي تواجههم في الداخل و الأخطار الاستعمارية المشتركة التي كانت تهدد البلدين، لتصبغ العلاقات بطابع التوتر والعداء في النصف الثاني من هذا القرن.

تأثرت حركة الجهاد السعدي ضد الاحتلال البرتغالي تبعاً بتأثر وتنوع العلاقات السعدية العثمانية في القرن السادس عشر، فقد تشابكت أبعاد التفاعلات السعدية العثمانية بالأطراف المسيحية خاصة البرتغال، فمن ناحية نرى عملية الجهاد المغربية تضعف وتتوقف بل وتتجه نحو الصلح والتحالف مع البرتغاليين في حالة الحرب مع العثمانيين، على غرار ما فعل غالب و المتوكل، كما رأينا نسق الجهاد يرتفع ويؤتي ثماره في حالات الثقة والتعاون على غرار ما وقع زمن عبد الملك في معركة المخازن التي أنهت الخطر البرتغالي.

يبدو أن الدولة السعدية قد أعطت كامل الأولوية لمجابهة الأتراك و التصدي لتدخلاتهم العسكرية لمنع قيام دولة قوية من شأنها أن تبعد المغرب عن الحظيرة العثمانية، في حين كانوا يرون في سياسة الانكماش البرتغالية و عدم محاولتهم القيام بحملات جديدة على المغرب لأسباب ذكرناها والاكتفاء بالشغور المتبقية، رأت فيه الدولة السعدية ما يدعوهم إلى شبه تعايش سلمي معهم و لو إلى حين.

صبت تلك العلاقات المتوترة في صالح القوى الغربية المتربصة وبخاصة البرتغال التي قام الحكام السعديون غير مرة بمهادنتها من أجل التفرغ للخطر العثماني الذي كان أولوية بالنسبة للمغرب في تلك الفترة.

الخاتمة

الخاتمة:

مما تقدم في هذا البحث يمكن القول أن:

القرن السادس عشر عرف اندفاعا أوروبيا نحو مصادر الثراء العربي الإسلامي فوضعت المخططات والاستعدادات لانتزاعها منهم، وكان البرتغال لجملة من العوامل باكورة ذلك الاستعمار في العصر الحديث، كونه حاول احتلال وتطوير المنطقة العربية من خلال وضع مخطط شامل من أجل التحكم بمنابع التجارة القديمة سواء الأفريقية أو الآسيوية، عن طريق وضع قدم في المراكز التجارية وتحصينها، بدءا ببلاد المغرب الأقصى ومالقا عند مدخل المحيط الهندي ثم عدن عند مدخل البحر الأحمر وهرمز عند مدخل الخليج العربي.

تعتبر البرتغال أول أمة أوروبية تتمكن من الوصول إلى الشرق فاتحة بذلك أبوابه للاستعمار الغربي، هذا وظلت البرتغال فترة طويلة من الزمن رائدة التوسع الأوربي في بلاد الشرق.

امتزجت في هذه الحركة الاستعمارية العوامل الاقتصادية والدينية والسياسية فضلا عن إقامة إمبراطورية كبيرة لضرب الوجود الإسلامي في البحار الشرقية وكسر احتكار العرب التجاري.

يمكننا تقديم الجانب الديني على الاقتصادي المادي بالنسبة للسياسة التوسعية البرتغالية في بلاد المغرب الأقصى كونه كان درعا ومفرا للمسلمين في الأندلس، فيما نقدم الجانب الاقتصادي التجاري على الديني للسياسة التوسعية البرتغالية في المشرق من أجل ضرب التجارة الإسلامية وإنعاش خط التجارة المكتشف في الأطلسي.

حقق البرتغاليون خلال العقدين الأولين من القرن السادس عشر عديد الانجازات السياسية والعسكرية واحتفظوا بإمبراطورية واسعة بالرغم من الحجم الجغرافي الصغير وقلة العدد والموارد الاقتصادية، وقد كان سبيل نجاحهم في ذلك هو التقنية.

يعتبر عصر إمانوئيل الأول هو أقصى ما وصل إليه التوسع البرتغالي، فقد شهدت فترة حكم هذا الملك العديد من الاكتشافات الجغرافية التي لم تكن معروفة آنذاك، كالكشف الطريق المؤدي إلى الهند عبر الالتفاف عبر القارة الإفريقية بين عامي (1497 1499) وغيرها من الاكتشافات كالكشف أمريكا والبرازيل.

استغل البرتغاليون الظروف الصعبة والمتأزمة التي كانت تمر بها المنطقة العربية مشرقا ومغربا، فكان الانقسام الداخلي والتشرذم في المغرب الأقصى وغياب قوة سياسية توحد أقطاعات الخليج العربي، والموقف السلبي للدولة الصفوية، فضلا عن تلك الحروب الدموية التي قامت بين القوى الإسلامية الكبرى (المماليك والعثمانيين والصفويين)، التي كانت عاملا مساعدا جعل البرتغال تستقر سريعا بالمنطقة.

خلى الخليج العربي من وجود أي تنظيم سياسي من شأنه أن يوقف النفوذ البرتغالي، إذا ما استثنينا مملكة هرمز التي كانت مسيطرة على مدخل الخليج العربي و تجارتها، والتي كانت مملكة تجارية لا تختلف عن كلوا كما أن المشيخات العربية التي كانت قائمة، كانت حدود بعض منها لا تتعدى حدود مدينة أو جزيرة ومن ثم تساقطت هذه المشيخات والمناطق تحت ضربات الاحتلال البرتغالي في اقل من 10 سنوات على اكتشاف رأس الرجاء الصالح.

تميز الوجود البرتغالي في المشرق والمغرب في بدايته بالخطورة والوحشية في معاملة السكان المحليين، نظرا لاعتماد البرتغاليين على قادة عسكريين مشبعين بالحقن الصليبي و متمكنين من الخطط العسكرية، من أمثال (ألفونسو البوكيرك Alfonso de Albuquerque) الذي استطاع بفضل سياسته الدموية التخريبية أن يضع أسسا للإمبراطورية البرتغالية في المغرب والمشرق الإسلاميين، وقد كانت هذه السياسة البرتغالية احد الأسباب التي حملت السكان على النفور من الوجود البرتغالي بالمنطقة .

اعتمد البرتغال على القوة البحرية في القرن السادس عشر مع الاكتفاء بإقامة محطات للتموين والحراسة وعدم الامتداد برا كثيرا، نظرا لان الوجود البرتغالي كان ذو أهداف اقتصادية بحتة من خلال محاولة احتكار التجارة والوقوف دون وصولها إلى البحر الأحمر والخليج العربي في المشرق والسيطرة على التجارة الإفريقية وعدم وصولها إلى أيدي المغاربة بالمغرب، كما اتبع البرتغال سياسة إقامة المراكز التجارية والعسكرية في الموانئ التي وصلوا إليها من أجل سلامة رسو السفن وتحصيل الرسوم. كما قرر البرتغاليون عدم التدخل في شؤون الحكم المحلي طالما بقي السكان محافظين على الهدوء، هؤلاء السكان الذين يمكن اتخاذهم كأيدي عاملة.

بالرغم من نجاح البرتغال في احتلال ثغور بالمغرب والخليج العربي عن طريق السيطرة على العديد من الموانئ الهامة بالمنطقة، إلا أن وضعه لم يكن سهلا مفروشا بالورود، ذلك لأنه وبالرغم من الأوضاع الغير

المستقرة بالمنطقة آنذاك إلا انه جوبه بثورات شعبية قادها أعيان البلاد وشيوخ القبائل كردة فعل وجواب صريح عن تلك الموجة الاستعمارية الدخيلة على البلاد.

قوبل الوجود البرتغالي بالمغرب الأقصى بمجموعة مقاومات ذات طابع الشعبوي إلا أنها لم تتمكن من القضاء عليه لضعف التجهيز والصراعات الداخلية فكثيرا ما نجد تزامن احتلال البرتغال لشعر من الشغور مع حصار سلطان لآخر خاصة بين الوطاسيين وأسلافهم المرينيين.

جوبه البرتغاليون ببعض المقاومات المحلية سواء في بداية أو خلال الفترة البرتغالية بمنطقة الخليج العربي إلا أن غياب كيان سياسي بارز إذا ما استثنينا هرمز ذات الطابع التجاري أو الدولة الصفوية الحليفة، بالإضافة إلى تلك الصراعات بين هرمز و الملوك المحليين و الذي حال دون نجاح تلك الثورات بل وساهم في استقرار البرتغال بالمنطقة ردحا من الزمن.

بالرغم من الصيت البحري الذي اشتهر به أهالي المنطقة في الخليج العربي آنذاك وشراسة المقاومة في المغرب الأقصى، إلا أن التكنولوجيا المحلية في ذلك الوقت كانت غير قادرة على مواجهة السفن الأوربية المتطورة، وهذا ما أدركه أهالي المنطقة جيدا، فقد كان هذا السبب فعلا في إخماد تلك الثورات التي كانت تندلع من حين لآخر على المعاقل البرتغالية، إذ لم يتسنى لسكان المنطقة إخراج المحتل إلا عندما كانت أساطيل قوية.

كانت هرمز هي المقر الإداري للبرتغاليين بالخليج العربي وكانت لهم لسنين طويلة السوق التجارية الرئيسية في جزء كبير من العالم.

كان من اثر تلك الهجمة الاستعمارية التي قادتها البرتغال من اجل تطويق العرب والوصول إلى بلاد الهند رأسا وإفشال الاقتصاد الإسلامي، أن راحت ضحيته شعوب القارة الإفريقية تحت ما يسميه الغرب الكشوفات الجغرافية، فتعرف البرتغال على القارة وفتح بذلك باب للتنافس الاستعماري بين القوى الأوربية كالهولنديين والألمان والانجليز و الفرنسيين.

لم تحظ مقاومة البرتغاليين باهتمام كبير من لدن المرينيين أولا ثم الوطاسيين ثانيا ويعود هذا التجاهل إلى كثرة مشاغل حكام فاس وقلة إمكانياتهم، ولم يكن السلاطين يحصلون على نتائج ملموسة كلما اضطروا إلى

التحرك ضد المحتل وذلك لمناعة التحصينات التي شيدها البرتغاليون ولكثرة مدافعهم ولافتقار المغاربة إلى جيش رسمي وإلى أسطول يحول دون توصل الثغور المحاصرة إلى إمدادات برتغالية.

لم تستطع القوى السياسية الإسلامية في المشرق (المغولية المملوكية و الصفوية) أن تفعل شيئاً لطرد الاحتلال البرتغالي، فقد كانت الدولة المغولية منشغلة بالفتوحات والتوسع بعيدة عن أي حلف مع القوى الإسلامية، في حين كان المماليك في حالة من الضعف حالت دون تحقيق انجاز بالرغم من محاولاتها الجادة في ذلك، أما القوة الصفوية فرأت أن تتعاون مع البرتغال لاقتسام بعض مناطق الخليج العربي، وهذا في رأيي راجع لعاملين، إما لأنها كانت في حالة ضعف أو أنها كانت في صراع مع الدولة العثمانية القادم الجديد إلى هذا الصراع.

أدى عدم قدرة القوى السالفة الذكر التصدي للبرتغال والحيولة دون تطويق البرتغال للمنطقة العربية من الخليج و المغرب إلى بروز قوى جديدة وفتية لها النية والقدرة على القيام وعمل ما عجزت عنه القوى السالفة الذكر، فبرزت لنا الدولة السعدية بالمغرب، والدولة العثمانية بالمشرق العربي، وهما أكثر من جابه البرتغال في هذا القرن.

بظهور الدولة السعدية في المغرب نجح هؤلاء شيئاً فشيئاً في احتواء النفوذ البرتغالي عن طريق مقارعتهم في الكثير من المواقع والثغور التي كانوا يحتلونهم بالإضافة إلى القضاء على العديد من عملائهم، وكما نجحوا أيضاً في توحيد بلاد المغرب الأقصى بإسقاط الحكم الوطاسي وإخضاع كل الإمارات التابعة لهم.

بدا الجهاد السعدي بنسق قوي تصاعدي تمكن من خلاله الأب والأبناء من استرجاع الكثير من الثغور خاصة بجنوب المغرب، غير أن هذا النسق اخذ في التراجع أواخر حكم محمد الشيخ ومن ثم أولاده، يعزى ذلك لنمط الجيش التقليدي والاعتماد على رجال القبائل، بالإضافة لتلك التطورات التي حدثت كظهور العثمانيين على المسرح السياسي في الجزائر، ليصل الجهاد أقصاه زمن عبد الملك من خلال معركة الملوك الثلاثة.

كانت معركة واد المخازن من المعارك التاريخية الكبيرة في المغرب بين المغاربة بقيادة الأسرة السعدية والبرتغاليين و حلفائهم و جماعة المتوكل على الله، و فيها مني البرتغاليون بهزيمة ساحقة، و مات بالمعركة ثلاث ملوك هم الملك سباستيان البرتغالي وحليفه المتوكل والسلطان السعدي عبد الملك.

تأكد الضعف البرتغالي جليا عقب معركة الملوك الثلاث والتي لطالما اعتبرها المؤرخون بداية ضعف الإمبراطورية البرتغالية الاستعمارية ونقطة تراجع في تاريخها ليس فقط في بلاد المغرب بل حتى مشرقا حيث ظهر صدى المعركة هناك، إلا أن المنصور الذهبي لم يستغل ذلك النصر من اجل استكمال استرجاع ثغري طنجة و سبتة.

إذا كان بروز الدولة السعدية على المسرح السياسي قد توجه جهادها ضد البرتغاليين فقد كان التوسع العثماني في بلاد الشام ومصر ومن ثم العراق ضرورة ألحت بها المتغيرات الجديدة في العالم الإسلامي من ظهور البرتغاليين بالمياه الإسلامية خاصة عقب فشل القوى السالفة الذكر في احتواء الخطر البرتغالي في المياه الهندية والخليجية .

بالرغم من أن انتصارات الدولة العثمانية على القوتين الصفوية والمملوكية وانتزاعها للزعامة الإسلامية قد كان في وقت مبكر من القرن السادس عشر، إلا أن عداء الدولة العثمانية للبرتغاليين لم يظهر إلا بعد سنة 1546م، ويرجع ذلك إلى كون الدولة العثمانية كانت مكتفية بالبحر الأحمر إلا أن جاءت ضرورة و الحاجة لإعادة إنعاش طرق التجارة بتلك الطرق.

أتاح فتح العثمانيين للبصرة عام 1546م الفرصة للدولة العثمانية للتدخل بالخليج العربي ومقارعة البرتغاليين هناك، حيث أصبحت البصرة معقلا ومرفئا للحركة والنشاط البحري العثماني في الخليج العربي ناهيك عن تلك السفن التي كانت تبنى أو تستصلح هناك من اجل الإغارة على العدو فكانت بحق عبارة عن بديل جيد لميناء السويس الذي كانت تعتمد البحرية العثمانية .

بالرغم من تلك المحاولات العثمانية المتفرقة لمقارعة البرتغال بمياه الخليج العربي إلا أن هؤلاء تمكنوا من الاسمرار في الخليج العربي حتى بداية القرن السابع عشر، وملكوا ناصية البحر وتقووا على كل أعدائهم واحتكروا التجارة وجعلوها في أيدهم، وكانت الأساطيل البرتغالية تجوب البحار وقلاعهم المحصنة على طول الطريق البحري إلى الشرق تحمي تجارتهم .

تمكن البرتغاليون من الاستمرار في الخليج العربي حتى بداية القرن السابع عشر دون أن يعكر صفوهم احد من الأوروبيون الذين لم يكن لهم علم بالمخططات والطرق التي سلكها هؤلاء في رحلتهم إلى بلاد الهند، فطوال فترة البحث لم نسمع عن أي من الدول الأوروبية التي حاولت منافسة البرتغال بالمنطقة .

ساهمت مجموعة من العوامل في عدم نجاح العثمانيين في طرد الاحتلال البرتغالي من الجناح الشرقي للمنطقة العربية - الخليج العربي - ، منها ما يتحمله العثمانيون ومنها ما هو خارج عن نطاقهم، فعدم اهتمام العثمانيين الفعلي والمبكر للدفاع عن هذه المنطقة وعدم تقديرهم للخطر المنجر عن تغلغل الاحتلال البرتغالي للخليج العربي وتأخر المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين كان احد أسباب الفشل، إضافة إلى التطور الحربي لدى البرتغال و الانشغال العثماني بالحروب الصفوية و الأوروبية وعدم الاتحاد مع القوى السياسية والمحلية كلها ساهمت في استقرار البرتغال بالمنطقة.

تميزت العلاقات بين الجزائر العثمانية والمغرب الأقصى في القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري بالتوتر والاضطراب تارة وإلى السلم الحذر تارة أخرى، فشهد النصف الأول من القرن المذكور سلاما وحسن جوار بين الطرفين وصل إلى حد التعاون المحدود، كون حكام البلدين في تلك الفترة كانوا في حاجة ماسة إلى السلم من اجل التفرغ إلى الصعوبات التي تواجههم في الداخل والأخطار الاستعمارية المشتركة التي كانت تهدد البلدين، لتستحيل تلك العلاقات عدائية انتقامية زمن محمد الشيخ وأبنائه الذين انعدمت الثقة بينهم وبين حكام الجزائر العثمانيين.

نجد انه لم تكن العلاقات بين حكام العثمانيين بالجزائر ونظرائهم السلاطين السعديين بالمغرب الأقصى تأخذ صورتها التعاونية التي كانت يجب أن تكون عليها من اجل التصدي للاحتلال الغربي لأرض البلدين خاصة البرتغالي الذي تزامن محاربته بين هؤلاء و أولئك في القرن السادس عشر وحتى في أوقات السلم لم يستطع الطرفان الوصول إلى الثقة التي من شأنها التنسيق معا من اجل ضرب البرتغال و القضاء عليه مشرقا ومغربا.

تأثرت حركة الجهاد السعدي ضد الاحتلال البرتغالي تبعا بتأثر وتنوع العلاقات السعدية العثمانية في القرن السادس عشر، فقد تشابكت أبعاد التفاعلات السعدية العثمانية بالأطراف المسيحية خاصة البرتغال، فمن ناحية نرى عملية الجهاد المغربية تضعف وتتوقف بل وتتجه نحو الصلح والتحالف مع البرتغاليين في حالة الحرب مع العثمانيين، على غرار ما فعل الغالب والمتوكل، كما رأينا نسق الجهاد يرتفع ويؤتي ثماره في حالات الثقة والتعاون على غرار ما وقع زمن عبد الملك في معركة المخازن التي أنهت الخطر البرتغالي.

و أخيرا وكإجابة على إشكالية البحث العامة يمكننا القول انه لم ترتقي العلاقات السعدية العثمانية في القرن السادس عشر إلى التعاون المطلوب الذي من شأنه القضاء على الاحتلال البرتغالي من الشغور المغربية

أو القضاء على الاحتكار التجاري البرتغالي في الأطلسي، فقد كان لدى العثمانيين مشروع يهدف إلى توحيد دولة الإسلام في ظل الخلافة العثمانية لمواجهة التحدي المسيحي الذي كان يهددها، وطالبو أن يعترف المغرب بالتبعية لهم، هذا المشروع اصطدم بطموح السعديين الذي كان لهم مشروع مماثل يهدف لضم بلاد المغرب العربي إلى سلطتهم. وقد اعتمد العثمانيون على الجهاد ودورهم في حماية المسلمين في مشروعاتهم، وهو ما اعتمد عليه السعديين إضافة إلى عنصري العروبة والشرف.

وبين حلم هؤلاء و طموح أولئك ضاع أمل القضاء على أول احتلال أوروبي وصل إلى المنطقة العربية، ومكث فيها أزيد من قرن من الزمن يستنزف الخيرات ويدنس المقدسات. كما ضاع معه حلم الوصول العثماني إلى المحيط الأطلسي لتكسير الاحتكار البرتغالي والاستفادة من تجارة العبور، بل وفكرة الوصول إلى القارة الأمريكية الجديدة والمنافسة في حقل الكشف الجغرافية، كل ذلك تلاشى نتيجة فشل العثمانيين في كسب الساحل الأطلسي.

الملاحق

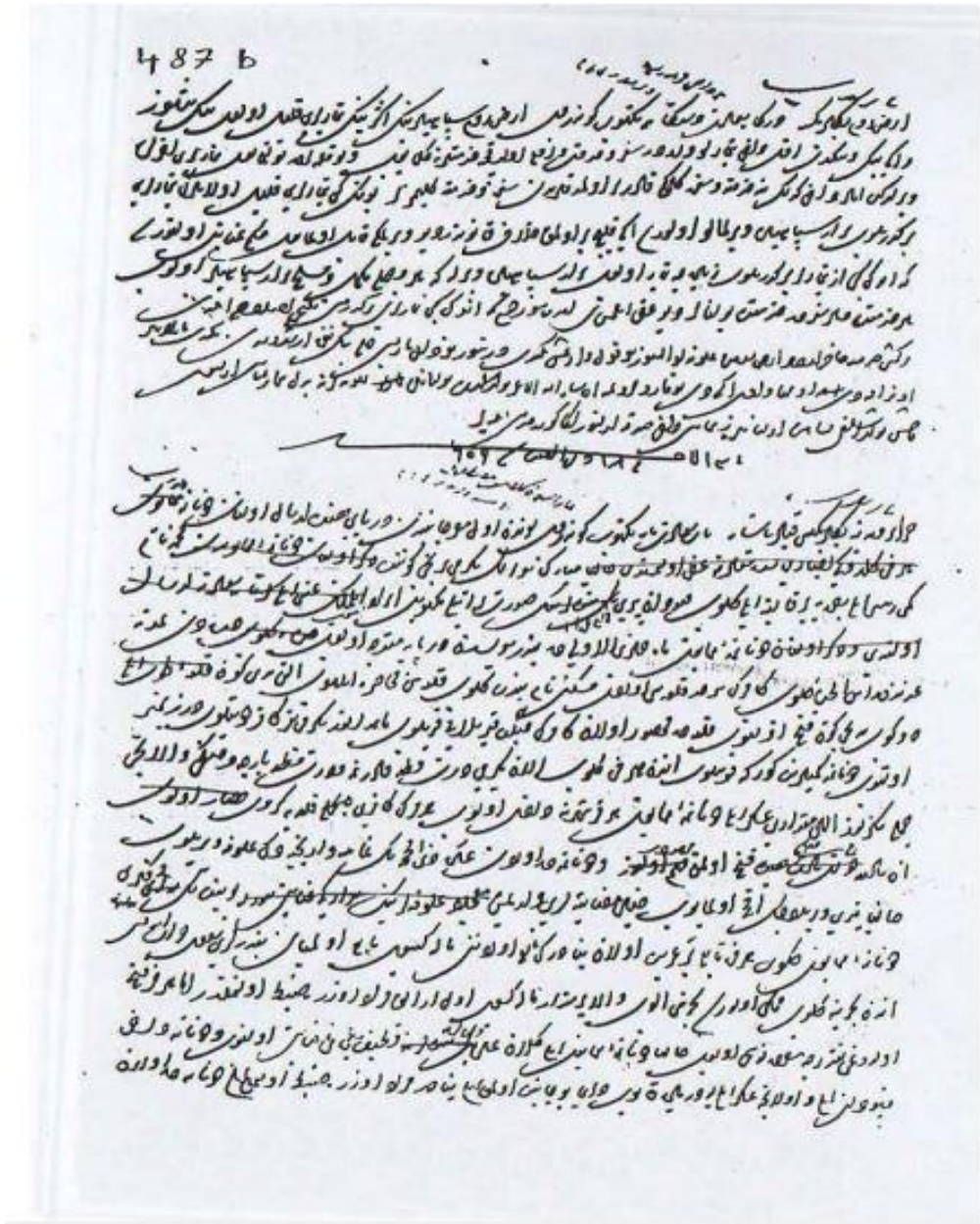
قائمة الملاحق:

- الرسائل والفرمانات .
- تسلسل الحكام مع شجراتهم .
- الخرائط .
- الصور والمخططات.

• ملحق الرسائل والفرمانات:

الملحق (1):

رسالة حاكم البصرة قباد باشا الى حاكم بغداد وديار بكر بتاريخ 5 نوفمبر 1552م⁽¹⁾



(1) نقلا عن: فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص 73.

الملحق (2):

ترجمة الملحق 1 المتعلق بالرسالة التي بعث بها قباد باشا الى والي بغداد وديار بكر يطلب المدد العسكري والمالي وحرية التصرف في اتخاذ القرار من اجل مقارعة البرتغالية في منطقة الخليج العربي⁽¹⁾

كُتِبَ يوم الأحد ١٨ ذي القعدة ٩٥٩هـ [٥ نوفمبر ١٥٥٢م]
أُعْطِيَ للمدعو مصطفى وهو قادم من طرف المشار إليه في التاريخ المذكور
الحكم [الموجه] إلى بكلكر بك الجزائر والمدينة قباد باشا
أرسلت رسالة إلى باب السعادة ووصلت جاء المدعو محمد ريس إلى البصرة [على متن] سفينة [من نوع] قالبتة إلى البصرة وذلك يوم ٢١ شوال المبارك مع الأسطول الهمايوني المرسل من مصر إلى البحر الهندي (درياي هندم) ووردت الرسالة الخاصة بالقبودان پيري دام عزه حيث خرجت الأساطيل السلطانية من ميناء السويس في شهر جماديا الأولى إلى جدة، ومنها إلى عدن، ثم رأس الحد، وهناك يوجد ميناء للكفار [البرتغاليين] يعرف باسم مسكت، فتم محاصرة القلعة وقصفها لمدة ستة أو سبعة أيام، وفي اليوم السابع تم فتح القلعة، وتم القضاء على الكفار

(1) نقلا عن: فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص 48

المحاصرين بالقلعة باستثناء ١٢٠ كافر وتم تقييدهم بالحديد ، وتم وضعهم للعمل كمجدفين (گوركه قوشلوب) في سفن الأسطول .

والآن فإن الأسطول السلطاني وصل إلى هرمز وهو مكون من ٢٤ سفينة قادره و ٤ سفن باره ويعسكر مقداره ٨٥٠ جندي ، وتم حصار المدينة (هرمز شهرنه داخل اولوب) ودخل كفار هرمز إلى القلعة ، وإنشاء الله سيتم فتحها .

وتم منح الجنود في الأسطول مرتباتهم حتى نهاية شهر ذي الحجة وإلى الآن لم يعطوا أية نقود أخرى ، وهذا شيء مزعج .

وفكرت بأن تستقطع بعض الأموال من الموانئ الموجودة في الجانب العربي والتابعة لهرمز ، وأن يتم تخريب الموانئ التي لا تتبعها ، وبعدها يمكن الزحف والاستيلاء على البحرين ، وإلا أن تُستقطع بعض الأموال وتخصص لاحتلال والسيطرة على البحرين .

أما إذا قدر وفتحت هرمز فإن [المنطقة ستظل] تحت رعاية واهتمام علي بك سنجاق بك القطيف بجانب الأسطول السلطاني الموجود في مصر ، وعن طريق التناوب سيظل الأسطول مع قبودانه وعسكره متواجد في هذا البحر للسيطرة على الموانئ [الأخرى] ، [وهذه الموانئ] مع بقية الجزر الأخرى ستوفر [المال اللازم] لدفع مرتبات الجنود في الأسطول ، وستوفر للخزينة أموال كثيرة ومنافع عديدة .

وإذا لم تتم الأمور بهذه الصورة ، فإن الكفار باستطاعتهم أن يزحفوا من هذا البحر من جديد على البصرة ، وهذا سيسبب اضطراب كلي [للمنطقة] . والآن فإن وجود قبودان مع الأسطول والعساكر في هذا البحر يلزمه أمر ليقوم بالمحافظة [على هذه المنطقة] ونرجو التكرم بإصدار أمر شريف لإبقاء أسطول دائم في هذا البحر لأنه من أهم الأعمال ، [وسيقوم] بحفظ البصرة وحماية جزائرها ، وسيراقب تحركات أهالي فارس (قزلباش بد معاش حركته كلي سعي [؟] اولوب) وماهو

الأمر الشريف في حالة فتح هرمز والبحرين ؟ .

والآن نفوضك باتخاذ الإجراءات الصائبة لتوفير المواد الغذائية والمرتببات اللازمة للأسطول السلطاني الموجود في البصرة بأي طريقة كانت ، ولم يتم توضيح فيما إذا كانت الولاية المذكورة تستطيع توفير المواد الغذائية ومرتببات العساكر ، وعليك معرفة تفاصيل جملة الأمور المتعلقة بتلك المنطقة .

وأمرنا بإرسال خبر مع قبودان الهند بأنه هل سيظل الأسطول في ذلك البحر بعد الإنتهاء من هرمز ، أو أن يصل إلى ذلك المكان مع [بداية] الموسم ، ومهما يكن فليتم عمل ما هو مناسب . وعليك إظهار مساعيكم الجميلة لحماية الأسطول السلطاني والجنود وهذا سيتم بعناية الحق سبحانه وتعالى . وعليك أن تهيب كل ما هو ضروري ، وأن تبعد أي ضيق عن الجنود القادمين مع الأسطول السلطاني إلى ذلك البحر .

وتم إرسال حكمنا الشريف إلى بكلكر بك ودفتر دار ديار بكر ليرسلوا إلى بغداد على وجه السرعة عشرون ألف قطعة ذهب (التون) ، كما أرسل حكمنا الشريف إلى بكلكر بك بغداد بأنه قبل التحصيل من خزينة ديار بكر لو جاء الأسطول إلى البصرة فيلزم تحصيل المبلغ على سبيل القرض من خزينة بغداد ، [والأموال القادمة] من ديار بكر توضع مكان الخارجة إلى البصرة . وبعناية الله تعالى سيكون فتح هرمز ميسر ، وبناء على ما تم عرضه فيما يتعلق بسنجاك القطيف فإنه تم تعيين علي بك دام عزه والقادم مع الأسطول السلطاني بطريق التناوب مع أمراء السناجق في مصر . وعليك عرض المصالح الهامة التي تأتي إليك من تلك المناطق وألا تتأخر أو تعيق أي أمر يأتيك وعليك القيام بما هو لائق ومناسب لدولة السلطان (دولت همايون) ، وكنا قد أمرنا بإرسال بعض المعدات العسكرية وأخبرتنا بأنها لم تصلك إلى الآن .

والآن فقد وردت عريضة من أمير ديار بكر (ديار بكر بكيستند) وأخبرنا عن إرساله للأسلحة إلى بغداد ، فهل وصلت أم لم تصل ؛ كما صدرت الأوامر الآن

بإرسال مزيد من الأسلحة اللازمة من ديار بكر إلى بغداد ، [كما] أرسل أمرنا إلى أمير أمراء بغداد بأنه إذا لزم [إرسال] أسلحة ومعدات إليك [فعليه إرسالها] دون تأخير . [كما] أن عزب ومستحفظان المدينة غير مقيدين في الدفتر الذي سبق إرساله إلى الأستانة ، كما أن نصفهم غير موجودين .

كما أخبرتنا بأن الحاجة تقتضي إرسال ٤٠٠ إنكشاري من بغداد بطريق التناوب، وعرضت [علينا] أخذ ٧٠٠ شخص بطريق التناوب وكان عودتهم إلى بغداد ضرورية وأرسل الأمر بأنه إذا لم يكن هناك عمل لهم في الجزائر [عليك إرجاعهم] وإذا كان وجودهم ضروري (جزائره خدمت يوغسه گتوره سن وارسه) فارجع نصفهم الذين انتهت مدتهم واترك البقية [هناك] .

والآن فقد تم عرض حاجتك وتم كتابة وإرسال حكمنا الشريف إلى بكرك بك بغداد بضرورة وضع ٤٠٠ نفر بطريق التناوب في الجزائر ، وإذا كان هناك [عدد] كبير في بغداد فليد ٢٠٠ نفر سواء كانوا مبدئين أو قدماء اگر ترقيدر واگر ابتدار) ولم توضح هل تستطيع خزينه تلك الولاية أو هذه الولاية [أن تتحمل رواتبهم] ولايتك خزينه سي مساعد اولوب برودن خزينه گللملي ، و عليك أن تقوم بما هو مناسب للمملكة ولا تغفل عن الأعداء ، وأن تظهر شجاعتك لحفظ وحراسة الولاية.

وهكذا عند الحاجة لإخطارنا بأمر بالغ الأهمية (بر مهم مصلحت دوشوب) فإن الشخص المرسل إلى عتباتنا (قبويه) يلزمه الحضور على حصانه الخاص ، وفي حالة وجود خوف أو ضرر ما فيلزمك إرسال رسول (اولاق) . وعندما لا تكون هناك حاجة ملحة (انوك گبي غايتلي مهم دوشماينجه) لا يلزمك إرسال رسول .

[كما] يجب عليك أن ترسل مع الرسول شخص أمين وعلى علم بأحوال الأمور (آحوال واقف كمسنه يه) من بين الأشخاص الذين جاءوا مع الأسطول ،

وعندما يأتي الأسطول فإنه من الضروري تجهيز وتخضير الأطعمة والبفسماط (بكسما دلري وذخير لري) [؟]

والحكم المرسل إلى قيودان الهند يبري دام عزه قد أرسل إليك ، وعليك معرفة فيما إذا وصل إليه ، وهل ممكن العودة في الموسم بعد إنجاز المهمة (واكر بر مصلحت بر طرف اولدقدن صكره موسمبله عودت اتمكدر) وعليك [القيام بما هو أفضل وانسب (البقي واولى نه مه انوكلي عمل ايده سن) .

الملحق (3):

رسالة الباب العالي الى قبودان السويس بيدي رئيس بتاريخ 5 نوفمبر 1552م⁽¹⁾



(1) نقلا عن: فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص 74.

الملحق (4):

ترجمة الملحق الأول ومما جاء فيه تحذير الباب العالي لبيري ريس من مغبة الوقوع في فخ البرتغاليين في هرمز ويحثه على الاستعانة بقباد باشا من أجل ايجاد مخرج⁽¹⁾

أعطيت لمصطفى رسول قباد باشا في ١٨ ذي القعدة سنة ٩٥٩هـ [٥ نوفمبر ١٥٥٢م]
الحكم [الموجه] إلى قبودان الهند يسري بك :

أرسل حاليا قباد باشا أمير أمراء الجزائر والمدينة والبصرة رسالة يعلمنا عن دخول مدينة هرمز بأربع وعشرين سفينة ، وتم محاصرة الكفار الملاعين داخل القلعة ، وفي الطريق تم إحدى قلاع الكفار ، وتمكن بعض مقاتليهم من الفرار من السيف [أي القتل] (بعضي قليجه دن گجوب) أما البقية فتم وضعهم كمجذفين (ما عدا سي گوركه قولندغن) والشخص (قولف) القادم بعد انتهاء ذي الحجة أخبرنا عن الحاجة لرواتب [الجند] كما أرسلت [معه] نفس الخطاب الواصل إليك . كل ما قيل فقد وصل بالتفصيل إلى علمنا الشريف ، ويؤسف الله وجهك على قيامك بكل ما جيد وعلى حسن تدبيرك وعلى إعلامنا [بالأحداث] .

ورد في خطاب المشار إليه قباد باشا بأن الأسطول السلطاني جاء إلى الموانئ الموجودة على بحر العرب والتابعة لهرمز ، واستولى على أموالها (ماله كسوب) وقام بهدم وتخريب القلاع الغير تابعة لها ، ومنها زحف على البحرين ، ويمكن الاستيلاء عليها ، فإنه بالإمكان أخذ أموالها ، وأثناء ذلك صدرت أوامر بالاستيلاء عليها ، وأن

(1) نقلا عن فيصل عبد الله الكندري، المرجع السابق، ص52.

يبقى الأسطول والعساكر في هذا البحر ، وسيحصل الأسطول على رواتبه (علوفه لري) وأموال وفوائد جمّة من الجزر الموجودة على هذا الجانب ، ويمكن فتح عدة [مناطق] بسهولة . وإذا غاب الأسطول عن التواجد في هذا البحر بهذه الطريقة فبإمكان الكفار العودة إلى البصرة وإحداث أضرار بها ، [وواضح] إلاماك بأحوال البحر وقد فوّضناك يا عبدنا (قولوم) في الأمور الواردة و [متابعة] أحوال الأسطول .

إذا أمكن الأسطول السلطاني أن يبقى الشتاء في البصرة فليبق ، وأرسل حكمتنا السلطاني إلى قباد پاشا بأن يعتني بمؤونة ومرتبات العساكر التي معك . ولكن بعد اجتياز هرمز إذا كان هناك احتمالية تعرض الأسطول لأي ضرر أثناء بقاءه في البصرة ، وإذا تسر طريق العودة في موسم [السفر] فإن أمانة وسلامة الأسلحة والمعدات راجع إليك (امين وسالم دونانم ييليشكري وير اقي ايلده سن) ، وعرض [علينا] بأن البصرة بحاجة إلى قطع من الأسطول ، والأصل مراعاة مصلحة الأسطول ، [ولكن] مراعاة لمصلحة هرمز فاترك ١٠ قطع [من] الأسطول ، وأرجع البقية إذا تسر ذلك (ما عدا سيله گتمك مناسب ايسه ايله ايله سن) . ولكنك لم تبين فيما إذا جاء الموسم وتربص الكفار الملاحين بطريقكم خارج مضيق البصرة ، وعليك أن تعرف تفاصيل [هذه النقطة] ، وعليك أن تعمل بموجب أمرنا الشريف مهما كان ، وعليك أن لا تغفل عن خدع وحيل أعدائنا الذين لا دين لهم ، وألا تضيّع الأسلحة والمعدات ، وأن تسعى لإيصال الأسطول السلطاني إلى مصر [٩] . وعليك أن تشاور المشار إليه قباد پاشا ، وأن تقوم ما هو أنفع وأولى بأمور البصرة ، وإذا لزم إعادة بقية الأسطول إلى مصر فعليك أن تحطاط في الخروج (اگر يرو مصر جانبه گلمك لازم گلوب دونانم ايرلما علي ما عداسي واروب چقمقده احتياط وار ايسه عرض ايله سن) ، وأن تعرض علينا الأمر ، لو عليك أن تعمل ما فيه صالح دولت سلطاننا (دولت همايونم) .

الملحق (5):

رسالة الباب العالي الى وزير مصر محمد باشا⁽¹⁾

دفتر الأمور المهمة رقم 3 ، ص 258 ، رقم الأمر 747

[illegible]

(1) نقلا عن: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص37.

الملحق (6):

ترجمة الملحق 5 وهو رسالة الباب العالي الى وزير مصر يطلب منه فيها تجهيز اسطول عثماني لاسترجاع مافقده مراد ربيس من طرف القوات البرتغالية⁽¹⁾

ترجمة الوثيقة رقم 3 ، ص 258 رقم الأمر 747 .

إلى الوزير محمد باشا :

فقد بلغني أن أمير الأحساء (محمد) قد خرج بعساكره قاصداً جزيرة البحرين بدون أمر ملي في هذا وذلك بغرض الاستيلاء على قلعة الرئيس مراد حاكم البحرين مما دعا الرئيس مراد إلى الاستجداء بالكفار والاستعانة بهم عليه وقد ترتب على ذلك استيلائهم على سفن أهل الإسلام وإقامتهم في جزيرة أتالي وقد وصلتنا رسالة من المذكور بهذا الصدد وقد كنت أبلغت أمير البصرة بهذا العلم ، وقد صدر الأمر السامي بما هو آت :

إنشاء السفن وتجهيزها وإرسالها إلى هناك على وجه السرعة وسيوصلك أمرنا إلى المالية بهذا الخصوص ومرسل طيه الرسالة التي جاءتنا بهذا الصدد من المذكور " والمشار إليه وقد أمرنا بما هو آت :

من أجل إتمام بناء السفن وتجهيزها بالمهمات والمعدات على أكمل وجه وأتم سرعة خذ من خزانة مصر مائتي ألف ذهب وأرسل منها مائة ألف إلى المذكور ، وقد صدر أمرنا كذلك إلى أمير رودس بفعل الشيء نفسه ،

(1) نقلا عن: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 38.

الملحق (8):

ترجمة الملحق 7 وهو فرمان ارسله الباب العالي الى حاكم الاحساء يوافق بموجبه على بناء قلعة بميناء عقاير نظرا لما ستوفره هذه القلعة من أمن واستقرار من جهة ومداخل من جهة ثانية⁽¹⁾



(1) نقلا عن: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص40.

الملحق (9):

رسالة من السلطان العثماني الى محمد السعدي حاكم فاس يأمره فيها بحسن الجوار والمعاشرة والاتحاد ضد العدوان البرتغالي.⁽¹⁾



(1) نقلا عن: محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 243.

الملحق (10)

خطاب السلطان سليم لحاكم فاس عبد الله الغالب⁽¹⁾

[illegible]

(1) نقلا عن: عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 8، المرجع السابق، ص 41.

الملحق (11)

ترجمة الملحق 10 وهو رسالة السلطان سليم الى المولى عبد الله الغالب يحثه فيها على ضرورة التعاون من اجل

الجهاد المشترك واغاثة أهل الأندلس⁽¹⁾

((هذا أمرنا الشريف العالي السلطاني لا زال مطاعا له ونافذاً بالعون الرباني قد أرسلناه إلى جناب الأميري الكبير الأعدلي... الألفاف مبارك أرسلناه إلى الجناب العالي الأميري الكبير الأكرمي الأمجدي الأرشدلي الأكملي الأعدلي النصري الزخري (كذا) العوني الفوثي الوتدي (كذا) العضدي الهامي الماجدي الأصلي العربي الحسبي النسبي، نسل السلالة الهاشمية وفرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصاة العلوية للأمرأ الأشراف المطاع له الحاكم العادل بولاية فاس المحمية بحماية ملك الناس ينهى لعله أنه قد ورد كتابه الذي حلى بالدر النظيم إلى سدتنا السنية السلطانية وعتبتنا العلية الخاقانية ففضضنا(ه) وثماننا مخايل النصر من سطوره ونزهنا النواظر في رياض منظومه ومنثوره وألفيناه متضمننا ومحتويا على ما من الله العليم ويسره للمعز الكريم من نصر المومنين وقهر الأعداء المشركين وإعلاء كلمة الدين المتين وإجراء أحكام الشرع المبين وبذل المقدور في معاضدة أهالي ولاية أندلس المحمية حماها الله عن العاهات والبلية حيث هبت نسمات النصر على جيوش الإسلام فقيل ياخير الله اركبي وبايد (كذا) النصر اكتبني وقام الحرب على ساق واضحى كل الأعداء إلى حتفه يساق وهجرت السيوف الإسلامية لاعتماد (كذا) وأقمت أنها لا تقر إلا في الرؤس (كذا) والأسنة أشرعت وآلت...

انها الا.... تروي ظمأها (كذا) إلا من دماء النفوس وغير ذلك من غرض الإخلاص لسدتنا السنية وإنهاء الاختصاص لعتبتنا العلية فقد فهمنا جميع ما فيه وأطلعنا على كل الإسلام حيث سلكت ملكت وأين جنحت من بلاد الكفر أسرت وفتحت وظفرهم على حرب المشركين الذين ذعير (كذا) من هيبتنا دانيهم وقاصيهم، أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم... فالمأمول منكم أن تكون المودة (كذا) بيننا مرصوص البنيان وبنيان المحبة متينا (؟) الأركان يرفع مباني العدل والإنصاف ويقلع أساس الجور والاعتصاف، ويبدل جهدكم في إعلاء الشرع القويم، ورفع ألوية الدين المستقيم، وفتح أبواب البر على البرايا ونصيب أعلام الرعاية واصطياد القلوب باشتباك العواطف وانقياد النفوس بأزمة العوارف (؟) حيث أنام الأنام (كذا) حسن حمايتكم وأقيم الأقوام في ظل رعايتكم فوصلوا إلى ما نالوا في أيام دولتنا ونالوا ما أملوا من حضرتنا فيدعون لصحايف سلطتنا ودوام دولتنا وثبات... دائما أبدا مرمدا بصفاء الطوية وخلوص البال ما دارت الأيام والليالي والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

(1) نقلا عن: عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج8، ص ص40، 42.

الملحق (12):

رسالة من السلطان العثماني الى الشريف عبد الملك حاكم فاس، يحثه فيها على ضرورة الاتفاق بينه وبين حاكم الجزائر حسن باشا من أجل التعاون في محاربة الاعداء البرتغاليين وغيرهم⁽¹⁾

[illegible]

(1) نقلا عن: محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 257.

- ملحق تسلسل الحكام مع شجراتهم :

الملحق (13):

جدول يبين الأسر الحاكمة في البرتغال⁽¹⁾

عائلة الأفيز (1385-1580م)

جوان الأول (يوحنا الأول)	1385-1433م
ادوارد الأول	1433-1438م
ألفونسو الأول	1438-1481م
جوان الثاني (يوحنا الثاني)	1481-1495م
ايمانويل الأول	1495-1521م
جوان الثالث (يوحنا الثالث)	1521-1557م
سيباستيان الأول	1557-1578م
هنري الأول	1578-1580م
أنطوني الأول	جويلية-أوت 1580

عائلة البوركونيا (1139-1383م)

ألفونسو الأول	1139-1185م
سانشو الأول	1185-1211م
ألفونسو الثاني	1211-1223م
سانشو الثاني	1223-1248م
ألفونسو الثالث	1248-1279م
دينيز الأول	1279-1325م
ألفونسو الرابع	1325-1357م
بيير الأول	1357-1367م
فيرديناند الأول	1367-1383م

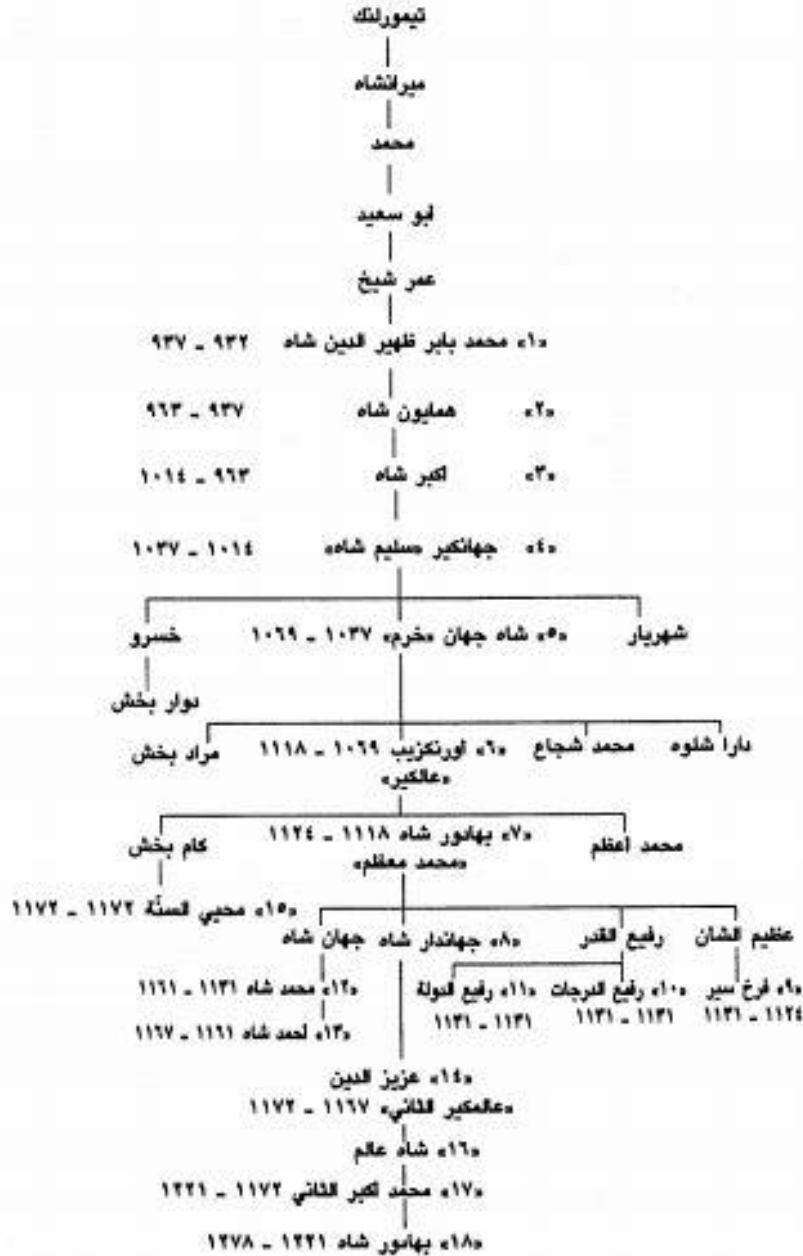
عائلة الهابسبورغ - حكام اسبانيا - (1580-1640م)

فيليب الأول	1580-1598م
فيليب الثاني	1598-1621م
فيليب الثالث	1621-1640م

(1) نقلا من الموقع :

الملحق (14):

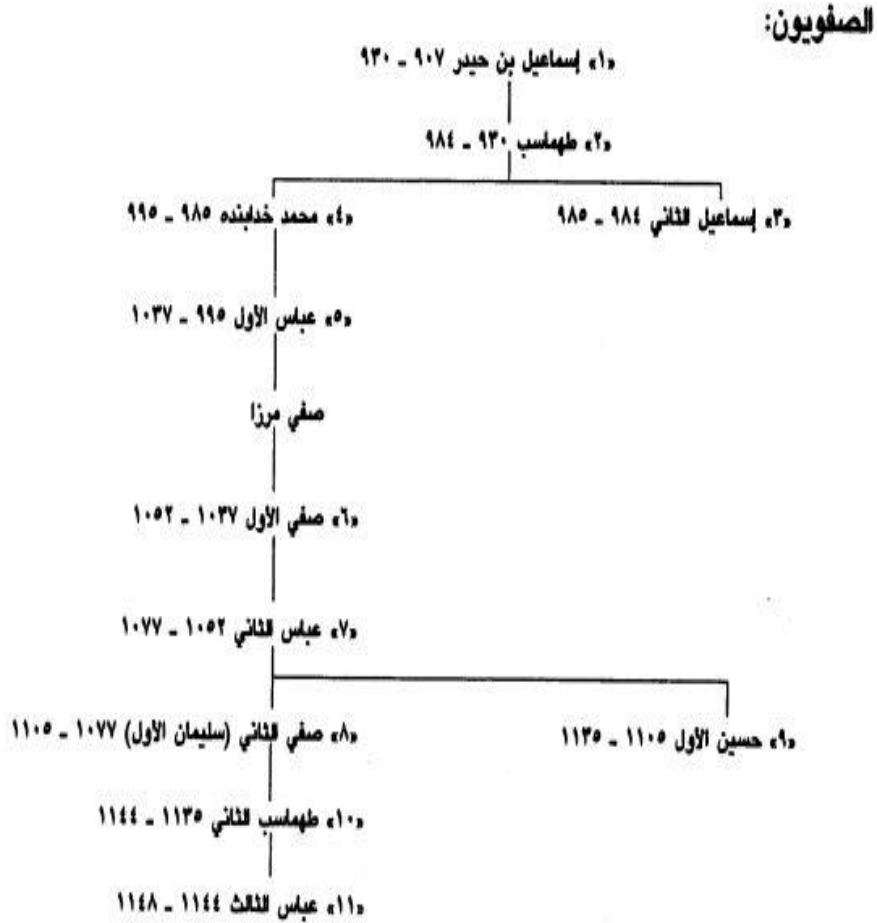
شجرة أباطرة المغول⁽¹⁾



(1) محمود شاكر، التاريخ الاسلامي، ج8، المرجع السابق، ص427

الملحق (15):

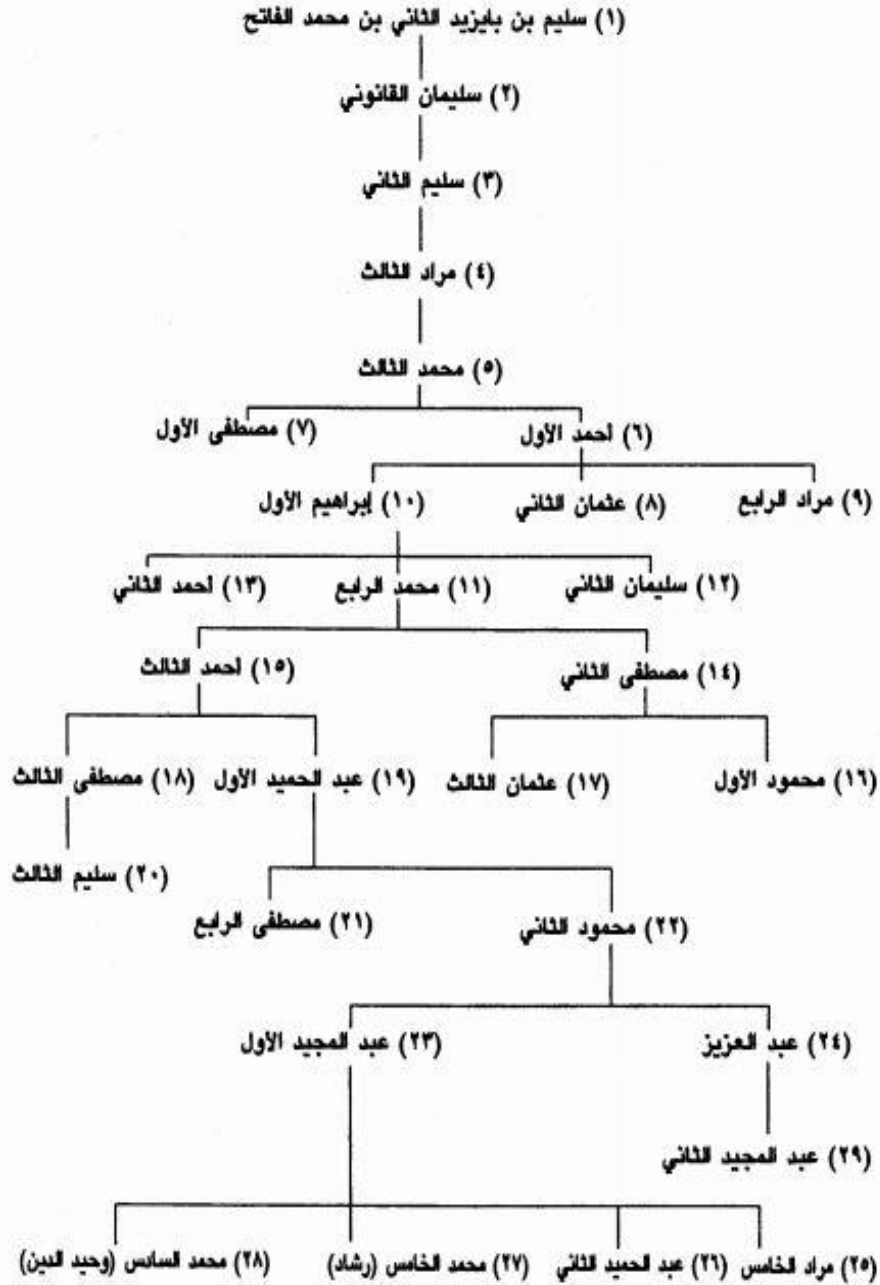
شجرة حكام الدولة الصفوية⁽¹⁾



(1) محمود شاكر، التاريخ الاسلامي، ج8، المرجع السابق، ص386.

الملحق (16):

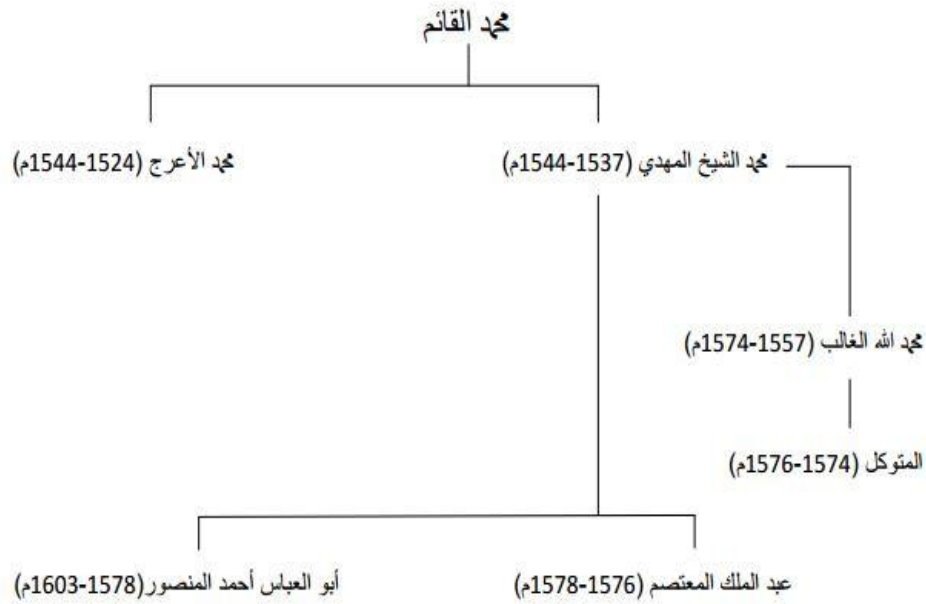
شجرة الخلفاء العثمانيين⁽¹⁾



(1) محمود شاكر، التاريخ الاسلامي، ج8، المرجع السابق، ص233.

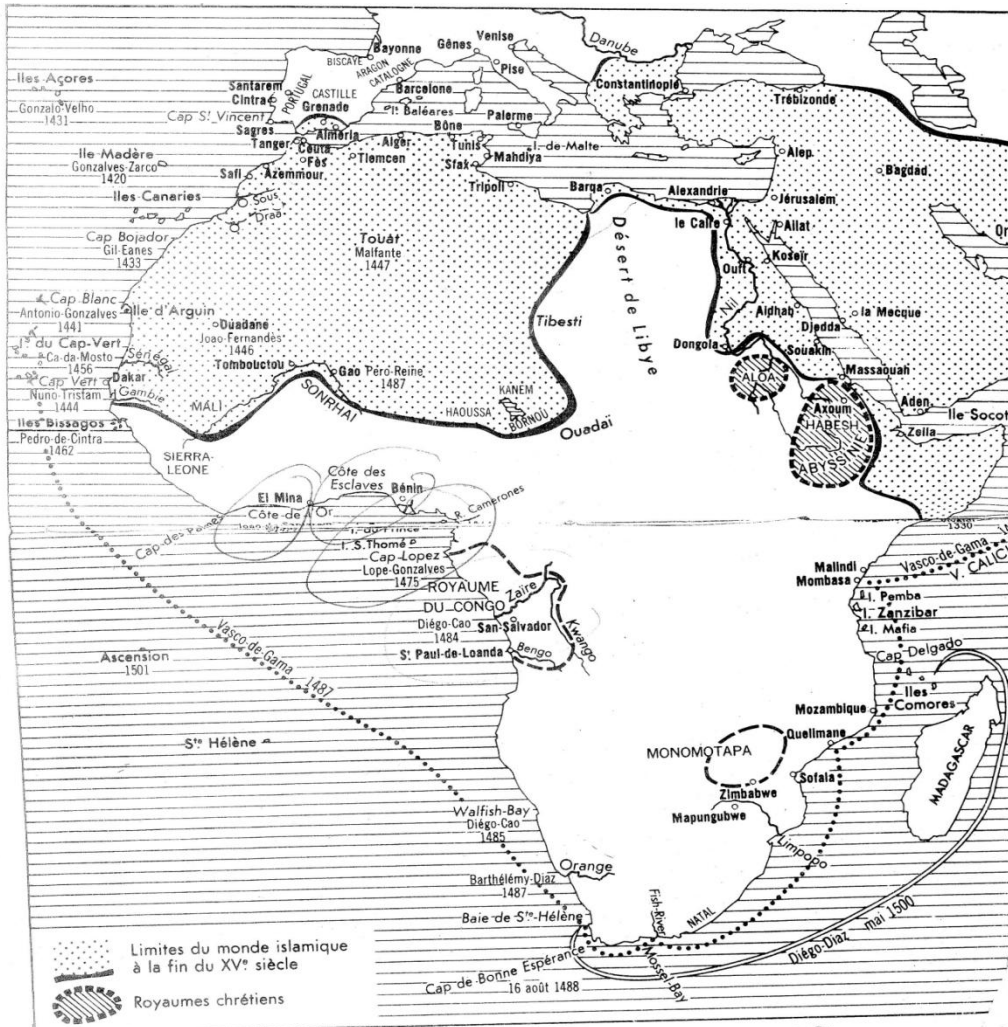
الملحق (17):

شجرة تبين حكام الدولة السعدية



الملحق (18):

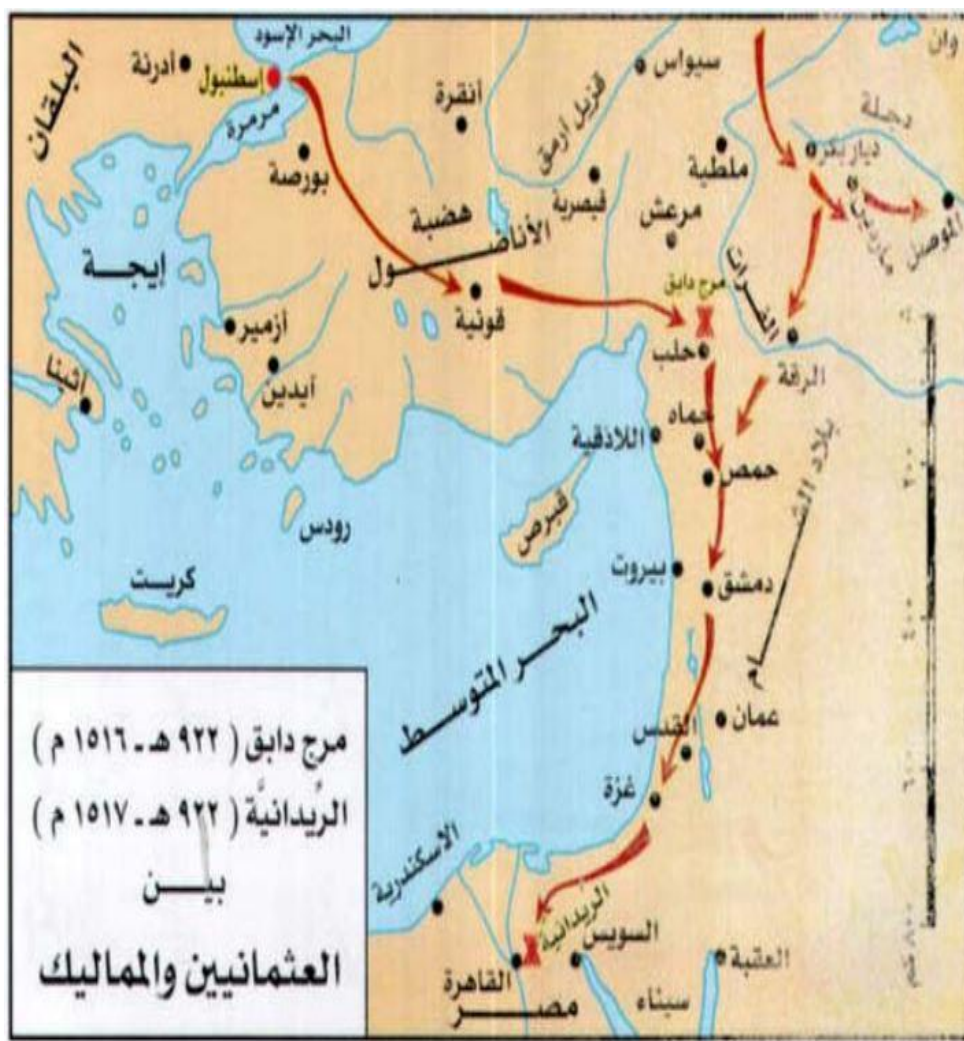
خريطة توضح مراحل الكشف البرتغالي للقارة الافريقية⁽¹⁾



(1) Robert Conervin, op.cit, p426.

الملحق (19):

معركة الريدانية ومرج دابق⁽¹⁾



(1) الدكتور شوقي خليل، أطلس التاريخ العربي الاسلامي، دار الفكر ، دمشق، سورية، ط1، 1983، ص105.

الملحق (20):

معركة ديو البحرية بين العثمانيين والبرتغاليين⁽¹⁾



(1) شوقي خليل، أطلس التاريخ العربي، المرجع السابق، ص106.

الملحق (21):

خريطة برتغالية تعرض سفينة عثمانية في مياه المحيط الهندي⁽¹⁾.



(1) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 267.

الملحق (22):

خريطة برتغالية يظهر فيها بوضوح السفن العثمانية صاحبة الهلال الاحمر
وصراعها مع السفن البرتغالية وعليها الصليب بالقرب من سواحل الهند
ومدخل الخليج العربي⁽¹⁾.



(1) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 268.

الملحق (23):

معركة وادي المخازن (الملوك الثلاثة)⁽¹⁾

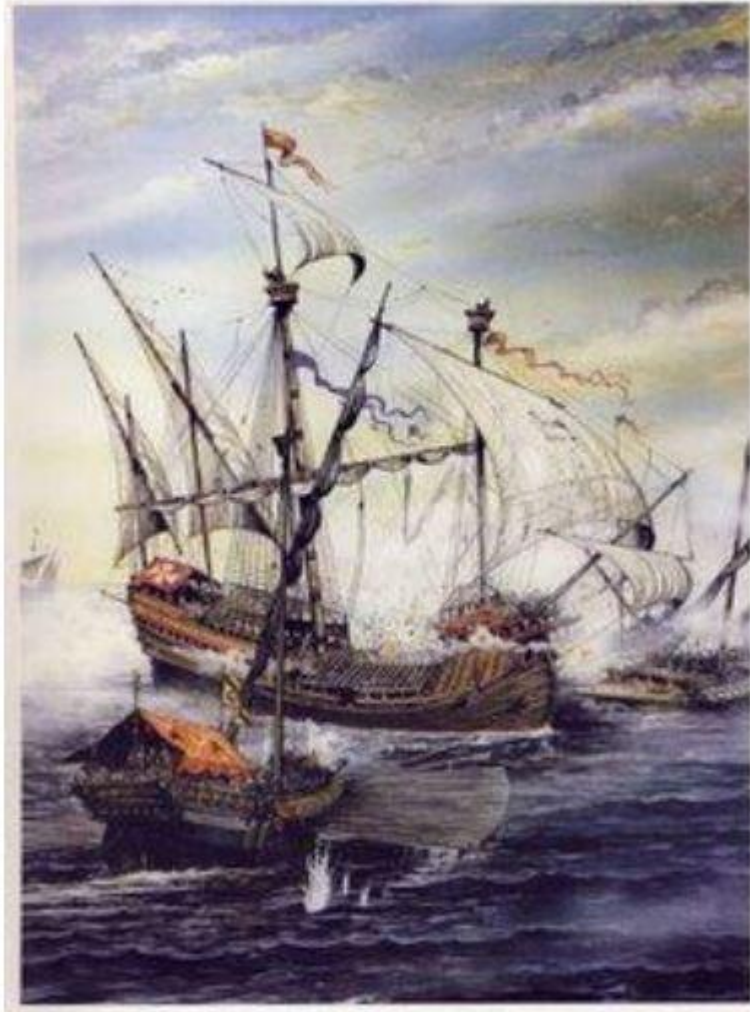


(1) شوقي خليل، أطلس التاريخ العربي، المرجع السابق، ص107.

• ملحق الصور والمخططات:

الملحق (24):

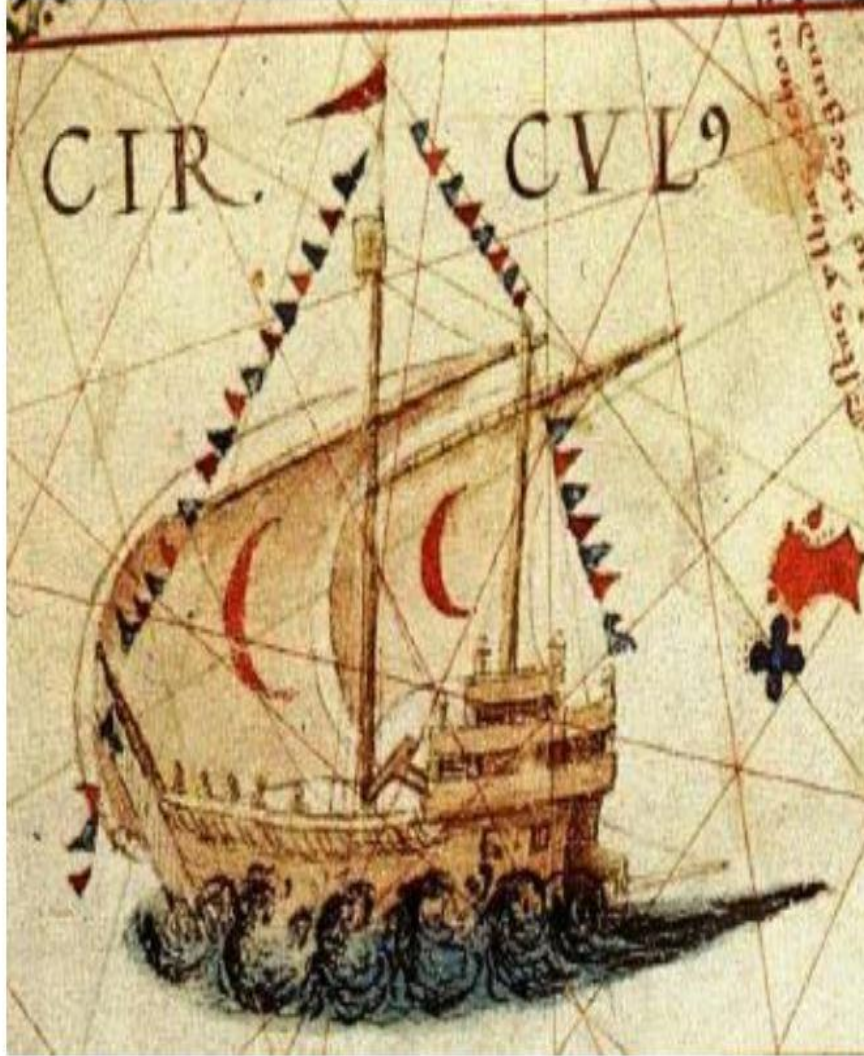
معركة بحرية تشارك فيها السفن الحربية العثمانية⁽¹⁾



(1) محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص264.

الملحق (25):

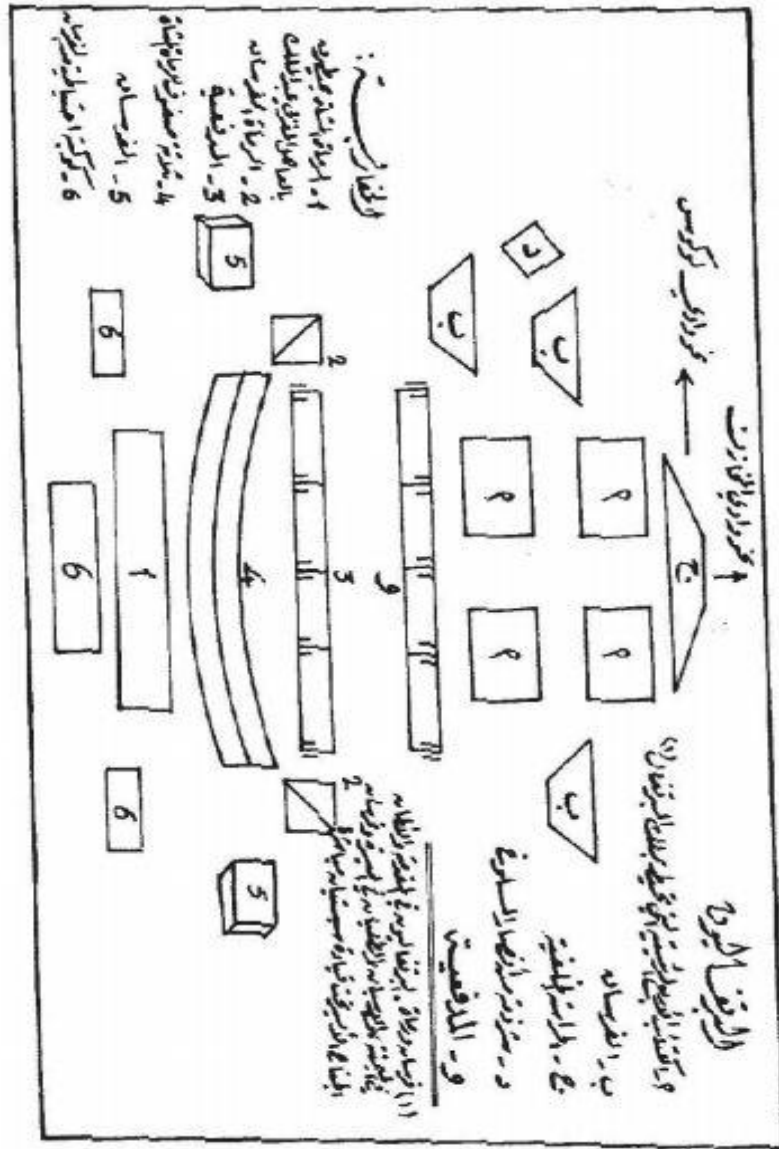
سفينة حربية عثمانية⁽¹⁾.



(1) محمد محمود خليل، المرجع السابق ، ص 265.

الملحق (26):

مخطط يبين توزيع القوات المغربية والبرتغالية في معركة وادي المخازن⁽¹⁾



(1) شوقي أبو خليل، معركة وادي المخازن، المرجع السابق، ص 60.

فهارس عامة

فهارس عامة

- فهرس أسماء الأعلام
- فهرس الأماكن والقبائل
- فهرس الأمم والدول

• فهرس أسماء الأعلام

أ -

أحمد الأعرج 111، 112، 114، 116،
118، 119، 122، 125، 126، 127، 129،
132، 133، 243، 244،
أحمد المنصور (السعدي) 143، 148، 157،
158، 160، 255، 262، 261، 264، 268.
أحمد بن عبد الله الزباني 245،
أحمد بن يحيى الهوزلي 156، 264،
أسماعيل الصفوي 92، 93، 94، 164، 166،
167، 168، 170، 171، 172، 173، 176،
183، 231، 232، 233.
أعراب أحمد 252.
الأقوي محمد بن مبارك 109، 110.
أكبر (امبراطور مغولي) 86، 87.
ألفارو دي نورها 201،
ألفونسو الثالث 23،
ألفونسو الخامس 63
ألفونسو الرابع 24
ألفونسو السابع 23
ألفونسو السادس 22،
ألفونسو دي البوكيرك 30، 272.
ألفونسو دي نورها 191،

أبا محمد السرغيني 252.
ابن القاضي 158 .
ابن المبارك 110، 111، 113، 123.
ابن إياس 11، 91، 176.
ابن بطوطة 45، 46،
ابن تعففت يحيى 56، 57، 60، 114، 126،
129، 130.
ابن ماجد 69.
ابن ودة أبو العباس أحمد العمراني 265.
أبو الحسن 116.
أبو الروابين 121،
أبو القاسم سعد الله 4
أبو سعيد (المريني) 50، 51، 52.
أبي البركات التدمسي 110، 113، 159،
أبي عبد الله 1، 83، 113، 124،
أبي عبد الله محمد الدرعي التمجروتي 253،
أبي نمي 185.

- ت -	ألفونسو هنريك 1، 22، 23،
تيريزا 22،	ألميدا 71، 72، 79.
- ث -	إليزابيث (الأولى) 144، 154، 159.
- ج -	إمانويل (الأول) 37، 49، 56، 58، 67، 70،
جاندر مانديفيل 44	71، 79.
جوان الثالث 96، 193،	أنطونيو دي كوريا 81،
جوان الثاني 65، 66	أنطونيو دي لوزيو 65
جون الأول 24، 25، 39،	الشاه طهماسب 231، 233،
جون الثاني 63،	النهروالي 194، 196، 197، 239.
جون بيدرو داكوفيلهام 66،	- ب -
- ح -	البابا أونست الثاني 23
حاجي موراتو 252،	بايزيد (الثاني) 168، 169، 229، 231،
حسن الكردي 901،	برثلميو دياز 63، 64، 65، 67،
الحسن الوزان 11، 12،	بهادر شاه 88، 195،
حسن بن خير الدين 142، 250، 251،	بيدرو داكوفيلهام 66
حسن فازيانو 260،	بيدرو دوم 44
- خ -	بيدرو دي مونتاريو 65
خير الدين (بربروس) 207.	بيري ريبس 10، 12، 13، 14، 32، 44، 198،
	200، 201، 202، 203، 204، 218، 229.

سواريز 81	- د -
سيد علي ريس 205، 206، 207،	درغوٹ باشا 244،
- ش -	دون خوان دا سيلفا 256، 267.
شارل الخامس 220، 233،	دون ديوارت 44
شريف الادريسي 46	دينيز 24
- ص -	- ز -
صالح رايس 246،	زيدان (بن الأعرج) 119.
- ط -	- س -
طومان باي 178، 179،	السامري 88،
الطيب رجب أردوغان 3	سانشو الثالث 23.
- ع -	سباستيان 140، 141، 143، 146، 147،
عبد الحق بن أبي سعيد (المريني) 52، 53،	149، 151، 152، 153، 212، 253، 255،
عبد العزيز بن موسى بن نصير 1،	256، 258، 259، 274.
عبد الكريم بن تودة 145، 259.	سليم الأول 162، 163، 164، 167، 168،
عبد الله الغالب (السعدي) 137، 139، 140،	170، 174، 176، 184، 193، 231.
141، 150، 152، 249، 250، 251، 252،	سليم الثاني 212، 231، 249، 252، 254
254.	سليمان الأول (القانوني) 7، 42، 172، 183،
علج علي 263، 264، 265، 266، 267.	184، 185، 192، 193، 203، 204، 205،
علي بك 10، 210، 213، 218، 219.	208، 210، 211، 212، 214، 215، 216،
	218، 219، 220، 221، 231،
	سنان (الباشا) 178، 261،

- غ -

غونزالفيس زاركو 61

غونشاليو بيريرا 24

- ف -

فاسكو دي غاما 46، 68، 69، 70.

فرانشيسكو دي بولوتي 44

فرديناند الثاني 23

فرناندو الأول 24، 25.

فيفالدي 1، 42.

فيليب الثاني 139، 146، 147، 150، 152،

153، 154، 158، 213، 252، 255، 256،

257، 267.

- ق -

قانسوه الغوري 89، 176، 177، 178.

القديس يوحنا 36، 65.

القشتالي عبد العزيز 11، 152، 158.

- ك -

كاربخال مارمول 12،

كارفالو (مؤرخ برتغالي) 38.

كلوديوس تولوميو 43.

- ل -

لوبي بارिका 127، 128، 129.

- م -

مالك بن داود 125.

مانويل باشانها 24.

المجهول 107، 120، 137، 139، 247، 251.

محمد الحران 119، 132، 245.

محمد الشيخ السعدي 111، 113، 115، 118،

119، 120، 121، 122، 126، 129، 131،

132، 139، 139، 141، 148، 244، 245،

246، 247، 248، 249، 250، 251، 255،

262، 274، 276.

محمد القائم بأمر الله 107، 111، 112، 113،

114، 118، 124، 125، 126، 159، 242.

محمد المتوكل 140، 148، 150، 152، 254،

259.

مراد الثالث 231، 233، 258، 262، 264.

مراد بك ريس 10، 191، 204، 205، 218.

المسعودي 45.

مقرن بن زامل 80، 81، 95.

مولاي عمر 246.

- ه -

هنري دي لورينا 22.

هيلان (ملكة الحبشة) 37.

- و -

الوطاسي أبو حسون 83، 120، 121، 134،
246، 248.

الوطاسي أبو زكرياء يحيى 54، 55.

الوطاسي محمد البرتغالي 82، 131.

الوفراني 11، 107، 110، 111، 116، 117،
122، 127، 149، 247، 253.

• فهرس الأماكن والقبائل

أ -

أزمور 56، 58، 59، 60، 82، 83، 101،

103، 106، 118، 129، 131، 133، 134،

135، 144، 242.

الأزور (جزر) 61، 225.

استانبول، اسطنبول 3، 172، 175، 180، 182،

200، 203، 205، 211، 254، 259، 264،

267.

الآستانة 205، 208، 211، 212.

آسفي 56، 57، 60، 101، 103، 114، 115،

118، 123، 129، 130، 131، 132، 133،

134، 144، 242.

اسكندرية 28، 88، 193، 228.

أصيلا 54، 55، 83، 255، 259، 268.

الأطلس (جبال، قبائل) 46 .

أكادير، (أغادير) 57، 58، 103، 113، 125،

129، 131، 132، 133، 135، 140، 242،

253.

أم الربيع (وادي) 55، 117.

الأناضول 2، 167، 170، 171، 172، 173،

155، 184، 233.

أنماي 116.

ب -

بادس (مدينة، حجرة) 103، 143، 145، 246،

249، 253، 254، 269.

البحر الأحمر 6، 28، 30، 37، 73، 74، 80،

94، 163، 164، 165، 168، 181، 183،

188، 191، 192، 193، 195، 204، 217،

219، 220، 228، 230، 257، 271، 272،

275.

البحر المتوسط، (البحر الأبيض المتوسط) 1، 3،

28، 30، 31، 47، 64، 80، 82، 90، 188،

207، 217، 219، 220، 221، 222، 225،

227، 230، 235، 250، 252.

بحر قزوين 29.

البريجة 137، 138، 253.

بغداد 28، 67، 92، 162، 165، 184، 185،

186، 190، 195، 210، 212، 236.

بلغراد 169، 221.

البندقية 28، 29، 30، 44، 168، 170، 193،

222، 227.

بنو جابر، الجبوريون (قبيلة) 76.

- ح -	بنو راشد 101.
حاحا 113، 125.	بنيون 248.
الحجاز 37، 90، 108، 164، 179، 180، 181، 201، 217.	بيت المقدس 37، 39، 89، 164.
حلب 175، 177، 178، 184، 196، 206.	- ت -
حلق الوادي 257.	تادلة 118.
- خ -	تارودانت (المحمية) 101، 114، 115، 125، 126، 127، 250، 251.
الخليج العربي 1، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 10، 12، 13، 15، 18، 27، 28، 49، 71، 73، 74، 77، 78، 80، 81، 82، 94، 95، 96، 139، 154، 155، 156، 162، 165، 167، 175، 181، 183، 184، 185، 187، 188، 190، 191، 192، 194، 198، 199، 200، 201، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 211، 214، 216، 217، 218، 220، 221، 223، 227، 228، 229، 230، 232، 235، 237، 239، 240، 257، 268، 271، 272، 273، 274، 275، 276.	تازة 246.
خورفكان 76، 77.	تافيلالت 101، 110، 118.
- د -	تاكدمارت 108، 111.
دبدو 101، 246.	تبوك 37، 164.
درعة 108، 110، 113، 115، 118، 125.	تطوان 101، 102، 122، 242.
	تلمسان 142، 144، 245، 248، 251، 252.
	تمبكتو 46.
	- ج -
	جدة 66، 90، 94، 164، 196، 197.
	جلفار 5، 156، 198.
	جنوة (الجنوبين) 1، 24، 29، 42، 193.

- ش -	درن (جبل) 143.
الشام 2، 14، 27، 28، 29، 91، 162، 170، 175، 176، 177، 180، 181، 183، 184، 214، 237، 275.	درنة (وادي) 120.
شفشاون 101، 122، 242.	دكالة 33، 83.
شمال افريقيا 1، 12، 32، 35، 85، 102، 103، 134، 247، 249، 257.	ديو (مكان معركة) 73، 79، 87، 88، 91، 162، 196، 197، 202.
- ص -	- ر -
صقلية 33.	الرأس الأخضر (سيراليون) 62.
صور 5.	رأس الرجاء الصالح 5، 26، 67، 231.
- ط -	رودس (جزيرة) 66، 80، 210، 222.
طليطلة 21، 103.	روما 22، 89.
طنجة 5، 102، 106، 134، 133، 148، 149، 158، 159، 253، 255، 260، 275.	- س -
- ع -	سانتاكروز 124، 131، 132، 133، 243.
العرائش 55، 59، 145، 147، 148، 149، 248، 255، 256، 257، 258، 260، 263، 264، 266، 267.	سجلماسة 120.
العقاب (معركة) 49.	سلا 59، 145، 260.
عيزاب 28.	سوس 57.
	سبته 3، 4، 32، 50، 61، 82، 102، 106، 133، 134، 135، 158، 260، 275.
	السويس 13، 28، 88، 89، 90، 181، 193، 194، 195، 196، 200، 202، 204، 205، 207، 208، 230، 275.

قلهات 74، 77، 94، 207.	- ف -
- ك -	فاس 46، 52، 53، 54، 55، 59، 60، 83،
الكناري (جزر) 61، 225.	100، 103، 107، 114، 115، 116، 117،
كيلوا 46.	119، 120، 121، 122، 123، 137، 143،
- ل -	150، 244، 245، 246، 247، 248، 250،
لشبونة 1، 24، 33، 47، 50، 60، 63، 64،	256، 257، 258، 266، 273.
67، 80، 84، 94، 119، 122، 134، 135،	فونتي 110.
137، 145، 148، 153، 189، 193، 202،	فيينا 169.
227، 248.	- ق -
- م -	القاهرة 13، 14، 15، 28، 30، 66، 67، 178،
ماسة 58، 130.	179، 182، 193، 203.
مرج دابق 91، 177، 217.	قريات 5، 75، 77.
المرسى الكبير 244.	القسطنطينية 29، 40، 51، 53، 143، 193،
المعمورة 50، 82، 103، 130، 134، 216.	194، 227، 249.
مكة 30، 37، 81، 90، 94، 164، 179،	القصر الصغير 5، 53، 55، 102، 134.
194.	القصر الكبير 53، 101، 122، 148، 149،
مليلة 103، 141، 146.	160.
المدينة المنورة 37، 109، 164.	القصير 28.
الملبار 221.	القطيف 77، 78، 93، 96، 165، 185، 190،
مقديشو 46.	191، 198، 204، 206، 210، 211، 237.
	قلمرية 24.

188، 189، 190، 191، 192، 200، 201،

202، 203، 204، 209، 211، 221، 227،

231، 237، 238، 271، 272، 273.

- و -

وادي اللبن 251.

وادي المخازن 142، 149، 151، 152، 153،

155، 156، 157، 159، 160، 240، 257،

260، 261، 267، 268، 274، 276.

وهران 244.

ممباسا 47.

ماديرا (جزيرة) 61.

مسقط 5، 10، 75، 76، 77، 189، 198،

201، 203، 205، 206، 207، 211، 213،

214، 218، 221، 237، 239.

ميلية 3، 4.

المحيط الأطلسي 1، 8، 47، 48، 82، 226،

256، 277.

المحيط الهندي 8، 11، 13، 56، 70، 73،

162، 165، 181، 182، 186، 187، 194،

195، 208، 217، 219، 220، 223، 225،

226، 227، 228، 230، 235، 238، 239،

257، 271.

مراكش 15، 46، 56، 58، 60، 101، 103،

114، 115، 116، 117، 118، 119، 120،

121، 130، 131، 139، 143، 144، 149،

253، 258.

- ه -

هرمز 44، 67، 73، 74، 76، 77، 78، 79،

80، 81، 92، 93، 94، 95، 96، 165، 186،

• فهرس الأمم والدول

أ -

إثيوبيا 36.

إسبانيا، الأسبان 1، 3، 4، 21، 31، 35، 47،
55، 58، 65، 102، 104، 106، 122، 134،
136، 141، 143، 144، 145، 146، 147،
150، 153، 154، 158، 213، 221، 243،
244، 263، 266، 267.

أمريكا 157، 271.

الأندلس 1، 2، 5، 21، 26، 34، 35، 40،
46، 50، 138، 222، 244، 256، 263،
266، 271.

الأوزبك 2، 166، 170.

الأيبيرون، أيبيريا (شبه جزيرة) 18، 19، 22،
32، 34، 35، 40، 55، 56، 102، 103،
104، 106، 109، 112، 122، 134، 145،
164، 179، 222، 239، 242، 244، 248،
249، 253، 255، 256، 260.

ب -

البحرين 3، 10، 77، 78، 79، 80، 81، 93،
94، 95، 96، 156، 166، 185، 202، 203،
206، 209، 210، 211، 212، 221، 232،
237.

البرازيل 271.

البرتغال، البرتغاليون 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8،
9، 10، 11، 12، 14، 15، 18، 19، 20،
21، 22، 23، 24، 25، 26، 30، 31، 32،
33، 34، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 43،
44، 45، 47، 48، 49، 50، 51، 52، 53،
54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62،
63، 65، 66، 69، 70، 71، 72، 73، 74،
75، 76، 77، 78، 79، 80، 81، 82، 83،
84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92،
93، 94، 95، 96، 97، 98، 100، 102،
103، 104، 105، 106، 110، 112، 113،
114، 115، 116، 117، 118، 119، 120،
122، 123، 124، 125، 126، 127، 128،
129، 130، 131، 132، 133، 134، 135،
136، 137، 138، 139، 140، 141، 142،
143، 144، 145، 146، 147، 148، 149،
150، 151، 152، 153، 154، 155، 156،
157، 158، 159، 160، 162، 163، 164،
173، 178، 179، 180، 181، 182، 183،
184، 185، 186، 187، 188، 189، 190،
191، 192، 193، 194، 195، 196، 197،
198، 199، 200، 201، 202، 203، 204،
205، 206، 207، 208، 209، 210، 211.

سوريا 3.

- ش -

الشرق الأقصى 27، 30، 40، 44، 66.

- ص -

الدولة الصفوية 2، 14، 92، 93، 94، 97،

164، 165، 166، 168، 169، 170، 172،

174، 175، 177، 182، 187، 210، 131،

232، 234، 273.

الصين 43، 46.

- ع -

الدولة العثمانية 2، 4، 5، 6، 7، 10، 11، 13،

14، 41، 72، 80، 94، 146، 155، 162،

163، 165، 166، 167، 168، 169، 170،

172، 175، 176، 179، 180، 182، 184،

185، 186، 188، 189، 190، 192، 194،

197، 198، 199، 204، 205، 208، 212،

214، 216، 217، 218، 220، 221، 222،

228، 229، 230، 234، 235، 236، 237،

238، 239، 240، 241، 246، 247، 249،

250، 251، 255، 257، 261، 262، 263،

264، 265، 267، 268، 269، 274، 275.

212، 213، 214، 216، 217، 218، 219،

221، 222، 223، 224، 225، 226، 227،

228، 229، 230، 231، 232، 234، 235،

237، 238، 239، 240، 241، 242، 243،

244، 245، 246، 248، 253، 255، 256،

257، 258، 259، 260، 261، 268، 269، ،

272، 273، 274، 275.

بنو مرين، المرينيون 49، 50، 51، 55، 100،

273.

بنو وطاس، الوطاسيون ، الدولة الوطاسية 2، 7،

49، 55، 82، 83، 84، 85، 97، 100، 101،

104، 109، 110، 114، 116، 118، 120،

131، 136، 273.

- ت -

تركيا 213، 265.

تونس 15، 104، 149، 254، 257،

- س -

الدولة السعدية 2، 4، 5، 6، 7، 9، 10، 11،

12، 14، 85، 99، 100، 107، 108، 112،

137، 140، 160، 214، 241، 242، 247،

248، 249، 250، 260، 262، 266، 268،

269، 274، 275.

السعودية 3، 14.

106، 105، 108، 109، 110، 113، 114،	العراق 3، 78، 80، 92، 162، 165، 166،
115، 117، 118، 119، 122، 123، 124،	170، 173، 174، 184، 185، 186، 187،
125، 126، 127، 128، 129، 130، 132،	227، 236، 240، 275.
133، 134، 135، 137، 138، 139، 139،	- ف -
141، 142، 143، 144، 145، 146، 147،	الفرس 92، 183، 185، 214.
148، 149، 150، 151، 152، 153، 154،	الفاتيكان 145.
155، 156، 157، 158، 159، 160، 216،	فرنسا 22، 31، 47، 145.
219، 234، 240، 241، 242، 243، 245،	- ق -
246، 247، 248، 249، 250، 251، 252،	قشتالة 21، 22، 23، 25، 38، 262.
253، 254، 255، 256، 25، 258، 259،	قطر 3، 202.
260، 261، 262، 263، 264، 265، 266،	- ك -
267، 268، 269، 271، 272، 273، 274،	الكونغو 63.
275، 276، 277.	- ل -
المغول، الدولة المغولية 2، 61، 78، 85، 86،	ليون (مملكة) 23.
87، 88، 97، 274.	- م -
المماليك 2، 11، 29، 30، 61، 67، 74، 79،	المجر 168، 169، 170، 221.
88، 89، 90، 168، 169، 170، 172، 175،	المغرب 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10،
176، 181، 182، 230، 232، 272، 274.	11، 12، 13، 14، 15، 18، 31، 32، 34،
الموحدون 49.	35، 36، 40، 47، 49، 50، 51، 52، 55،
- ن -	56، 59، 60، 61، 66، 72، 82، 83، 88،
النمسا 41، 221.	96، 99، 100، 101، 102، 103، 104،
- ه -	
الهابسبورغ 220.	

الهند 1، 2، 11، 12، 29، 30، 33، 38، 39،
48، 60، 61، 64، 65، 66، 67، 69، 71،
73، 78، 81، 85، 86، 89، 92، 93، 134،
164، 184، 187، 188، 189، 191، 192،
193، 194، 195، 196، 197، 207، 208،
211، 212، 217، 236، 239، 271، 273،
275.

هولندا 224.

- ي -

اليغارية 5، 8، 224، 240.

اليمن 181، 191، 192، 195، 196، 200،
213، 218، 235، 238، 239.

البيليو غرافيا

1. القرآن الكريم

2. المصادر

أ - العربية

1. ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي: درة الحجال في أسماء الرجال، تح محمد الأحمد أبو النور، ج1، القاهرة و تونس ، 1975.
2. ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح محمد مصطفى، ج4، ج5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984.
3. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، ط1، شركة الأرقم بن أبي الأرقم، (د. م. ط)، 1430هـ/2009م.
4. ابن جبير محمد ابن أحمد الأندلسي: رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، لبنان، مصر.
5. ابن عسكر محمد الحسني الشفشاوني: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب في القرن العاشر، تح محمد حجي، ط2، مطبوعات دار المغرب للتأليف، سلسلة التراجم 1، الرباط، 1970.
6. البكري محمد بن أبي السرور الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية و ذيله الطائف الربانية على المنح الرحمانية، تح ليلي الصباغ، ط1، دار البشائر للطباعة و النشر، دمشق، 1995م.
7. الحميري محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان بيروت، 1984م.
8. السبتي محمد بن القاسم: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح، عبد الوهاب بن منصور ط2، الرباط، 1983.
9. السيوطي جلال الدين أبي بكر ، تاريخ الخلفاء، تح وتق قاسم الرفاعي ومحمد العثماني،(دط)، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (دت).
10. الشرقاوي عبد الله: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك و السلاطين، تح رحاب عبد الحميد القاري، ط1، مكتبة المدبولي، القاهرة، 1996م.

11. الفاسي ابن أبي زرع علي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط1، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط المغرب، 1392هـ / 1972م.
 12. القرمانلي احمد بن يوسف: أخبار الدول و آثار الأول في التاريخ، تح احمد حطيط و فهمي سعد، مج3، ط1، دار الكتب، بيروت، 1992م.
 13. القشتالي عبد العزيز: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تح عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية و الثقافة، المغرب، (د ت).
 14. الكانوني العبدى محمد ابن احمد: علائق أسفي و منطقتها بملوك المغرب، تحقيق علال ركوك، الرحالي الرضواني، محمد الظريف، ط1، الرباط، (د ت ط).
 15. المجهول : تاريخ الدولة السعدية التاكدمارتية، تح عبد الرحيم بنحادة، ط1، دار تينمل للنشر و التوزيع، مراكش، 1994.
 16. المسعودي علي بن حسي: مروج الذهب و معادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5 ، ج1، دار الفكر، بيروت، 1973.
 17. المقري أبو العباس احمد ابن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، 1988.
 18. المليباري زين الدين احمد المعيري: تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، ط1، دائرة المعارف الهندية، المركز الثقافي العربي الهندي، بومباي، 1985.
 19. الناصري أبو العباس ، الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري، محمد الناصري ج4، ج5، الدار البيضاء، 1955.
 20. النهراولي قطب الدين محمد بن احمد : البرق اليماني في الفتح العثماني، ط1، منشورات دار اليمامة للبحث و الترجمة و النشر، الرياض، 1967م.
 21. الوفرائي محمد الصغير: نزله الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تق هوداس السيد، مطبعة بيردين، انجي، 1888م.
- ب -المعربة**
1. بولو ماركو: رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د . م . ط)، 1995.

2. خليفة حاجي: تحفة الكبار في أسفار البحار، تح وتر محمد حرب وتسليم حرب، ط1، دار البشير للثقافة و العلوم، 2017.
3. دي طوريس ديكو: تاريخ الشرفاء، تر محمد حجي، محمد الأخضر ، شركة النشر و التوزيع، الدار البيضاء،(د ت ط).
4. رئيس بيبي: كتاب البحرية، تر وتق محمد حرب، ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي 1433هـ/ 2012م.
5. كرخال مارمول: إفريقيا، تر محمد حجي وآخرون، ج2، دار المعرفة للنشر، الرباط، 1988 - 1989م.
6. الوزان الفاسي الحسن بن محمد: وصف إفريقيا، تر محمد حجي محمد الأخضر، ج1، ج2، ط2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1983.

3-المراجع

أ - العربية

1. أباطة فاروق عثمان: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994.
2. إبراهيم عيسى علي ومحمد الفتحي بكير محمد: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1994م.
3. أبو خليل شوقي: وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة - القصر الكبير، ط1، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق.
4. أبو عليّة الفتاح و إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ أوروبا الحديث و المعاصر، ط3، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993.
5. الأرقش دلندة ، بن طاهر جمال ، الأرقش عبد الحميد: المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، (د ط)، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، 2003.
6. الأعظمي علي ظريف: مختصر تاريخ البصرة، تق تح عزة رفعت، (د ط)، مكتبة الثقافة الدينية، (د م)، (د ت).

7. البطريق عبد الحميد وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت. ط.).
8. بن العربي الصديق ، كتاب المغرب، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.
9. بن تاويت محمد : تاريخ مدينة سبتة، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982.
10. بن خروف عمار: العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، ج2، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، د م، 2008.
11. بن خروف عمار: العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب الأقصى في القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006.
12. بوشرب احمد ، دكالة و الاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي و أزمو (قبل 28 غشت 1481_ أكتوبر1541م)، ط1، الدار البيضاء، 1984.
13. بوشرب احمد: في النهضة و التراكم دراسات في تاريخ المغرب و النهضة العربية، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب 1986م.
14. بوشرب احمد: مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر، ط1 منشورات كلية الآداب، الرباط، 1996م.
15. بوشرب احمد: وثائق و دراسات عن الغزو البرتغالي و نتائجه، ط1، دار الأمان ، الرباط، 1997م.
16. بيات فاضل: الدولة العثمانية في المجال العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربي، بيروت، 2007.
17. بيومي زكريا سليمان: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين التحالف الماسوني الاستعماري و ضرب الاتجاه الإسلامي، ط1، دار عالم المعرفة، جدة، (د ت).
18. التازي عبد الهادي: ابن ماجد والبرتغال، ط3، 2005.
19. التازي عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب الأقصى من أقدم العصور إلى اليوم عهد بني مرين و الوطاسيين مج 7، 1988.
20. التازي عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج 8، (د ط) (د ن)، 1988م.

21. التكريتي سليم طه: الصراع على الخليج العربي، السلسلة السياسية 12، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد، بغداد 1966م.
22. جمعة بديع و احمد الخولي، تاريخ الصفويون و حضارتهم، ط 1، دار الرائد العربي، القاهرة ، 1976.
23. الجميل سيار: تكوين العرب الحديث، ط1، دار الشروق ، عمان، 1997م.
24. الجوهري يسرى: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ط3، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1976.
25. حراز السيد رجب: عصر النهضة دراسة في الحضارة الأوروبية الحديثة، دار النهضة العربية، (د. م. ط).
26. حرب محمد: العثمانيون في التاريخ والحضارة، سلسلة دراسات عثمانية 1، المركز المصري للدراسات العثمانية و بحوث العالم التركي، القاهرة، 1994.
27. حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، مج 2 ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء (المغرب)، 1978.
28. حسن زكي محمد : الرحالة المسلمون في القرون الوسطى، ط1، دار أفاق للنشر و التوزيع، القاهرة، 2017.
29. حلمي محروس إسماعيل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام الوحدة الإفريقية، ج1، مؤسسة الشباب الجامعية، الإسكندرية، 2004.
30. حنظل فالح: العرب و البرتغال في التاريخ 711م إلى 1720 م، ط1، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1997، ص84.
31. الخطيب مصطفى عقيل: الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية و التطور السياسي، ط1، وزارة الثقافة و الفنون والتراث قطر، الدوحة، 2013.
32. خليجة أحمد نجم الدين: إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د. ت. ط).
33. خليل محمد محمود ، وثائق بحرية عن قبودان السويس و الدور العثماني في مواجهة البرتغاليين (الخليج العربي الجزيرة العربية ولاية الحبشة المحيط الهندي المغرب العربي) ج1، دط ، د ن، د ت.
34. داود محمد: مختصر تاريخ تطوان، ط2، مطبعة المهدية، تطوان، المغرب، 1955م
35. دراج محمد: الدخول العثماني إلى الجزائر و دور الإخوة بربروس 1512م 1543م، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2012.

36. درويش علي إبراهيم: السياسة و الدين في مرحلة تأسيس الدولة 1501 – 1676م، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013.
37. دويدار محمد: مبادئ الاقتصاد السياسي، ج1، (د ن)، الإسكندرية، 1993.
38. رزوق محمد: دراسات في تاريخ المغرب، ط1، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991م.
39. رضوان نبيل عبد الحي: جهود العثمانيين في الحد من التهديد البرتغالي للنشاط التجاري في الخليج العربي من خلال الوثائق العثمانية 945هـ / 1538م – 967هـ / 1559م ، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، (د.ت).
40. رمضان مصطفى محمد، العالم الإسلامي في التاريخ الحديث و المعاصر، ج 1، ط1، د ن، القاهرة، 1985م.
41. رياض زاهر: استعمار إفريقية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1384هـ/1965.
42. الزغبى موسى: البداية و النهاية نشأة القوى العظمى و انحطاطها، (د ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1991م.
43. الساداتي احمد محمود: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية و حضارتهم، ج2، ملتزم الطبع و النشر مكتبة الآداب و مطبعتها، إشراف وزارة التربية و التعليم، مصر، (د ت).
44. السائح حسن: الحضارة الإسلامية بالمغرب، ط2، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، 1986.
45. السلطان محمد حميد: الغزو البرتغالي للجنوب العربي و الخليج 1507_1525م، مركز زايد للتراث و التاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2000م.
46. سهرنك إسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار، ج2، ط1، المطبعة الأميرية بولاق، مصر، 1314هـ.
47. سهرنك إسماعيل: تاريخ الدولة العثمانية، تق حسن الزين، ط1، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988م.
48. سي يوسف محمد : أمير أمراء الجزائر علق علي باشا، (د ط)، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، (د م)، 2009.
49. السيد حسن جلال: فضل المسلمين في كشف الطريق البحري إلى الهند 1415 / 1498م، دار الوفاء، الإسكندرية، 2002.
50. السيد يوسف نصير: الكشف الجغرافية البرتغالية والإسبانية حول العالم بين الاستعمار والاستقلال، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2007.

51. شاكور محمود : الكشوف الجغرافية دوافعها - حقيقتها، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1988.
52. _____: موسوعة تاريخ الخليج العربي، ج1، (د ط)، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2003.
53. _____: التاريخ الإسلامي، ج8، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، 2000.
54. الشقيرات احمد صدقي علي: معجم شيوخ الإسلام في العهد العثماني 1425 1922م، مج 1، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2014.
55. الشناوي عبد العزيز: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، (د ط)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2013.
56. _____: أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج1، دار المعارف، مصر، 1969.
57. شهاب حسن صالح: احمد بن ماجد و الملاحة في المحيط الهندي، ط2، منشورات مركز الدراسات و الوثائق، الإمارات العربية، 2002م.
58. الشيال جمال الدين: تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001.
59. صالح رشدي: أسد البحار ابن ماجد، ط 1، دار القدس، بيروت، 1994.
60. الصباغ عباس إسماعيل: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية الحرب و السلام بين العثمانيين و الصفويين، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2011.
61. ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987/1992.
62. طريح شرف عبد العزيز: الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1993.
63. طقوش سهيل: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2، دار النفائس، لبنان بيروت.
64. _____: تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1148/907 هـ 1736/1501 م، ط1، دار النفائس، بيروت، 2009 م.
65. عاشور سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي في مصر و الشام، ط3، دار النهضة العربية، القاهرة، 1994.
66. عبد الونيس شتا و آخرون: العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، العصر العثماني من بداية القوة و الهيمنة إلى المسألة الشرقية، ج11، ط1، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.

67. عبوش احمد صالح: ماركو بولوو رحلته الشهيرة، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2017م.
68. عثمان شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، (41 - 904هـ/ 661 - 1498م) سلسلة عالم المعرفة، 1990.
69. عدنان محمد مراد: صراع القوى في المحيط الهندي و الخليج العربي جذوره التاريخية و أبعاده، ، دار دمشق، بيروت، 1984.
70. العربي إسماعيل: تاريخ الرحلة والاكتشاف في البر و البحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
71. عطا الله الجمل شوقي وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط2، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، 1422هـ/2002م.
72. عطا لله الجمل شوقي: المغرب العربي الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر ليبيا تونس الجزائر المغرب الأقصى (مراكش)، ط1، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، 2009.
73. العقاد صلاح: التيارات السياسية في الخليج العربي، ط1، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، 1974.
74. علي حمدي محمد: الاكتشافات الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، ط1، المطبعة الجمالية، القاهرة، 133هـ/1913م.
75. علي عامر محمود و محمد خير فارس: تاريخ المغرب العربي الحديث، " المغرب الأقصى - ليبيا"، (دط)، منشورات جامعة دمشق، (دت).
76. عمر عمر عبد العزيز: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992.
77. عوض عبد العزيز: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، ج1، ط1، دار الجيل، مكتبة الرائد العلمية، بيروت، عمان، 1991م.
78. العيدروس محمد حسن: التاريخ العسكري العثماني الثاني من 1512 إلى 1789 م، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2016.
- _____: دراسات في الخليج و الجزيرة العربية، ج1، ج2، (د ط)، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2009.
79. غرابيبة عبد الكريم محمود : تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، 1984.

80. غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288- = 1916م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007.
81. الغفار محمد عبد: الإستراتيجية الإقليمية و الدولية لأمن الخليج العربي، ط1، مركز البحرين للدراسات الإستراتيجية و الدولية و الطاقة، المنامة، 2012م.
82. الغنيمي عبد الفتاح مقلد : موسوعة تاريخ المغرب العربي بين بني وطاس و السعديين و ظهور الأشراف العلويين، مج 3، ج6، القاهرة، 1994م.
83. فريد بك محمد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981.
84. الفيلاي عبد الكريم: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج3، ط1، شركة ناس للطباعة، القاهرة، 2006.
85. القادري لطف الله ، الانجازات العالمية للعرب و المسلمين في القرون المتأخرة، دار الفيصل الثقافية، السعودية، 2006.
86. قاسم جمال زكريا: الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول، (د ط) دار الفكر العربي، القاهرة (د ت).
87. قلنجي قدري: الخليج العربي بحر الأساطير، ط3، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، بيروت، 1995م.
88. كريم عبد الكريم: تاريخ المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006.
89. الكندري فيصل عبد الله: الملاح والجغرافي بيري ريس ت 1554 ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت، 1999.
90. كوندز احمد أق ، أوزتوك سعيد: الدولة العثمانية المجهولة، 300 سؤالو جواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية، وقف البحوث العثمانية، استانبول، 2008
91. متولي احمد فؤاد: الفتح العثماني لمصر وبلاد الشام، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1995.
92. محمد دراج: الجزائر في المصادر العثمانية، ط1، دار الوراق للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2017م.

93. محمد محمد الأمين ، الرحماني محمد على: المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب الحديث،الدار البيضاء، (د ت).
94. محمود عبد الرحمان حسن: الإسلام و المسيحية في شرق إفريقيا من القرن 18الى القرن 20م، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011م.
95. المشرفي محمد بن محي الدين ، الجديد في تاريخ المغرب، دار الكتاب العلمي سلما، طنجة، المغرب، 1958.
96. مصطفى احمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1986م.
97. منصور تقيّة حنا: الأرمن والدولة العثمانية، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 2016م.
98. مهنا محمد نصر: الخليج العربي الحديث و المعاصر دراسة تاريخية تحليلية، (د ط)، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2008.
99. موسى عايدة: العبودية في إفريقيا، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009.
- 100.موسي فيصل محمد: موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، 1997.
101. مؤنس حسين: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط2، مطبعة حجازي، القاهرة، 1938.
102. الميداني عبد الرحمان حبنكة: أجنحة المكر الثلاث و خوافيها، التبشير الاستشراق الاستعمار، ط8، دار القلم، دمشق، 1460هـ / 1460م.
103. ميلاد المقرحي: تاريخ أوروبا الحديث1453-1848م، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1996.
104. النبراوي فتيحة، محمد نصر مهنا: الخليج العربي دراسات في تاريخ العلاقات الدولية و الإقليمية، (د ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د ت).
105. النشار محمد محمود: تأسيس مملكة البرتغال، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (د. م. ط)، 1995.
106. النظام زهراء: العلاقات المغربية الجزائرية مقارنة سياسية ثقافية خلال القرن 10هـ 16م، ط1، دار الأمان، الرباط، 2015.
107. نّوار عبد العزيز سليمان و جمال الدين محمود محمد: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مدينة النصر، 1419هـ / 1999م
108. نوار عبد العزيز سليمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د م)، (د ت) .

109. هريدي عبد اللطيف: الحروب العثمانية الفارسية و أثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا،
 110. هريدي فرغلي علي تسن: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر الكشف - الاستعمار - الاستقلال، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2008.
 111. ياغي احمد : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1416هـ.
 112. ياغي احمد: العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1997م.
 113. يحي جلال : تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999.
- ب - المعربة**
1. أصاف عزلتو يوسف : تاريخ سلاطين بنو عثمان منذ نشأتهم إلى الآن، تق محمد زينهم، محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
 2. ألتر عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر محمود على عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989.
 3. أوزبان صالح: الأتراك العثمانيون البرتغاليون في الخليج العربي 1534 1571م، ترجمة عبد الجبار ناجي، (د ط)، دار الرشاد، بغداد، (د ت).
 4. أوزتونا يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، ج1، تر عدنان محمود سليمان، ط1، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، استانبول، 1988.
 5. أوزتونا يلماز: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، تر عدنان محمود سلمان، مج1، ط1، الدار العربي للموسوعات، بيروت، 2010م.
 6. إينالبيك خليل: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر محمد م. الأرناؤوط، ط2، دار المدار الإسلامي، 2014.
 7. بيربي جان جاك: الخليج العربي، تر نجدة هاجر و سعيد الغز، ط1، المكتب التجاري للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، 1959.
 8. جريون س. وير: تاريخ جنوب إفريقيا، ترجمة بدر الرحمن عبد الله الشيخ، دار الشيخ، (د. م. ط)، (د. ت. ط).
 9. ديل شارل: البندقية جمهورية أرستقراطية، تر احمد عزت عبد الكريم و توفيق اسكندر، القاهرة، 1948م.

10. فرغسون نبال: الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق و الغرب، تر سعيد محمد الحسينية، ط2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2014.
11. فلهو ألفارو و سانتوس دوز: يوميات رحلة فاسكو دا جاما وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. م. ط)
12. فيج. جي. دي: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر ط1، دار المعارف، القاهرة، 1982.
13. قينياني جورجيو: تاريخ السفن، ترجمة أحمد الأورفلي، الناشر إديتريد، جينيف، 1976.
14. كام جوزفين: المستكشفون في إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، 1983
15. كندي بول: القوى العظمى التغيرات الاقتصادية و الصراع العسكري من 1500 إلى 2000، تر عبد الوهاب علوب، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، القاهرة، 1993.
16. لورمير جون. جورج: دليل الخليج العربي، القسم التاريخي، طبعة منقحة على نفقة أمير قطر، قطر، (دت).
17. لورمير جون. جورج: دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، ج3، طبعة منقحة على نفقة أمير قطر، قطر، (دت).
18. ماكيفيدي كولن: أطلس التاريخ الإفريقي ، ترجمة مختار السويقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د.ت.ط)، 1987.
19. المسيلم محمد سعيد: ساحل الذهب الأسود، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د ت).
20. مونتران روبير: تاريخ الدولة العثمانية، تر بشير السباعي، ج1، ط1، دار الفكر للنشر والدراسات و التوزيع، القاهرة.
21. نيقولايف إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، تر يوسف عطالله، تق مسعود ظاهر، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث، منشورات دار الفارابي، بيروت، 1988م.
22. هوارد. س: أشهر الرحلات في غرب إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م.ط)، 1996.
23. يرز دونالدو: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، (د. م. ط)، (د. ت. ط).

ت - المراجع الأجنبية

1. Charles E. Nowell : Histoire du Portugal, Paris, 1953,

2. Damiao de gois :**Les portugais au Maroc de 1495 a 1521 extraí de la chronique de roi d. manuel de Portugal**, tradiction francais par robert ricard, rabat .
3. Hammer Josef (de) : hisoire de l'empire de Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours (1574 1600), traduit de l'allemand par J. J. hellert, Impirmerie de renridupuy, t 7, édition paris, S P .
4. Hammer Josef (de) : histoire de l'empire de Ottoman depuis son origine jusqu' a nos jours, traduit de l'allemand par J.J.hallert, V4, Impirmerie de renridupuy, édition paris, S P .
5. J.N.L. Baker: A history of geographical and exploration, London, 1931, p64.
6. Robert Cornevin Histoire de l' Afrique des orgines aux XVI siècle, T1, Payot, Paris, 1967.

ث -المجلات والدوريات:

1. إبراهيم محمد كريم : " الجملة العثمانية على عدن سنة 945هـ / 1538م أسبابها و نتائجها"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مج4، ع 2، بابل(العراق)، (د ت).
2. الإبراهيمي محمد عبد الفتاح: " الحسن الوزان و كتابه وصف إفريقيا "، مجلة دعوة الحق، ع 2، السنة 23، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط (المغرب الأقصى)، جمادى الأولى 1402هـ/ ابريل 1982م.
3. أعراب سعيد: " موقعة واد المخازن و اندحار الصليبية بالمغرب "، مجلة دعوة الحق، العدد8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978م.
4. بن تاويت محمد: " وثيقتان هامتان عن معركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الرباط 1978م.
5. بن عبد الله عبد العزيز: " انتصار المغرب في واد المخازن أنقذه من حرب صليبية عارمة"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978.

6. التازي عبد الهادي: " وقعة واد المخازن بدون رقابة"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978.
7. الجراري عبد الله: " وقعة واد المخازن 986 هـ 1578م"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978.
8. حجي محمد: " المغرب في عهد السعديين" مجلة دعوة الحق، العدد 5 السنة 21، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المملكة المغربية، الرباط، 1400هـ / 1980م.
9. حركات إبراهيم : " احمد المنصور الذهبي كرجل دولة " ، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1978م.
10. حمداني عباس: مقال "رد العثمانيين على اكتشاف أمريكا و الطريق الجديد إلى الهند"، مجلة الفسطاط، عدد 7، 2006.
11. الخطيب عبد اللطيف: "سبته في تاريخ المغرب القديم و الحديث"، مجلة دعوة الحق، ع5، السنة الثالثة، وزارة الأوقاف و لشؤون الإسلامية، الرباط، رجب 1379هـ / 1960م.
12. دحدح عبد الحفيظ: " الصدام العثماني الصفوي في تشاليدران (الآثار والدوافع)"، دورية كان التاريخية، العدد 25، الكويت، 2014.
13. رمضان محمد صالح: "الاستكشافات الجغرافية لإفريقيا"، مجلة المؤرخ العربي، العدد 31، بغداد، 1407هـ / 1987م.
14. طحطح خالد فؤاد: العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث (القرن السادس عشر و بداية القرن السابع عشر)، دورية كان التاريخية، العدد 14، ديسمبر 2011.
15. عامر محمود: المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، ع 117، 118، جانفي، جوان 2012م، قسم التاريخ جامعة دمشق.
16. عبد القادر العافية: " الاحتلال البرتغالي و معركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، 1978.
17. العصر الحديث"، مجلة كلية التربية واسط، ع12، جامعة واسط، محافظة واسط، العراق، (د ت).
18. العمراني عبد الله ، " السيباستيانية موطننا ومذهبنا "، مجلة دعوة الحق المغربية، ع 8، السنة 19، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1978، ص ص 41، 42.

19. الفاسي محمد: "احتلال البرتغاليين للشغور المغربية الذي أدى إلى موقعة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978 م.
20. قاسم زهير محمد: "الثورات الخليجية ضد الاحتلال البرتغالي في النصف الأول من القرن السادس عشر"، مجلة سر من رأى ، مج 4، ع 9، السنة الرابعة، فيفري 2008.
21. كانون عبد الله: "حول وقعة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978.
22. المشهداني ياسر عبد الجواد: "النفوذ البرتغالي و أثره على الهند الإسلامية، (904 - 920هـ / 1498 - 1514م)"، مجلة التربية و العلم، مج14، ع 2، الموصل، 2007م
23. المنوني محمد: "وثيقتان جديدتان عن ذيول معركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، ع 8، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978.
24. الوزاني عبد العلي: "من خلفيات معركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، العدد8، العدد 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، الرباط، 1978.
25. الياسري فاهم نعمة ، عجه حسنين عبد الكاظم : "الإسهامات السياسية لمتصوفة المغرب الأقصى في
26. يوسف الهام، علي صقر ولاء: "الاحتلال البرتغالي لسواحل المغرب 818 - 996هـ / 1415-1587م"، مجلة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات العلمية، العدد 5، مج 39، الأردن، 2017.
27. Robert ricord, « Les portugais au maroc »,Document générie n56,le 17-3-2016,juillet 1973 .

ج - الرسائل الجامعية

1. بن مصطفى دريس: العلاقات السياسية و الاقتصادية لدول المغرب مع دول جنوب غربي أوروبا في الفترة 13-16م، رسالة دكتوراه تلمسان، جامعة أبي بكر بلقايد، 2013-2014م
2. خوري إبراهيم: "توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي و نتائجها الاقتصادية في الحقبة البرتغالية"، ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية 19_ 21 نوفمبر 1988م، الصلات التاريخية بين الخليج العربي و الدولة العثمانية، ط1، مركز الدراسات و الوثائق، الإمارات، 2001.
3. رمزي احمد " المغرب يحتفل بالذكرى الأربعمئة لمعركة واد المخازن"، مجلة دعوة الحق، ع 8، السنة 19، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 1978.

4. طيبي مهدية: مقارنة للوضع الاجتماعي والاقتصادي لأهل الأندلس بمدينة الجزائر من خلال المحاكم الشرعية، القرن 17. 18م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، السنة الجامعية 2008-2009.
5. هقاري محمد: دور المستكشفين الأوروبيين في اكتشاف داخل القارة الإفريقية (خلال 1795-1850م) منقو بارك - زونيه كابيه - هنري بارت نموذجاً، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008/2009.
6. الهنداوي هنادي زعل مسعود: السلطان قانصوه الغوري و نهاية دولة المماليك 906 - 923هـ/ 1500 - 1517م، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك كلية الآداب قسم التاريخ، 2002م.
7. Salman Mohamed Hameed: **Aspect of portugûes rule in the arabien gulf (1521-1622)**, being a thesis submited for degree of phylosophy in the université of hull, december 2004 .

ح- المقالات التاريخية

1. التازي عبد الهادي: " الصلات التاريخية بين المغرب و عمان"، حصاد ندوة الدراسات العمانية نوفمبر 1980م، مج3، ط2، وزارة التراث القومي و الثقافة، عمان، 1986م.
2. الحاج علاوي نسيبة عبد عبد العزيز ، " البحار العثماني محي الدين بيبي رايس حياته و جهاده البحري 1465 - 1554"، مجلة التربية و العلم، ع 4، جامعة الموصل، 2009م.
3. سخيني عصام: " شهادات على التقدم والازدهار"، ندوة كتابات الرحالة و المبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور عرض - نقد - تحليل، مركز جمعية الماجد للثقافة و التراث دبي، جامعة الإمارات العربية المتحدة العين، المجمع الثقافي أبو ظبي، دبي الإمارات العربية المتحدة، 7 - 10 أفريل 1996م.
4. شهاب حسن صالح: حسن صالح شهاب: " البحرية العثمانية و مهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر و الخليج العربي"، ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية، 10_ 12 ربيع الثاني 1409 هـ 19_ 21 نوفمبر 1988م، سلسلة الندوات التاريخية، ط1، الإمارات العربية، 2001.
5. العقاد صلاح: " دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي دراسة مقارنة"، حصاد ندوة الدراسات العمانية، مج4، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ذو الحجة 1400 هـ/ نوفمبر 1980م.

خ- الموسوعات والمعاجم

1. إبراهيم مدكور و آخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ط1، شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت، 2010.
2. براوز بولس و آخرون، المنجد في الإعلام، ط19، دار المشرق، بيروت، 1992م.
3. الحموي ياقوت: معجم البلدان، مج1، مج2، مج5، دار صادر، بيروت، 1977.
4. الخطيب مصطفى عبد الكريم: معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ / 1992م.
5. الخوند مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج1، ج5، (د ط)، دار رواد النهضة، لبنان، (د ت).
6. صابان سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000 م.
7. صالح زهر الدين: موسوعة معارك العرب من الفتح العربي حتى 1968، تق مصطفى طلاس، ط1، دار الندوة الجديدة ، بيروت، 2000.
8. كانون عبد الله: موسوعة مشاهير المغرب، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1994.
9. الكيالي عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ج4، ج7، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د.ت.ط).
10. مجموعة مؤلفين: المنجد في اللغة والأعلام، مج1، ط29، دار المشرق، بيروت، 2008م.
11. ناهض نيقولا: الموسوعة العربية عالمية مصورة بالألوان، مج12، مؤسسة خليفة للطباعة، قبرص، 1998.

د- المواقع الالكترونية:

sport-histoire.fr

1. http://www.sport-histoire.fr/Histoire/Liste_des_rois_de_Portugal.php

فهرس المحتويات

الصفحة	العناوين
1	مقدمة.....
17	الفصل الأول: البرتغاليون في المغرب و الخليج وردود الفعل الأولية لدى القوى المعنية:.....
18	المبحث الأول: دوافع الاحتلال البرتغالي للمنطقة العربية تحت غطاء الكشف الجغرافي:
19	المطلب الأول الدوافع السياسية (الوحدة القومية).....
26	المطلب الثاني الدوافع الاقتصادية:.....
27	1- الأطماع البرتغالية في المشرق:.....
27	1.1 الحاجة إلى المنتجات.....
27	1.2 القضاء على الوساطة الإسلامية و الإيطالية.....
31	2- الأطماع البرتغالية في المغرب.....
31	2.1 الحاجة إلى القمح:.....
32	2.2 الحاجة إلى الذهب والمعادن:.....
34	2.3 الحاجة إلى اليد العاملة (العبيد).....
34	المطلب الثالث الدوافع الدينية الانتقامية.....
35	1.الروح الصليبية الاستعمارية:.....
38	2. دور البابوية.....
40	3 سقوط القسطنطينية:.....
41	المطلب الرابع الدوافع العلمية.....
47	المطلب الخامس الدوافع الجغرافية.....
49	المبحث الثاني: الحملات العسكرية البرتغالية على المغرب الأقصى والخليج العربي و موقف القوى المعنية.....
49	المطلب الأول الحملات العسكرية البرتغالية على الثغور المغربية.....
50	1- المرحلة الأولى: (818 - 891هـ / 1415 - 1486م).....
50	1.1 احتلال سبتة.....
53	1.2 احتلال القصر الصغير.....
54	1.3 احتلال أنفا.....
54	1.4 احتلال أصيلا.....
55	1.5 احتلال طنجه.....

55	2- المرحلة الثانية:(891 - 921هـ / 1486 - 1515م).....
56	2. 1 احتلال آسفي.....
58	2. 2 احتلال أغادير.....
58	2. 3 احتلال ماسة.....
58	2. 4 احتلال آزمور.....
60	المطلب الثاني الاستكشافات البرتغالية التدريجية وصولاً إلى الهند.....
61	1 الاكتشافات البرتغالية للساحل الغربي في إفريقيا (1415-1462م).....
62	2 اكتشاف جنوب القارة (ساحل الذهب ورأس الرجاء الصالح) (1469-1488م)...
65	3 الكشوفات و البعثات البرتغالية السرية التجسسية.....
67	4 اكتشاف الساحل الشرقي لإفريقيا و الوصول إلى الهند(1497-1515).....
71	المطلب الثالث الحملات العسكرية البرتغالية على الخليج العربي.....
71	1- التوجه البرتغالي إلى المياه العربية.....
74	2- احتلال ساحل عمان.....
74	2. 1 قلعات.....
75	2. 2 قريات.....
75	2. 3 مسقط.....
76	2. 4 صحار.....
77	2. 5 خورفكان.....
77	3- احتلال هرمز.....
80	4- احتلال البحرين.....
82	المطلب الرابع: موقف القوى المعنية من الاحتلال البرتغالي للمغرب والخليج العربي...
82	1- موقف الدولة الوطاسية من الاحتلال البرتغالي.....
85	2- موقف القوى الهندية من التحرشات البرتغالية بأراضيها.....
85	2. 1 موقف دولة المغول.....
88	2. 2 موقف الإمارات الهندية المستقلة.....
88	3- موقف المماليك من ظهور البرتغال في المياه الشرقية.....
	4- موقف الدولة الصفوية من الاحتلال البرتغالي للخليج العربي: (الاتفاق الصفوي
91	البرتغالي).....
94	5- المقاومة المحلية في الخليج العربي ومعاهدة ميناب :.....

	الفصل الثاني: الدولة السعدية و جهودها ضد الاحتلال البرتغالي في المغرب
98	الأقصى خلال القرن 16م.....
100	المبحث الأول ظهور الدولة السعدية على المسرح السياسي.....
100	المطلب الأول الظروف العامة للمغرب الأقصى قبيل ظهور السعديين.....
100	1- الوضع السياسي.....
100	1. 1 ضعف السلطة و نفكك البلاد.....
102	1. 2 الغزو الأيبيري (الاسباني و البرتغالي).....
104	1. 3 الخطر العثماني.....
105	2 الوضع الاقتصادي.....
105	2. 1 التجارة.....
106	2. 2 الفلاحة.....
106	2. 3 الصناعة.....
107	المطلب الثاني أصل السعديين.....
109	المطلب الثالث بداية الدعوة السعدية.....
114	المطلب الرابع الصدام السعدي الوطاسي و تقسيم المغرب.....
118	المطلب الخامس: صراع الإخوة (احمد الأعرج و محمد الشيخ).....
119	المطلب السادس القضاء الثاني و النهائي على الوطاسيين
123	المبحث الثاني: الصراع السعدي البرتغالي بالمغرب الأقصى في القرن 16.....
	المطلب الأول: جهود القائم بأمر الله ضد الاحتلال البرتغالي (915- 923هـ / 1510- 1517م).....
124	1 معارك منفصلة.....
126	2 معركة تيدنست.....
127	المطلب الثاني: جهود احمد الأعرج ضد البرتغاليين (923_ 946هـ / 1517_1550م)
127	1- الانتصار على القائد البرتغالي لوبي بارىكا.....
128	2- الانتصار على القائد البرتغالي نونيو دي أطايدى.....
129	3- القضاء على العميل يحيى بن تغفو فت.....
	4- موقف المولى أحمد الأعرج من الصراع الوطاسي البرتغالي و بروز الهدنة السعدية
130	البرتغالية
	المطلب الثالث: جهود محمد الشيخ السعدي المهدي (946_ 964هـ / 1539_1556م)
131	تحرير أغادير).....

133	المطلب الرابع: عملية الإخلاء البرتغالية من المدن المغربية و ردود الفعل عليها.....
133	1- عمليات الإخلاء البرتغالية من المدن المغربية.....
135	2- ردود الفعل على عملية الإخلاء.....
137	المطلب الخامس: محمد عبد الله الغالب بالله وجهوده ضد البرتغاليين (1557-1574م).
140	المطلب السادس: محمد المتوكل وجهوده ضد البرتغاليين (1574-1576م).....
142	المطلب السابع: عبد الملك وجهوده ضد الاحتلال البرتغالي (موقعة واد المخازن).....
142	1- الظروف العامة للمعركة.....
142	1. 1- الصراع على الحكم بين المتوكل و عبد الملك.....
143	1. 2- ضعف البرتغال زمن الملك جيان الثالث (1531 - 1557م).....
144	1. 3- التقارب الانجليزي المغربي زمن عبد الملك.....
145	1. 4- استتجاد المتوكل بالملك البرتغالي.....
146	1. 5- التحالف الاسباني البرتغالي بين فيليب و سباستيان.....
147	2- مقدمات المعركة.....
148	3- أحداث المعركة.....
153	4- نتائج معركة الملوك الثلاثة.....
153	4. 1- على البرتغال.....
155	4. 2- على العالم الإسلامي.....
156	4. 3- على المغرب.....
158	المطلب الثامن: احمد المنصور و جهوده ضد البرتغاليين.....
	الفصل الثالث: الدولة العثمانية و التصدي للاحتلال البرتغالي بمنطقة الخليج العربي
161	خلال القرن 16م.....
163	المبحث الأول: التوسع العثماني في المشرق العربي وصولا إلى الخليج العربي.....
163	المطلب الأول: أسباب التوجه العثماني إلى المشرق العربي.....
163	1- الخطر البرتغالي.....
165	2- المد الصفوي الشيعي على حدود الدولة العثمانية.....
168	3- نظرية التشبع العثماني.....
169	المطلب الثاني: القضاء على الصفويين (معركة تشاليدران).....
170	1- مقدمات المعركة.....
171	2- أحداث المعركة.....
172	3- نتائج المعركة.....

173	4- الأحداث بعد المعركة.....
175	المطلب الثالث: القضاء على المماليك.....
175	1- مقدمات الصراع.....
177	2- معركة برج دابق.....
178	3- الصدام العثماني المملوكي في الريدانية بمصر.....
	المطلب الرابع: انتقال الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين (923هـ/1517م) و موقف
179	سليم من الوجود البرتغالي.....
179	1- انضمام الحجاز و انتقال الخلافة إلى العثمانيين.....
181	2- موقف السلطان سليم من الأطماع البرتغالية.....
	المطلب الخامس: التوسع العثماني في العراق و أهمية البصرة الإستراتيجية في الخليج
183	العربي.....
183	1- الحملة على العراق.....
187	2- أهمية البصرة كمحطة عثمانية في الخليج.....
190	المطلب السادس: الدولة العثمانية في القطيف و الإحساء 1550.....
	المبحث الثاني: البحرية العثمانية و مشروع التصدي للاحتلال البرتغالي في الخليج
192	العربي.....
192	المطلب الأول: الاستعدادات العثمانية للتصدي للبرتغاليين.....
194	المطلب الثاني: حملة سليمان باشا الخادم.....
198	المطلب الثالث: حملة بييري رايس.....
200	1- حصار مسقط.....
201	2- حصار هرمز.....
204	المطلب الرابع: حملة الرئيس مراد بك 1553.....
205	المطلب الخامس: حملة سيد علي ريس في الخليج العربي.....
209	المطلب السادس: هجوم والي الإحساء العثماني مصطفى باشا على البحرين.....
211	المطلب السابع: فترة الهدوء (1560 - 1581).....
212	المطلب الثامن: حملة علي بيك على مسقط 1581.....
215	الفصل الرابع: تحليل جهود القوتين السعدية و العثمانية ضد الاحتلال البرتغالي.....
216	المبحث الأول: أسباب الإخفاق العثماني في احتواء الخطر البرتغالي بمنطقة الخليج...
217	المطلب الأول: التقصير العثماني البحري في الخليج العربي.....
219	المطلب الثاني: الحروب العثمانية الأوربية.....

222	المطلب الثالث: طبيعة الحملات و تباين مفهوم الدفاع.....
224	المطلب الرابع: التفوق البرتغالي في السفن الحربية.....
228	المطلب الخامس: التفوق البرتغالي القيادي العسكري.....
230	المطلب السادس: الإمداد و التجهيز.....
231	المطلب السابع: الصراع الفارسي العثماني.....
235	المطلب الثامن: غياب التنسيق بين القوى المحلية و الدولة العثمانية
236	1- قبائل الخليج.....
238	2- القوى اليمنية و الهندية.....
238	2. 1- القوى اليمنية.....
239	2. 2- القوى الهندية.....
	المبحث الثاني: أثر العلاقات السعدية العثمانية على سير الجهاد السعدي ضد
241	الاحتلال البرتغالي بالمغرب
242	المطلب الأول: العلاقات العثمانية السعدية زمن احمد الأعرج.....
244	المطلب الثاني: العلاقات العثمانية السعدية في عهد محمد الشيخ السعدي
250	المطلب الثالث: العلاقات السعدية العثمانية في عهد عبد الله الغالب.....
254	المطلب الرابع: العلاقات العثمانية السعدية في عهد محمد المتوكل.....
257	المطلب الخامس: العلاقات السعدية العثمانية في عهد أبو مروان عبد الملك.....
261	المطلب السادس: العلاقات السعدية العثمانية في عهد احمد المنصور
270	الخاتمة.....
278	الملاحق.....
311	فهارس عامة.....
327	قائمة المصادر والمراجع.....
345	فهرس المحتويات.....

University of Algiers 02- Abu El Kassem Saadallah
Faculty of human sciences/ Bouzareah

Department of History

**The position of the Islamic political
forces from the Portuguese
occupation of the Far East and the
Arabian Gulf in the 16th century.**

The Saadian state and the Ottoman state are a model.

Magister Thesis Submitted in modern history.

Committee:

Pr. Mokhtar HASSANI president

Pr. Brahim SAYOUD supervisor and reporter

Dr. Roukaya CHAREF membre

Dr. Wahiba GATTOUCHE membre

Submitted by:

Abdelkarim SEKKAL

supervised by:

Pr. Brahim SAYOUD

(2018 – 2019)

University of Algiers 02- Abu El Kassem Saadallah
Faculty of human sciences/ Bouzareah

Department of History

**The position of the Islamic political
forces from the Portuguese
occupation of the Far East and the
Arabian Gulf in the 16th century.**

The Saadian state and the Ottoman state are a model.

Magister Thesis Submitted in modern history.

Submitted by:

Abdelkarim SEKKAL

supervised by:

Pr. Brahim SAYOUD

(2018 – 2019)

The Abstract

The subject of the study: The position of the Islamic political forces from the Portuguese occupation of the Far East and the Arabian Gulf in the 16th century. The Saadian state and the Ottoman state are a model.

Objective of the study: To highlight the jihadist role played by the two Islamic forces in order to break the Portuguese ring on the Arab region in the Gulf and the ocean, and then search for any cooperation between the two forces in order to uproot the first colonization in the Islamic land.

Introduction: The importance of the subject , the reasons for its selection and the most important sources of research and references.

Chapter 1: Under the title of the Portuguese military campaigns on the Maghreb and the Arabian Gulf and the reactions of the concerned forces, I exposed the motives of the Portuguese expansionist policy, the most important military campaigns and the reaction of the great powers in Morocco and the orient (The watasside state , the indian forces, the mamluks and the safawite state) to that attack from political or military point of view.

Chapter II: The of Saadian State and its efforts against the Portuguese occupation, I threw light on the emergence of this country in the Far Maghreb and its unification, and its military position concerning the Portuguese occupation.

Chapter III: The Ottoman Empire and its efforts against the Portuguese occupation in the Arabian Gulf, I explained how the Ottoman Empire moved towards the Islamic Orient and then the most important campaigns sent to the Arabian Gulf in the second half of the 16th century.

Chapter IV: It is an analysis of the two forces efforts against the Portuguese occupation by touching on the causes of the Ottoman failure, and the impact of political relations between Morocco and the Ottoman Empire on the course of the Saadian State Djihad against the Portuguese and finally, the search in the presence of any cooperation between them.

God Grants Success.

The researcher: A.Karim SEKKAL